
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إيـــان ألمـــونـــد
IAN ALMOND

ديانتان تحت راية واحدة

TWO FAITHS, ONE BANNER

حين قاتل المسلمون مع المسيحيين في معارك أوروبا



ديانتان
تحت راية واحدة
Two Faiths, One Banner

إيان ألموند هو أستاذ مشارك في الأدب ما بعد
الاستعماري في جامعة ولاية جورجيا، أتلانتا.
وهو مؤلّف كتابين سابقين هما:
Sufism and Deconstruction (2004)
The New Orientalists، الذي نشر في عام 2007
من قبل *I.B.Tauris*.

ديانتان تحت راية واحدة

Two Faiths, One Banner

حين قاتل المسلمون مع المسيحيين في معارك أوروبا

إيان ألموند
IAN ALMOND

ترجمة
زينة إدريس

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Two Faiths, One Banner
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
I. B. TAURIS & Co. Ltd.
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

2014 م - 1435 هـ

ردمك 978-614-01-1334-3

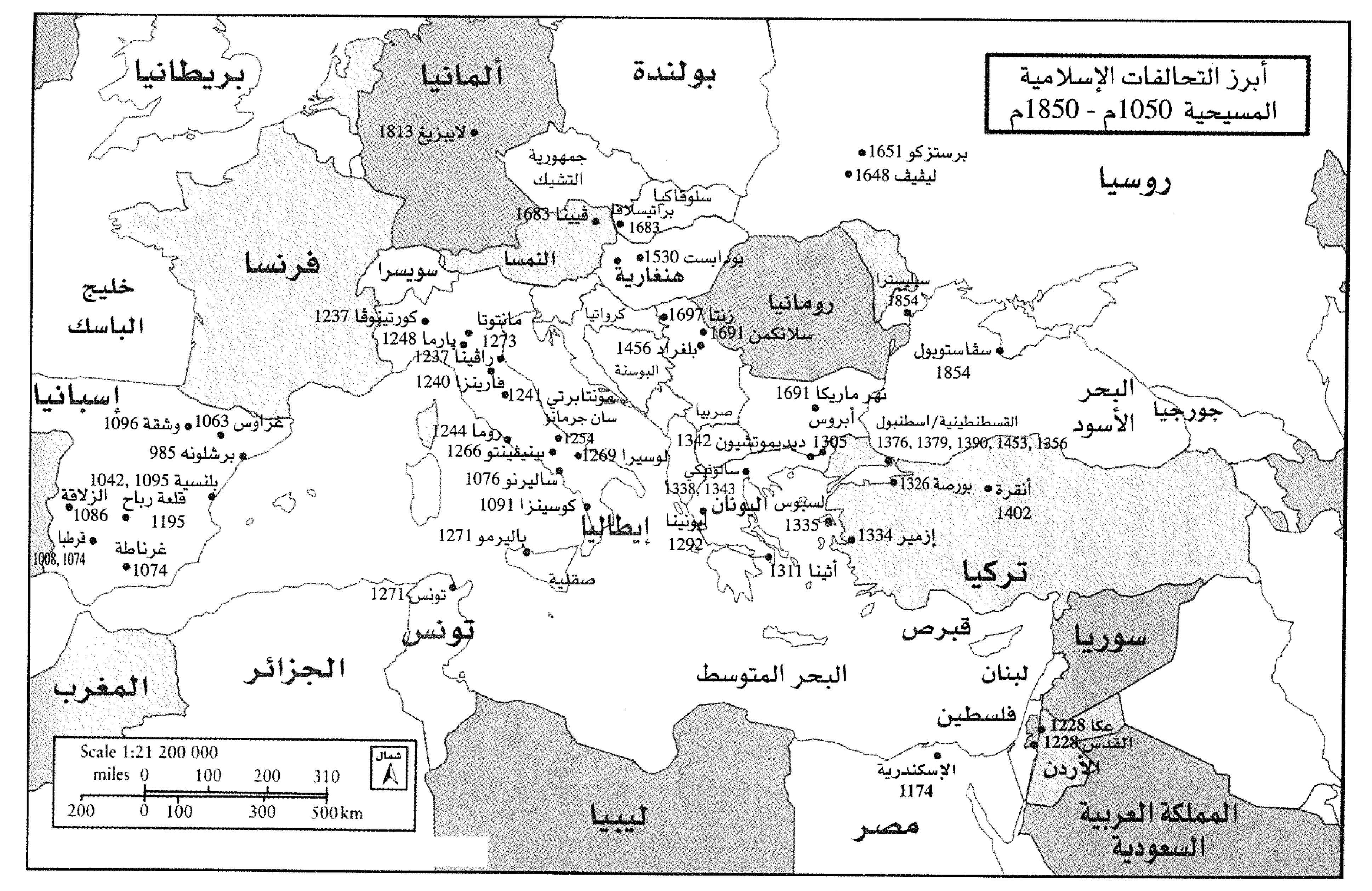
الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لوحة: **Battle of Vienna - Juliusz Kossak**
تصميم الغلاف: **سامح خلف**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

لقد بذلت كلّ الجهود للاتّصال بأصحاب الأذونات ذوي الصلة من أجل الحصول على حقّ إعادة نشر الإيضاحات في هذا الكتاب. وسيتم تصحيح أيّ سهو في هذا الصدد في الطبعات المستقبلية.



أبرز الأحلاف الإسلامية والمسيحية، 1050–1850 م

مُقَـدِّمَـة

يعتبر هذا الكتاب بدائياً نوعاً ما. فهو يملك هدفاً صريحاً ومباشـراً، ألا وهو سـرد فترات مختارة من التاريخ الأوروبي قام فيها المسـلمون والمسـيحيون، في قلب بلدان مثل إسبانيا، وإيطاليا، واليونان، والمجر، بالتعاون مع بعضهم البعض وخوض حروب ضـدّ عدوّ واحـد، غالباً مـا كان مؤلّفاً من مسـلمين ومسـيحيين على حدّ سـواء. ليس للكتـاب حقّاً غرض أبعـد من ذلك. فهـو لا يتضمّن لمحة عامّـة مثلاً عـن العلاقـات الإسـلامية المسـيحية منذ عـام 1100، ولا هـو يعطي تحليلاً معمّقاً للتبـادل الثقافي بين الإسـلام والمسـيحية. كما أنّه لا يقـدّم أفكاراً فلسـفية عميقة وثمينـة تعلّم الكائنـات البشـرية المحبّـة والتسـامح، ولا لحظات مؤثّرة من المثالية عن إنسانيّتنا المشـتركة التي يمكنها أن تتجاوز كلّ الانقسامات السياسـية، والاجتماعية، والدينية، إلخ، إلخ. لهذا الكتاب هدف المتواضع جدّاً ألا وهو الإثبـات أنّ المسـلمين لا ينتمون إلى حضـارة «أخرى»، بـل إلى جوهر حقبة من «أوروبا» نحن على وشك نسيانها.

فـي الواقـع، بينما نقـوم بتجاهـل الـدور الـذي أدّاه المسـلمون واليهود في الإرث الأوروبـي – بالكاد يذكر الخطـاب العامّ اليوم سـبعمائة عـام من الوجود الإسـلامي فـي إسـبانيا، وصقليـة، والبلقـان خـارج بعـض الملصقات السـياحية لغرناطة – نحـاول هنا أن نُظهـر العلاقة القويّـة التي تربط تاريخ الإسـلام بتاريخ أوروبا. ويشـرح هذا الهدف الخيط الاسـتحواذي بعض الشـيء الـذي يربط بين الكتاب والسـنوات الثمانمائة التي يتناولهـا: في عصر إعلامي مهـووس بالصراع الإسلامي المسـيحي، قرّرتُ ببسـاطة أن أقلب النموذج السـائد رأساً على عقب، وأن أركّز على الوحـدة والتعـاون عوضاً عن الخلاف والانقسـام. لهذا السـبب، أعود من وقـت إلى آخر إلى ظاهرة واسـعة الانتشـار غيـر أنّها مهمَلـة على نحو

محزن، ألا وهي التحالفات العسكرية بين المسلمين والمسيحيين: آلاف العرب الذين حاربوا لصالح أباطرة مسيحيين في العصور الوسطى خارج أسوار ميلانو وبولونيا، والقشتاليون والكاتالانيون الذين تحالفوا بانتظام مع المسلمين في حروبهم ضدّ جيرانهم المسيحيين، والتعاون الهائل اليوناني التركي في القرن الأخير من عهد الإمبراطورية البيزنطية، هذا فضلاً عن العدد الهائل أيضاً من الجنود المسيحيين في الجيوش العثمانية التي احتلّت البلقان، وعشرات آلاف الهنغاريين البروتستانت، ناهيك عن الفلّاحين المجريين الساخطين، الذين التحقوا بصفوف الجيوش التركية الزاحفة إلى فيينّا.

فانتازيا أوروبا

في عصرنا، أصبحت كلمتا «الإسلام» و«أوروبا» أشبه بالزيت والماء. نتنقّل اليوم، كأوروبيين صالحين، في وسط مدننا، تحيط بنا أبراج الكنائس وواجهات الكاتدرائيات. ندخل إلى المتاحف والصالات، لتأمّل صور لا تعدّ ولا تحصى للأمّ والطفل نفسيهما، اللذين أعيد نسخهما عبر العصور على يد ما يقارب مائة فنّان عبقري. وتنبع تقاليدنا الكلاسيكية الموسيقية من تبجيلنا لهاتين الشخصيّتين نفسيهما، حتّى في ثورتها عليه. حتّى أسماء أولادنا، وأعيادنا، وضواحي مدننا وأحياؤها حملت أسماء أتباع وحواريّي النجّار الفلسطيني الذي عاش في القرن الأوّل، والذي سيطرت ذكراه وتعاليمه على مسار قارّتنا الشمالية الصغيرة. بتعبير آخر، تحيط بنا التقاليد المسيحية، وتؤثّر قيمها على نظرتنا للعالم، حتّى في لحظات حياتنا الأكثر علمانية. فالتنوير، كما نفهمه اليوم، كان نتيجة للمسيحية، وردّ فعل عليها على حدّ سواء. بالتالي، سواء كنّا نتحدّث عن مقطوعة موسيقية لباخ، أو جدارية لمايكل أنجلو، أو كنيسة باروكية، أو أفق تتخلّله قمم الأبراج المسنّنة، يبدو تاريخ أوروبا كقارّة مسيحية افتراضاً طبيعياً جدّاً. ووفقاً للمنطق نفسه، يبدو الإسلام جوهر كلّ ما نحن لسنا عليه. فكلمة «مسلم» بحدّ ذاتها تشتمل على مجموعة كبيرة من الدلالات بالنسبة إلى المسيحيين، كالتعصّب،

والتصلّب، والإخلاص للتقاليد. وإن أضفنا إليها كلمات مثل «عربي» أو «تركي»، تبرز مجموعة هائلة أخرى من الصفات الدقيقة، مثل مَشرق غريب، جامح، صعب المراس، عنيد، يفتقر إلى «القيم الأوروبية»، والأهمّ أنّه لا يريد امتلاكها. بعبارة أخرى، فإنّ العرب، والأتراك، والمسلمين عموماً ينتمون إلى ذلك المكان الساحر «اللا أوروبي». وقد أتوا من أماكن غريبة وغامضة تقع على أطراف خارطة أوروبا، على متن عبّارة من مضيق جبل طارق، أو مركب من صقلية، أو حافلة من اليونان. وقد ترسّخت هذه الخارطة لأوروبا في أذهاننا، واستقلّت عن آسيا وأفريقيا، وربَطها لاوَعيُنا بمجموعة كاملة من الصور المسيحية، بحيث أصبحنا بالكاد نذكر زمناً لم يكن فيه لـ«أوروبا» وجود، على الرغم من كونها اختراعاً حديثاً نسبياً. فحدودها واضحة وبيّنة بالنسبة إلينا، وجوهرها مسيحي بلا منازع.

أمّا إن قرّرنا بالمقابل توظيف شيء من الطاقة التاريخية، والنظر بعناية أكبر إلى خارطة أوروبا، تتجلّى لنا تدريجياً صورة مختلفة. تبدأ هذه الصورة ببعض المفارقات الأكاديمية. فإحدى الأصول المقترحة لكلمة «أوروبا» تربطها بالجذر نفسه لكلمة «عرب»؛ إنّه الجذر السامي «ereb» الذي يعني الغرب، أو الظلام، أو الهبوط (فكلمة مغرب واسم الساحل البرتغالي ألغارف Algarve مشتقّان من كلمة «غرب» – من هنا، يكون العرب هم «الآسيويون الغربيون» الأوائل). ولو تبعنا فضولنا إلى أبعد من ذلك، سنبدأ بالإدراك أنّ بعضاً من أهمّ الظواهر الأوروبية هي نتاج تأثيرات إسلامية قوية. فعدّة قرون من فلسفة القرون الوسطى لم تعتمد فقط على الترجمات العربية للفلاسفة الكلاسيكيين، بل على تفسيرات وتعليقات أشخاص مثل ابن رشد، وابن سينا، والغزالي. وكان للتأثيرات الشرقية، الوافدة عبر إسبانيا، وصقلية، دور أساسي في تطوّر الشعر الغزلي الذي ازدهر في فرنسا في العصور الوسطى. إذ استمدّ الأدباء الأوروبيون، أمثال بوكاتشيو وتشوسر، رواياتهم من مختلف النسخ اللاتينية/العامّية لقصص ألف ليلة وليلة التي تمّ تداولها في أوروبا خلال العصور الوسطى. حتّى إنّ بعض

العلماء يرى أنّ الكوميديا الإلهية لدانتي مستلهمة جزئياً من أحد المتصوّفين الإسلاميين الذين عاشوا في القرون الوسطى. وإن تابعنا حبل أفكارنا، سنتذكّر، عاجلاً أم آجلاً، أنّ ديانتنا المسيحية نفسها هي ديانة شرق أوسطية، أتى بها يهودي فلسطيني يتحدّث لغة تتراوح بين العبرية والعربية (الآرامية). كما سنتذكّر أنّ أحد الآباء المؤسّسين للتقاليد المسيحية الغربية، القدّيس أوغسطين، كان أفريقياً، ويحمل لقب الأسقف هيبو، وأنّ السنوات التأسيسية للكنيسة كانت في مناطق تحمل اليوم اسم وسط وغرب تركيا. وإن أطلقنا العنان لخيالاتنا التاريخية، سندرك أنّ معظم أوروبا لم يصبح مسيحياً إلاّ منذ ألف عام تقريباً، حتّى إنّ بعض البلدان، مثل إسبانيا، كانت إسلامية قبل أن تصبح كاثوليكية. وقد يغرينا التفكير في مفارقة هامّة، ألا وهي أنّ العرب كانوا مسيحيين قبل ستّمائة عام من اعتناق الإنكليز لهذه الديانة.

إذا ما واصلنا البحث، ولم نستسلم أمام مفاهيم تجريدية كسولة مثل «أوروبا» و«الغرب»، فإنّنا لا نتوصّل إلى عالم مسيحي نقيّ وواضح المعالم، بل إلى قارّة كان نصفها الجنوبي في تفاعل مستمرّ مع الشعوب اليهودية والإسلامية. في الواقع، ما يظهر لدينا هو قارة أوروبية شهدت في القرن العاشر أولى الاجتماعات بين الرحّالة العرب والفايكينغ، ووصل فيها التجّار المسلمون إلى براغ منذ عام 965، وحملت فيها العملات المعدنية الأنجلوسكسونية علامات الخلافة، بينما وصلت جيوش شمال أفريقيا إلى بلدات مثل بواتييه، في جنوب غرب باريس. ما يرتسم أمامنا هو أوروبا متوسّطية، شكّلت تقاطع طرق تجارية، وبرزت فيها مدن إسبانية، وإيطالية، ويونانية عاش فيها المسلمون والمسيحيون جنباً إلى جنب. لقرون عديدة، لم يكن ببساطة ثمّة وجود لمفهوم «أوروبا» التي نعرفها اليوم. فقد شكّل العالم الأرثوذكسي جزءاً من المشرق بالنسبة إلى كثير من اللاتينيين. كما تقاسمت مدن البندقية، وجنوة، وبرينديزي، وسالونيك فضاء مشتركاً مع القسطنطينية، وبيروت، والإسكندرية.

«أوروبـا» تلـك التي لم يكـن لهـا حـدود، هـذه القـارّة المتوسّـطية متعدّدة الثقافـات والمعتقدات، التي شـكّلت لقرون موطناً لشـعوب تنتمي إلـى الديانات الثلاث، لم تتحوّل سـوى مؤخّراً إلى «قلعـة أوروبا» المغلقـة والمصنّفة على أنّها «مسـيحية» حصراً (حتّى أواخر سـتينيات القرن المنصرم، كانت اللغـة اليونانية ما زالت تستخدم على نطاق واسـع في شوارع إسطنبول والإسـكندرية). وما سنراه ونحن نقلّب صفحـات هذا الكتاب هو عدد من الشـخصيات التـي تعدّ نموذجية في زمانها وسـياقها، غير أنّها تعتبر اليوم غريبة ولا تصـدّق: أباطرة رومان وملوك نورمان من القـرون الوسـطى يلمّون باللغـة العربية، وحـكّام بيزنطيـون يتكلّمون التركيـة، وأئمّـة إسبان بالـكاد يتكلّمون شـيئاً مـن لسـان أجدادهم، ومسـيحيون مقدونيون على معرفـة وثيقة بثقافـة جيرانهم المسـلمين بحيث يسـتطيعون تقليد أحد الملالي المحلّيين بنجاح أمام أصدقائهم. سـنتعرّف علـى إيطاليين عثمانيين عملوا كمبعوثين للسـلطان لأنّهم يتقنـون اللغتيـن اليونانية والتركيـة، وأوكرانيين بولنديين كرّسـوا أنفسـهم للقضية التركية، وحاولـوا تنظيم أفـواج بولندية لجيش البادشاه، ومسلمين من مدينة سرقسـطة الإسبانية كانوا مقرّبين جدّاً من جيرانهم المسـيحيين، بحيـث تمكّنوا مـن دخول مخيّـم الأعداء كجواسـيس مـن دون أن يكشف أمرهم، وقتلوا الملك (بناء على طلب أخيه).

بالإضافة إلى ذلك، قد يفاجأ بعض القرّاء بالأحلاف العسـكرية التي سيرد ذكرهـا. فالتحالفات الإسـلامية المسـيحية عبر العصـور (والأمثلة التي سـنتطرّق إليها هنا ليسـت سـوى جزء منها) لم تكن مجـرّد تحالفات مشـبوهة ومؤقّتة بين مجتمعَيـن عدائيين ضدّ عدوّ مشـترك، يحارب فيهـا الجنود المسـلمون في زاوية من الميدان، والمسـيحيون في أخرى. ففي سـجلّات الجيـش العثماني لحملات البلقان في القرن السـادس عشـر مثلاً، نجد جنوداً مسلمين ومسـيحيين يحاربون جنباً إلى جنب فـي مجموعات صغيـرة جدّاً: تومـاس بجانب عبـدالله، وديمتري بجانب عليّ، وسـتيفان بجانب «داوود ابن مصطفى». ويمكن قول الشـيء نفسـه عن الجيـوش البيزنطيـة التي اسـتخدمت المرتزقـة الأتـراك، بحيث نجـد جنوداً

مختلطيـن من الديانتيـن في فوجي الفرسـان والمشـاة. بعبارة أخـرى، عندما قرّر المسيحيون القتال إلى جانب المسـلمين من أجل قضية مشتركة، لم يحدث ذلك بالضرورة مع قبيلة مـن المخلوقات الغريبة، بل غالباً ما كانوا أشـخاصاً يتكلّمون اللغة نفسـها (حتّى باللكنة نفسـها)، أو يأكلون الأطعمة نفسـها، أو يرقصون على الأنغام الموسـيقية نفسـها. في بلدة عثمانية من القرن التاسع عشـر مثل سيواس، نجد أرمناً يقطنون بالقرب من المسـاجد، وأتراكاً بالقرب من الكنائس، والجميع يشترون حاجياتهم من البقّال نفسه. وفي كوسوفو القرن التاسع عشر، نكتشف أنّ الصرب كانوا يتعمّدون اسـتبعاد اللحوم غير المباحة لدى المسلمين من أطباقهم فـي الأعياد، لكـي يتمكّـن جيرانهم المسـلمون من مشـاركتهم فـي الاحتفالات. وفي مدن مثل بودابست ولوتشـيرا، وهي بلدة مسلمة أنشئت في القرون الوسطى على بعـد مائة وخمسـين ميلاً جنوب شـرق رومـا، نجد متاجـر متجـاورة لتجّار مسـلمين ومسـيحيين. بالتالي، وعلى الرغـم مـن كلّ السـجالات والحجج التي تظهر المسـلمين على أنّهم يملكون «قيماً مختلفة» وينتمون إلى «حضارة أخرى»، يثبت الواقع أنّه عبر تاريخ أوروبا، الممتدّ على مئات السـنين، تقاسـم المسلمون والمسيحيون ثقافات مشتركة، وتكلّموا لغات مشـتركة، من دون أن ينظر أحدهم إلى الآخر على أنّه «غريب» أو «آخر».

من الملفت كيف تمّ محو هذا الماضي بهذه السرعة، بحيث أصبح الإسلام بالنسـبة إلى كثير من الناس اليـوم يعتبر ديناً مـن كوكب آخر. فمعظم النقاشـات الإعلامية المتعلّقة بالإسـلام ترواح المسـتوى الفكـري لأبناء الاثني عشـر عاماً: النقاشـات العامّة حول ما إذا كان ينبغي السماح للمسـلمات بارتداء النقاب تكاد تكون هستيرية (تسـاءلت إحدى الصحف: كيف نعرف أنهنّ لا يخفين متفجّرات تحتـه؟). كمـا يضـخّ كتّاب فـي كثيـر مـن الصحـف البريطانية مزيجـاً سـامّاً من المفردات مثل، معنّفي الزوجات، والمعادين للسامية، والإرهابيين، والمتعصّبين، التي يضعونها تحت تسمية «مسـلمين». ففي ألمانيا، نُشرت صور على الصفحات الأولى لصحيفة كبرى (تاغشـبيغل) لمهاجرين أتـراك يحملون ألعاباً على شـكل

مسدّسات، في حين عرضت الصحيفة الليبرالية زودويتشه تسايتونغ، في أحد ملحقاتها، قسماً عن الإسلام تتضمّن خلفيّته صوراً لسيوف وبنادق تختلط بالحروف العربية. أمّا في النمسا، فما زال الجدل المعاصر بشأن انضمام تركيا إلى الاتّحاد الأوروبي متأثّراً بذكرى الحصار العثماني لفيينا قبل ثلاثة قرون.

إذا كان فقدان الذاكرة الانتقائي لأوروبا ملفتاً للنظر، فإنّ مستوى النفاق المرتبط بهذا التشويه والإبعاد لما يطلق عليه التسمية الملتبسة «العالم الإسلامي» لا يقلّ غرابة. وحالة تركيا، الدولة الإسلامية التي تحاول الانضمام إلى الاتّحاد الأوروبي هي خير مثال على ذلك. فبينما يتمّ حضّ تركيا (عن حقّ) على الاعتراف والتحقيق الكامل في عمليّة التطهير العرقي المنهجي لسكّانها الأرمن في عام 1915، تبقى أكبر إبادة جماعية في العالم حتّى يومنا هذا (راحت ضحيّتها الكونغو البلجيكية، قبل عشرين عاماً من إبادة الأرمن، والتي يقال إنّ ما يتراوح بين 10 و15 مليون أفريقي لقوا حتفهم فيها بين عامي 1877 و1908) غير معترف بها إطلاقاً من قبل أيّ من الدول الأوروبية المتورّطة بها. بالتأكيد، فإنّ سجلّ حقوق الإنسان في تركيا ضدّ الأكراد يرثى له. مع ذلك، في تسعينيات القرن العشرين (وهي الفترة التي شهدت أسوأ الفظائع في العالم) تسمح دولة مثل ألمانيا لنفسها بتوبيخ تركيا على أعمال التعذيب وانتهاك حقوق الإنسان، بينما تبقى ثاني أكبر مورّد للأسلحة لتركيا بعد الولايات المتّحدة الأميركية. حتّى مزاعم الفساد التي وجّهت إلى دول إسلامية، والتي هي مبرّرة بالتأكيد، تصبح مثاراً للسخرية بعض الشيء عندما تصدر من الاتّحاد الأوروبي، الذي يتحوّل فيه رؤساء الحكومة السويديون إلى جماعات ضغط اقتصادية، ويحصل فيه المستشارون الألمان على وظائف مربحة في شركات أنابيب النفط الروسية التي تفاوضوا معها عندما كانوا في مناصبهم، في حين يسمح وزارء الحكومة البريطانية بدفع مئات ملايين الدولارات كرشاوى فعلية للحكومة السعودية.

بالتالي فإنّ فانتازيا أوروبا تعتمد في وجودها على فكرة لا أوروبا. إنّها

تعتمد على إقناع أنفسنا أنّنا مختلفون بشكل من الأشكال عن المناطق المتخلّفة وغير المتحضّرة الواقعة خارج الاتّحاد. فتنصير تاريخنا – وما استتبعه من تجاهل للمسلمين من النسيج الأوروبي الذي نتعلّم أن نحبّه جميعاً – يتماشى تماماً مع بادرة توكيد الذات وترسيم الحدود. وبهذا المعنى، فإنّه يصبّ في إطار اعتقاد أكثر عمومية في «صراع الحضارات» المزعوم، أي فكرة أنّ الإسلام والثقافات الإسلامية لا تختلف جوهرياً وحسب عن الثقافات «الغربية»، بل تسلك أيضاً مساراً تصادمياً مع بعضها البعض.

بطبيعة الحال، فإنّ الضغط على زرّ «الإسلام» مفيد دائماً. إذ لطالما لجأت المجتمعات ذات التوزيع غير المتكافئ للثروة والسلطة، إلى استخدام الغيلان والأجانب لتشتيت الانتباه عن مخطّطاتها الخاصّة للسيطرة. ومن هذا المنطلق، لا تشكّل وسائل الإعلام الأوروبية بأغلبيتها الساحقة الصديقة لرأس المال استثناء على ذلك. فالحديث المتواصل عن المهاجرين الذين يسرقون الوظائف، ويطالبون بالحصول على خدمات اجتماعية يلهي الناس عن ارتفاع رواتب المدراء التنفيذيين، أو الأرباح الطائلة، أو خفض الوظائف بلا رحمة في المصارف وشركات الهاتف النقّال. من جهة أخرى، فإنّ شعارات مثل «الأمن» و«الإرهاب الإسلامي» سمحت لشركات طيران مثل الخطوط الجوية البريطانية بحظر احتجاجات الجماعات البيئية، كما وفّرت ذريعة لإخراج نشطاء السلام ذوي الثمانين عاماً من اجتماعات حزب العمّال البريطاني على أساس تشريع «مكافحة الإرهاب». كما أنّ الجدل المستمرّ حول ما إذا كان ينبغي السماح ببناء مسجد في كولونيا أو شرق لندن يبعد الانتباه عن التدمير واسع النطاق للأبنية التاريخية في بريطانيا، وألمانيا، وإيطاليا، من قبل تحالف شركات التمويل ومطوّري العقارات. وليس من المستغرب في بريطانيا أن تكون الصحف الأكثر يمينية، الصديقة للأعمال والمعادية للنقابات، هي الأكثر كراهية للأجانب. ففي حالة الصحف المحافظة على الصعيد الأخلاقي، مثل ديلي ميل، وإكسبرس،

نجد مشـهداً غريباً حقّاً لصحفيين أمثال ميلاني فيليبس، وبيتر هيتشـنز، وسايمون كالدويل يهاجمون الشـذوذ، والإجهاض، وحرّية المـرأة، والتجديف، والمجون، بينما يدّعون أنّ المسـلمين (الذين يشـاركهم المحافظون منهم الأحكام المسـبقة نفسها) لا يتحلّون «بقيم أغلبية البريطانيين».

مـن ناحية أخـرى، فـإنّ الضغـط علـى زرّ «الإسـلاميين/الجهاد/الإرهاب» يـؤدّي الغـرض المطلـوب عنـد تبريـر الحكمـة المريبـة مـن السياسـة الخارجية المتّبعة. ففـي دول مثل باكسـتان وأفغانسـتان، يعتبر الدعـم المتنامـي للمعارضة الإسـلامية ناتجاً عن الاسـتياء العميق مـن البلوتوقراطية الفاسـدة والمدعومة من الغرب التي تسـود في هذه البلدان أكثر من المفهوم الديني للجهاد. فعندما يكون الرئيس الحالي لأفغانستان مستشاراً أعلى لشـركة أنابيب نفط كاليفورنية (وعندما يتّبع الخـطّ المرسـوم عبر القواعـد الأميركية فـي أفغانسـتان الطريق نفسـها التي يجتازها خـطّ الأنابيب، كما أشـارت صحيفة إسـرائيلية)، يصبح من الأسـهل أن نفهم لماذا نفضّل أن نتحدّث عن الحماسـة الإسـلامية لطالبان عوضاً عن الفائدة التي يمكن أن تسـتمدّها الـدول الغربية من اسـتمرار وجودنا هنـاك. وفي وصف «الانتحاريين» الفلسـطينيين، يعتبر «الإسـلام» مناسباً «لشرح» السـبب الذي يدفع أشـخاصاً يتضوّرون جوعاً ويعانون مـن الاضطهاد الاقتصادي، كثيـر منهم فقدوا فرداً من أسـرتهم على الأقـلّ على أيـدي الجيش الإسـرائيلي، إلـى القضاء على حياتهم بأيديهم من شـدّة اليأس. ومسـألة إيران هي أيضاً مثال علـى ذلك. إذ لا ينبغي لأحد أن يتعاطف كثيراً مـع نظام الملالي لأحمدي نجـاد، على الرغم من أنّنا نفهم أنّ مقاومة إيران للاسـتثمار الأجنبي، وعدم رغبتها في الامتثال لمطالب أغنـى دول العالم هو ما يكسـب الدولة الإسـلامية سـمعتها السـيّئة في وسـائلنا الإعلامية. والسمة الإسلامية لدولة أكثر تحفّظاً من إيران بكثير، كالمملكة العربية السعودية (التي يحظر فيها على النساء حتّى قيادة السيّارات)، تحظى باهتمام أقلّ بكثير، هـذا لكون المملكـة منفتحة تمامـاً علـى رؤوس الأموال الأجنبيـة، وأكثر

تعاوناً إلى حدّ ما في المسائل الجيوسياسية الأوسع نطاقاً. ولولا ذلك، لسمعنا أكثر عن «التطرّف الإسلامي» للسعوديين. في هذا المجال، تطلق عبارة «مسلم معتدل» في وسائل الإعلام عادة على رجل الأعمال الصديق للغرب، مثل محمود عبّاس، جلال طالباني، رجب طيّب إردوغان، أحمد خرازي، والقذّافي وابنه صاحب المشاريع التجارية. أمّا المسلمون الذين يعترضون على التركيبات المالية الغربية والسيطرة على مصادر الطاقة، ويتّخذون خطوات فعلية لوضع أيديهم على الموارد المحلّية، فيوصفون أنّهم «إسلاميون» أو «متطرّفون» في وسائل الإعلام.

وليس الهدف من الإشارة إلى هذه النقطة هو تعظيم أو تبرئة المسلمين المتطرّفين فعلاً، ولا تصوير الإسلام على أنّه عقيدة أكثر تحرّراً من المعضلات التي يواجهها الليبرالي المعاصر مع اليهودية أو المسيحية. ولا هو الجدل في أنّ رجال الدين الذين يتّخذون موقفاً شديد التصلّب من الشذوذ، هم أشخاص «لطفاء» في أعماقهم، أو أنّ شخصيّات من أمثال بن لادن هم ضحايا أسيء فهمهم حقّاً. الهدف هو بالأحرى التأكيد على أنّ التركيز الانتقائي على هذه الشخصيات من العالم الإسلامي في وسائل الإعلام الغربية يخدم عدداً متنوّعاً من الوظائف، منها الحفاظ على الوضع الراهن، وصرف الانتباه عن القضايا السياسية الحقيقية، وتقديم مبرّر للهوس المتعاظم بـ«التدابير الأمنية». علاوة على ذلك، ليس الهدف من هذا التاريخ الوجيز بالتأكيد هو الإظهار أنّ المسلمين والسلطات الإسلامية كانوا إلى حدّ ما «أفضل» من نظرائهم المسيحيين، لأنّهم لم يكونوا كذلك في الواقع. فالاختيار الاستراتيجي للوقت الأنسب للحديث عن الاختلافات الدينية، والوقت الأنسب للصمت، هو أقدم خدعة في التاريخ، وقد استخدمها المسلمون والمسيحيون على حدّ سواء. فعندما تصدّى العثمانيون لعدوّ مسيحي، أشاروا دائماً إلى كونه «كافراً»، وإلى أنّهم جيش الإسلام الحقيقي. في حين أنّهم لم يأتوا إطلاقاً على ذكر العقيدة المسيحية لحلفائهم.

موضوع الكتاب: الأحلاف الإسلامية المسيحية

تعتبر الأحلاف الإسلامية المسيحية قديمة بقدم الإسلام نفسه. فقد يفاجأ بعض القرّاء لدى معرفة أنّ إحدى سور القرآن تحمل اسم «الروم»، وفيها رثاء لهزيمة الجيوش البيزنطية المسيحية على أيدي الفرس في عام 615. في الواقع، لا تعدّ فكرة وجود سورة في القرآن تفضّل فوز الروم على جيش فارسي سريالية بالقدر الذي تبدو عليه. فبالطبع، لم يكن الفرس في ذلك الوقت لا مسلمين ولا مسيحيين، بل زرادشتيين ساسانيين (أي من عبدة النار).

يمكن تصنيف الأحلاف التي سنتناولها في هذا الكتاب في عدد من الفئات. أوّلاً، ثمّة أحلاف يمكن وصفها أنّها سياسة بحتة، عبارة عن تعاون ينشأ حصراً من فرصة معينة، ولا يشير إلى أيّ تعاطف ثقافي أو أيديولوجي بين القادة أو الجنود أنفسهم. فمع أنّ المراسلات التي جرت في القرن السابع عشر بين لويس الرابع عشر والسلطان العثماني محمّد الرابع كانت ودّية، غير أنّه كان واضحاً أنّ الكراهية المشتركة لفيينا هي التي جمعت بين الملكين. وبقيت تلك التحالفات استراتيجية أيضاً، على غرار مفاوضات شارل الخامس مع الأعداء الفارسيين للأتراك في برشلونة؛ ما كانت جيوش هذين الحليفين لتحارب في ميدان واحد أبداً، بل دعمت بعضها على جبهات متعدّدة، على الرغم من عدائها.

غير أنّه ثمّة فئة ثانية من التحالفات الإسلامية المسيحية التي يمكن تسميتها مبدئيّاً تحالفات «ودودة»، لأنّها ليست وليدة الضرورة السياسية وحسب، بل تستند إلى صداقة حقيقية. من أوضح الأمثلة على ذلك هي العلاقة التي دامت لعقد من الزمن بين الإمبراطور البيزنطي كانتاكوزينوس وأومور باشا، أمير أيدن المسلم. إذ تشير المصادر الموثوقة إلى أنّ الرجلين كانا يُكنّان لبعضهما قدراً كبيراً من الإعجاب والاحترام، حتّى إنّ كانتاكوزينوس عرض يد ابنته على الأمير التركي، الذي رفضها لأنّ كانتاكوزينوس كان بمنزلة «الأخ» بالنسبة إليه، حسبما قيل.

على الرغم من أنّ هذه التحالفات كانت وليدة احتياجات سياسية، غير أنّها لم تنتج فقط عن الحسابات الباردة التي لا ترحم، بل هيّأ لها أيضاً رابط نفسيّ أكثر بين الطرفين. وقد وطّد هذا الرابط النفسي دراية بثقافة الطرف الآخر؛ في هذه الحالة، كان كانتاكوزينوس يتقن اللغة التركية جيّداً. كما أنّ معرفة الإمبراطور فريدريك الثاني، الذي عاش في القرون الوسطى، بالإسلام، وقدرته على التحدّث باللغة العربية، ساعدتاه من دون شكّ على التواصل والتفاوض مع العالم الإسلامي بنجاح أكبر من معاصريه المسيحيين.

وصلنا هنا إلى الفئة الثالثة من الأحلاف الإسلامية المسيحية، تلك التي تشارك فيها المسلمون والمسيحيون المعنيّون ثقافة ولغة واحدة. فعرب صقلية الذين دافعوا عن مدينتهم لوتشيرا ضدّ الفرنسيين، جنباً إلى جنب مع جيرانهم الإيطاليين، كانوا يتحدّثون اللغة نفسها. كذلك هو الأمر بالنسبة إلى مسلمي سرقسطة الذين عاونوا القشتاليين في القرن الحادي عشر في نضالهم ضدّ الأراغونيين. وفي عام 1541، بدا أنّ عدد السلاف الجنوبيين في الحاميات العثمانية على نهر الدانوب كان، كما سنرى لاحقاً، مرتفعاً إلى حدّ أنّ اللغتين اليونانية والبوسنية كانتا تستخدمان أكثر من التركية. في جميع هذه الحالات، لم يكن تعبير «مسلم» و«مسيحي» كافياً بكلّ بساطة لتحديد هويات الجنود المعنيين، لا سيما في حالة الأناضول، والأندلس، والبلقان. كان لمجموعة مشتركة من الممارسات الثقافية، كاللغة، والطعام، والبيئة، والزيّ، أهميتها أكثر من أيّ حسّ بالسياسة الواقعية، بالنسبة إلى ديانتين موجودتين تحت راية واحدة.

تجدر الإشارة أيضاً إلى ثلاث فئات أخرى من أشكال التعاون العسكري الإسلامي المسيحي: الدول التابعة، والمرتزقة، والعبيد. الدولة التابعة هي عادة دولة تمّ احتلالها بشكل مؤقّت من قبل ملك أقوى، بحيث أصبح على حاكم تلك الدولة الامتثال لمطالب ذلك الملك. باختصار، هي ليست زيجة سعيدة. فقد اضطرّ الأباطرة البيزنطيون في بعض الأحيان إلى مساعدة العثمانيين الأكثر قوّة منهم في معارك عدّة، دارت أحياناً في أماكن بعيدة (وجد مانويل الثاني

نفسه مع جيشه في أعماق شرق تركيا، يحارب التركمان لصالح السلطان بايزيد الأوّل). كما أنّ آلاف الجنود الصرب الذين ساعدوا الأتراك على الاستيلاء على القسطنطينية كانوا هناك رغماً عنهم. غير أنّ الصداقة وحسن النية لم تكونا أمراً مستحيلاً في العلاقة القائمة على التبعية. فألفونسو السادس وتابعه المعتمِد ملك إشبيلية لم يعرفا مشاعر العداوة والبغضاء، على الرغم من العلاقة العاصفة التي جمعت بينهما. والشجاعة التي أنقذ بها الأمير الصربي ابن السلطان التركي في معركة أنقرة المحكوم عليها بالفشل هي دليل على تعدّد أبعاد واجبات التبعية.

تعتبر مهنة المرتزقة من أقدم المهن العسكرية في العالم. فالمرتزقة هم من أكثر المصادر شيوعاً وأهمية لأمثلة على مسيحيين حاربوا في جيوش إسلامية (والعكس بالعكس). وُجدت هذه الظاهرة في كلّ مكان (في دول البحر الأبيض المتوسّط، وفي ساحل شمال أفريقيا، وفي شبه جزيرة القرم)، وفي كافة أنواع المدن (في حصارات فيينا، وفي بلنسية، والقسطنطينية، وتونس)، وفي كلّ الأزمنة (في الحروب الصليبية، وما بينها على السواء)، ولدى كلا الطرفين (ضمّت جيوش البابا جنوداً مسلمين، تماماً مثلما استخدم العثمانيون جنوداً غربيين في حروبهم ضدّ الكفّار)، وعلى كلّ المستويات (من المشاة والمدفعيين، إلى الأميرالات والمهندسين). وبحلول عام 1307، كان لدى مجموعة غران كاتالان، إحدى أكبر فرق المرتزقة، أكثر من 3000 تركي إلى جانبها (ومن الفارقات أنّهم الأتراك أنفسهم الذين استخدمهم الكاتالانيون في الأساس للقتال). فالوعد بدفع مقابل، سواء على شكل ذهب، أو غنائم، أو غذاء، لقاء خدمات معيّنة يفسّر سبب التعاون بين المنتمين إلى ديانات مختلفة أكثر من أيّ عامل آخر تطرّق إليه هذا الكتاب على الأرجح.

قد تكون الفئة الأخيرة من التحالفات هي الأصعب على التحليل، وذلك من جهة، لأنّ الحديث عنها تمّ كرهاً، ومن جهة أخرى لأنّها تتعلق بشريحة من المجتمع جعلتها أمّيتها شفّافة تاريخياً، ألاّ وهي فئة الفلاحين. فالعبد الذي تعرّض للضرب، والجلد، والتجويع على يد أسياده «المسيحيين» على مدى

السنوات العشرين الأولى من حياته القصيرة، قد يُعذر على التساؤل ما إذا كان سيعرف وضعاً أسوأ تحت نير العرب أو الأتراك (أو كما قال بوب ديلان: «إن كنت لا تملك شيئاً، فليس لديك ما تخسره»). ففي المجر، التي خضعت لسيطرة العثمانيين، استغلّ الأتراك الظروف المزرية التي يعيش فيها العبيد في البلاد من خلال منحهم جميع الحوافز الممكنة ليغيّروا ولاءهم، ونجحوا في ذلك، كما سنرى لاحقاً.

بعبارة أخرى، يشكل هذا الكتاب محاولة لتبديد فكرة أوروبا المسيحية «المستنيرة»– وضمنياً، فكرة اللا أوروبا المسلمة «المتخلّفة» التي تبدأ بوضوح من حدود كوسوفو، وقبرص، وجبل طارق. ويشكّل وجود المسيحيين واليهود لألف عام على طول ساحل شمال أفريقيا وشرق البحر الأبيض المتوسّط (الكاثوليك والأرثوذكس في بيروت، والجاليات اليهودية الضخمة في كلّ من الجزائر العاصمة، والقاهرة، والإسكندرية) أحد العناوين الفرعية غير المعلنة لهذا الكتاب. والإشارة إلى أنّ مهد أحد الآباء المؤسسين للتقليد المسيحي الغربي، أي القدّيس أغسطينوس، يقع في بلدة على الساحل التونسي، أو أنّ أرسطو أمضى سنواته التأسيسية في بلدة تقع اليوم في غرب تركيا، لا تعتبر مثاراً للسخرية إلاّ إن واصلنا التمسّك بترادف المسيحية و«أوروبا».

لكن في محاولتنا تجريد أوروبا من سمتها المسيحية، وتذكير القارئ بتفاعلها مع العالم الإسلامي، لا نهدف إلى محو المعتقد الديني من تاريخ أوروبا، أو اختصار تاريخ الأديان بسلسلة من العوامل الاقتصادية أو استراتيجيات السياسة الواقعية. فالإيمان بالله شكّل عاملاً مؤثّراً في الواقع الاجتماعي والسياسية لكلّ من المسلمين والمسيحيين. وكان بإمكانه نقل الناس من الغضب الجامح، إلى الحزن، إلى مشاعر التعاطف والتضامن الحقيقي. غير أنّ هذه الهويات الدينية تواجدت إلى جانب عدد من الهويات الأخرى، الثقافية واللغوية والإثنية وحتّى الاقتصادية. وفي بعض الأحيان، أصبحت هذه الهويات أكثر أهمية من كون المرء «مسيحياً» أو «مسلماً» ببساطة. والأمراء الأوروبيون

الذين انتقدوا بروتستانت المجر لوقوفهم مع الأتراك ضدّ إخوانهم المسيحيين لم يعيشوا في المجر، تماماً كما أنّ ملالي شمال أفريقيا الذين انتقدوا تحالف مسلمي إسبانيا مع الكفّار لم يعيشوا في إسبانيا. في الفصول التالية، سنرى مراراً وتكراراً، كيف أنّ أوضاع الناس المباشرة منحتهم رؤية لأنفسهم كانت أكثر إقناعاً من أيّ مفهوم للحملات الصليبية أو الجهاد.

نأمل بعد قراءة هذا الكتاب أن يبدأ تاريخ بديل لأوروبا بالتبلور تدريجياً، في مشهد لا يتضمّن كاتدرائيات قوطية، وسيمفونيات بيتهوفن، وجداريات من عصر النهضة وحسب، بل يُدخل الهندسة المعمارية الإسلامية، والمفكرين اليهود، والشعر العربي، والموسيقى التركية في قلب تاريخ قارّتنا. اليوم، تقوم مجموعة متنوعة من القنوات التلفزيونية والصحف بإيصال شكل معيّن من «الإسلام» إلى المستهلك، يتمثّل عادة في الرجل الملتحي، المتزمّت والعابس، الذي يصيح أمام عدسة الكاميرا، أو يقفز على دمية أو علم يحترق، شخص عنيف ومنفر، نُقلت صورته إلينا بلا توقّف، يوماً بعد يوم، إلى أن تحجّرت وتحوّلت إلى حقيقة واقعة يتعذّر محوها. ويتمّ استخدام قصص مختارة لمسلمين، يدينون الشذوذ، أو يُقتادون كمشتبه بهم، للتشديد على مدى اختلاف الإسلام عن كلّ ما نعتزّ به «نحن الأوروبيون». يتّخذ هذا الكتاب اتّجاهاً معاكساً تماماً، ويحاول أن يُظهر كيف أنّ المسلمين شاركوا دائماً في صناعة تاريخ أوروبا، منذ البداية. ذلك أنّ قصّة نشوء أوروبا ما زالت تستحقّ أن تروى. فهي حكاية مثيرة للاهتمام، وما من لياقات سياسية يجب أن تجعلنا نتخلّى عن ذلك. لكن، إن كنّا نودّ أن نروي حكاية صادقة، لا ينبغي أن نحذف عناصرها الإسلامية واليهودية. فهذه «العناصر» لا تشكّل فصولاً مستقلّة، بل شرايين نفوذ وسلطة تمتدّ على طول تاريخ أوروبا. فعندما نتذكّر وجود المسلمين بين القشتاليين والهوهنشتاوفن، والمجريين، واليونانيين، نبدأ بالوصول إلى إرث أوروبي أكثر غنى، وغرابة، وواقعية من ذاك الذي نملكه اليوم. والفصول الخمسة من التحالفات الإسلامية المسيحية التي سنتناولها هي خطوة في هذا الاتّجاه.

الفصل الأوّل

إسبانيا القرن الحادي عشر تحت حكم ألفونسو السادس: إمبراطور الديانتين

نتناول في مستهلّ الفصل الأوّل التعاون الإسلامي المسيحي في إسبانيا القرن الحادي عشر، مركّزين على الملك المسيحي ألفونسو السادس ونوع الأحلاف التي أقامها هو وخصومه المسيحيون مع الممالك الإسلامية الأخرى في المنطقة. إنّها فترة مضطربة، وعلينا أن نضع في اعتبارنا أمرين إن أردنا فهم التعقيد الذي تتّسم به تلك المرحلة. نجد في المقام الأوّل التنافس والتوتّر اللذين سادا على العلاقات بين مختلف الممالك المسيحية في شمال إسبانيا، أي قشتالة، وأراغون، وكاتالونيا؛ ويأتي في المقام الثاني تفكّك إسبانيا المسلمة إلى فسيفساء من الدول والإقطاعيات الأصغر حجماً، الأمر الذي أدّى إلى خليط من الصراعات والنزاعات، وأنتج شقاقاً لا يقلّ عن ذاك الذي ساد بين المسيحيين. لكن عندما تنامى نفوذ أحد الملوك المسيحيين، ألفونسو السادس، وبدأ بالهيمنة على جيرانه المسيحيين، أخذ القشتاليون يتقدّمون جنوباً ببطء، ويضمّون مملكة إسلامية تلو الاخرى. وكما سنرى، استغلّ ألفونسو السادس التفكّك الإسلامي في إسبانيا أشدّ استغلال، وراح يقلّب الأمراء واحدهم على الآخر.

لم يكن القرن الحادي عشر هو زمن حروب استرداد (*reconquista*) شبه الجزيرة الإسبانية من المسلمين الذين فتحوها قبل أربعمائة عام تقريباً. إذلم تبدأ هذه العمليّة بالفعل إلاّ بعد قرن من الزمن، في معركة لاس نافاس دي تولوسا (1212). فالتوسّع المؤقّت الذي أحرزه الملك ألفونسو في إسبانيا المسلمة لم يكن سوى مقدّمة للهزيمة التي ستلحق بالملوك المسلمين يوماً ما على نحو

دائم. لكن ما سنحاول إظهاره هنا هو إلى أيّ مدى كان المسلمون والمسيحيون مشاركين في هذه الصراعات من الجانبين. فالتحالفات التي جمعت الكاتالانيين والأراغونيين مع المسلمين ضدّ جيرانهم القشتاليين، وتحالفات قشتالة مع إشبيلية المسلمة ضدّ الكاتالانيين، بعيداً عن كونها حروباً بحتة (هذا إن كان ثمّة وجود لحرب دينية بحتة)، تعكس ملامح الصراع الذي كان إقليمياً بقدر ما كان دينياً.

لكي نروي قصّة إسبانيا القرن الحادي عشر على نحو صحيح، بأحلافها وخلافاتها، وباغتيالاتها وانقلاباتها، مع ما شهدته من تفكّك للخلافة إلى ممالك صغيرة، وقدوم غزاة من الخارج، ومجازر تأديبية، وحصارات طويلة، وأعمال قتل مدبّرة، يحتاج المرء إلى جدار من الشاشات التلفزيونية التي تروي كلّ منها حكاية مختلفة عن الحقبة نفسها من مكان مختلف، وكلّها تعمل في وقت واحد. تُظهر إحداها قشتالة، والتطوّر التدريجي لجيوش أحد الملوك وهي تنتشر ببطء عبر اليابسة. وتركّز كاميرا أخرى على رودريغو دي فيفار (المعروف باسم السيد) وهو يدافع عن إحدى الممالك الإسلامية ضدّ الأراغونيين، ثمّ يفتح مدينة إسلامية أخرى باسم المسيحية. كما ينبغي أن نروي قصّة إشبيلية وطليطلة على نحو متزامن أيضاً، لنعرض مختلف الصفقات والمناورات التي قام بها حكامهما المسلمون مع الجيوش المسيحية لحماية مصالحم الخاصّة. ولا بدّ للشخصية الكئيبة التي اتّسم بها عبد الله، ملك غرناطة الذي افتقر إلى الكفاءة السياسية، على الرغم من حساسيته وثقافته، من الظهور لنروي قصته ضمن التاريخ العام لإسبانيا القرن الحادي عشر. ومن شأننا تسليط كاميرا منفصلة على شمال أفريقيا، لنتابع التطور التدريجي للقوات الإسلامية هناك بقيادة راديكالي محافظ لامع، سيجتاح البرّ الرئيس الإسباني نحو نهاية القرن، لينقذ الممالك الإسلامية مؤقّتاً من خطر حروب الاسترداد المسيحية الوشيكة. من مصير مملكة بطليوس (التي تغطي اليوم البرتغال المعاصرة تقريباً)، واستقلال مورسيا، إلى طموحات أراغون، واهتمام روما منذ البداية باسترداد إسبانيا «المسيحية» من

المور «الهمجيين»، كلّها قصص تتداخل مع بعضها البعض على نحو يتعذّر معه سردها، بحيث تذكّرنا بالمهمّة المستحيلة لمؤرّخ القرون الوسطى.

ما هي الأحداث التي يتعيّن ذكرها أو تركها؟ الصباح الذي وصل فيه المرابطون من شمال أفريقيا إلى إسبانيا كمنقذين، وسط تهليل السكّان المسلمين، أم اللحظة التي أَجبر فيها رودريغو دي فيفيار ملكَ بلاده على أن يُقسم، أمام حشد من النبلاء، أنّ لا يد له في مقتل أخيه، أم مشهد حرق حاكم بلنسية المسلم حياً، أمام زوجته وأطفاله، بتهمة التآمر لاستعادة المدينة من السيد، أم هزيمة ثورة إشبيلية، واضطرار الحاكم المسلم للفرار متنكّراً بزيّ امرأة بعدما تحالف مع ملك مسيحي... في الواقع، إنّ زوبعة الأحداث والقوى التي شكّلت تاريخ إسبانيا القرن الحادي عشر، بدءاً من فتح المنصور لكومبوستيلا عام 997، حتّى وفاة ألفونسو السادس عام 1109، يصعب تفنيدها حقّاً. كما أنّ النواحي الدقيقة غير الطائفية لتحالفاتها الإسلامية المسيحية ستفوت القارئ المعاصر غير متيقّظ. جنود مسيحيون يقاتلون إلى جانب مشاة مسلمين لصالح الخليفة المقتدر أو المعتمد، ومهندسون عسكريون عرب يشغّلون آليات الحصار لجيوش قشتالة من أجل احتلال مدن إسلامية، وحتّى اللحظات التي قام فيها المنصور بتدمير ضريح القديس جيمس تكشف على الأرجح وجود مرتزقة مسيحيين في الجيش الذي دمّر الكنيسة وحمل الأجراس لتعلّق في مسجد قرطبة[1]. والسيد، الذي كان بطلًا بالنسبة إلى مسلمي سرقسطة، وهزم قوّات أراغون في معركة غراوس (1063)، كان بالتأكيد شيطاناً بالنسبة إلى سكّان بلنسية الإسلامية، وهي المدينة التي حكمها بقبضة من حديد بعد عام 1095. هكذا، فإنّ حكّام هذه الحقبة، سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين، وإسبانيين أم عرباً، تجاهلوا، واحداً تلو الآخر، نداءات الحملات الصليبية أو الجهاد، وفضّلوا مصالحهم وأجنداتهم الإقليمية على هوياتهم الدينية. إنّ فهم النمط المتشابك للتحالفات بين المسلمين والمسيحيين واليهود في الحروب العديدة التي دارت في إسبانيا في القرن الحادي عشر يستلزم خلفية، وانتباهاً، وسياقاً.

فتح المسلمين لإسبانيا

من المفارقات أن نضطرّ، لأغراض تأليف كتاب عن التحالفات الإسلامية المسيحية، للإشارة إلى أن اجتياح المسلمين للبرّ الرئيس الإسباني تمّ بناء على طلب مجموعة مسيحية أخرى. فعندما قام القوط الغربيون، وهم قبائل جرمانية عاشت أساساً في البرّ الرئيس الأيبيري لمدّة ثلاثمائة عام، بدعوة ممثلي الخلافة الأموية (ومركزها دمشق) في شمال أفريقيا لمساعدتهم على هزيمة ملك منافس لهم، لم يتصوّر أحد أن تمتدّ عواقب طلب كهذا لثمانمائة عام. أرسل الأمويون القائد طارق بن زياد عبر المضيق الذي يحمل اسمه اليوم (مضيق جبل طارق) في عام 711، فقاد حملة عبر جنوب إسبانيا. خلال عشرين عاماً، وصلت الجيوش إلى جنوب غرب فرنسا، ولم يتمّ إيقاف توغّلهم في جنوب أوروبا إلاّ بصعوبة، في معركة بواتييه (732). من وجهة نظر عربية، شكّل فتح إسبانيا أساساً استيلاء على أرض غربية. فبعد مائة عام تقريباً من الحملة الأولى التي قادها طارق بن زياد، يصف المؤرخ ابن حبيب ما يمكن أن يكون قد رآه الفاتحون المسلمون الأوائل وهم يتوغّلون في أرض «الأندلس»: مشهد سريالي من الزلازل، والبحار المتجمّدة، والحصون النحاسية، والأصنام الغريبة، والأشباح المخيفة. وإن كانت رواية ابن حبيب هي أقرب إلى الخيال العلمي منها إلى الجغرافيا الفعلية، فإنّها تعكس كيفيّة فهم «الأندلس» في ذلك الزمن: أرض بربرية غريبة على أطراف الحضارة والعالم العربي، تماماً مثلما يقوم رسّامو الخرائط في الغرب برسم وحوش بحرية وتنانين على الحدود الخارجية لخرائطهم. لكن عندما نقرأ وصفاً عربياً لاحقاً لمؤرخ غير معروف من القرن العاشر، نرى كيف أنّ استقرار المسلمين في إسبانيا لمدّة قرنين من الزمن جعل الأندلس مكاناً مألوفاً أكثر. فقد اختفت قصص القلاع المعدنية، والأشباح الغريبة، والمناظر غير الواقعية، لنجد أمامنا نصوصاً تصف بلاداً فيها مدن، وحكومات، ومحاصيل زراعية، وحتّى إشارات إلى الماضي القوطي الغربي للمنطقة قبل الإسلام. لقد أصبحت إسبانيا جزءاً متحضراً من المغرب، أو الغرب المسلم، واستمرت

كذلك إلى أن غادر آخر ملوك غرناطة المسلم أرضَ إسبانيا، وعاد إلى شواطىء شمال أفريقيا في عام 1492. ويبقى اكتشاف العالم «الجديد» بالتزامن مع طرد المسلمين من العالم «القديم» واحدة من المفارقات التي يزخر بها تاريخ إسبانيا[2].

استخدمت حتّى الآن تعبير «الفتح الإسلامي»، مع أنّه تعبير مبسّط جدّاً. بالطبع، عندما وافقت الجيوش العربية على اجتياح البرّ الإسباني الرئيس ومساعدة القوط الغربيين الذي قاموا باستدعائهم، تمّ ذلك بموجب اتّفاق الكونت جوليان، وهو حاكم مسيحي لمدينة أخرى في شمال أفريقيا (سبتة). لكن مهما بدا تعبير «عربي» للقارئ الغربي مرادفاً لسكّان الجزائر، وتونس، والمغرب اليوم، علينا أن نتذكّر أنّه في عام 711 كان العرب وافدين جدداً إلى شمال أفريقيا. فانطلاقاً من مقرّهم في دمشق، المدينة التي لا تعدّ أقرب إلى المغرب من ستوكهولم، زحفوا على طول الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط على امتداد خمسين عاماً، حاملين معهم الإسلام والثمار الثقافية لحضارتهم العربية إلى السكّان البربر الأصليين لتلك المنطقة. نجحت تلك الأسلمة العربية للقبائل البربرية على نطاق واسع. فمن بين المرابطين، كان بعض من أشدّ المسلمين المحافظين السنّة من أصل بربري. لكن كان بين البربر مسيحيون أيضاً، كما أشار بعض المؤرّخين إلى أنّ قبيلة زناتة هي ذات أصل يهودي[3]. الأهمّ من ذلك هو التوتّر الذي ساد على علاقات تلك المجموعتين العرقيتين، على الرغم من أنّهما تدينان بدين واحد. لا شكّ في أنّ بعض العرب نظروا بفوقية إلى البربر، واعتبروهم متخلّفين عنهم ثقافياً وعديمي الأهمية تاريخياً. في هذا السياق، رأى المؤرّخ الشهير ابن خلدون (وفاة 1406) أنّ بلادة أذهان البربر ترجع إلى نظامهم الغذائي، كما ادّعى الأديب الشقندي (وفاة 1231) أنّه لولا الأندلس، لما سمع أحد بالبربر على الإطلاق. ومن الأسباب الأخرى لتوتّر العلاقات بين العرب ومسلمي البربر هي القرابة العرقية بالنبي محمّد (ص) وذرّيته، الأمر الذي اعتبره العرب أحياناً دليل تفوّق على المسلمين الأفارقة،

ودفع البربر في بعض الأحيان إلى تغيير شهرتهم أو اختلاق أنساب لأنفسهم تُرجع أصولَهم بوضوح أكبر إلى شبه الجزيرة العربية. من ناحية أخرى، مارس بربر شمال أفريقيا بالفعل شكلاً أكثر تحفّظاً وصرامة للإسلام من نظرائهم العرب الأندلسيين (حتّى لو أنّ المؤرّخين بالغوا في تصوير هذا الاختلاف لاحقاً)، ونظروا في بعض الأحيان بشيء من الازدراء إلى مدينتي قرطبة وإشبيلية ونمط الحياة المتّسم بالتراخي والإسراف الذي عاشه حكّامهما، الأمر الذي ساهم في تنامي الاستنكار في أوساط أكثر عمومية ومحافَظة في شمال أفريقيا إزاء ليبرالية الأندلس، التي يختلط فيها المؤمنون علناً بأكلة الخنازير وباليهود. تجلّت هذه التوتّرات بين العرب والبربر، سواء كان مبالغاً فيها أم لا، في التمرّد. لم تكن ثورات البربر ضدّ حكّامهم العرب وإخوانهم في الدين ظاهرة غير مألوفة، وعندما وقعت في إسبانيا، كانت الممالك المسيحية المجاورة على أتمّ الاستعداد لاستغلالها لغايات خاصّة. فحين أدّت ثورة البربر في الأندلس بين عامي 1008-1010 إلى نهب قرطبة، تلقّى الجانبان مساعدة من مختلف مناطق الشمال المسيحي. فحصل عرب الأندلس على الدعم من مسيحيي برشلونة، في حين هبّ جنود من قشتالة لمدّ يد العون إلى المتمرّدين البربر[4]. وكما سنرى، لم تكن هذه التحالفات بين المنتمين إلى ديانات مختلفة استثناء في القرن الحادي عشر، بل معياراً سائداً.

باختصار،وبعدما استدعي العرب إلى إسبانيا من قبل فصيلة مسيحية من القوط الغربيين في عام 7011، وتلقّوا المساعدة من حاكم مسيحي آخر، استغرقوا ثلاثة سنواتٍ قبل أن يصبح الجزء الأكبر من شبه الجزيرة الأيبيرية تحت سيطرة المسلمين. وبقي الأمر كذلك لمدّة ثلاثمائة عام، خضعت فيها حوالى ثلاثة أرباع البرّ الإسباني الرئيس لحكم عدد من الخلفاء العرب، وأُبعدت ممالك الشمال المسيحية إلى الأطراف الشمالية للبلاد. حتّى بداية القرن الحادي عشر، اعتُبرت هذه الممالك جارات فقيرة لإسبانيا. وتحدّث أدباء الأندلس المسلمون عن تخلّف أهلها وفقرهم[5]. فهي لم تكن تحتوي على مدن بحجم

قرطبة أو طليطلة، ولا على قصور فخمة أو أعمال فنيّة عظيمة، كما أنّها لم تكن تضمّ مراكز ثقافية وتعليمية على غرار إشبيلية وغرناطة. لم يشعر المسلمون في هذه الفترة بأيّ خوف من الجيوش المسيحية. فالخطر الفعلي الأخير كان يتمثّل في التوغّل المشؤوم للإمبراطور شرلمان (778) في شمال إسبانيا، والذي لم يصدّه العرب، بل الباسك (الذين وصفوا لاحقاً في الأسطورة على أنّهم «مسلمون» Saracens أو «بربر» Moors). على العكس من ذلك، قام خلفاء مثل المنصور بشنّ غارات تأديبية منتظمة على الشمال المسيحي لإبقائه تحت السيطرة، ونهب مدنهم لتذكيرهم من الذي يملك زمام السيطرة في شبه الجزيرة الأيبيرية. هكذا ظلّت إسبانيا لثلاثة قرون مملكة إسلامية، تحيط بها إمارات مسيحية مضطهدة تحاول الاستمرار على حدودها.

قبل أن نصف كيف سيتغيّر هذا الوضع، تجدر الإشارة إلى مجموعتين ثانويتين في «إسبانيا المسلمة» تجعل التعبير بحدّ ذاته أكثر تعقيداً بعض الشيء: المستعربين والسلاف. المستعربون هم في الأصل مسيحيون رفضوا اعتناق الإسلام تحت الحكم الإسلامي، لكنّهم تبنّوا كثيراً من ممارسات وعادات الثقافة العربية التي جلبها المسلمون معهم. صحيح أنّهم حافظوا على المسيحية القوطية الغربية التي مارسوها قبل الفتح، إلاّ أنّهم شكّلوا ثقافياً جزءاً لا يتجزّأ من المجتمع الإسلامي، واكتسبوا تدريجياً اللغة العربية كلغة ثانية، لا بل كلغتهم الأمّ أحياناً. غالباً ما احتلّ المستعربون (شأنهم شأن كثير من اليهود، كما سنرى) مناصب هامّة في السلطة في إسبانيا المسلمة. ففي عام 1064، أوفد حاكم سرقسطة أسقفاً مستعرباً مبعوثاً له إلى فرناندو الأوّل، كما عيّن المسيحي أبا عمر رئيساً للوزراء. وربّما كان أحد أهمّ المستعربين على الأرجح هو أسقف إلفيرا، ريثموندو (المعروف في المصادر العربية باسم ربيع بن زيد)، الذي مثّل الخليفة في المحاكم الألمانية والبيزنطية[6]. وغالباً ما قلّد المستعربون المسلمين الإسبان في تغيير أسمائهم إلى أسماء عربية. فمثلما قامت أسرة كاسيوس المسيحية النبيلة بتغيير شهرتها بعد إسلامها إلى «بنو قاسي»، راح المستعربون

الذين يحملون اسم «Lope» أو «Fortun» يكتبون أسماءهم «اللبّ» أو «الفُرتون». كما عمدوا أحياناً إلى ترجمة أسمائهم إلى العربية، بحيث أصبح فيليكس يدعى سعداً[7]. وقد جعلهم وضعهم الغامض، على غرار المسيحيين الفلسطينيين الذين يعيشون اليوم في الضفة الغربية، موضع ريبة من كلاّ الطرفين. فقد حاول البابا غريغوري السابع جاهداً أن يجعلهم يستبدلون القدّاس الروماني بقدّاس المستعربين. وبدا واضحاً أنّ الحماسة الدينية التي أظهرها بعض المستعربين (في القرن التاسع، نفّذت السلطات الإسلامية حكم الإعدام في عشرات منهم لقيامهم بسبّ النبي محمّد (ص) علناً وعلى نحو استفزازي) لم تكن كافية ليستحقّوا اسم «مسيحيين» بالنسبة إلى الكنيسة الكاثوليكية. وعندما استولى الصليبيون على مدينة لشبونة في عام 1147، اقتادوا أسقف المدينة المستعرب إلى خارج الكاتدرائية وقطعوا رأسه.

من بين خليط بربر شمال أفريقيا والعرب العراقيين/السوريين الذين أتوا للاستقرار في إسبانيا المسلمة إلى جانب الإسبان الذين دخلوا في الإسلام (بالعربية المولّدون) أو المسيحين «المستعربين»، كانت آخر أقلية بارزة هم السلاف أو السقالبة. في الأصل، كان هؤلاء عبيداً من شرق أوروبا، عبارة عادة عن صبية أتوا في أغلب الأحيان من القرم والبلقان، أحضرهم الملوك المسلمون للعمل كجنود، وخدم، ومدراء في ممالكهم (كانوا إلى حدّ ما النسخة العربية للإنكشارية عند الأتراك). ومع نهاية القرن الثامن، كان آلاف منهم يعملون لدى الخليفة، ويحتل بعضهم مناصب هامّة في السلطة. فتولّى الجنرال السلافي ناغدا قيادة جيش المسلمين بأكمله في مواجهة قوات ليون في عام 939. وعندما انهارت الخلافة في ثلاثينيات القرن الحادي عشر، تولّى السلاف السيطرة على كثير من الدويلات المستقلة على الساحل الشرقي مثل فالينسيا، ودينيا، وطرطوشة. ولا شكّ أنّ السلاف كانوا مصدر كثير من ذوي الشعر الأشقر والعيون الزرقاء في إسبانيا المسلمة. فالشاعر الشهير ابن حزم (توفي عام 1064)، الذي اعترف هو نفسه بولعه بالشقراوات، قال إنّ الشعر الأشقر والعيون الزرقاء

للخلفاء الأندلسيين هي نتيجة زواجهم من السلاف. فبالطبع، لم تكن أسر الخلفاء تتورّع عن الزواج من غير العرب (كان عبد الرحمن الثالث حفيداً لأميرة مسيحية من الباسك، فيما تزوج ابنه الحكم الثاني فتاة من بلاد الباسك)[8]. وغنيّ عن الذكر، أنّه بغضّ النظر عن الانتماء الاسمي للمسيحيّة لدى السقالبة الأوائل، كان السلاف بمجموعهم مسلمين بالكامل.

عندما يتحدّث الناس اليوم عن «فتح» و«استعادة» «إسبانيا المسلمة»، فإنّ الانطباع السائد هو لمباراة كرة قدم، يتبارى فيها فريقان متعارضان أيديولوجياً، بانسجام تامّ، ضدّ بعضهما البعض. فصورة سرب كامل من «المور» الذين يعتمرون العمائم، ويزحفون على إسبانيا المسيحية رافعين سيوفهم المعقوفة فوق رؤوسهم لها تأثير قويّ على العقل الأوروبي، على الرغم من كونها مجرّد وهم. لكنّ أيّ نظرة جدّية وواعية إلى الفتوحات الإسلامية لشبه الجزيرة الأيبيرية في العقد الأوّل من القرن الثامن تظهر صورة أكثر تعقيداً بكثير، يتجلّى فيها الاستيطان السريع (وإن لم يكن الفوري) للبربر والعرب العراقيين/ السوريين، والاعتناق التدريجي للإسلام من قبل كثير من السكّان الإسبان الأصليين، وتدفّق غير الإسبان، من سلاف، وبربر، ويهود، إلى البرّ الرئيس، والاستعراب الفعلي لمجموعات مسيحية أخرى أكثر تديّناً. أخفى هذا الخليط من المجموعات المختلفة تحت خلافة واحدة كثيراً من التوتّر في العلاقات بين البربر والعرب، وبين أفراد جماعات عربية مختلفة، وبين الوافدين الأوائل والمهاجرين العرب/ البربر الذي جاؤوا لاحقاً من الخارج إلى الأراضي الإسبانية. ومن غير المستغرب أن يسود التقلّب على هذه العلاقات المتوتّرة بين القشتاليين المسيحيين والأراغونيين، أو بين الكاتالانيين و«الغرباء» أمثال الفرنجة أو النورمان، إلاّ أنّ هذه التوتّرات بقيت تحت السيطرة. في القرون الثلاثة التالية لفتح إسبانيا، خضعت بلاد الأندلس الإسلامية لحكم إمارة أو خلافة واحدة، مارست حكماً مركزياً بدرجات متفاوتة. وتعني هذه الاستمرارية للحكم أنّه على الرغم من الخلافات الداخلية والتنوّع العرقي، تمكّنت إسبانيا المسلمة من تجنّب

المشاحنات التي لا طائل منها والاقتتال الداخلي بين المجموعات الإقليمية، وظلّت متّحدة تحت حكم خليفة منصور أو عبد الرحمن. وقد منحتها هذه الوحدة القوّة لأخذ الجزية من الدول المسيحية المتخلّفة والضعيفة المجاورة. لكن مع بداية القرن الحادي عشر، تغيّر كلّ ذلك، وأعيد رسم خارطة إسبانيا بالكامل.

انهيار الخلافة

كما سبق، في عام 997، دخل المنصور مدينة كومبوستيلا الواقعة في أقصى الشمال، وهدم الضريح، وأخذ أجراس الكنيسة معه إلى قرطبة. فأصبحت الهيمنة الإسلامية على الممالك المسيحية الشمالية كاملة. وخلال عشرين عاماً، ستبذل المدينة نفسها محاولات يائسة للعثور على حلفاء مسيحيين، لمساعدتها على السيطرة على الاقتتال الداخلي فيها؛ سيسير الجنود القشتاليون في شوارع قرطبة المسلمة، أوّلاً كقوّات دعم، ومن ثمّ كغزاة. وفي غضون عقدين آخرين من الزمن، ستوشك دول إسلامية مثل سرقسطة وغرناطة على الإفلاس، بسبب المبالغ التي تدفعها للجيوش المسيحية لحمايتها من جيرانها (وبالطبع، من «حُماتها»). وفي عام 1083، أي بعد ثمانين عاماً بالكاد من غزو المنصور لأقدس المدن الإسبانية الواقعة في أقصى الشمال، تطالعنا صورة الملك ألفونسو السادس، على صهوة جواده الذي يضرب بحوافره مياه الشاطئ الإسباني في أقصى الجنوب، وهو يصيح منتصراً: «لقد دست على الأندلس بقدميّ!»[9] فما الذي سبّب هذا التحوّل الجذري في مجرى الأحداث؟

أوّل ما يقال في هذا الصدد، إنّ صرخة ألفونسو السادس كانت تنمّ عن غطرسة، كما كانت سابقة لأوانها. فبعد ثلاث سنوات، مُني بهزيمة نكراء في معركة الزلاّقة (1086). وفيها قامت التعزيزات الإسلامية الآتية من شمال أفريقيا، المؤلّفة من مرابطين قبل أن يتبعهم الموحّدون، بسلبه مكاسبه بالسرعة التي نالها بها. وتحوّل التوسّع قصير الأمد لمملكة قشتالة إلى مجرّد نذير بحروب

«الاستعادة» التي لن تبدأ فعلياً إلاّ بعد مائة عام. مع ذلك، كان القرن الحادي عشر شاهداً على أولى الصدوع في الوجود الإسلامي الذي سيرحل عن إسبانيا نهائياً يوماً ما.

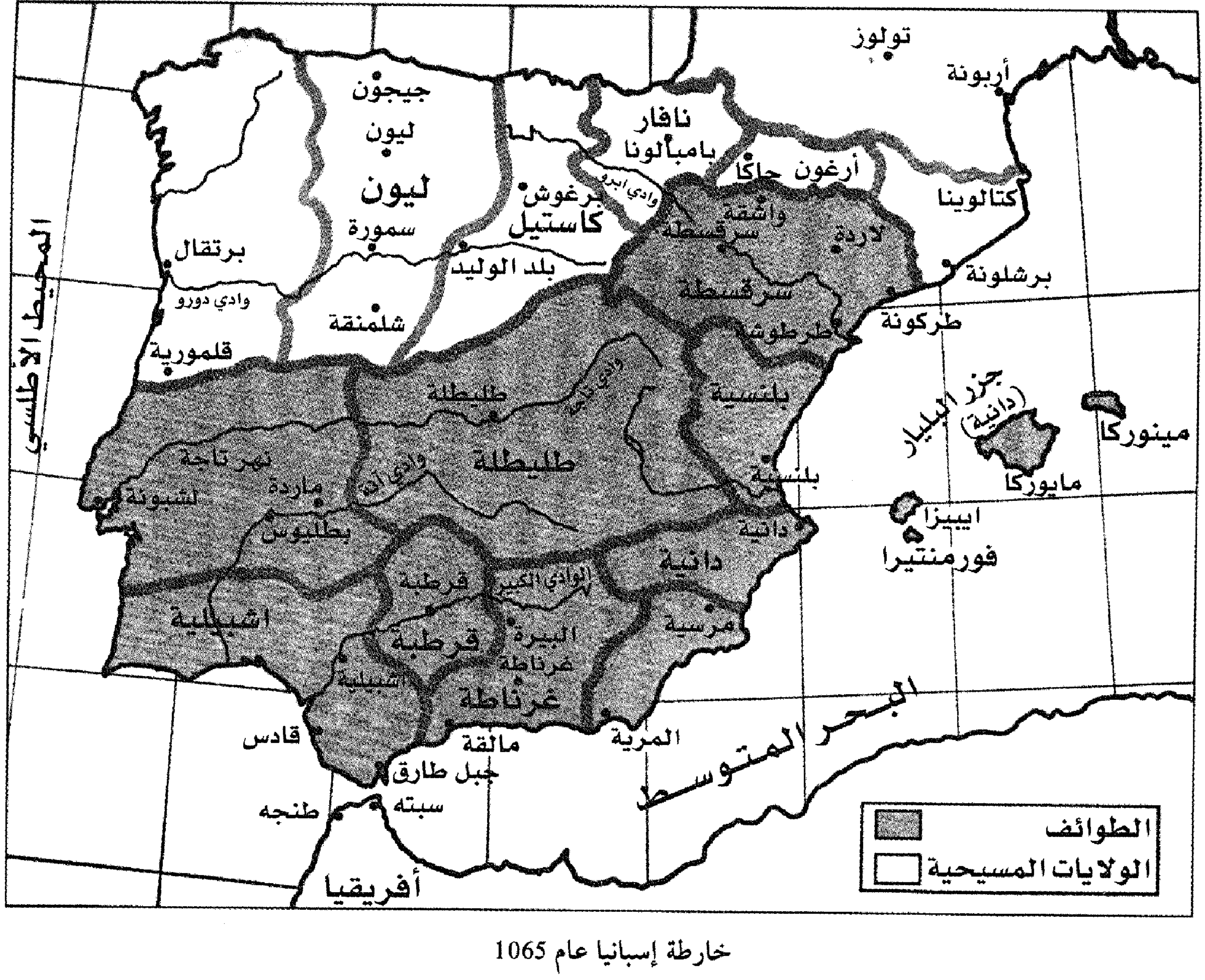
مع أنّ المؤرّخين اقترحوا عديداً من الأسباب للانحسار التدريجي للممالك الإسلامية من إسبانيا، منها تنامي قوّة البحرية الإيطالية، وتكرّر ثورات البربر في شمال أفريقيا، إلاّ أنّ انهيار الخلافة في قرطبة بعد عام 1013 اعتُبر العامل الحاسم. ففي غضون اثني عشر عاماً، تحوّلت الأندلس من قوّة واحدة إلى خليط من الفصائل والدويلات المتخاصمة التي لا تقلّ عدداً عن مناطق فرنسا. عرفت هذه الدويلات باسم «الطوائف»، والملفت أنّها استخدمت في الأصل لوصف خلفاء الإسكندر الأكبر. بحلول عام 1035، بلغ عددها حوالى العشرين. بطبيعة الحال، أفرح هذا الوضع دول الشمال المسيحية، التي وجدت في ذلك فرصة لتقليب دويلة مسلمة على الأخرى، متّبعة المثل القائل فرّق تسُد. كانت الخلافة، تمثّل توارث السلطة الزمنية (وأحياناً الروحية حتّى) التي آلت إلى الخليفة من النبي (ص) نفسه. وبالطبع، وقعت خلافات حول من ينبغي أن يرث الخلافة التي يتمّ توارثها. في الواقع، كان أوّل خلفاء الأندلس في عام 756 هو الناجي الوحيد من عشيرته التي راحت ضحية مجزرة في شبه الجزير العربية، وذلك في صراع على السلطة لا يقلّ وحشية ودموية عن الصراعات التي عرفتها أسرة تيودور (إنجلترا، 1485 – 1603) أو بورجيا (إيطاليا، عصر النهضة). هرب عبد الرحمن الأوّل إلى إسبانيا للنجاة بحياته، وعلى الرغم من بعض الانقطاعات في حكم الخليفة، مع محاولة الديكتاتور المحلي الاستيلاء على السلطة، إلاّ أنّ حكم الدولة الأموية عرف استمرارية في إسبانيا إلى حدّ كبير، وذلك حتّى عام 1013، عندما اختفى الخليفة هشام الثاني.

يُعتقد اليوم عموماً أنّ هشام الثاني توفّي في عام 1013 في هجوم للبربر على قرطبة. وفي النزاع الذي تلا ذلك على السلطة، حاول أنصار الخلافة أن يثبتوا أنّه ما زال حياً، ومختبئاً في مكان ما خوفاً على حياته. وقد نُسجت

حكايات كثيرة حول «إعادة اكتشافه» والادّعاءات العديدة بإيجاده، حتّى إنّ مملكة إشبيلية اعترفت به خليفة في عام 1035. وعثر الحاكم المراوغ المعتضد على ناسج سجّاد من كالاترافا يحمل شبهاً غريباً بالخليفة المفقود، وحاول أن يقدّمه على أنّه هشام الثاني، لكن من دون نجاح يذكر. وحتّى عام 1060، لم تتوقّف المزاعم بالعثور على الخليفة الأسطوري الذي كان قد مضى أكثر من مائة عام على ولادته في ذلك الحين[10].

كانت نتيجة تفكّك الخلافة هو التكاثر السريع للطوائف، وإعادة رسم خارطة إسبانيا المسلمة. فبدأت الصراعات والشقاقات بالظهور مصحوبة بعدد متزايد من التحالفات الإسلامية المسيحية، مع إعلان سرقسطة وإشبيلية عن رغبتهما في دفع المال للجيوش المسيحية لكي تهاجم الممالك الإسلامية المجاورة. في الأندلس، انهارت خلافة قرطبة الموحّدة إلى فسيفساء من أكثر من ثلاث وعشرين مملكة مستقلّة. كان بعضها كبيراً ومستبداً. ولا شكّ أنّ أكبر تلك الممالك كانت إشبيلية، التي دخلت على الفور تقريباً في حرب مع غرناطة المجاورة. أمّا الممالك الأخرى، مثل ألميريا ودينيا، فكانت صغيرة نسبياً، تملك جيوشاً محلية، وطاقة بشرية محدودة. والحكّام الذين تولّوا السلطة في هذه الممالك لم يكونوا دائماً متحدّرين من سلالة الملوك أو النبلاء، بل غالباً ما كانوا أمراء حرب وطغاة محليين، رؤساء عصابات بلا شأن يُذكر، حاولوا تعزيز مكانتهم بألقاب طنانة مثل العظيم، أو الفاتح، أو المقتدر، أو المعتمد. ومع أنّ ملوك هذه الممالك كانوا يتمتّعون بالحكمة والعدل (مثل المقتدر ملك سرقسطة)، إلاّ أنّ كثيراً منهم كانوا إمّا غير كفوئين (مثل القادر، حاكم بلنسية الدمية الذي لم يدم عهده طويلاً)، أو براغماتيين مستبدّين وقساة (مثل المستعين الثاني) يعتمدون في وجودهم على القوى المسيحية النامية في الشمال. وتعليقاً على تلك الألقاب المتكلّفة التي نسبها ملوك الطوائف لأنفسهم، شبّههم الشاعر ابن رشيق (وفاة 1064) بالهرّ الذي ينفخ صدره معتقداً أنّه أسد.

هكذا عرفت السنوات الثمانون تقريباً الممتدّة بين عامي 1009 و1090،



خارطة إسبانيا عام 1065

أي بين انهيار الخلافة وغزو المرابطين الآتين من شمال أفريقيا، بزمن ملوك الطوائف. وعندما اجتاحت الجيوش الإسلامية لبربر شمال أفريقيا الأندلس بشكل نهائي في أواخر القرن، تمّ خلع ملوك الطوائف واحداً تلو الآخر، مثلما يُخلع دكتاتور مستبدّ، وكان مصيرهم إمّا الإعدام أو المنفى، ليمضوا خريف عمرهم في كتابة الشعر أو المذكّرات، في بلدة نائية من شمال أفريقيا. حتّى ذلك الحين سادت بين عامي 1009 و1090 فترة من الاضطرابات السياسية الكبيرة، والنشاط العسكري المكثّف، والطاقة الإبداعية والفنية المطلقة. وقد لاحظ كثير من المؤرخين الظاهرة الغريبة لغزارة المفكّرين، والمثقّفين، والشعراء في زمن من الحروب المستمرّة. ففي وقت تسقط فيه المدن وتحتدم المعارك، ويستمرّ الحصار، عرفت إسبانيا المسلمة أرقى فترات الأدب العربي. فظهر شعراء من أمثال ابن زيتون وابن رشيق في قرطبة، وكتّاب مثل ابن شهيد، ومفكّرون لامعون مثل ابن حزم والمؤرّخ ابن حيّان، وذلك وسط الانقلابات المستمرة، والاغتيالات السياسية، والمجازر الأهلية، والحملات العسكرية التي كانت سائدة في أيّامهم.

ثقافة إسبانيا الإسلامية في زمن الطوائف

ليس من المستغرب، في خضمّ تلك الفترة من الصراعات، أن تظهر مجموعة كاملة من التحالفات الإسلامية المسيحية، مع تنافس الممالك من الديانتين على مركز الصدارة. كانت تلك التحالفات عبارة عن ظاهرة معقّدة ومثيرة للاهتمام، لأنّها غالباً ما تحوّلت وتقلّبت بحسب متطلّبات الوضع. ففي عام 1090 مثلاً، بدّل مسلمو هويسكا حلفاءهم المسيحيين، وتحوّلوا من أراغون إلى قشتالة. وفي حصار إشبيلية، تحوّل المعتمد عن حلفائه السابقين في شمال أفريقيا، وطلب المساعدة من الملك الإسباني نفسه الذي تحالف معهم ضدّه. وفي بعض الأحيان، كان أهالي إحدى المدن يعترضون على سياسات حكّامهم، ويرحّبون بتغيير النظام، الأمر الذي يؤدّي إلى تحوّل في التحالفات أيضاً.

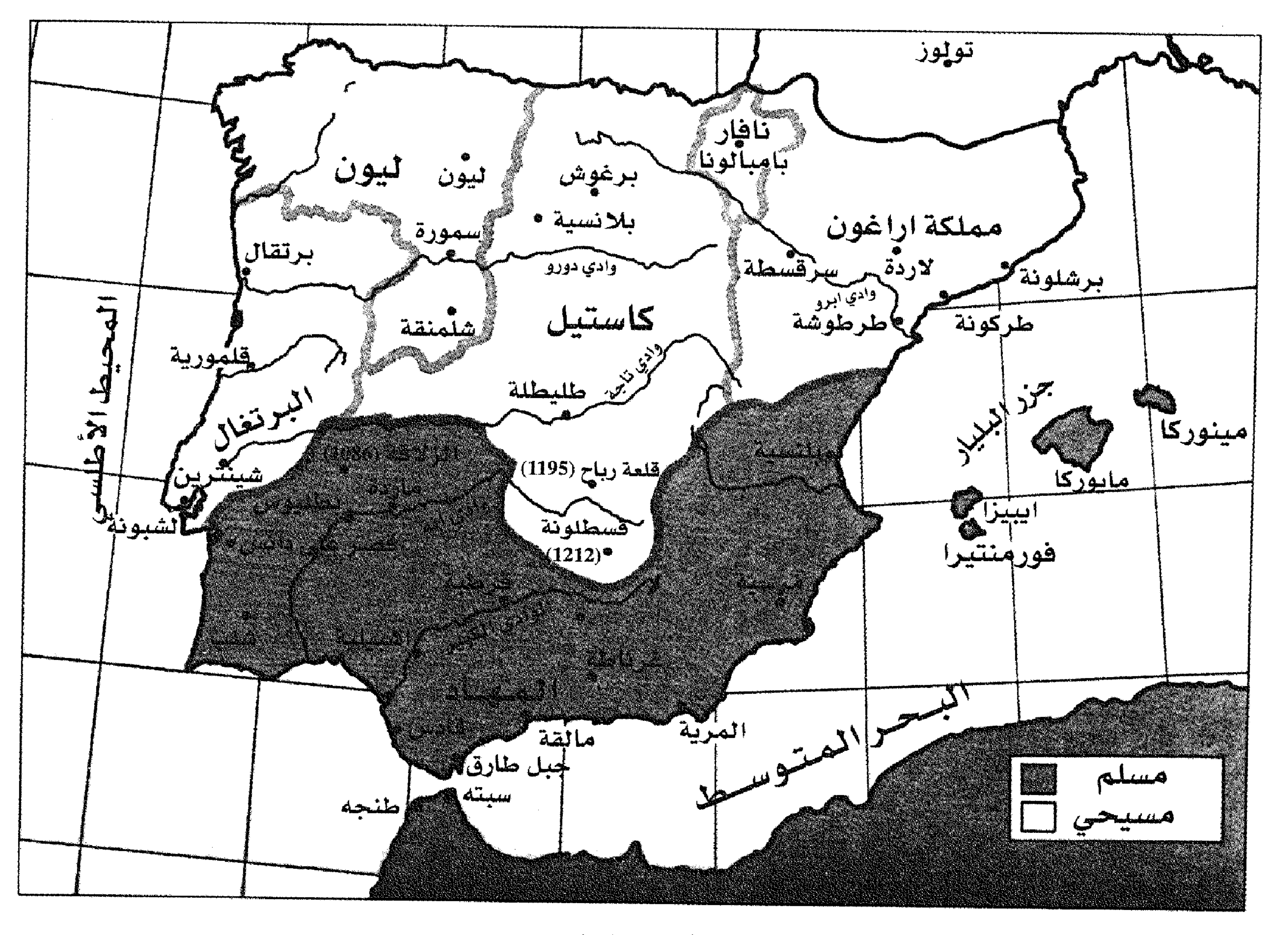
فالضرائب التي كان على الأهالي المسلمين دفعها لحكّامهم، الذين يقيمون علاقات ودّية مع المسيحيين، من أجل تمويل دفاعهم، كانت مصدر استياء واسع النطاق. مع ذلك، كوّن بعض الملوك صداقات طويلة مع حكّام من أديان مختلفة. مثال على ذلك، الصداقة الشهيرة التي جمعت بين ألفونسو السادس والمأمون ملك طليطلة، أو بين المقتدر وسانشو الرابع ملك بامبلونا. في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، نشأ اثنان من أكثر الأحلاف متانة في تلك الحقبة، وذلك بين مملكة ليون-قشتالة (المسيحية) وسرقسطة الإسلامية من جهة، وبين ممالك أراغون وكاتالونيا ومسلمي لاردة.

بالطبع، بالنسبة إلى القارئ المعاصر، ونظراً إلى العداوة المألوفة بين مدريد وبرشلونة، تلك العداوة التي تتجلّى في كلّ شيء، من مباريات كرة القدم إلى اللغة، فإنّ فكرة اصطفاف الكاتالانيين والقشتاليين إلى جانب المسلمين عوضاً عن التحالف مع بعضهم البعض تبدو طريفة، لا بل حتّى رومنسية. لكن لا بدّ من التشديد هنا على أنّ مثل هذه التحالفات الإسلامية المسيحية في القرن الحادي عشر هي أمثلة، وليست استثناءات. حتّى منذ عام 1050، كان لدى كلّ من إسبانيا والأندلس تاريخ طويل من هذا النوع من الأحلاف، بدأ في عام 777 عندما حاول يوسف الفهري، والي سرقسطة، إقامة حلف مع شرلمان. وفي عام 933، رفضت مدينة هويسكا مدّ يد العون لجيش الخليفة في معركة سيمانكاس. كما استعان البربر عام 1009 بالملك سانشو غارسيا للإطاحة بأندلسيي قرطبة. وفي الفترة نفسها تقريباً، أقام بنو ذي النون الذين حكموا طليطلة حلفاً مع مملكة نافار المسيحية، في حربهم على الحدود مع مسلمي سرقسطة. في عام 958، سافر سانشو الأوّل ملك ليون (الملقّب بالبدين لأنّه كان يعجز عن ركوب الخيل لشدّة بدانته) إلى البلاط الإسلامي في قرطبة طلباً للدعم العسكري من أجل استعادة مملكته[11]. وهذا ليس سوى مثال على عديد من الملوك والنبلاء المسيحيين الذين قصدوا بلاط الممالك الإسلامية طلباً للمساعدة؛ منهم ألفونسو السادس، في عام 1072، الذي أمضى تسعة أشهر في طليطلة في بلاط المأمون،

في حين أمضى السِيد المنفيّ أربع سنوات في خدمة حاكم سرقسطة المسلم.

إن كان من الممكن وصف الأحلاف الرسمية المسيحية الإسلامية التي سادت بين الدول في القرن الحادي عشر أنّها شائعة وغير ملفتة للانتباه، فإنّ الاستخدام غير الرسمي لجنود مسيحيين ومسلمين كمرتزقة، ليحاربوا جنباً إلى جنب ضدّ مسيحيين ومسلمين آخرين كان ظاهرة أكثر انتشاراً وقِدماً. فقد كان أمير قرطبة، الحكَم الأوّل (وفاة 822)، على الأرجح أوّل حاكم مسلم استخدم مرتزقة مسيحيين في صفوف جيشه. وفي الحملات الاثنين والخمسين التي قادها المنصور في القرن العاشر ضدّ الدول المسيحية (غزو برشلونة عام 985، بالإضافة إلى مدن أخرى) استخدم في جيشه عدداً كبيراً من الفرسان المسيحيين شديدي الولاء[12]. وفي ثمانينيات وتسعينيات القرن العاشر، كان ثمّة عدد كبير من النبلاء المتمرّدين في ليون، الذين لم يتردّدوا إطلاقاً في مساعدة المسلمين في غزواتهم لمملكة فيرموندو الثاني لقاء مكافأة مالية. ومع أنّ ظهور الأيديولوجية «الصليبية» بعد القرن الحادي عشر قلّص من هذه الأنشطة العابرة للأديان، إلاّ أنّه لم يضع حدّاً لها بأيّ حال من الأحوال. وما زال ثمّة روايات لا تنتهي، تمتدّ إلى القرن الثاني عشر، والثالث عشر، وحتّى الرابع عشر عن مرتزقة مسيحيين قاتلوا بحماسة عظيمة في صفوف جيوش إسلامية ضدّ عدوّ مسيحي. وليست قصّة «ريفيرتر» الشهير، فيكونت برشلونة (وفاة 1144) الذي قاد عديداً من جيوش المرابطين بنجاح عظيم، سوى مثال على لامبالاة المرتزقة بالانقسامات الدينية. واضطرار البابا إنوسنت الثالث، في عام 1214، لتهديد المسيحيين بالحرمان الكنسي إن ساعدوا المسلمين ضدّ روما يشير إلى أنّ أوروبا العصور الوسطى لم تستجب بأكملها للدعوة إلى المشاركة في الحملات الصليبية[13].

بطبيعة الحال، ثمّة شكل معاكس لهذا النموذج، أي جنود مسلمون حاربوا في صفوف جيوش مسيحية ضدّ عدوّ مسلم. نستمدّ بعضاً من هذه الأحداث من خلال الاستهجان الإسلامي لها. فيعبّر ابن رشد (وفاة 1126) في إحدى الوثائق



خارطة إسبانيا عام 1214

التي كتبها عن استنكاره إزاء عدد كبير من المسلمين في برشلونة لم يتردّدوا في مساعدة المشركين في غاراتهم على الأراضي الإسلامية، التي لم يكد يمضي عام على استعادتها من قبل المسيحيين[14]. ولم تكن شخصيات من أمثال أبي جعفر أحمد الملقّب بسيف الدولة في سرقسطة، الذي توفّي في معركة في سبيل قضية قشتالة في جنوب البلاد، حالة غير مألوفة على الإطلاق. وإن أدخلنا في الصورة هذا التقلّب المحيّر للتحالفات في الخارطة المتغيّرة أبداً للطوائف والممالك المسيحية، وتفاوت التوتّر في العلاقات، وصعود وسقوط حظوظ كلّ إمارة، يصبح ظهور مجموعة غير تقليدية على الإطلاق من التحالفات أمراً ممكناً. فعندما يقوم النورمان بارتكاب مجزرة في مدينة مليئة بالمسلمين في شمال إسبانيا (بارباسترو)، لا ينبغي لنا أن نفاجأ حين تقوم فرقة مؤلفة من مسلمين ومسيحيين بالأخذ بالثأر واسترجاع المدينة في العام التالي.

كم ينبغي لنا أن نكون متشكّكين إزاء مثل هذه التحالفات؟ للوهلة الأولى، يبدو من البديهي القول إنّها كانت مجرّد نتيجة للضرورة السياسية. وقد يرى البعض إنّ مقولة «عدوّ عدوّي صديقي» لطالما كانت صحيحة. ففي الأوضاع العسكرية/ السياسية/ الاقتصادية اليائسة، غالباً ما كانت الأطراف المتعارضة تماماً على استعداد لقمع العداوة المتبادلة، أو حتّى الادعاء أنّها تملك سلسلة من القيم المشتركة، لكي توحّد قواها مؤقّتاً ضدّ عدوّ آنيّ مشترك. فقيام آلاف الأكراد العراقيين في عام 2003 باستقبال القوّات الأميركية بحفاوة في بلادهم (نشرت محطة سي أن أن وفوكس نيوز صوراً لا حصر لها لفرحة الأكراد العارمة)، ومشاركة القوات الأميركية البريطانية على نحو فاعل في الإطاحة بالنظام البعثي، لم يعكس «اكتشافاً» للإنسانية المشتركة بين الجنود الأميركيين وأكراد العراق. كما أنّ التحالف الذي تمّ بين الأكراد والقوات الأميركية لم يشكل تعبيراً دائماً عن التعاون الثقافي/ الأيديولوجي، بل مجرّد ممارسة مفيدة للطرفين: فقد أراد الأكراد والولايات المتّحدة على السواء، ولأسباب مختلفة تماماً، الإطاحة بصدّام حسين. وقد نميل إلى قول الشيء نفسه عن الأحلاف

القشتالية السرقسطية، أو الوحدات العسكرية الكاتالانية الإسلامية، أي أنّها كانت نتيجة النفعية والاستراتيجية، لا الصداقة والتشابه الثقافي. وقد نستنتج أنّ مسلمي ومسيحيّي القرن الحادي عشر الذين حاربوا في الجيوش نفسها في غراوس أو هويسكا، وحاصروا المدن نفسها في بارباسترو أو توديلا، وجدوا أنفسهم ببساطة يقاتلون جنباً إلى جنب لأسباب تقتضيها ضرورات سياسية بحتة.

ثمّة سببان يستدعيان رفض هذا التشكّك، لا سيّما إن كان مفرطاً. يكمن السبب الأوّل في الطبيعة الشخصية للغاية للتفاعل بين الحكّام الإسبان المسيحيين والمسلمين حتّى تلك الفترة. فقد كان الملوك المسلمون والمسيحيون يستمتعون بالصداقة التي تجمع بينهم، ويحضرون أو يستضيفون حفلات زفاف بعضهم البعض، حتّى إنّهم في بعض الأوقات كانوا يتزوّجون من أقارب بعضهم البعض. على سبيل المثال، قام المنذر، والي سرقسطة (1010-16)، باستضافة إحدى أكبر حفلات الزفاف في البيرينيه في ذلك الوقت، عندما تزوّج رامون بيرينغير كونت برشلونة من سانشا أميرة قشتالة[15]. ولم تكن الزيجات بين أبناء الحكّام المسلمين والمسيحيين، التي شملت أحياناً الحكّام أنفسهم، بعيدة عن المألوف. فزواج سانشو ملك بامبلونا من ابنة المنصور في عام 992 لم يكن بالتأكيد مثالاً فريداً من نوعه. وبغضّ النظر عن كثير من أميرات الباسك اللواتي تزوجنّ من خلفاء أندلسيين، تعتبر زوجة ألفونسو السادس المسلمة، زايدة، كنّة المعتمد ملك إشبيلية الأرملة، مثالاً أكثر شهرة بزواجها منه وإنجابها طفلاً في عام 1093. وفي عام 909، عندما تمّت الإطاحة بوالي هويسكا المسلم من قبل رعاياه، هرب (بحسب إحدى المصادر العربية) إلى بلاط «سانشو بن غارسيا، الذي كانت تجمعه به رابطة زواج»[16]. وإن أردنا أن نتجنب الوقوع في فخّ كليشهات حروب الاسترداد (reconquista)، ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار هذه العلاقات الودّية بين الحكّام المسلمين والمسيحيين، التي كانت سطحية أحياناً، غير أنّها استندت إلى مودّة حقيقية، وحتّى إلى روابط دم في كثير من الأحيان الأخرى .

ثمّة سبب ثانٍ أكثر أهمّية يدفعنا لأن نكون أقلّ استخفافاً حيال الأحلاف الإسلامية المسيحية لتلك الفترة، ويتعلّق بالتاريخ الثقافي لإسبانيا الإسلامية. فاعتبار الائتلافات الكتلانية/الإسلامية مجرّدَ تمارين في السياسة الواقعية للعصور الوسطى يعني إغفال قرون من التعايش بين الأديان الثلاثة في شبه الجزيرة الأيبيرية. إذ كانت إسبانيا الإسلامية ببساطة مكاناً تشارك فيه اليهود، والمسلمون، والمسيحيون مجموعة متنوّعة من اللغات، والفنون، والعادات. في تلك الحقبة، تحدّث أساقفة إسبانيا العربية، وتحدّث الأئمة اللادينو [لغة إسبانية يهودية]، وقدّم فيها الوزراء اليهود المشورة إلى الخلفاء، وأقاموا حفلات عشاء للشعراء المسلمين في الحدائق الرئاسية. من أجل فهم هذا الأمر تماماً، علينا تخصيص بعض الوقت للاطّلاع على ما كان عليه مجتمع الأندلس في القرن الحادي عشر.

إنّ النقاشات التاريخية الحديثة حول مدى «تعدّد الثقافات» في إسبانيا الإسلامية – وإلى أيّ حدّ يمكن اعتبار إشبيلية وقرطبة «مدناً فاضلة متعددة الأديان»[17] – توشك أن تتطوّر إلى أشكال مختلفة من هذا النوع من الجدالات: «هل الكأس نصف فارغ أم نصف ممتلئ؟». بحسب مقاييس يومنا هذا، تعتبر بعض أوجه المجتمع الأندلسي بعيدة كلّ البعد عن مفهومنا لكلمة «التسامح». فالجدالات الطائفية بين الأديان الثلاثة كانت أكثر من شائعة، لا بل مسيئة في كثير من الأحيان، وحتّى استفزازية على نحو متعمّد أحياناً. شهدت تلك الحقبة مجازر طائفية، وغالباً ما استهدفت اليهود (في إشبيلية مثلاً، عام 1066). في أكثر الفترات تعصّباً، وتحت حكم أكثر الملوك استبداداً، كانت العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين تنظّم على نحو صارم. فكان يُحظر بيع الكتب الإسلامية لليهود والمسيحيين، ولا يسمح بقرع أجراس الكنائس، ويُمنع الأطبّاء اليهود من علاج المرضى المسلمين[18]. وفي حالات متطرّفة، كان يُفرض على المسيحيين واليهود ارتداء ملابس مختلفة عن ملابس المسلمين.

لا شكّ في أنّ مثل هذه الحقائق تحذّرنا من إضفاء أجواء رومنسية على

إسبانيا القرون الوسطى، وتصويرِها كأنّها نعيم يسوده التسامح والتعددية الثقافية (كما فعل ديزرائيلي لاحقاً في حججه المؤيّدة لتحالف أنجلو عثماني). لكنّ ما ينتج عن الكمّ الهائل من الأبحاث التاريخية المخصّصة لإسبانيا الإسلامية، التي امتدّت حياتها على قرون عديدة، هي مجموعة من المدن والبلدات الصغيرة المتسامحة إلى حدّ كبير، ومتعدّدة الألسن والأوجه. إنّه مجتمع لطالما حذّر فيه الصفائيون المنتمون إلى الأديان الثلاثة من مغبّة كثرة الاختلاط بثقافات جيرانهم الكفّار، تحذيرات تمّ تجاهلها على نطاق واسع. فمع أنّ معاداة السامية مثلاً كانت سمة ثابتة في إسبانيا القرن الحادي عشر، غير أنّه ثمّة اتّفاق شبه كامل على أنّ إسبانيا المسلمة امتازت ببيئة أكثر تسامحاً بكثير تجاه اليهود من أيّ مجتمع مسيحي. في الواقع، كان هذا التسامح سبباً من الأسباب التي دفعت باليهود إلى الذهاب إلى إسبانيا بالآلاف في ظلّ الحكم الإسلامي، كما كان، بطبيعة الحال، السبب الذي جعلهم يرحلون عنها بالسرعة نفسها عندما استعاد الحكّام المسيحيون سيطرتهم على البلاد. وتنطبق هذه المقارنة على أجزاء أخرى من المغرب الذي شكّلت الأندلس جزءاً منه. ففي رسالة ترجع إلى عام 110، كتبها يهودي إسباني إلى ابنه بينما كان مسافراً في المغرب، عبّر عن دهشته من مستوى معاداة السامية هناك، وأعلن أنّ الحياة في وطنه ألميريا تعدّ «مثل الخلاص» بالمقارنة.

ولا شكّ أنّه كان للغة دور محوري في كلّ هذا. هذا لا يعني أنّ إسبانيا القرن الحادي عشر امتلكت لغة شفّافة شبيهة بالإسبيرانتو يستطيع فيها الجميع التعبير عن أنفسهم بوضوح. بل كان الوضع الفعلي عبارة عن واحدة من لغتين أو أكثر، يتنافس فيه عدد من اللغات (اللاتينية، ونسخة القرون الوسطى الرومنسية لما نسمّيه اليوم اللغة الإسبانية، والعبرية، واللهجات البربرية) مع اللغة العربية المهيمنة على مركز الصدارة في الخطاب الاجتماعي. والشكاوى المتكرّرة للصفائيين الذين سعوا إلى الحفاظ على ديانتهم/ ثقافتهم/ لغتهم هي دليل جيّد على أنّ الحدود بين المسلمين، والمسيحيين، واليهود لم تكن تسمح

بالاختلاط وحسب، بل كانت شديدة التبدّل أيضاً. وربّما كان أشهرها هي شكوى أسقف قرطبة، باولوس ألفاروس (متوفّى عام 861)، الذي أعرب عن خشيته من انجرار الشباب المسيحيين خلف الثقافة العربية ونسيانهم لثقافتهم:

أتساءل، هل يوجد اليوم بين عامّة المؤمنين من يدرس الكتب المقدّسة ويبحث في الكتابات اللاتينية للأطبّاء؟ ...عوضاً عن ذلك، فإنّ شبابنا المسيحي... الفخور بطلاقته باللغة العربية، ينكبّ بنهم على دراسة كتب الكلدانيين [المسلمين]. للأسف، لم يعد المسيحيون يتقنون لغتهم، ولم يعد اللاتينيون يتعلّمون لغتهم الأمّ، بحيث أنّنا ما عدنا نجد في المجتمع المسيحي بأكمله واحداً بالألف قادراً على التكلّم مع أخيه بشكل صحيح...[19]

يذكّرنا هذا المقطع كيف تُشكّل إسبانيا المسلمة، بالإضافة إلى كتابات الرهبان السوريين وترجماتهم لأفلاطون وأرسطو، مثالاً آخر يبيّن لنا كيف سيعيد عالم المسيحية المستعربة تعريف الغرب على تقاليده اليونانية. في الوقت الحاضر، كان من المريح أن ينسى المسيحيون عقدة النقص التي كانوا يشعرون بها تجاه العالم الإسلامي في بدايات القرون الوسطى. ففي برشلونة في ثلاثينيات القرن الثاني عشر، كتب أفلاطون تيفولي يشتكي من جهل الغرب، وذكر كيف أنّ روما بقيت «لوقت طويل متخلّفة عن مصر، واليونان، وشبه جزيرة العرب»[20]. يعتبر تحذير ألفاروس للشباب المسيحي مثيراً للسخرية ليس لأنّه يجعل «الطلاقة باللغة العربية» تبدو أشبه بموسيقى البوب أو الإنترنت فحسب، بل لأنّ كثيراً من الأدباء المسلمين أطلقوا تحذيرات مشابهة. إذ تحسّر المعجميّ ابن سيدا (وفاة 1066) على عدم نقاء اللغة العربية في بلاد «يتعيّن فيها على المرء أن يعيش بألفة مع أشخاص يتحدّثون الرومانسية [لغات ناشئة عن اللاتينية]». كما تشير القصص التي تتناول الدعاة المسلمين في القرن الثالث عشر في الأندلس إلى أنّ بعض المسلمين كانوا لا يجيدون اللغة العربية على الإطلاق، في حين قيل إنّ أحد قضاة توليدو المسلمين كان ضليعاً في الرومانسية إلى حدّ أنّه بدا مسيحياً[21]. أمّا ابن ميمون، الذي كان على الأرجح أعظم فيلسوف

يهودي في كلّ العصور، والذي عاش في قرطبة، فلـم يكتب دليل الحائر (1191) بالعبرية بـل بالعربيـة. بالطبـع، من غيـر المسـتغرب أن يُعـرب اليهـود أيضاً عن اسـتيائهم من هذه التعدّدية اللغوية. ففي أوائل القرن الثالث عشر، اشتكى أبراهام بن حسـداي، الذي عاش فـي برشـلونة، من تأثيـر بلاغة المسـلمين علـى عبريّة اليهود، بحيث أصبحوا عاجزين عن الكتابة بفصاحة في لغتهم الأمّ.

إن أردنـا أن نقدّم مثـالاً واحداً ملموسـاً عـن تعـدّد الثقافـات وتداخلها في إسـبانيا القرن الحادي عشـر، يعتبر نمط الزجل الهجين كافياً علـى الأرجح. فهو عبارة عن شكل من أشكال الشـعر العربي، قصيدة حبّ عادة، من أصل أندلسي، تمتزج فيها عدّة لغات. غالباً مـا ينتهي الزجل العربي بمقطع رومانسـي، أو حتّى عبـري، مسـتخدماً إحـدى الأبجديـات الثـلاث المتاحة في تلـك الحقبـة. وهذا التواجد للغتين أو حتّى ثلاث أحياناً في صفحة واحدة، بحيث تذوب معاً لتشكّل إبداعاً أندلسـياً واحداً، ينقـل لنا، على نحو أفضـل ممّا تفعله مجموعـة كاملة من البراهين الأكاديمية، ذاك التفاعل المعقّد للثقافات في ذلك العصر.

هكذا عـاش اليهود، والمسـلمون، والمسـيحيون معاً في إسـبانيا المسـلمة، ليس فـي تناغم دائم، بـل في ظلّ معرفـة وثيقة ببعضهـم البعض. وسـادت بينهم بكلّ تأكيـد ألفة تفـوق تلـك التي تربـط اليوم بيـن أهالي برليـن والألمـان أتراك الأصـل الذيـن يعيشـون فـي حيّهـم، أو بيـن الأسـرة البريطانيـة متوسّـطة الحال والسـوريين القاطنيـن معهـم فـي ضواحـي لنـدن. ففـي بعـض الأحيـان، كثرت الجدالات والخلافـات المريرة، ووصلت إلـى أعمال عنف واسـعة النطاق (مثل أعمال الشـغب العامـة التـي راح ضحيّتهـا اليهود فـي غرناطـة عـام 1066). من الأمثلـة الجيدة علـى أولئك المجادليـن، ومدى الفصـام الذي يمكـن أن يبلغوه، هو ابن حزم، المفكّر المسـلم الشـهير (وفاة 1064). فقد ألّف ابـن حزم أكثر من 400 عملاً، بما في ذلك بحثـه حول الحب، طوق الحمامة. غيـر أنّه يبدو للناس مثل رجل يهـوى مجادلـة كلّ من يقابلـه. إذ نجد سـجلات لجـدل لاهوتي حامٍ دار بيـن عامـي 1027-30 بيـن ابن حـزم وقاضٍ مسـيحي فـي قرطبـة، غذّته من

دون شكّ الطاقة نفسها التي أنتجت شروحه عن تناقضات الأناجيل، واعتقاده بالإلحاد الجوهري في الإيمان اليهودي، واتّهامه للباطنيين المسلمين بالهرطقة، واختلافه بشكل أساسي مع كلّ من ليس ابن حزم. لكلّ هذه الأسباب، ثمّة مفارقتان تكمنان خلف جدالات هذا المفكّر الإسلامي الحماسي: أوّلاً، تكشف مساجلات ابن حزم ضدّ الديانات الأخرى معرفة كبيرة بتقليد التعليق اليهودي، مثلاً، وهي معرفة تبيّن على نحو متناقض كيف عاشت الثقافات الفكرية للديانات الثلاث إلى جانب بعضها البعض. ثانياً، تبيّن سيرة ابن حزم تعايشاً على مستوى عالٍ مع المثقّفين اليهود. إذ ربطته صداقة بعدد من اليهود في قرطبة، وتعلّم قدراً كبيراً من اللغة العبرية في حواراته معهم. بالطبع، لم تكن هذه اللقاءات بين المتديّنين جدلية أو انفعالية بالضرورة. فقد كان مسيحيو طليطلة يسافرون إلى بايثا لمجرّد لقاء عالم مسلم مشهور، هو عبد الله (وفاة 1158). مع ذلك، فإنّ النقاشات التي دارت بين ابن حزم والمفكّرين اليهود والمسيحيين، في قرطبة وغيرها، تعكس مستوى الاعتراف المتبادل (لكان «الحوار» مفارقة تاريخية) الذي كان موجوداً في مدن إسبانيا المسلمة.

لم تكن اللقاءات التي جمعت بين أشخاص ينتمون إلى ديانات مختلفة في الأندلس دينية محض. فقد كانت قصائد الحبّ تقليداً شائعاً. إذ غالباً ما كتب شعراء أمثال ابن الزقاق البلنسي (وفاة 1133) قصائد حب غير متبادل لفتيات مسيحيات [...][22]. وقد شجّع المنصب الهامّ لكثير من اليهود الإسبان كرؤساء وزراء في ممالك الطوائف على هذا النوع الأدبي المصغّر. فكان الشعراء المسلمون يتوجّهون إلى وزراء أمثال صموئيل ابن النغريلة (الذي كان بكثير من الطرق دزرائيلي الغرناطي) باسم «ابن يوسف» الآتي من «عشيرة موسى» (عليه السلام)، وفي ذلك تغيير مفرح عن عن النعوت المعادية للسامية التي كان الأدباء الملمون والمسيحيون على السواء قادرين على استخدامها ضدّ اليهود؛ هتى لو كان هذا الثناء المفرط يسعى من الدون شكّ إلى نيل الحظوة السياسية بدلاً من التفاهم المتبادل.

انتشـرت عبـارة «صـدام الحضـارات» كثيراً فـي السـنوات الأخيـرة، وذلك لوصف خلاف معيّـن أو صـراع ثقافـي بمصطلحات عالميـة وجيوسياسـية. وما تكشـفه الدراسـة المتأنّيـة للإطـار الثقافي لإسبانيا المسـلمة فـي القـرن الحادي عشـر، قبل كلّ شـيء، هو الجهـل التاريخي لهـذا المصطلـح. ففـي مجتمع من مجتمعات القـرون الوسـطى، يتبـادل فيـه الـوزراء اليهـود النكات مـع ضيوفهم المسـلمين على موائد العشـاء، وتنتمي فيه لغات مثـل العربية أو الرومانسـية إلى الكنيسـة والمسـجد على حدّ سـواء، ويمكن إيجادهما في زجل أو ترنيمة، حتّى إنّ المجرمين المسلمين والمسيحيين يجتمعون فيه في لحظات مؤثّرة من التعاون بين الثقافات، لنهب قرية أو سـرقة أغنام تنتمي إلى إخوانهم فـي الدين، ما يظهر لنا هو السهولة التي تمكّنت فيها إسبانيا المسـلمة من وضع هويّاتها الدينية جانباً عندما كانـت الظروف تفـرض عليها ذلك. وحادثة تسـلّل قاتل مسـلم في معركة غراوس (1063) إلى معسـكر الملـك راميـرو الأوّل لقتله، وتمكّنه مـن ذلك من دون أن يُكشف أمره لأنّه يتقن لغة المسلمين، تكشف لنا الكثير عن مدى التشابه الثقافي الذي جمع بين المسـلمين والمسـيحيين[23]. وليس من السخيف الإشارة إلى أنّ هذا التشـابه الثقافـي، بالإضافة إلى المنفعة السياسـية، سـاعد المسـلمين والمسـيحيين كثيراً على القتـال إلى جانب بعضهـم البعض، وقلّـص من الأحقاد التي فرّقت بينهم في حروبهم ضدّ أبناء دينهم.

تسلسل الأحداث: من نهاية الخلافة حتّى تتويج ألفونسو السادس

إنّ قصّـة بدايـة نهايـة إسـبانيا الإسـلامية، التي تشـكّل أهـمّ أحـداث القرن الحادي عشـر الأيبيري، لا يمكن إيجازها في انهيار الخلافة فحسب، بل تتضمّن تفاصيل وفـاة ملكين أيضاً. فثمّة تناظر مثير للسـخرية بين سـقوط سانشـو الأكبر وفرنانـدو الأوّل، الأب والابن اللذيـن فصلت ثلاثـون عاماً بيـن وفاتهما (1035 و1065)، وفـي كلتا الحالتين، قسّـما مملكـة كاملة إلى عـدّة أجـزاء وورّثاها إلى

عدّة أبناء، ليتشاجروا لاحقاً مع بعضهم البعض، ويسجنوا بعضهم، وحتّى يقتل واحدهم الآخر، من أجل جمع الميراث مجدّداً. بدأ سانشو الأكبر بمملكة نافار الصغيرة في البيرينيه. وبواسطة سلسلة من الزيجات المدبّرة، واغتيال أحد الأصهرة بين حين وآخر، تمكّن من دمج الممالك الشمالية الأخرى، أي أراغون، وليون، وقشتالة، في مملكته. كما رأينا، غيّر الصراع الداخلي المتفاقم في الخلافة الإسلامية الوضع السياسية برمّته بالنسبة إلى ممالك الشمال المسيحية. إذ بدأت الجارات المحرومة والضعيفة، الواقعة على الأطراف الأندلس القوية والثرية، تتحوّل إلى مراكز قوّة منافِسة يمكنها أن تتحالف، وتتدخّل، وحتّى تسيطر على بعض الفصائل داخل الخلافة المتفكّكة. وما يعكس هذا التحوّل البارز لميزان القوى نحو الشمال هو تمكّنُ جيوش مسيحية مختلفة من مساعدة الأطراف المتنازعة في ثورة البربر التي اندلعت بين عامي 1008-10.

عندما توفّي سانشو الأكبر عام 1035، كان قد حقّق عدداً من الإنجازات للطرف الشمالي المتواضع من إسبانيا الذي ازدحم بممالكه. فقد بنى ضريح القدّيس جيمس في كومبوستيلا، وجعله مزاراً رئيساً للمسيحيين من غير الإسبان، لم يسبق له مثيل سوى في روما والقدس. أمّا في الجنوب، وبينما كان القتال محتدماً بين مختلف الفصائل، من سلاف، وبربر، وأندلسيين، من أجل السيطرة على شبه الجزيرة الأيبيرية، استغلّ سانشو الأكبر هذا الوضع، ليس لتوحيد ممالك الشمال المسيحية (وإن على نحو مؤقّت) فحسب، بل لدمج إسبانيا المسيحية على نحو أفضل في العالم المسيحي الغربي. وعندما شعر سانشو باقتراب أجله، قام بتقسيم مملكته التي وحّدها حديثاً إلى أربعة أقسام، بحسب عادة القوط الغربيين، وأعطى قسماً لكلٍّ من أبنائه. فورث فرناندو الأوّل مملكة قشتالة وهو في سنّ السابعة عشرة، وسرعان ما تمكّن خلال عامين من ضمّ ليون ونافار بعد وفاة شقيقه (غارسيا) وصهره (فيرمودو الثالث).

خلال الأعوام الثلاثين من حكم فيرناندو الأوّل (1035-65)، بدأت سلسلة

من الأحداث بالوقوع على جانبي الفجوة الإسلامية المسيحية. فمع نموّ مملكة ليون-قشتالة التي حكمها فرناندو، ومع الصراعات التي سادت بين ممالك الطوائف وأدّت إلى تقسيمها وتكاثرها، بدأت مجموعة واسعة من الأحلاف المختلفة والمتبدّلة بالظهور بين مختلف الملوك المسلمين (ليس فرناندو فحسب، بل ملكي نافار وأراغون المتخاصمين أيضاً) والدويلات الإسلامية المتناحرة. وغالباً ما قامت هذه الأحلاف على تقديم الملوك المسلمين الذهب كـ«أموال حماية» (بارياس *parias*) مقابل الحصول على الدعم العسكري من جيرانهم المسيحيين عند تعرّضهم لهجوم. فقد كان عديد جيوش بعض ممالك الطوائف منخفضاً على نحو مثير للعجب. فكان عبد الله ملك غرناطة بالكاد يملك مائة من بربر زناتة في حاميته العسكرية، في حين لم يكن لشقيقه تميم في ملقة سوى ثلاثمائة أو يزيد. ومع أنّ المعلّق ابن عذاري ذكر في تعليق له يبدو مبالغاً فيه أنّه تمّ إعطاء عشرة آلاف رجل لجيش فرناندو الأوّل، إلاّ أنّ الفرقة التي سادت بين الطوائف وتوسّع مملكة ليون قشتالة في الوقت نفسه حوّلت مملكة الأندلس، التي عرفت بقوّتها، إلى مجموعة من البيادق التي سيعمد الأراغونيون والقشتاليون إلى تقليبها ضدّ بعضها البعض لمصلحتهم الخاصّة.

تعتبر سرقسطة مثالاً جيداً على ذلك، وهي مملكة إسلامية تقع في الشمال، وتحدّها من كلّ الجهات تقريباً كاتالونيا، ونافار، وأراغون، وقشتالة. عانت قشتالة من نقطة ضعف جغرافية لأنّها كانت محاطة ليس بمملكة مسيحية واحدة، بل بأربعة ممالك. لهذا السبب، وجدت نفسها أحياناً تدفع الباریاس لأربعة ملوك في وقت واحد. غير أنّه في بعض الأحيان كان الولاة المسلمون يسرّون بتلقّي دعم إضافيّ ضدّ أعدائهم، سواء كانوا مسيحيين أم مسلمين. في عام 1055، وقّع المقتدر والي سرقسطة على تحالف مع «صديقه» (*amicum suum*) سانشو الرابع ملك نافار. في هذه المعاهدة، وعد سانشو بشنّ هجوم على جيرانه الأراغونيين إن حاولت جيوشهم احتلال بلدة هويسكا المسلمة. في الواقع، لم تكن هذه التحالفات مجرّد «ترتيبات مؤقّتة» بأيّ شكل من الأشكال، ذلك أنّ

التعاون بين سرقسطة المسلمة ومملكة قشتالة/ نافار له تاريخ طويل، وسيستمرّ خلال القرن التالي. وبعد أربعين عاماً، عندما يستعيد الأراغونيون سيطرتهم على المدينة المسلمة أخيراً في عام 1096، سيذكر المعلّقون المحلّيون وجود «بعض المسيحيين الأشرار» الذين ساعدوا المسلمين على الاحتفاظ بالبلدة. بالطبع، كان هؤلاء «المسيحيون الأشرار» قشتاليون يقاتلون لصالح ملك الطائفة ضدّ أعدائهم الألدّاء، الأراغونيين[24]. فالتاريخ الغريب من الكراهية والقتل بين الأشقّاء لدى ملوك سرقسطة جعل المملكة عرضة بشكل خاصّ لإقامة أحلاف مع جاراتها من الممالك المسيحية. بالتأكيد، لم يكن ثمّة حبّ مفقود بين المقتدر وشقيقه يوسف، ملك ليريدا. فمنذ عام 1051، عمد يوسف إلى دفع المال للكاتالانيين (على الجهة الأخرى من حدود سرقسطة مقابل نافار) لحمايته من قوّات أخيه في سرقسطة. وكانت أسبابه وجيهة، ففي عام 1058، تعرّض يوسف لمحاولة اغتيال فاشلة عندما قام المقتدر بدفع المال لفارس مسيحي من نافار ليقوم بقتل شقيقه. وانقسام المملكة الإسلامية إلى نصفين، سرقسطة وليريدا، تحت حكم شقيقين يحقد أحدهما على الآخر، سيشكّل مصدراً لتحالفات بين ممالك من أديان مختلفة حتّى مرحلة متقدّمة من القرن التالي، بحيث تكسب ليريدا الشرقية الدعم من جيوش برشلونة وأراغون المسيحية، بينما تسعى سرقسطة الغربية إلى التحالف مع قشتالة ونافار. في الواقع، من أوّل المعارك التي شارك فيها السيد الشهير في سنّ الثامنة عشرة هي الحملة القشتالية لاستعادة بلدة غراوس القشتالية، في عام 1063، من الأراغونيين مع جيش مكوّن من المسلمين والمسيحيين. أتت المعركة، التي خسر فيها ملك أراغون (راميرو الأوّل) حياته، كنتيجة دقيقة للوعد الذي قطعه سانشو الرابع على المقتدر. وحقيقة أن يكون حاكم مسيحي على استعداد لقتل عمّه الأراغوني من أجل الحفاظ على وعد قطعه لنبيل مسلم، مجدّداً، يجب أن تدفعنا على التفكير في طبيعة العلاقات الإسلامية المسيحية في تلك الحقبة.

ضمن إسبانيا المسلمة نفسها، كانت طائفة إشبيلية واحدة من أكثر الممالك

توسّعية وعدوانية، بحيث بدأت على الفور تقريباً، بعد الفوضى التي عمّت في فترة ما بعد الخلافة، بابتلاع الممالك الإسلامية الأصغر حجماً، مثل روندا والجزيرة الخضراء. وبسبب الحرب التي استمرّت سبعة عشر عاماً مع مملكة غرناطة (1039-1056)، «اللاعب الكبير» الآخر في حقبة الطوائف في إسبانيا المسلمة، أُجبر حكّامها على طلب الدعم من قشتالة. حتّى إنّ المعتمد والي قشتالة، الذي تعاظم اعتماده على جيوش فرناندو الأوّل، وافق على إعادة رفات القدّيس إيسيدور إلى كاتدرائية ليون. يحكى أنّه في ذلك اليوم، رمى المعتمد ملاءة على التابوت، ثمّ تنهّد وتحسّر على رحيل رفات القدّيس الذي جلب له الشهرة[25]. كما سنرى، أضفت هذه العلاقة على إشبيلية صفة التابع، لأنّها كانت مجبرة على دفع جزية سنوية باهظة (تصل إلى 10 آلاف دينار ذهبي سنوياً) للملوك المسيحيين للحفاظ على استقلالها. كما أشار المؤرّخون أيضاً، خلال حرب إشبيلية الطويلة مع غرناطة، إلى مفارقة أن يخوض ملكان مسلمان حرباً ضدّ بعضهما البعض بقيادة وزيرين يهوديين. فكانت الجيوش الغرناطية تحت قيادة القائد اللامع، والشاعر، والسياسي صموئيل بن النغريلة. بطبيعة الحال، ولّدت تلك الصراعات الإسلامية الداخلية فرصاً وافرة للجيوش المسيحية، من ضبّاط ومرتزقة، للتدخّل بدافع المصلحة الذاتية البحتة، وغالباً تواجد الجنود المسيحيون المحترفون بين صفوف الجيشَين المسلمَين المتحاربَين. ففي عام 1042 مثلاً، على الساحل الشرقي لإسبانيا، كان يمكن إيجاد جيش كبير من المرتزقة الكاتالانيين الذين يساعدون جنوداً من دينيا وبلنسية، في محاولة للإطاحة بحاكم بلنسية لصالح وزير مسلم آخر[26].

هكذا، فإنّ تنامي قوّة ونفوذ فرناندو ملك قشتالة، بالتزامن مع تعاظم الشقاق وعدم الاستقرار بين الممالك الإسلامية، بدأ يولّد سلسلة من التحالفات والتبعيّات بين الشمال المسيحي والجنوب المسلم. وإن كان فرناندو الأول هو الذي بدأ بجباية «أموال الحماية» (لأنّ هذا ما كانت عليه في الواقع)، كان ابنه ألفونسو السادس هو من طوّر هذا النظام بقسوة، بحيث لم يتورّع عن استنزاف

ملوك الطوائف حتّى آخر دينار ذهبي استطاع الحصول عليه. عندما توفي فرناندو الأول في عام 1065، ترك مملكته (شأنه شأن أبيه) مقسّمة بين أبنائه الثلاثة، غارسيا وسانشو، وألفونسو. وعلى غرار الأب، كان ألفونسو هو من تحرّك بسرعة وبلا رحمة، وتعاون مع شقيقته أورّاكا لسجن شقيقيه والتخلص منهما. خلال سبعة أعوام تمكّن ألفونسو من تتويج نفسه ملكاً على ممالك ليون، وقشتالة، وغاليسيا، ونافار، أي عملياً على ثلاثة أرباع مساحة إسبانيا المسيحية.

بحسب مقولة الفيلسوف والتر بنجامين الشهيرة، فإنّ جميع اللحظات العظيمة في الحضارة استندت إلى أعمال همجية. ولا شكّ أنّ بعض اللحظات الروحانية العظيمة نتجت عن الحروب. فمن وقائع الاقتتال بين الفصائل، والحملات العسكرية، والحصارات، وقتل الأشقّاء، وحتّى سفاح القربى التي حفل بها تاريخ إسبانيا في القرن الحادي عشر، تدفقت أموال موّلت واحداً من أعظم المراكز الروحية في العالم المسيحي الغربي: كلوني. فقد تمّ استخدام جزء كبير من الذهب إسلامي المصدر المحصّل كضريبة من ممالك سرقسطة، وقشتالة، وغرناطة من أجل تطوير وتوسيع الدير الفرنسي، الذي لن يوفّر مكان عمل لبطرس الموقّر، وملجأً لأبيلارد فحسب، بل سيقدّم أيضاً واحدةً من أولى الترجمات اللاتينية للقرآن (1146). مع ذلك، كانت الآثار الروحية للمبالغ الطائلة من الذهب التي استطاع الملك ألفونسو السادس جبايتها كلّ عام أكثر أهمية بكثير. فقد أتاحت له الحفاظ على جيش هائل دائم الجهوزية، قادر على تخويف وتهديد أي ملك مسلم من ملوك الطوائف يتخلّف عن سداد مستحقّاته. والأهمّ من ذلك أنّهم أجبروا الملوك المسلمين على رفع الضرائب المفروضة على رعاياهم باستمرار ليتمكّنوا من تغطية هذه المدفوعات . وهذا ما سلب حكّاماً من أمثال عبدالله ملك غرناطة، أو المعتمد ملك إشبيلية شعبيتهم، على غرار الحكومات الموالية للغرب في الدول الإسلامية في أيامنا، مثل مصر أو المملكة العربية السعودية أو باكستان. بحلول أواسط سبعينيات القرن الحادي عشر، كان الأهالي في كثير من المدن

قد بدأوا يثورون ضدّ حكامهم، نتيجةً للاستياء العميق من استخدام أموالهم لتمويل الجيوش المسيحية. لذلك، عندما وصل المرابطون أخيراً من شمال أفريقيا إلى الجزيرة الخضراء كقوّات إغاثة في عام 1086، رحّب بهم الأهالي المسلمون كمنقذين.

هكذا، في عام 1072، تمّ تتويج ملك (أو بالأحرى توّج نفسه بنفسه، فنظراً لحوادث القتل والسجن التي تعرّض لها عدد من الملوك قبل استلام ألفونسو العرش، لم يجرؤ الأسقف المحلّي على تتويجه بنفسه) استخدم المكر، والمهارة، والوحشية المطلقة، لتحويل إسبانيا المسلمة الممزّقة، والمنهارة، بطوائفها المتناحرة، إلى سلسلة من المشاريع المدرّة للربح. مع أنّ كلّ هذا يضفي على ألفونسو السادس صورة محارب مسيحي عظيم في حروب الاستعادة، إلاّ أنّ كثيراً من المعلّقين العرب والإسبان أطلقوا على ألفونسو لقب «إمبراطور الديانتين». في الواقع، فإنّ الصداقة الأكيدة، والشائكة، التي جمعت بين ألفونسو والمأمون والمعتمد، وإنجابه لطفل من الأرملة المسلمة زائدة، وحسن معاملته للمسلمين في طليطلة بعدما استولى على المدينة، والأهمّ من ذلك كلّه انعدام شعبيته في الأوساط المسيحية لرفضه تحويل مسجد المدينة فوراً إلى كاتدرائية، فضلاً عن تهديده بقطع رأس الأسقف لأنّه أراد فعل ذلك على الفور، كلّ هذا يذكّرنا كم علينا أن نكون حذرين في معالجة هذه المسألة. بينما كان ألفونسو يضع التاج الذهبيّ على رأسه في مملكة ليون، كانت لديه من دون شكّ مخطّطات كثيرة للسنوات القادمة. غير أنّه لم يتوقّع على الأرجح أنّ جيوشاً بدأت أساساً بالزحف من خارج إسبانيا، وأنّها ستضع قريباً حدّاً لأحلام الهيمنة التي كان يمنّي نفسه بها.

من خارج إسبانيا: اهتمام روما وظهور المرابطين

أتى الاهتمام بالأحداث الجارية في شبه الجزيرة الأيبيرية (أي بروز الشمال المسيحي، والتنافس بين مختلف الطوائف، والتحالفات المؤقّتة بين

ممالـك من أديـان مختلفـة) مـن اتّجاهيـن: إيطاليـا وشـمال أفريقيا. فقـد كانت البابويّة تتابع مجرى الأحداث في البحر الأبيض المتوسّـط منـذ بعض الوقت. وعند الاطّلاع على تاريخ المراسـلات بيـن روما وملوك قشـتالة، يظهر بوضوح التوتّر السائد بين المملكة الإسبانية، التي تتمتّع بنسـختها المستعربة/ الآرية التي ترجع الى خمسـمائة عامٍ من الإرث المسـيحي والقوطي الغربي، والبابوية التي تحاول أن تمـزج بين التأنيـب والترحيـب، وبين الثناء والشـكوى، فـي مطالبتها بكنيسة إسـبانية أكثر تماشـياً مع كنيسـتها. أوضح البابا بالتأكيد أنّ إسبانيا كانت دائماً بلـداً كاثوليكياً. ففـي عـام 1073، روى البابا غريغوري السـابع لألفونسـو كيف أنّ إسبانيا كانت تنتمي إلى القديس بطرس منذ القدم[27]. وقد نستغرب أنّه لولا لم تضغط روما باسـتمرار ليتمّ التخلي عن طقوس المسـتعربين واسـتبدالها بالطقـوس الكاثوليكيّة، لكان لإسـبانيا اليـوم عقيدة مسـيحية مختلفـة تماماً، قد تكون أقرب لاهوتياً إلى الموحّدين، وذات شـكل خارجيّ أكثر شـبهاً بالكنائس الأرثوذكسية.

بالطبع، كان ثمّة مسألة الإسـلام أيضاً. فبغض النظر عن الطقوس المسيحية المختلفة تماماً التي كانت سـائدة في إسـبانيا ما قبـل الكاثوليكة، والتـي اعتبرها البابا فـي رسـالته العدائيّـة جـداً أنّهـا لا تزيد عـن كونها مزيجـاً من الآريوسـية، والهرطقة الإسـلامية، والفتح العربي، سـبّب تعايش المسـلمين مع المسيحيين، بالإضافة الـى تحالفاتهـم المخالفة للدين، عـدم ارتياح في الكنيسـة الكاثوليكية. وغالباً ما كان الشـعور متبادلاً. فعندما سـمح البابا بانطلاق حملة صليبية فرنسـية جديدة ضـدّ إسـبانيا المسـلمة فـي عـام 1073، مسـتخدماً الآراغونييـن كممثلين أساسـيين له، ألّف سانشـو ملك نافار والمقتدر والي سرقسـطة حلفـاً على الفور لحماية مملكتيهما. ولا شـكّ أنّ روما شـعرت بإحباط كبير نتيجة هذا الاستعداد الدائم لإسبانيا المسيحية لعقد تحالف مع أعداء المسـيح «المحمّديين»، لا سيّما في وجه جيوشها. فسانشـو أراغون نفسه، الذي سـافر عام 1068 إلى روما ليعلن نفسـه تابعاً للبابا ومحارباً مسـيحياً، يبدو سعيداً جداً بمساعدة مسـلمي ليريدا في

حربهم ضدّ السيد عام 1083. وحتّى نهاية هذا القرن، ستحاول روما باستمرار دفع الملوك المسيحيين إلى التعاون معها في ما اعتبرته جبهة غربية ثانية في الحرب على الإسلام، بموازاة حربها الصليبية في الشرق. مع ذلك، وخلال محاولة الكنيسة الكاثوليكية تحويل مجمل الصراعات على السلطة في شبه الجزيرة الأيبيرية إلى صراعٍ بين الإسلام والمسيحية، ستتلقّى المساعدة من جهة غير متوقّعة.

تعتبر قصة ظهور المرابطين غريبة، مع أنّ القصص الشعبية التي تروي بروزهم كقوة متوسطيّة في القرن الحادي عشر تبدو أقرب إلى الأنماط الأوروبية للمسلمين التي تُظهرهم كمحافظين، ومتعصّبين، ومعادين للثقافة، منها إلى أيّ حقيقة تاريخية. إذ تُظهر النسخة التي صوّرتها هوليوود لقائدهم في فيلم تشارلتون هستون، السيد، (1961، إخراج أنطوني مان)، رجلاً متعصّباً، مختلاً، دائم الغضب، يناسب تماماً صورة الغازي المسلم التي يحب المسيحيون تقديمها للعالم. ولا شكّ أنّ بربر صحراء شمال أفريقيا الذين نسميهم المرابطين (أي الساكنين في الحصون) كانوا بالتأكيد أكثر محافظةً وتماسكاً من جيرانهم المسلمين الإسبان، واستهجنوا قصورهم الفخمة، وتآخيهم مع اليهود والمسيحيين، ومعاقرتهم للخمر، وحياة البذخ والمجون التي عاشوها. إلاّ أنّ وصفهم بـ «البرابرة» أو «المتعصّبين» هو وصف ظالم، لكونهم قوّة حربية فائقة التنظيم والفاعلية. بدأوا في ثلاثينيات القرن الحادي عشر كطائفة إسلامية صغيرة، في قلعة تقع على ضفاف نهر النيجر، بين شمال غانا المعاصرة وجنوب المغرب. وتوسّعوا بسرعة تحت القيادة الراديكالية لبربريٍّ نحيل، ومتديّن، وذكي، يدعى يوسف بن تاشفين. قاد يوسف المرابطين في الفترة نفسها تقريباً التي كان فيها ألفونسو السادس ملكاً على ليون وقشتالة، أي من عام 1061 حتّى عام 1106. ومن المثير للاهتمام مقارنة الجدولين الزمنيين، لنرى كيف يتّجه مسار كلّ منهما نحو الآخر تدريجياً، معركة تلو أخرى، وحصاراً تلو آخر، مثل خطّين على شاشة رادار، إلى أن يلتقيا أخيراً في معركة زلاّقة عام 1086، التي

انتهت بهزيمة نكراء لألفونسو.

عندما توّج ألفونسو نفسه ملكاً على كافّة الممالك الإسبانية المسيحية تقريباً عام 1072، كان المرابطون بقيادة يوسف يجتاحون ساحل شمال أفريقيا ويبسطون سيطرتهم على مدينة بعد أخرى بفضل عبقرية زعيمهم التكتيكية والعسكرية. وبحلول عام 1077، وصلوا إلى طنجة، وهي واحدة من أقرب المدن الأفريقية إلى الأندلس.

مع ذلك، سيمرّ عقد من الزمن تقريباً قبل أن يطلب منهم ملوك الطوائف، المحبطين من تعاظم الضرائب التي يدفعونها لجيرانهم المسيحيين، اجتياز المضيق لتحريرهم من «حماية» ألفونسو المكلفة. وكان السبب الأساسي لهذا التأخير، على الرغم من القاسم الديني المشترك، هو الخوف الذي يشعر به مسلمو إسبانيا من جيرانهم في شمال أفريقيا، الذين استولوا على مساحات شاسعة من غرب أفريقيا للوصول إلى شبه الجزيرة الإسبانية. وكما سنرى، كان هذا الخوف مبرراً. مع ذلك، كان لدى المرابطين شيء يحتاج إليه ملوك الطوائف بشدّة، ألا وهو الرجال، عشرات الآلاف منهم. فقد بلغ عديد جيش يوسف عند وصوله أخيراً، كما يقال، حوالى عشرين ألف مقاتل. إلاّ أنّ المشاحنات التي سادت بين حكّام الطوائف، الذين كانوا يتشاجرون كالأطفال عندما أتى المرابطون أخيراً لمساعدتهم، ستشكّل مصدر إحباط دائم ليوسف بن تاشفين. وكان استياء يوسف من ملوك الطوائف المتناحرين، وتحالفِهم مع المسيحيين موازياً في كثير من الأوجه لسخط البابا غريغوري السابع من الملوك المسيحيين الإسبان، والأحلاف المسيحية الإسلامية. ولو قدّر للرجلين أن يلتقيا، أي يوسف بن تاشفين والبابا غريغوري السابع، لما شعر أحدهما تجاه الآخر سوى بازدراء كبير. مع ذلك، وبصفتهما صفائيين، فإنّهما يتقاسمان هدفاً مشتركاً، ألا وهو الاستقطاب الديني للصراع من حيث المعتقد وحسب. بطبيعة الحال، كان البابا والبربر متعارضين أيديولوجياً، لكن على الصعيد السياسي، سهّل أحدهما مهمّة الآخر إلى حدّ كبير.

توسع قشتالة: من عام 1072 حتّى سقوط طليطلة

فصلت أربعة عشر عاماً بين تتويج ألفونسو وذلك اليوم المشؤوم من أكتوبر 1086، عندما وقعت قوّات الملك الإسباني ضحيّة مجزرة نفّذها المرابطون القادمون حديثاً في الزلاّقة، بعد عشرة أسابيع بالكاد من وصولهم إلى البرّ الرئيس. حطّت قوات البربر الضخمة رحالها على الساحل في شهر يوليو، وألحقت بالملك ألفونسو السادس على الفور أكبر هزيمة في حياته. حتّى ذلك اليوم، انتقل ألفونسو من نجاح إلى آخر، وتعاظمت قوّته وهو يتحالف مع الملوك المسلمين واحد تلو الآخر، في لعبة شطرنج لا تنتهي من الأحلاف المخطّط لها بعناية، بحيث تنقّل في أرجاء إسبانيا المسلمة، وعزّز سيطرته تدريجياً على الجنوب. والمثير للاهتمام أنّ ألفونسو السادس امتنع عن الاستيلاء على أيّ من الممالك الإسلامية بشكل صريح، الأمر الذي لم يكن مستحيلاً نظراً لحجم جيشه، بل اكتفى بتقليب ملك على آخر، أو تشكيل أحلاف معهم سعياً إلى تحقيق هدف مشترك. كان أوّل حلفائه هو المأمون ملك طليطلة، وهو شخصية قوية ومألوفة في إسبانيا المسلمة، غير أنّ حفيده الذي يفتقد إلى الكفاءة سيخسر بلنسية (ورأسه) في عام 1092. كان ألفونسو يعرف المأمون جيّداً لأنّه نزل ضيفاً في بلاطه، كملك في المنفى، لتسعة أشهر في عام 1071. والشائعات الزاعمة أنّه تمكّن لاحقاً من الاستيلاء على المدينة بسهولة لأنّه أمضى وقته في تلك الفترة وهو يتفقّد أسوارها هي على الأرجح مبالغ فيها[28]. في الواقع، كان لدى المأمون مخطّطات قديمة حيال المملكة المجاورة، قرطبة. وفي عام 1074، تقدّم الجيشان المسلم والمسيحي لكلا الحاكمين جنوباً نحو غرناطة، في تحالف ضدّ حاكمها الجديد، عبد الله، الملك الكئيب والحزين. نظراً إلى المذكّرات الشعرية الرائعة التي تركها لنا عبد الله، كان المؤرّخون أكثر لطفاً تجاهه من معاصريه (إذ يقال في النهاية إنه تعرّض للخيانة من الجميع، باستثناء والدته). لا شكّ أنّ مدينة قرطبة جذبت في عام 1074 اهتمام عدد من المسلمين المجاورين لها. فلم يُضع المأمون الوقت، بل دفع المال لجيش مسيحي لمساعدته في

الاستيلاء عليها. خلال ثلاثة أشهر، أقام جنود قشتالة وطليلطة معسكرات على أراضي غرناطة نفسها، وطلب ألفونسو من عبد الله المسكين دفع ضريبة من ثلاثين ألف دينار من الذهب. حتّى إنّ الملك المسيحي عثر على نبيل مسلم يبغض عبد الله بما فيه الكفاية، ليباشر ببناء قلعة تحدّياً له، بتمويلٍ من ألفونسو بالطبع[29]. في النهاية، وجد عبد الله نفسه في مواجهة حلف إسلامي مسيحي. فوافق على دفع المال، حتّى لو لم يكن ذلك كافياً لإنقاذ قرطبة. بعد ستّة أشهر بالكاد، سقطت المدينة بين يدي المأمون من خلال سلسلة من الخدع (ربّما وجد عبد الله شيئاً من العزاء في عدم تمكّن المأمون من الاستمتاع بنصره طويلاً، لأنّه سيموت مسموماً في مدينته طليطلة فور عودته إليها عام 1075).

من بين الحلفاء المسلمين الآخرين لألفونسو في هذه المرحلة كان ملك إشبيلية الشهير المعتمِد، وإن كانت كلمة «حلف» مبسّطة جداً ربّما لوصف هذا الاتّفاق المتوتّر، والمتقلّب، الذي لم يدم طويلاً في نهاية المطاف. اشتهر المعتمد على الأرجع في تاريخ الأدب بالأكاديمية الهامّة التي أسّسها من الشعراء والعلماء. أُجبر على «مساعدة» الملك ألفونسو في حملاته جنوباً كضريبة مفروضة عليه، فتقدّمت جيوش إشبيلية وقشتالة في أواخر سبعينيات القرن الحادي عشر جنباً إلى جنب على طول حدود بطليوس (الواقعة غرب البرتغال الآن) بحيث أرهقت حاكماً مسلماً آخر، هو المتوكل، الملك الغامض. بالتأكيد، كان المعتمد في وضع لا يُحسد عليه. فشأنه شأن معظم ملوك الطوائف، وجد نفسه بين قوّتين عظميين محلّيتين، وكان عليه أن يقرّر إمّا الاصطفاف مع مسيحيّي ألفونسو أو برابرة يوسف الآتين من شمال أفريقيا. في نهاية المطاف، اتّخذ قراره قائلاً جملته الشهيرة: «لَأن أكون راعي إبل عند يوسف بن تاشفين أحبُّ إليّ من أن أكون راعي خنازير عند ألفونسو». ربّما لا يجدر بالقارئ أن يشفق كثيراً عليه. فقد كان المعتمد بكلّ تأكيد حاكماً لا يرحم، صلب المبعوث اليهودي الذي أرسله ألفونسو عام 1082 لأنه طلب جزية كبيرة من الذهب.كما كانت طائفة إشبيلية بحدّ ذاتها عدوانية بما فيه الكفاية، بحيث ضمّت

مملكتيّ دينيا عـام 1076، ومورسـيا 1078. هكذا، عندما كان ألفونسـو السـادس يضغط عليه لتحصيـل مزيد مـن الذهب، كانت مملكتـه تمتدّ مـن البحر الأبيض المتوسّط إلى المحيط الأطلسي[30].

إنّ مشـاهدة خارطة الممالك الإسـلامية وهي تتصارع، وتتواطأ، وتتبدّل في الفترة السابقة لمعركة الزلاّقة تشكّل درساً محبِطاً في مجال الداروينية العسكرية. ففـي اللحظـة التي يمـوت فيها أحـد الملـوك، ويحدث فـراغ في السـلطة، يظهر جيشـان أو ثلاثة من جنود من الديانتيـن عند أبواب العاصمة، مـع تحرّك كلّ من الممالك المجـاورة نحو الأخرى مسـتغلّة ضعفها لضمّها إليها. في هذا السـياق، تشكّل قرطبة مثالاً جيّداً على ذلك. فبين عامي 1075 و1077، تنازعها ثلاثة ملوك (عبد الله، والمأمـون، الذي مات مسـموماً، والمعتمـد). من الأسـباب التي أدّت إلى تشـكّل هذا العدد الكبير من الأحلاف الإسـلامية المسـيحية فـي تلك الفترة هو أنّ كثيراً من الحكّام والنبلاء لم ينظروا إلى أنفسهم في الأساس كمسلمين أو مسيحيين، بل كقشتاليين أو أراغونيين، أو كمتحدّرين إمّا من بني هود أو من بني الأفطس. عندمـا وصل إعصار المرابطين أخيراً إلى إسـبانيا، بـدأت الأمور تتبدّل بالتأكيد. فأمام تهديد جيش من عشـرين ألف مقاتل من البربر، حتّى بيدرو الأوّل ملك أراغون، وألفونسـو السادس ملك قشـتالة بدءا يناقشـان إقامة حلف بينهما. مع ذلك، وعلى الرغم من تنافس التحالفات بين ممالك من أديان مختلفة بسبب تزايد اللهجة الدينية للصراعات، إلاّ أنّها لم تختفِ تماماً. فبعد مئة عام من ذلك، في معركة الأرك (1195)، سيتحالف ملكا ليون وقشتالة مع المسلمين (هذه المرّة مع الموحّدين) ضدّ بعضهما البعض.

بحلول عام 1083، بـدأت العلاقات بين المعتمد والملك ألفونسـو تتدهور، مع طلب ألفونسو المتزايد للمال من الملك المسـلم. وأتت حادثة صلب السفير اليهـودي للملـك لتزيـد العلاقات سـوءاً بيـن الدولتيـن. وعندما رفـض المعتمد دفع مزيد من المال، انهار «الحلف»، وبدأ ألفونسـو بإرسـال جيوشـه إلى شـمال إشـبيلية، كما أعطى الملك الإسـباني ذريعة لخوض مغامرة عزيزة على قلبه، ألا

وهي الاستيلاء على طليطلة، إحدى أهمّ مدن إسبانيا، الواقعة في وسط البلاد تماماً. وليس من المستغرب أن يرسل المعتمد في هذا الوقت بطلبه الشهير لمساعدة المرابطين.

شكّل سقوط طليطلة المسلمة في عام 1085 انتصاراً هامّاً للملك ألفونسو. كان أيضاً نصره الأخير قبل هزيمته المنكرة في معركة الزلاّقة، أي أشبه بنيوبيري قبل ناسبي، أو تشانسلورسفيل قبل غيتيسبورغ. فقد انتقلت المدينة إلى أيدي المسيحيين بعد حكم إسلامي دام ثلاثمائة وخمسة وسبعين عاماً. تاه ألفونسو عجباً، وابتهج العالم المسيحي بانتقال أوّل مركز للإسلام إلى الحكم المسيحي منذ قرن من الزمن، ولكان البابا غريغوري السابع سرّ بهذا النبأ هو الآخر، لو لم توافه المنية في اليوم نفسه. سقطت المدينة من دون وقوع عنف كبير، كما هو الحال في كثير من حصارات تلك الفترة. ثمّ تمّ التفاوض على عقد اتّفاق مع الجيش الضخم الذي ينتظر دخول المدينة، وفي 25 مايو 1085، دخل ألفونسو على رأس جيشه المدينة التي ستشكّل مركزاً لقشتالة جديدة. علّق المؤرّخون على الشروط المتّسمة بالتسامح والكرم التي قدّمها ألفونسو لمسلمي المدينة الذين شكّلو ربّما أكثر من نصف سكّانها (تألّف النصف الآخر من اليهود والمسيحيين المستعربين). لمجموعة متنوعة من الأسباب الاقتصادية، غالباً ما كان الملوك المسيحيون في حروب الاستعادة يسعون إلى إقناع المسلمين بالبقاء في المدن التي يحتلّونها. وقد أشار بعض المعلّقين المسلمين إلى أنّ الملك أعطى ما يزيد عن 100 ألف دينار ذهبي إلى المزارعين المسلمين كحافز للبقاء في أراضيهم بعد سقوط المدينة. كما أنّ اختيار ألفونسو فوراً لمسيحي مستعرب، يجيد اللغة العربية، ليكون حاكماً على المدينة، ساهم في تهدئة مختلف الجماعات فيها، من مسلمين، ومستعربين، ويهود. كما أنّ الخلاف الشهير حول مصير المسجد الرئيس في المدينة، الذي أراد الأسقف تحويله إلى كنيسة على الفور، بينما عارض كلّ من الملك والحاكم المستعرب هذه الفكرة بشدّة، يشير هو أيضاً إلى الموقف الاسترضائي تجاه المسلمين من جانب

ألفونسو، الذي كان أكثر اهتماماً بالجزية منه باستعادة المدينة[31]. ومن المعروف أنّ كثيراً من النبلاء ورجال الدين في بلاط ألفونسو، بمن فيهم زوجته الملكة ورئيس أساقفتها، استاؤوا كثيراً من هذا الاحترام غير المنطقي لـ«معبد المور».

غير أنّ سقوط طليطلة أدّى أيضاً إلى ازدياد خطير في ثقة ألفونسو بنفسه. فاستناداً إلى بعض المؤرّخين، ما إن استولى ملك قشتالة على المدينة، حتّى بدأ يتهكّم على يوسف بن تاشفين ويتّهمه بالجبن، ويتحدّاه بالغزو للأراضي الإسبانية، حتّى إنّه عرض عليه إرسال قارب لجلب جيشه. ومع أنّ هذه القصص مبالغ فيها على الأرجح، إلاّ أنّه من الواضح أنّ ألفونسو أساء تماماً تقدير قوّة وتصميم أعدائه. وقد كلّفه هذا الخطأ عشرة آلاف رجل .

معركة الزلاّقة (1086) وانتهاء فترة ملوك الطوائف

في 23 أكتوبر 1086 واجهت قوّات يوسف الجيش القشتالي الذي أتى لملاقاتها في سهول الزلاّقة في جنوب غرب إسبانيا وهزمته. فقد أساء ألفونسو كثيراً تقدير حجم وقوّة البربر الذين تصدّى لهم، وبعد هجوم جبهوي، وجد نفسه محاصراً من العدوّ من كلا الجناحين. خسر الجيش المسيحي حوالى عشرة آلاف رجل، ووقع العدد الأكبر من الضحايا خلال الانسحاب الفوضوي. نجا الملك بالكاد بحياته، وهرب تحت جنح الظلام. ثمّ عثر في نهاية المطاف على ملجأ في بلدة كوريا الواقعة على بعد مئة كيلومتر شمالاً. كان من بين القتلى أساقفة، ونبلاء، وفرسان. وفي أعقاب المعركة، جُرّت عربات محمّلة بالرؤوس من بلدة إلى أخرى لتكون شاهداً على الهزيمة القشتالية. هذا التدخل الوجيز للمرابطين، الذي بلغ ذروته في معركة الزلاّقة، قلب المعايير. فمع أنّ قوات يوسف الآتية من شمال أفريقيا ومرابطيه قاموا أساساً بعبور المضيق، وتسجيل النصر، ثمّ عادوا على الفور تقريباً إلى المغرب (تاركين وراءهم سلاح فرسان ضخماً، تذكيراً بزيارتهم)، إلاّ أنّ مسار جيوش ألفونسو غيّر ديناميّات شبه الجزيرة الإسبانية بأكملها.

استناداً إلى المؤرخ رايلي، لم تدمّر معركة الزلاّقة لا جيش ألفونسو، ولا حكمه. فمع أنّ عشرة آلاف قتيل هو عدد مخيف، إلاّ أنّ الزلاّقة لم تكن بأيّ حال من الأحوال واترلو ألفونسو. ذلك أنّ الملك سيمضي قدماً في السنوات العشرين القادمة ليدافع عن مملكته بنجاح، حتّى ولو كان سيواجه مزيداً من الانتكاسات في المستقبل. غير أنّ الأثر الفعلي لهزيمة الزلاّقة الساحقة تمثّل في زيادة جرأة ملوك الطوائف. فجأة، اتّجهت أنظار مسلمي بلنسية، وإشبيلية، وغرناطة جنوباً، مع تحوّل اهتمامهم من قشتالة إلى المغرب. فقد استعرض المرابطون عضلاتهم، ومزّقوا أقوى جيش في إسبانيا، ودفعوا ملكه المسيحي إلى الفرار نجاةً بحياته. وهذه الحقيقة لم تخفَ على أحد في هسبانيا [هو الاسم المعطى من قبل الرومان إلى كامل شبه الجزيرة الأيبيرية]، سواء كان مسلماً أو مسيحياً.

تجلّت نتائج معركة الزلاّقة بأشكال أخرى أيضاً. فمع أنّه من التعميم القول إنّ الملوك المسيحيين اتّحدوا، ساد بالتأكيد إحساس جديد بالتحالف والمصالحة في ما بينهم، في وجه تهديد المرابطين الذي يلوح في الأفق. ففي خيم الحصار خارج بلدة توديلا المسلمة، في عام 1087، نجد ألفونسو يوافق على توقيع هدنة مع سانشو راميريز ملك أراغون وابنه الشابّ، الذي سيصبح في المستقبل الملك بيدرو الأوّل. إذ يقال إنّ الأراغونيين وعدوا بمساعدة ألفونسو في الدفاع عن طليطلة ضدّ هجوم إسلامي. بالإضافة إلى ذلك، جلبت الزلاّقة الصليبيين، والمرتزقة، والنبلاء من فرنسا وإيطاليا إلى إسبانيا، عبر جبال البيرينيه، فضلاً عن جيوش صغيرة من بورغوندي وتولوز. في الواقع، ساد خوفٌ من احتمال إعادة توسّع الأندلس على أيدي المسلمين، وتوغّلهم في الأراغون وقشتالة، وربّما حتّى جنوب فرنسا، ممّا دفع بالبابوية ومختلف الممالك المسيحية إلى التحرّك[32].

تدريجياً، توقف أيضاً تحصيل أموال الحماية، وهو الذهب إسلاميّ المصدر الذي كان يدفعه ملوك الطوائف، ويشكّل مصدر الدخل الرئيس لألفونسو، وذلك مع تغيّر مكانة قشتالة نهائياً كقوّة عظمى وحيدة في شبه الجزيرة. بالطبع، حاول

ألفونسو جاهداً الضغط على ملوك الطوائف لاستئناف مدفوعاتهم، حتّى نجح في ذلك مؤقّتاً مع عبد الله ملك غرناطة. لكن بعد زيارتين أخريين ليوسف بن تاشفين، في عام 1088، ومن ثمّ عام 1090، ترسَّخ وجود إمبراطورية شمال أفريقيا بشكل دائم في الأندلس. وبوصول قوّاته العسكرية الكبيرة (والموحّدة) إلى إسبانيا المسلمة، نضبت بكلّ بساطة آلاف الدنانير التي كان ألفونسو يعتمد عليها. ومع نهاية ثمانينيات القرن الحادي عشر، كانت سرقسطة المملكة الإسلامية الوحيدة التي ما زالت تدفع جزية لألفونسو.

أدّت معركة الزلاّقة، وغزو المرابطين الذي استتبع ذلك، إلى سلسلة من التغييرات في النظام في الأندلس، مع قيام يوسف إمّا بنفي ملوك الطوائف أو إعدامهم واستبدالهم بحكام معيّنين من قبله. في الأساس، استاء يوسف كثيراً من ملوك الطوائف في زيارته الأولى في عام 1086. فخلال إقامته، راح كلّ ملك يشتكي له من الملوك الآخرين ويحاول تقليبه عليهم. لذلك، من سخرية القدر أن يكون الجيش الذي دعاه أولئك الملوك إلى بلادهم هو من قام بخلعهم عن عروشهم. هكذا، تمّ إعدام المتوكّل، ملك بطليوس في عام 1090. أمّا المعتمد ملك إشبيلية، فحقّق أخيراً أمنيته، إن لم يكن راعي إبل، فسجين سياسي في المغرب، ليموت بسلام في منفاه في مراكش عام 1095. وكما سبق وذكرنا، نُفي عبد الله ملك غرناطة هو الآخر إلى المغرب مع شقيقه تميم بتهمة التواطؤ مع الملك المسيحي، وهناك، كتب مذكّراته الشهيرة، مساهماً في ذلك التقليد السياسي العظيم القائم على التفكّر في السيرة الذاتية، الذي لا يمكن أن يُنتجه سوى الإطناب القسري.

مع معركة الزلاّقة وانتهاء فترة ملوك الطوائف، تنتهي لمحتنا الموجزة عن التحالفات الإسلامية المسيحية خلال القرن الحادي عشر في إسبانيا. هذا لا يعني بالتأكيد أنّ مثل هذه الأحلاف لم تحدث لاحقاً. فالتطورات التي شهدتها مدينة بلنسية ومحيطها بين عامي 1086 و1090 تحتاج إلى كتاب بحدّ ذاتها، وذلك مع اشتباك الجيوش الإسلامية المسيحية للسيد وألفار فانيز، المتعاونة

مع قوّات المستعين ملك سرقسطة، مع جيوش المنذر ملك طرطوشة وحلفائه الكاتالانيين[33] . وعلى الأرجح، ستشكّل معركة ألكوراز (1096 آخر التحالفات الإسلامية المسيحية في القرن الحادي عشر، وفيها سيُهزم المستعين ملك سرقسطة، مع القوّات المسيحية (القشتالية) الآتية من ناخيرة ولارا، على أيدي الآراغونيين، في صراع على مدينة هويسكا المسلمة. مع ذلك، فإنّ الوحدة الجديدة لإسبانيا المسلمة تحت راية الفاتحين القادمين من شمال أفريقيا، أولاً تحت اسم المرابطين، ومن ثمّ الموحدين، ستحدّ من هذه التحالفات، مع اعتماد كلّ من الجانبين على هويّتهم الدينية لتوليد شعور بالتضامن الصليبي/الجهادي ضدّ العدو. ففي عام 1080، كانت فكرة اعتذار السيد أو الملك ألفونسو على وجود جنود مسلمين في جيشهما هو أمر لا يمكن تصوّره ببساطة. لكن عندما قام رامون بيرينغير الرابع، بعد قرن من ذلك، باستخدام جنود مسلمين في حملة بالار، اضطرّ إلى طلب الصفح على هذا الجرم[34].

ربّما كان من أشهر العبارات التي استخدمها المؤرّخون لتلخيص الصراعات التي أوردناها هو وصف إيلينا لوري لإسبانيا القرون الوسطى على أنّها «مجتمع منظّم للحرب»[35]. فعندما نستعرض التحالفات المحيّرة بين ملوك سرقسطة والمرتزقة القشتالية، وبين النّبلاء المسلمين المتنافسين الذين دفعتهم كراهيتهم لبعضهم البعض إلى دفع المال للمسيحيين لاغتيال بعضهم، وبين جيوش المرتزقة الكاتالانيين والفصائل البربرية، يظهر لنا بوضوح أنّ تعبيري «الإسلام» أو «المسيحية» لا يساعدان كثيراً على فهم وضع بهذا التعقيد. فما شهدته إسبانيا القرن الحادي عشر لم يكن «صدام حضارات»، بل حضارة محفوفة بالصدامات. ومع أنّ الدخلاء البابويين ورجال الدين شمال الأفريقيين سعوا إلى تحويل تلك الصراعات إلى حرب عبثية بين الإيمان والكفر، إلاّ أنّهم فشلوا تكراراً. فكان الأمر ينتهي دائماً بالقشتاليين والسرقسطيين، وبالمستعربين ومسلمي غرناطة بالوثوق بجيرانهم أكثر من وثوقهم بحامية من الفرسان الفرنسيين أو ببربر تونس.

الفصل الثاني

فريدريك الثاني ومسلمي جنوب إيطاليا

ليس «الإسلام» من الكلمات التي تتبادر إلى الذهن عندما نفكّر بإيطاليا في زمن دانتي. في تلك الفترة، كانت مدينتا ميلانو وفلورنسا، وجداريات جوتّو، وصلوات القدّيس فرنسيس، ومرحلة كاملة من أواخر القرون الوسطى على وشك دخول القرن الأوّل من عصر النهضة. فبصرف النظر عن الوعي الغامض لحقيقة أنّ صقلية انتمت في الماضي إلى العرب لمدّة وجيزة من الزمن، فإنّ معظم الناس ينظرون بعين الريبة إلى فكرة وجود الإسلام في إيطاليا. ذلك أنّ القرن الثالث عشر الإيطالي مترسّخ في الأذهان باعتباره جوهر وأساس التقليد الأوروبي، بحيث أنّ الإشارة ولو من بعيد إلى الإسلام في الحقبة نفسها ستبدو مثيرة للسخرية.

مع ذلك، ولأكثر من مائة عام، حارب آلاف المسلمين الإيطاليين في جيوش الأباطرة خارج أسوار فيرونا، ورافينّا، وميلانو. كما أدّت أفواج كاملة من الرماة والفرسان العرب أدواراً حاسمة في الحروب المستمرّة بين الدول المدينيّة الإيطالية في القرون الوسطى، وفي النزاعات الطويلة بين الأباطرة والباباوات. وتمركز المشاة ورماة السهام المسلمون، المتحدّرون من أصول صقليّة، بأمر من حكّامهم المسيحيين، في رومانيا وتونس، حتّى إنّهم قاتلوا في جيوش باباوية هدّدت (كما سنذكر لاحقاً) بالحرمان الكنسي كلّ من «يتحالف مع غير المؤمنين».

يمكن اختصار سبب الوجود المركزي للجنود المسلمين في إيطاليا القرن الثالث عشر بكلمة واحدة: لوتشيرا. هي اليوم بلدة صغيرة في جنوب شرق إيطاليا، بالكاد تبعد مائة ميل شرق روما. استخدمها فريديريك الثاني عام

1224 كمستعمرة لإعادة التوطين القسري لأكثر من ثلاثين ألف مسلم صقلي. سيمكثون هناك خلال السنوات الثمانين التالية، مشكّلين جيباً للإسلام في قلب إيطاليا، بالكاد يبعد مسيرة ثلاثة أيام عن الفاتيكان. سيكون فريدريك الثاني الأوّلَ بين عديد من الحكّام الذين سيستخدمون لوتشيرا كمركز للجنود المهرة وصنّاع الأسلحة الذين لا غنى عنهم، وهي وظيفة سيواصلون ممارستها خلال الحروب والحملات الصليبية التي لا تحصى التي دارت في القرن الثالث عشر، إلى أن حلّ الدمار بالمستوطنة في عام 1300 (وتعرّض سكّانها المسلمون للقتل والاستعباد). من هنا، فإنّ حديثنا عن الجنود المسلمين في القرن الثالث عشر الإيطالي سيندرج في سياق قصة لوتشيرا، والشخصيّة المحيّرة والغامضة للإمبراطور الذي أسّسها، فريدريك الثاني.

لكن قبل أن نبدأ، لا بدّ لنا من توضيح بعض النقاط للقارئ المعاصر. في البداية، إن أردنا أن نفهم القصة الغريبة لجنود إيطاليا المسلمين، علينا أن نتذكّر كم كانت نظرة الناس إلى هويّاتهم تختلف قبل ثمانمائة عام. ففي التاريخ الحديث، اعتدنا على استخدام عبارات جماعية كـ«الفرنسيين»، أو «الألمان» (فنقول مثلاً «انتصر الإنكليز في معركة كذا»، أو «استولى الإيطاليون على مدينة كذا») بحيث أصبح من الصعب علينا أن نتخيّل زمناً لم يكن فيه وجود لهذه العبارات. لكن هذا ما كان عليه عالم القرن الثالث عشر. إنّه عالم تحدّث فيه النورمان اليونانية، وتحدّث فيه الأباطرة الألمان-اللاتينيون العربية، وتفاوض فيه الملوك الإنكليز بالفرنسية واللاتينية، وحارب فيه الملوك الفرنسيون لممالك جنوب إيطاليا ضدّ أحلاف من الإسبان، والتوسكان، وأمراء من جنوب ألمانيا، وأمراء تونسيين[1]. لم يكن الناس ينظرون إلى أنفسهم على اعتبار أنّهم «إيطاليون» أو «فرنسيون»، بل على أنّهم ينتمون إلى مدينة بارما أو باليرمو [بلرم، بحسب المصادر العربية]، أو على أنّهم رعايا هوهنشتاوفن أو أنجو. وكان عالم أرستقراطية القرون الوسطى الكوزموبوليتاني المحيّر كافياً لإرباك أيّ شخص: نبلاء بوهيميون يتزوّجون أميرات إنكليزيات، وملوك هنغاريون يتزوّجون ملكات

فرنسيات، وبنات من أسر بيزنطية يونانية يصبحن زوجات لدوقات من سلالة شفابن (ناهيك عن الخانات المنغوليين والسلاطين الأتراك)... إن أردنا أن نفهم شيئاً من كلّ هذا، علينا أن نضع جانباً مفهومنا الحديث لتعبير «الأمّة». فهذه الأشكال الملوّنة الصغيرة التي نقسّم بها خارطة أوروبا لا مكان لها بكلّ بساطة في القصّة التي سأرويها.

أمّا العقبة الثانية التي سيواجهها القارئ المعاصر في أثناء رحلتنا عبر إيطاليا القرن الثالث عشر فتتعلّق بموضوع السلطة. في الواقع، سيكون من الأسهل فهم الأحداث التي سأرويها عند أخذ حقيقة بسيطة بالاعتبار، ألا وهي التوتّر الذي سيطر على العلاقات بين البابوية والإمبراطور، إذ لم يكن للبابا جيوش أو قوّات بحرية. وفي بعض الأحيان، عندما كانت الأمور تتأزّم كثيراً، لم يكن يملك حتّى مدينة. ففي أكثر من مناسبة، اضطرّ البابا إلى مغادرة روما، والعيش في المنفى خارج أسوار المدينة، لأنّ جيشاً معادياً دخل إليها. لكن ما كان يملكه الباباوات في الواقع، هو قوّة رمزية هائلة. فقد كانوا قادرين على توقيع العقود، وإجبار الملوك على إرسال أساطيل من السفن وأفواج كاملة من المشاة لمساعدتهم، وغالباً ما تمّ ذلك مقابل عرش مملكة أو إمارة كان البابا على استعداد لمنحه. على سبيل المثال، لو أنّ الملك هنري السادس كان قادراً على تحمّل التكاليف، لكان استطاع شراء عرش صقلية لابنه من البابا لقاء 140.000 مارك وجيش من 9.000 جندي[2]. كان البابا يلجأ إلى هذه الأساليب كلّما ساءت العلاقات بينه وبين حاكم منطقة ما، ورغب في الإطاحة به. ولا شكّ أنّ العلاقات السيّئة بين روما وسلالة فريدريك الثاني تشكّل مثالاً واضحاً على ذلك. كان الحبّ مفقوداً بين الطرفين. فقد أطلق البابا على فريدريك لقب «السلطان المعمّد» بسبب المسلمين الموجودين في جيشه. أمّا فريدريك، فوصف جيوش البابا أنّهم «رعاع من المخرّبين والمجرمين»[3]. ولهذا العداء بين فريدريك وروما أهمّيته، ليس لأنّه يحرّك عجلة قصّتنا فحسب، بل أيضاً بسبب مكانة فريدريك كإمبراطور في الإمبراطورية الرومانية

المقدّسة. فسلالة هوهنشتاوفن التي يمثّلها فريدريك لم تكن دكتاتورية رديئة، بل حكمت إمبراطورية على مدى أربعة قرون (وستدوم لأربعة قرون أخرى)، ترامت أطراف ممالكها الألمانية والإيطالية من بروسيا وبحر البلطيق إلى صقلية والقدس. أمّا مسألة من كان يملك فعلياً السلطة على الآخر فقد شكّلت موضوعاً حساساً. إذ أحبّ البابا وأتباعه رؤية الإمبراطور على أنّه الممثّل الدنيوي للسلطة الإلهية، ومساعداً دنيويّاً لسلطة البابا الروحية العليا. بالمقابل، رأى أتباع الإمبراطور أنّ حاكمهم معيّن بأمر إلهي، وأنّ البابا يقدّم توجيهاً روحياً ثانوياً. ولن يتمّ حلّ هذه المعضلة فعليّاً على الإطلاق. مع ذلك، لكي يفهم القارئ كيف تمكّن ثلاثة آلاف عربي صقلي من ضرب حصار على مدينة بارما لصالح إمبراطور مسيحي، ينبغي له أن يأخذ هذا التوتّر بالحسبان.

صقلية المسلمة قبل فريدريك الثاني

عاش المسلمون في صقلية قبل أربعمائة عام من مجيء فريدريك إلى العرش. وبما أنّنا نتحدّث هنا عن مسلمي صقلية، لا بدّ لنا من الإشارة بإيجاز إلى كيفيّة مجيء الإسلام إلى إيطاليا، وكيفيّة خروجه منها.

من المفارقات أنّ العرب غزوا صقلية عام 827، مثلما فعلوا مع إسبانيا قبل قرن من الزمن، بدعوة من أهلها. أتت الدعوة هذه المرّة من قبل حاكم ساخط يدعى أوفيميوس، قاد ثورة ضدّ النظام[4]. كان الإمبراطور البيزنطي قد هدّد أوفيميوس بقطع أنفه، الأمر الذي دفع هذا الأخير إلى عقد صفقة عبر البحار مع الأمير التونسي. وصل الغزاة العرب إلى جزيرة مأهولة بكاملها تقريباً بالمسيحيين اليونان واليهود (لن يطأها أحد من المتحدّثين باللغة اللاّتينية الذين نسميهم اليوم «إيطاليين» إلاّ بعد مائتي عام)، وبحلول عام 902 أصبحت خاضعة تماماً للسيادة العربية. خلال السنوات المائة والخمسين التالية، أي حتّى مجيء المجموعة الثانية من الغزاة، ستتشرّب صقلية الثقافة الإسلامية لشمال أفريقيا في لغتها، وهندستها المعمارية، وتركيبتها الديموغرافية. وبالتأكيد، كان للوجود

الإسـلامي في باليرمو تأثير على البرّ الرئيس الإيطالـي. ومـع أنّ معظمنا يعرف أنّ رومـا تعرّضت للنهب في الماضي علـى يد القوط والونـدال، إلاّ أنّ قليلاً من الناس يدركون أنّ جيشـاً إسـلامياً اقتحم مدينة رومـا عام 846، وأحـرق بازيليك القدّيس بطرس، الأمر الـذي دفع البابا ليو الرابع إلى بناء جـدران ما يعرف اليوم بالفاتيكان[5].

أتى الغـزو التالي عـام 1061 مـن اتّجاه مختلـف تماماً. فبعد 5 سـنوات من غـزو النورمان لجزيرة بـاردة ورطبة قبالة سـواحل فرنسـا، قرّروا الاسـتيلاء على صقلية، وهو مشـروع سيسـتغرق إنجازه حوالى 30 عاماً. وفقاً لأبحاثنا، تشكّلت في هذا الوقت أولى الأحلاف الإسـلامية المسيحية في هذا الفصل. فعند وصول النورمان إلى صقليـة، فرحوا لدى رؤيـة النزاع المريـر بين أمراء الجزيـرة الثلاثة العرب. فأقاموا حلفاً مع أميـر باليرمو، ابن الثمنة، وأخذوا يسـيطرون على مدينة تلو الأخرى، إلى أن تمكّنوا بحلول عام 1091 من بسـط سـيطرتهم على الجزيرة بأكملها. فصرنا نجد، بدءاً من عام 1076، رماة مسلمين في قوائم جيوش روبرت جيسـكار. وبحلول عام 1098، كانـت الجيوش التـي قادها الكونـت رودجر عبر مضيق ميسـينا لمحاربـة البيزنطيين فـي كالابريا مؤلّفـة بمعظمها من المسـلمين. وانطلاقاً من عـام 1130، اسـتخدم رودجر الثاني جنوداً مسـلمين من المشـاة في حرسـه الملكي، لنجد في عام 1174 مسلمين يشـاركون في هجوم النورمان على إخوانهم العرب في الإسكندرية[6].

خلافاً للحكـم الإنكليزي، اسـتمرّت سـيطرة النورمان على صقليـة ما يزيد قليلاً عن مائة عام. سـيولد فريدريـك الثاني بنهاية هـذه الفتـرة، أي بالكاد بعد 4 سـنوات من وفـاة آخـر ملـوك النورمان. فـي صقليـة، سـيمضي الملـك الصغير طفولتـه، وهنـاك بالتأكيد سيتعلّم اللغـة العربيـة، التي سـيثير بها لاحقـاً إعجاب المفاوضين المسلمين في القدس. بتعبير آخر، كانت صقلية التي ورثها فريدريك تشتمل على إرث من الثقافة اليونانية-النورماندية-العربية. ولا بدّ لنا من التساؤل كيف كانت العلاقات الإسـلامية المسـيحية تحـت حكم النورمـان، وكيف عاش

اليونان، والمسلمون واليهود معاً تحت الحكم المسيحي؟

للحديث أوّلاً عن الجانب الإيجابي، كان الفاتحون النورمان في صقلية أكثر اهتماماً بالسيطرة والتنظيم منهم بالتنصير. فمن أوّل ما يتعلّمه تلامذة المدارس الإنكليز عن احتلال النورمان لإنكلترا هو كيفيّة انتشار اللغة الفرنسية ببساطة وسيطرتها على كثير من التقاليد الأنجلوسكسونية القائمة. وتنطبق هذه الرواية إلى على صقلية حدّ كبير. إذ يمكن للسائح أن يرى اليوم، في كنيسة بلاتين في باليرمو، نقوشاً على الحجر باللغات الثلاث، اللاتينية، واليونانية، والعربية، وهي اللغات الرسمية الثلاث المستخدمة في بلاط رودجر الثاني. فقد اشتهر ملوك صقلية النورمان أنّهم ملأوا بلاطهم بالمفكّرين، والشعراء، والمؤرّخين المسلمين. وكما يشير المؤرّخ ابن أبي العافية ساخراً، فإنّ كثيراً من شعراء الدرجة الثانية الذين لم يتمكّنوا من كسب لقمة عيشهم في شمال أفريقيا تحت حكم الملوك العرب هربوا إلى صقلية لتأليف قصائد مديح باللغة العربية للملك رودجر، الذي لم يفهم على الأرجح كلمة منها[7]. غير أنّ صقلية ضمّت أيضاً مفكّرين وفنّانين من العالم الإسلامي حظوا باحترام كبير، على الأخصّ الإدريسي (وفاة 1166)، وهو من أشهر الجغرافيين في القرون الوسطى. قام الإدريسي بوضع خارطة أسطورية من الفضّة لنصف الكرة الأرضية من أجل الملك (غير أنّها فُقدت الآن)، وكانت عبارة عن خارطة هائلة من سبعين جزءاً للعالم (قام عالم ألماني بتجميعها ونشرها في ثلاثينيات القرن العشرين)، هذا فضلاً عن رسالة كلاسيكية في الجغرافيا من القرون الوسطى تحمل عنوان نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق، وتمّ اختصاره بعنوان كتاب روجار. وامتاز الإدريسي أيضاً بكونه أوّل جغرافي مسلم (مع أنّه لم يكن أوّل مسلم على الإطلاق) يطأ إنكلترا، التي زار شواطئها الجنوبية كما يقال في عشرينيات القرن الثاني عشر.

إنّ الوجود القوي للمفكّرين المسلمين في البلاط النورماندي يشير بوضوح إلى النفوذ الذي ظلّ المسلمون يتمتّعون به في صقلية النورماندية، حتّى تحت

السيطرة الأجنبية. فقد أثّرت ثقافتهم على الكنائس التي بناها النورمان، وتجلّت في المنحنيات القوية للقناطر، والقبب الشرقية التي اعتلت كنائسهم.كما تغلغلت لغتهم في اللغات الأخرى للجزيرة، بحيث احتفظت الإيطالية حتّى اليوم بحوالى مائتي كلمة عربية الأصل. لا بل إنّ أحد الملوك النورمان، ويدعى وليام الثاني، كان يجيد القراءة والكتابة باللغة العربية. فعند وصول النورمان للمرّة الأولى إلى صقلية، كانت أراضي الجزيرة تضمّ حوالى ربع مليون مسلم، يعيشون جنباً إلى جنب مع عدد مساوٍ تقريباً من اليونانيين[8]. وعندما قام الرحّالة العربي ابن جبير بزيارة صقلية في عام 1184، أعرب عن إعجابه بالقصور الرائعة التي يعيش فيها وجهاء المسلمين في باليرمو. كما أشار أيضاً إلى الشبه الكبير بين نساء صقلية المسيحيات وأخواتهنّ المسلمات، إذ كنّ يرتدين الحجاب، ولا يتوقّفن عن الكلام[9].

لاحظ ابن جبير في زيارته إلى باليرمو كيف أنّ المسلمين والمسيحيين يعيشون في أحياء مختلفة من المدينة. وكلّما تحدّث مع مدني مسلم، أعرب له عن خوفه ورغبته في العودة إلى شمال أفريقيا، والعيش في دولة إسلامية مجدّداً. مع مرور الوقت، اكتسب المسلمون في صقلية النورماندية وضع العبيد على نحو متزايد. وأصبح المسلمون الذين يعيشون ويعملون على أراضٍ مسيحية يُعتبرون جزءاً من الأملاك. فنشأت مع الزمن طبقة عبيد، ستؤجّج لاحقاً الانتفاضة الصقلية التي ستنشب ابتداءً من تسعينيات القرن الثاني عشر. فعلى الرغم من كلّ الوئام والتعايش الذي ساد في بلاط رودجر الثاني بأديانه المتعدّدة، كان كثير من مسلمي صقلية مدركين أنّ نهاية الإسلام في الجزيرة أصبحت وشيكة. فقد بدأ المستوطنون اللاتينيون يتوافدون إلى صقلية من البرّ الرئيس الإيطالي، من تجّار ومزارعين أتوا من مدن بعيدة مثل بولونيا، وفلورنسا، وميلانو. غير أنّ أهمّ ما شهده القرن الثاني عشر هو اللتننة التدريجية للجزيرة، التي كانت نتائجها دائمة بالنسبة إلى أهالي صقلية الناطقين باللغة اليونانية ومسلميها على السواء. فبعد خمسينيات القرن الثاني عشر، بدأ

النورمان يفقدون تسامحهم البراغماتي، ويشـجّعون الناس على التنصّر. فوقعت مذابح منظّمة بين صفوف المسـلمين (وبعض اليونانيين) على أيدي المستوطنين الجـدد في سـتّينيات القرن الثاني عشـر. وحتّـى رودجـر الثاني غيّر سياسـته في كبره وبـدأ يخطّط لتنصيـر الجزيـرة. ونفهـم الكثير عـن التشـابه الثقافـي الكبير بين مسـلمي ويونانيي صقلية عندما نعرف أنّ المسـلمين الذيـن واجهوا التنصير القسـري اختـاروا طائفـة الـروم الأرثوذكـس عوضاً عـن الانتمـاء إلى الكنيسـة الكاثوليكية. فنجِـدُ في ثمانينيّات القرن الثاني عشـر جيلاً جديـداً من المزارعين «المسيحيين» الذين يحملون أسماء مثل فيليبّوس، بينما كان اسم آبائهم «محمّد» أو «أحمد»[10]. بهذه الطريقة، ومن خلال التقاليد القديمـة القائمة على المذابح، والتنصير، والتهجير القسـري، انخفض عدد سـكّان صقلية المسـلمين في القرن الثاني عشر بنسبة 80 بالمائة.

شخصية فريدريك الثاني

وُلد فريدريك الثانـي في آخر القـرن النورماندي، وسـيرث حكمه من نواح عديـدة كلّ غموضه حيـال الإسـلام، أي التعدّديـة الثقافيـة، والقمع العسـكري، والإعجـاب بالفنـون الإسـلامية والفلسـفة، وذلك في ظـلّ سـيطرة مُحكمة على المسـلمين أنفسـهم. وقد أشـار عدد كبير من المؤرّخين إلى مفارقـة كون الرجل المسـؤول عن اسـتئصال الإسـلام من صقلية هو واحد من أصـدق المعجبين به وأكثرهم صراحـة. هـذا الرجل الذي اشـتكى لسـلاطين مصر مـن وضاعة أصل البابـا، هو من اسـتطاع أن يـركل متمـرّداً مسـلماً حتّى المـوت بواسـطة مهمازه. ومع أنّ كتاباته تشير إلى معرفة وثيقة بالفلسـفة العربية، إلاّ أنّه استطاع أن يتعامل بوحشـيّة لا توصف مع مسـلمي مملكته، قبل أن يرحّلهم من بلادهم. إنّه الرجل الذي احترمـه بعـض المفكّرين فـي العالم الإسـلامي بحيـث أطلقـوا عليه لقب الإمبراطور، والذي كرهه بعض المسـيحيين إلى حدّ نعته بـ«سلطان لوتشيرا»، إلاّ إنّه تصرّف كبطل للبابا، واسـتعاد القدس في الحملات الصليبية من دون مساعدة

تقريباً، ومن دون إراقة أيّ نقطة دماء.

بعد خمسمائة عام من وفاة فريدريك، أي في عام 1781، فتح القيّمون على كاتدرائية باليرمو قبر الإمبراطور في أقبية الكنيسة، فأذهلهم ما وجدوه. كان جثمان الإمبراطور الألماني الذي عاش في القرون الوسطى مكفّناً بثوب حريري شرقي، طرّزت حاشيته بأحرف عربية تحدّد لقبه، فيما أمسكت بسيف عربي[11]. أعطى هذا المشهد صورة مثالية عن إرث فريدريك. فقد كرهه لوثر، بينما استلهم نيتشه من «سلامه وصداقته مع الإسلام»، واعتبره واحداً من أعظم «الأرواح الحرّة» في ألمانيا[12]. وكما سنرى، فإنّ تاريخ مسلمي إيطاليا، والحروب الدائمة التي خاضوها تتداخل مع القصّة الغريبة لسلالة هوهنشتاوفن و«سلطان» صقلية.

يبدو أنّ كلّ ما في حياة فريدريك حدث بسرعة. فقد وُلد في الفترة التي كان فيها إرث صقلية الذي آل إليه من النورمان ينهار في حرب بين مسلمي صقلية، وقوّات جنوة، والقادة الألمان، وجيوش البابا. توفّي والده وهو في سن الثالثة، فتلقّفته السياسة الطائفية منذ نعومة أظفاره. في سنّ الرابعة تُوّج على عرش صقلية، وفي سنّ السابعة، احتُجز في باليرومو لمدّة عام كسجين افتراضي على يد أوليغارشية معادية للبابا حاولت استغلاله لمآربها الخاصّة. تزوّج للمرّة الأولى في سنّ الرابعة عشرة من أميرة إسبانية في الرابعة والعشرين من عمرها تدعى كونستانس، أميرة أراغون، اختارها له البابا، وأنجب ابنه البكر في سنّ السادسة عشرة. كان صبيّاً، أطلق عليه اسم هنري، وسيضطرّ لاحقاً لخوض معركة ضدّه، وسجنه في كالابريا، حتّى وفاته المبكرة.

في البداية، كانت علاقات روما بفريدريك في مطلع شبابه مختلفة تماماً. إذ وافق البابا هونوريوس الثالث على أن يكون وصيّاً على الطفل اليتيم، وأيّد بحماسة حقّه في أن يكون إمبراطوراً، إلى أن تمّ تتويجه في روما في عام 1220. في سنّ السادسة والعشرين، أصبح فريدريك إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، وحاكماً على آلة هائلة من العصور الوسطى، تمتّعت بولاء أمراء شمال

ألمانيا وبارونات جنوب إيطاليا. يصعب علينا اليوم أن نتخيّل كيف انتمت دولتان مختلفتان جدّاً، تفصل بينهما سلاسل جبلية، وحاجز لغويّ، وخمس درجات مناخية، إلى كيان واحد. لكن بالنسبة إلى فريدريك، كان هذا التعايش حميماً. فالقرارات المتّخذة في فرانكفورت وسوابيا كان لها تأثير هائل على مدن نائية مثل نابولي وباليرمو. وهذا ما كان عليه حلم فريدريك الإمبراطوريّ، امتلاك إمبراطورية ألمانية لاتينية، تمتدّ من رمال البحر الأبيض المتوسّط حتّى شواطئ بحر البلطيق الباردة. كان فريدريك متحدّراً من سلالة هوهنشتاوفن. شارك والده وجدّه في حملات الصليبيين الكبرى. وعندما توّجَهُ البابا، جعله يتعهّد بقيادة حملة صليبية إلى الأراضي المقدّسة كشرط لنيل التاج. نتساءل هنا ما إذا كان قد خطر للبابا في ذلك اليوم، وهو يضع التاج على رأس فريدريك، كم سيصبح اسم «هوهنشتاوفن» مكروهاً. فعندما سيُقتل آخر المتحدّرين من سلالة فريدريك في إحدى المعارك، وسيُسجن أحفاده، سيقدّم البابا كليمنت الرابع الشكر لله علناً.

ما من طريقة لنعرف ما كانت عليه شخصية فريدريك الثاني فعليّاً، أو بالأحرى، لا نعرف عنه أكثر ممّا نعرف عن أيّ شخصية من شخصيّات العصور الوسطى. لا تتوفّر لدينا سوى المخطوطات القديمة التي تنقل انطباعات الأشخاص الذين عرفوه، أو كرهوه، أو أحبّوه، هذا فضلاً عن كتاباته بالطبع، وهي عبارة عن مجموعة من الرسائل الرسمية، وكتابه الشهير عن البزدرة [تربية الصقور] الذي ألّفه في أثناء الحصار الذي ضربه حول مدينة فاينزا الإيطالية. وإن أردنا أن نأخذ بالاعتبار ثناءً صادراً عن معلّق معادٍ للإمبراطور، نجد أنّ فريدريك كان يتمتّع بحسّ فكاهي لاذع، لا يرحم. إذ يشير المؤرّخ سالمبيني الذي عاش في القرون الوسطى، وأبغض سلالة هوهنشتاوفن بأكملها، كيف كان الإمبراطور يقلّد السفراء قبل وصولهم، ويسخر من طريقة دخولهم، ومن خطاباتهم الطنّانة. كان رجلاً يتقبّل المزاح، فيسمح لمهرّجيه، بحسب المؤرّخ، بالسخرية منه على نحو لا يسمح به غيره من الحكّام أبداً. وغالباً ما كان يطلق تعليقات ساخرة مقتبِساً جملاً من الإنجيل، أو حتّى يرفّه عن نفسه عبر محاولة إيجاد مقاطع

تجديفية في الكتاب المقدّس[13]. وكما سنرى لاحقاً، فإنّ هذه التهم بالتشكّك، وحتّى الإلحاد، ستظهر لتلاحق فريدريك مراراً وتكراراً.

يذكر مؤرّخنا جانبين آخرين من شخصية فريدريك، أيّدتهما مصادر أخرى جزئيّاً، ألا وهما القسوة والفضول. فمن جهة، كان يمتاز بقسوة عبثية، كأن يقوم ببتر إبهام أحد الكتبة لأنّه أخطأ في تهجئة اسم فريدريك، أو يُرسل سبّاحاً شهيراً إلى بحر فارو مراراً وتكراراً لاستعادة كوب من الذهب لم يكفّ عن إلقائه فيه، إلى أن غرق السبّاح في النهاية. غير أنّه كان يمارس أيضاً اختبارات غريبة، عمد في أحدها إلى إطعام رجلين وجبة جيّدة، ثمّ أرسل أحدهما إلى السرير، والآخر إلى الصيد. بعد ذلك، أمر بنزع أحشائهما لمعرفة أيّهما هضم طعامه على نحو أفضل. وفي رواية أخرى، يبدو أنّ الإمبراطور احتجز عدداً من الأطفال الرضّع في غرفة معزولة، ومنع المربيات من التحدّث معهم لكي يعرف ما هي اللغة التي سيتحدّثها الطفل بشكل طبيعي إن لم يسمع لغته الأمّ، أهي العبرية، أم العربية، أم اليونانية، أم اللاتينية. غير أنّ الأطفال توفّوا جميعاً بعد بضعة أشهرٍ، وكان الاختبار بلا جدوى[14].

بالطبع، قد تكون هذه الحكايات مجرّد قصص خيالية مرعبة، اختلقها مؤيّدو البابا ردّاً على الاحترام والفضول الحقيقيّين اللذين أبداهما فريدريك تجاه العالم غير المسيحي. ولا تهدف هذه الملاحظة إلى تصوير فريدريك كحاكم مثالي، بل هي مجرّد اعتراف بإدراكه أنّ غير المسيحيين قد يملكون معتقدات مختلفة جداً، وأنّ الردّ المسيحي التقليدي على هذه المعتقدات لم يكن دائماً الردّ الأفضل. ففي عشرينيات القرن الثالث عشر مثلاً، عندما اتُّهم يهود ألمانيا بقتل الأطفال المسيحيين، لم يتردّد فريدريك في الدفاع عنهم، معلناً أنّه لم يجد دليلاً على تلك الاتّهامات، لا سيّما وأنّ التلمود يحظر عليهم ذلك[15].

غالباً ما اعتُبر الاهتمام الذي أظهره فريدريك للإسلام، والمفكّرون الذين أحاط نفسه بهم، مثالاً على فضوله. أوّلاً، علينا التأكيد أنّ بلاط فريدريك لم يضمّ من المفكّرين المسلمين ما ضمّه بلاط الملوك النورمان قبل قرن من

الزمن. غير أنّ من تواجدوا في بلاطه في الواقع كانوا مسيحيين ويهوداً يتكلّمون اللغة العربية، تعلّموا في مراكز العلم الإسلامية العظيمة. كان لديه مايكل سكوت (وفاة 1235)، وهو أسقف اسكتلندي، درس اللغتين العربية والعبرية في طليطلة، واعتُبر شخصية بارزة ومركزية في ترجمة مؤلّفات أرسطو والفلسفة العربية إلى لغة الغرب اللاتينية. كما كان لديه تيودور الأنطاكي، المفكّر العظيم الذي درس في أكاديميات عربيات مشهورة في الموصل وبغداد، وكان مسؤولاً عن كتابة رسائل فريدريك العديدة إلى العالم العربي[16]. ضمّ البلاط أيضاً العالم المسلم ابن الجوزي، الذي رافق فريدريك في حملاته الصليبية، وأعطاه دروساً خاصّة في المنطق. ومن أكثر مظاهر الفضول لدى فريدريك على الأرجح، والتي ميّزته عن معاصريه، هي طرح عدد من الأسئلة على العالم الإسلامي، على أمل إيجاد أجوبة جديدة لبعض الإشكاليات الدائمة. أُرسلت إلى الملوك العرب في كلّ البلدان، مع طلب أن يتمكّن أحد المفكّرين في ممالكهم بالردّ عليها. ومع أنّ أربعة من الأسئلة كانت فلسفية - «هل كان العالم موجوداً دائماً؟» و«ما هو الدليل على خلود الروح؟» - إلاّ أنّ السؤال الأخير كان محيّراً. فقد أراد فريدريك شرحاً للحديث النبوي [الشريف]: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»[17].

من الصعب أن نتخيّل ملكاً مسيحياً مثل لويس التاسع يطرح هذا النوع من الأسئلة، فما بالك بتوقّع الأجوبة من المسلمين الذين يعتبرهم كفّاراً. بالطبع، لم يكن فريدريك نموذجاً للتسامح تجاه «تعدّد الثقافات»، لا سيّما وأنّه أمر بإعدام عدد كبير من المسلمين، وحظر على اليهود بناء بيوت للعبادة، كما فرض عليهم ارتداء ملابس خاصّة. مع ذلك، فإنّ الأسئلة التي طرحها على العالم الإسلامي، لا بل مجرّد طرحها على المسلمين من الأساس، تعطينا لمحة مثيرة للاهتمام عن هذه الشخصية الغامضة. وعندما ثار الكاثار الهراطقة في بداية القرن الثالث عشر في جنوب فرنسا، لا عجب أن تكون الشخصية التي لجأوا إليها طلباً للمساعدة هي فريدريك الثاني، «سلطان» لوتشيرا[18].

هكذا، عندما قبل الإمبراطور البالغ ستّة وعشرين عاماً لقبه من البابا في ذلك اليوم البارد من شهر نوفمبر 1220، لم يكن لديه كثير من الأسباب للشعور بالرضى عن الذات. فالرجل الذي توّجه كان هو نفسه مرتاباً حيال مخطّطاته الإمبريالية. ذلك أنّه في شهر نوفمبر، أصبح معروفاً أنّ ابن فريدريك قد انتُخب من قبل أمراء شمال ألمانيا في أبريل من ذلك العام، ما ضاعف من الانطباع أنّ الأسرة عازمة على الهيمنة على أوروبا. بالإضافة إلى ذلك، كان نصف مملكة فريدريك في حالة ثورة. ففي صقلية، بدأ السكّان المسلمون بتنظيم مقاومة واسعة النطاق ضدّ المذابح والمظالم التي لحقت بهم. واختارت تلك المقاومة الانتقال من أماكنها وإعادة تجميع نفسها في مناطق مركّزة. بحلول عام 1220، أصبح معظم عرب صقلية موجودون في غرب الجزيرة، بحيث تمّت إدارة مدن مثل إياتو وإنتلاّ كدول مستقلّة. وفي أغريجينتو، منع المسلمون المسيحيين من أداء شعائرهم الدينية، حتّى إنّهم أخذوا أسقف المدينة رهينة لأكثر من عام[19].

بلا شكّ، كان عام 1220 الذي شهد تتويج فريدريك عاماً حافلاً بالأحداث. ففي إنكلترا، عاد الملك بتواضع إلى قتال باروناته، بعد خمسة أعوام بالكاد من توقيع ماغنا كارتا. في هذا العام، بدأ بناء كاتدرائيتين عُظميين (سالسبوري ونوتردام)، ووُلد مفكّر عظيم (رودجر بيكون)، وتوفّي شاعران عظيمان (الشاعر الغنائي الألماني إيشنباخ والشاعر الفارسي العطّار). على الساحل المقابل لصقلية، في مدينة دمياط المصرية، كان ثمّة جيش صليبي متعثّر على وشك أن يُرسَل مجدّداً إلى العالم المسيحي، بشروط أكثر سخاء ممّا يستحقّ؛ في حين أنّ مبشّراً يبلغ من العمر أربعين عاماً، ويدعى فرنسيس أسيزي، كان مسافراً مع الجيش، تمكّن من مقابلة السلطان المصري (الذي سنتطرّق إليه مرّة أخرى)، ونال إعجابه بسبب حماسته، وإن لم يتمكّن من تنصيره[20].

غير أنّ العام 1220 شكّل أيضاً بداية مشروع كبير، ألا وهو استئصال الإسلام من صقلية بالكامل وإزالة كلّ المسلمين، رجالاً ونساءً وأطفالاً، من

الجزيرة. بدأ ذلـك بالقمع الوحشـي للانتفاضـة الصقلية على يـد فريدريك. فقد عمد رجـل يدعى ابـن عبّاد إلى ممارسـة حكم ذاتي فـي منطقة تقـع على التلال الصّخرية لوسـط وغـرب صقلية، إلـى حدّ أنّه سـكّ قطعـاً نقدية خاصّة بـه. فثار غضب الإمبراطور، لا سيّما وأنّ عملته هي التي صُهرت لإنتاج العملة الإسلامية الجديدة. في حوالى عام 1222، قاد فريدريك شـخصياً جيشـاً إمبراطورياً ضخماً باتّجاه أسـوار معقل ابن عبّاد، أي بلدة إياتو. وقُدّر حجم المشـاة وحدهم بستّين ألف جندي، على الرغم مـن أنّ هذا الرقم مبالـغ فيه بالطبع (كما يشـير المؤرّخ تايلور). غير أنّ المقاومة كانت قوية بحيث دام الحصار شـهرين، على الرغم من حجم الجيش، وبلغ ذروته في هجوم شرس.

بحسـب الروايـة، كان القتـال عنيفاً في الأسـابيع الأولـى من الهجـوم، ممّا دفع رجال ابن عبّاد إلى بعث رسـول إلى زعيمهم، قائليـن إنّ حجم الجيش كان ساحقاً بكلّ بسـاطة. دهش ابن عبّاد، ورفض تصديق التقارير، وطلب سماع ذلك من الرجال أنفسهم. هكذا عاد الرسـول مع الجنود الذين أعادوا على مسامع ابن عبّاد النبأ الذي نقله الرسـول، وقالوا إنّ القتال عنيف، وإنّ جيش الإمبراطور كان هائلاً بحيث بدأ بعض الرجـال بالفرار من أرض المعركة. أصغـى ابن عبّاد جيداً إلى الجنود، ثمّ أرسـلهم مجدّداً إلى الميدان، وبعد رحيلهم، قتل الرسول. عندما بلغ الخبر أسـوار المدينة، قرّر رجال ابن عبّاد زيارة معكسر الإمبراطور، وإفساح المجال لدخول البلدة.

عندما سـمع قاضي البلدة بما يحـدث، هُرع إلى ابـن عبّاد في تلـك الليلة، وطلب منه الاستسـلام، مـن دون قيد أو شـرط، تجنّبـاً لدمار البلـدة. فرفض ابن عبّاد في البداية، بداعي الكبرياء، إلاّ أنّه بدّل رأيه بعد بضع ساعات. فانطلق فجراً برفقة القاضي إلى خيمة فريدريك الثاني، لإعلان استسلامه. لا ندري بالضبط ما قيل بينهم، لكـنّ الإمبراطور ركل زعيـم المتمرّدين بعنف بحيث انشـقّ جنبه. ثمّ اقتيد إلى باليرمو، وأُعدم بعد أسـبوع، على الرغـم من المناشـدات بالرحمة. وتمّ سحل أبنائه خلف الجياد حتّى الموت[21].

كانت إياتو بداية النهاية. صحيح أنّ تلك الحوادث لم تسجّل نهاية التمرّد الذي سيدوم عشرين عاماً أخرى، إلاّ أنّها كانت بداية الحدث الذي تتمحور قصّتنا حوله، أي تأسيس مستعمرة إسلامية جديدة في لوتشيرا، تملك شريعتها الخاصّة، ومساجدها، وقاضيها، في وسط مملكة مسيحية، وعلى بعد مائة وخمسين ميلاً من مقرّ البابا. ويعادل ذلك نقل ثلاثين ألف شخص سيراً على الأقدام من لندن إلى نيوكاسل، أو من ميونيخ إلى هانوفر. استناداً إلى التقارير الأولى، بدأت عمليّات الترحيل في عام 1223، واستمرّت حتّى أواسط العقد الرابع من القرن الثالث عشر. إلى أن تمّ جمع آخر مسلمي صقلية، وإرسالهم إلى المستعمرة البعيدة، إلى غير رجعة. غير أنّ شكلاً من أشكال اللغة العربية سيبقى مستخدماً في الجزيرة لمائتي سنة أخرى، لا سيّما بين يهود شمال أفريقيا، الذين دعاهم فريدريك للاستيطان في صقلية. في الواقع، كان لرحيل المسلمين عن صقلية أثر كارثي على الزراعة في الجزيرة، ذلك أنّ المسلمين أثبتوا مهارتهم العالية ودرايتهم في الزراعة، وهي معرفة انتقلت بطبيعة الحال إلى أماكن أخرى اليوم. فقام فريدريك، في خطوة ذكية، بجلب ملّاك الأراضي اليهود من الساحل الأفريقي لمعالجة هذه المشكلة، من دون الحاجة إلى إعادة إدخال عرب إلى الجزيرة. وبحلول عام 1243، كانت صقلية قد خضعت لـ«تطهير عرقي»، على الأقلّ في ما يتعلّق بالعرب المسلمين.

من الصعب أن نفهم القصد من عمليّات الترحيل. فمن جهة، كان الترحيل منهجياً ووحشياً، بكلّ تأكيد، تمّ على خلفية من أعمال العنف والقمع، والمجازر، كما رأينا. وما من وسيلة لنعرف كم ألفاً من المسلمين لقوا حتفهم في صقلية في هذه الفترة. كما كان من المفيد لفريدريك امتلاك جيب إسلامي، على شكل مستعمرة للعرب، في وسط العالم المسيحي، تعتمد عليه اعتماداً تاماً. وكما سنرى لاحقاً، ستمدّ بلدة لوتشيرا الإسلامية الجديدة الإمبراطور بالحرس الملكي، وبفيلق من النخبة، وبآلاف الرماة المهرة، والفرسان الأكفّاء. ولن يكون فريدريك وحده هو من سيستخدم أولئك الجنود المسلمين، بل ستستعين بهم

أيضاً الجيوش المسيحية لخلفائه من سلالتي هوهنشتاوفن وأنجو. ويبدو أنّ العزلة المتعمّدة للمكان، الذي يقع على بعد مئات الكيلومترات من حدود أيّ دولة إسلامية أخرى، إضافة إلى القيود الصارمة التي فُرضت على سفر سكّانها، تؤكّد على هذا الغرض الاستراتيجي.

من جهة أخرى، أشار المؤرّخون إلى أنّ تأسيس لوتشيرا الإسلامية، وإن يكن مثيراً للاهتمام، إلاّ أنّه ليس الأوّل من نوعه. فغالباً ما قام النورمان بترحيل المتمرّدين من أطراف صقلية إلى البرّ الإيطالي الرئيس، ونقل البيزنطيون قبلهم أعداداً لا تحصى من البلغار، والألبان، وحتّى الأرمن إلى أبوليا، في جنوب شرق إيطاليا[22]. غير أنّ ما يسترعي الانتباه هو مستوى الاستقلالية التي منحها فريدريك للمسلمين في مدينتهم الجديدة، والحماسة التي حماهم بها. إذ قام الإمبراطور بترتيبات دقيقة مع النبلاء المحليين والكنائس في المنطقة للسماح بشراء منازل وأراضٍ للمستوطنين. وعلى الفور تقريباً، بدأ بعض من المسلمين الأثرياء باستئجار أو شراء الأراضي من جيرانهم المسيحيين. حتّى إنّ بعضهم تملّك منزلاً أو منزلين آخرين في مدينتي فوجيا وترويانو المجاورتين[23]. وكلّما نشأت نزاعات بين المسيحيين والمسلمين على الأراضي، كان يُطلب من المسيحيين الذين يحاولون منع المسلمين من استخدام أراضيهم بشكل قانوني تركهم وشأنهم. أمّا بالنسبة إلى الشؤون الداخلية، فكان لدى المسلمين محاكمهم الخاصّة وقاضيهم الخاصّ، ولا تشير السجلاّت إلى أيّ تدخّل مسيحي في تلك السلطات[24]. هكذا، عندما قام سفير مصري بزيارة لوتشيرا في خمسينيات القرن الثالث عشر، فوجئ لدى رؤية الإسلام يمارَس علناً في البلدة، والمسلمون يحتلّون مراكز بارزة في البلاط الملكي[25]. كانت لوتشيرا بحقّ فسحة صغيرة للإسلام في وسط إيطاليا. وسرعان ما ذاع في العالم الإسلامي خبر سماح المسيحيين بوجود مقاطعة إسلامية في قلب ممالكهم.

ظلّت لوتشيرا بلدة إسلامية لنحو ثمانين عاماً، إلى أن أمر شارل الثاني بتدميرها فجأة في عام 1300. بطبيعة الحال، كانت لوتشيرا مسيحية قبل مجيء

المسلمين. فقد مرّ بها فريدريك للمرّة الأولى عام 1221، أي قبل عامين من ترحيل المسلمين إليها. ويومذاك على الأرجح، خطرت له فكرة تحويلها إلى مستوطنة إسلامية. وعندما بدأ المسلمون بالتوافد بأعداد متزايدة، غادرها عدد كبير من سكّانها المسيحيين للاستقرار في المناطق المجاورة. وأمر فريدريك شخصياً أسقف البلدة بمغادرتها. فتركت كاتدرائية لوتشيرا، وتدهورت حالتها تدريجياً. وتشير السجلاّت إلى أنّه بعد مدّة من مجيء المسلمين إلى المدينة، أُنزلت أجراس الكنيسة وتمّ الاحتفاظ بها داخل القلعة[26]. غير أنّ عدداً من مسيحيي لوتشيرا مكثوا فيها. وليس من قبيل المبالغة القول إنّ حسّاً بالوحدة والتعاون نشأ بينهم. أهمّ دليل على ذلك هي المقاومة الشرسة التي أبداها سكّان البلدة، من مسيحيين ومسلمين، لجيوش شارل أنجو في حصاره لها في عام 1269. وعندما استولى شارل أخيراً على المدينة، أعدم المقاتلين المسيحيين والمسلمين على السواء بالآلاف.

يمكن العثور على أدلّة أخرى على تعايش المسيحيين والمسلمين في لوتشيرا في الحياة اليومية. على الأرجح، كان المستوطنون المسلمون يجيدون اللغة الإيطالية أكثر من العربية، على الرغم من أنّ كلتا اللغتين كانتا قيد الاستخدام. وكان ثمّة موظّفين مسلمين يحتلّون مناصب إدارية عالية في البلدة. على سبيل المثال، كان زعيم المدينة هو جندي مسلم يحمل اسم ريكاردو، وكان يُطلب من بعض المسلمين الحضور للشهادة في قضايا لدى محاكم مسيحية[27].

مع ذلك، وقعت بعض الاحتكاكات. لبناء مزيد من المنازل، استخدم المسلمون أحياناً مواداً مأخوذة من الكنائس المهجورة. وعندما سمع غريغوري بذلك، استبدّ به الغضب، وقال «إنّهم يبنون مدارس لبني هاجر من حجارة صهيون»[28]. وبما أنّ هذا الأمر حدث على ما يبدو في أكثر من مناسبة، فقد تطوّرت القضية إلى خصام طويل الأمد بين البابا والإمبراطور. في الواقع، لبناء القصر الملكي في لوتشيرا، قام فريدريك نفسه بهدم بعض المباني في بارليتّا المجاورة التي كانت تنتمي لفرسان الهيكل، وهو تنظيم صليبي كان على خلاف دائم معه.

يبقى السؤال، ما كان رأي سكّان لوتشيرا المسلمين بالحكّام المسيحيين الذين قاتلوا من أجلهم، أي فريدريك والملوك الذين جاؤوا من بعده؟ تبقى الإجابة عن هذا السؤال مستحيلة تقريباً. فالمدينة التي أعطيت لمسلمي صقلية لم تكن لا أرض ميعاد ولا معسكرات عمل، بل اعتُبروا هم واليهود «عبيد البلاط» (servi camerae)، مع أنّه من الإنصاف القول إنّ هذا المصطلح لم يكن حمائياً وحسب، بل قمعياً أيضاً. مهما يكن رأينا، فإنّ الاحتفال بشهر رمضان في شوارع مدينة إيطالية قريبة من روما، طوال القرن الثالث عشر، سيدهشنا دائماً. من دون شكّ، أمضى كلّ من فريدريك الثاني وملوك أسرة هوهنشتاوفن، الذين خلفوه لمدّة وجيزة، وقتاً طويلاً في لوتشيرا. فقد توفّي الملك كونراد، كما قيل، محاطاً بحرّاسه المسلمين. وعندما أعلن الملك مانفريد فعليّاً الحرب عبر قتل مساعد البابا، كان أوّل مكان فرّ إليه هو «قصره العربي» في لوتشيرا. يشير كلّ ذلك إلى أنّ الملوك المسيحيين لم يشعروا أنّهم مهدّدون بين رعاياهم المسلمين، ولم يعتبروا مدينتهم مدينة معادية أو غريبة. فقد كان مسلمو لوتشيرا على استعداد للقتال من أجل أسرة هوهنشتاوفن بشراسة، وأحياناً بحماسة زائدة، سواء في مدن إيطاليا الشمالية النائية، أو حتّى في حملات صليبية ضدّ إخوانهم المسلمين (ضمّت جيوش فريدريك التي توجّهت إلى الأراضي المقدّسة في عام 1228 كتيبة من الجنود المسلمين). بالطبع، بصفتهم أقلّية من ثلاثين ألف شخص في بلاد تضمّ ما يزيد عن مليوني مسيحي على الأرجح، لم يكن لديهم خيارات كثيرة.

فريدريك في الأراضي المقدّسة (9-1228)

بغضّ النظر عن إخماد ثورات صقلية، ونقل المسلمين إلى لوتشيرا، كان لدى فريدريك الثاني أمر آخر يشغل باله، ألا وهو الوعد الذي قطعه على البابا بالمشاركة في حملة صليبية إلى مصر. فالهجوم الذي شنّه الصليبيون على بلدة دمياط المصرية باء بفشل ذريع. إذ أنّ الحملة التي عصفت فيها النزاعات والانقسامات منذ البداية كانت بقيادة كاردينال يدعى بيلاغيوس، وهو رجل

وصفه المؤرّخون، في لحظة إجماع نادرة ومفرحة، بـ«رأس الخنزير». فقد عمد المصريون ببساطة إلى ضخّ المياه في الحقول التي خيّم فيها الجيش الصليبي الهائل، وحوّلوها إلى مستنقعات. ثمّ أُرسل المسيحيون الذين وقعوا في الأسر على متن الزوارق التي أتوا بها، من دون إعطائهم حتّى صواري سفنهم. وكان من حسن حظّهم أن نجوا بحياتهم.

كان من المفترض أن يشارك فريدريك الثاني في تلك الحملة، مثلما وعد يوم تتويجه، وظلّ الملك البالغ الثلاثين من عمره يشعر أنّ عليه الوفاء بهذا الالتزام العلني. ينبغي أن نذكر هنا أنّه خلافاً للاعتقاد السائد، لم يكن وجود الصليبيين في الشرق الأوسط عبارة عن فورة عابرة، أو بعثة أو رحلة لشهر من الزمن إلى المشرق. بل كانت الدول الصليبية في القرن الثاني عشر عبارة عن شأن دائم إلى حدّ ما. فالقدس، على سبيل المثال، احتُلّت من قبل الفرنجة لمدّة قرن تقريباً، إلى أن أعادها للمسلمين القائد العسكري اللامع صلاح الدين الأيوبي، وهو كردي عراقي الأصل، في عام 1187. انتشرت الدول والإمارات الصليبية التي حكمها الفرنجة على طول الساحل السوري. وقد اختار فريدريك ابنة أحد أولئك النبلاء، الذي يحمل لقب ملك القدس (على الأقلّ على الورق)، ليتزوّج مجدّداً في عام 1227، بعد وفاة زوجته الأولى قبل بضع سنوات. كانت الفتاة في الخامسة عشرة من عمرها، وتدعى إيزابيلا. بالزواج منها، أصبح فريدريك ولي العهد الضمني لمملكة القدس، وهو أمر أفرحه جدّاً بحيث طبعه على عملته. غير أنّ إيزابيلا لم تعش حتّى يوم ميلادها السابع عشر، لأنّها توفّيت أثناء المخاض. وادّعى والدها لبقية حياته أنّها ماتت مقتولة.

كان السلطان المصري الذي حاول القدّيس فرنسيس الأسيزي تنصيره يدعى الملك الكامل، وهو ابن شقيق الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي. كان مخطّطاً موهوباً، ومفاوضاً عادلاً (مع المسيحيين، لكن ليس مع أقاربه)، وهو من أخرج الصليبيين من دمياط. سبّب خبر زواج فريدريك، وحقّه الضمني في عرش القدس، قلقاً لدى الممالك المسيحية. وكان لدى الكامل الكثير ليخشى عليه.

فالسلالة الكردية التي ينتمي إليها كانت محاصرة بين الفرنجة، الذين يزدادون قوّة وخطراً في الغـرب، والخطر المرعب للمغول في الشـرق. وما زاد الأمور سـوءاً، هـو أنّ هلال الأراضـي الواقعـة تحت سـيطرة أسـرته، والممتدّ من شـمال مصر، مروراً بفلسطين، وسوريا، والعراق، وصولاً إلى جنوب تركيا، قُسّم من قبل والده إلى ثـلاث ممالك، ووزّعـت على كلّ مـن أبنائه، وكانـوا الآن يتشـاجرون عليها. فقد نـال الكامل مصـر، بينما حصل أخـواه (المعظّم والأشـرف) على فلسـطين، وسـوريا، ومعظم ما هو معروف بالعراق، لكنّه كان يُعرف بالعربية باسم الجزيرة، أو بلاد ما بين النهرين[29]. وكانت علاقة الكامل بشـقيقه في دمشـق سيّئة إلى حدّ أنّه بدأ يداعب فكـرة التحالف ضدّه مـع فريدريك، الذي اعتبره الشـخصية الأكثر انفتاحاً في الغرب المسيحي. كان السلطان المصري قد سمع الكثير عن فريدريك وسلوكياته «الشرقية»، كالجنود المسلمين في حرسه، واهتمامه بالإسلام، ومعرفته باللغة العربية، وخلافه مع البابا. في عام 1225، أرسـل السـلطان واحـداً من أقدر سـفرائه إلى باليرمو، ويدعى فخر الديـن[30]. كان فخر الدين رجل دولة سـيصبح لاحقـاً صديقـاً مقرّباً مـن فريدريـك، ومبعوثـاً رئيسـاً بيـن الإمبراطور والسـلطان (اللذين لـم يلتقيا أبداً، علـى الرغم مـن حلفهما الشـهير). على الرغم مـن انتماء الرجلين إلى طرفين متعارضيـن، وعلى الرغم من الاختلافـات الثقافية الواضحة، جمع بين الإمبراطور الألماني اللاتيني والأمير الكردي العربي موقف مشترك، ألا وهو مقاربة سياسية بحتة لمدينة القدس، خالية من أيّ رمزية أو حماسة دينية. في عام 1226، كانت المدينة المقدّسة بين يدي شقيق الكامل، الملك المعظّم، غير أنّ هذا الأمر لم يردعه عـن عرضها بمكر على فريدريك، مقابل (كما سـيقول نيتشـه لاحقاً) «السـلام والصداقة». فعـداء الكامل لأخيـه، إضافة إلى خوفـه من المغول وأعدائهم في الشـرق، جعلاه يفضّل وجود دولة لاتينية عازلة في القدس كحليف مؤقت. تشـجّع فريدريك مـن جانبه، ورأى في ذلـك الضوء الأخضـر الذي كان ينتظره. فبدأ في عام 1227، بالاسـتعداد للإبحار إلى الأراضي المقدّسـة، تتأرجحه أحلام استعادة القدس. ولم يكن يملك أدنى فكرة عمّا ينتظره.

تضامنت مجموعة كاملة من القوى المختلفة، مـن حجّاج، ونبلاء، ومرتزقة ألمان، وبدأت بالتدفّق إلى جنوب شـرق إيطاليا، تحت إشراف فريدريك، لتصبّ ببطء فـي قوّة صليبيـة واحدة. فقـد كانـت الحملة الصليبية الخامسـة لعـام 1221 كارثيّةً، أُسـر فيها دوق بافاريا، وحتّى ملك القدس اللاتيني، بحيث شـعر كثيرون أنّ الحملة السادسـة يجـب أن تحقّق النجـاح ببسـاطة. وبما أنّ جنـود فريدريك المسـلمين كانوا في صفـوف الفرقة التـي أبحرت معـه، من الصعب ألاّ نتسـاءل كيف كان شـعورهم بين أقرانهم في هذا المشـروع الذي يرتدي مظهراً مسـيحياً. لـم تكن تلـك المـرّة الأولى التي شـارك فيها مسـلمو صقلية في حمـلات كهذه، ولـم تكن، بكلّ تأكيد، الأخيرة. فهم سيشـنّون حرباً، إلى جانب آلاف المسيحيين الناطقين بالفرنسـية والألمانية، ضدّ إخوانهم المسـلمين. هل نظروا إلى الأمر من هذه الزاوية؟ يصعـب تمامـاً الإجابة على هـذا السـؤال. عندما دخـل الصليبيون إلى كنائس برينديـزي وباري للصلاة طلبـاً للنصر قبل الإبحار، مـاذا فعل الجنود المسـلمون؟ هل انتظروا فـي الخارج؟ هل احتسـوا الشـراب في مـكان ما؟ هل رفضـوا جماعياً المفارقـة التي ينطـوي عليها عملهـم؟ أم أنّنا مخطئـون في طرح مثل هذه الأسـئلة، مخطئون في المبالغة بدور «الإسـلام» الذي كثر الحديث عنه اليوم؟ ربّما رأى المسلمون الناطقون باللغة العربية، المولودون في صقلية، الذين يخدمون أسـرة هوهنشـتاوفن، ويقاتلون في جيش فريدريك، أنّ إسلامهم يشكّل ناحية ثانوية من هويّتهم ككلّ.

أيّـاً يكن ما نسـتنتجه مـن ذلك، كانـت الحملـة الصليبيـة بحدّ ذاتهـا تواجه مشـاكل. فعندما بدأت مختلف الجيوش بركوب السـفن، ضربها المرض. إذ بدا أنّ شـكلاً من أشـكال الكوليرا أو التيفوئيد اجتاح أبوليا، الأمر الذي أخّر انطلاق الأسـطول، وأودى بحياة كثيرين[31]. فلم يتمكّن فريدريك من الوفاء بوعده للمرّة الثانية، بعـد أن أرجأت الحمّـى خططه لعدّة أشـهر. فما كان مـن البابا غريغوري التاسـع المنتخـب حديثـاً إلاّ أن عاقبـه بالحرمـان الكنسـي بـكلّ بسـاطة. ذُهـل فريدريك، وأدان بغضب البابا الحالي وكوريا الكنيسـة. غير أنّ الأمور سرعان ما

أخذت تتفاقم.

كما يشير المؤرّخ ابن أبي العافية بجفاف، كان الحرمان الكنسي من الأخطار المهنية القياسية التي تهدّد أيّ إمبراطور في القرون الوسطى[32]. في الواقع، أدّى الصراع الدائم بين أسرة هوهنشتاوفن والبابوية إلى عديد من قرارات الحرمان الكنسي والمصالحات في الماضي، وسيُنتج كثيراً منها في المراحل التالية. وقد تسبّب هذا الحكم بخفض منزلة حملة فريدريك من حملة صليبية إلى مجرّد حملة إمبراطورية. وهذا ما سيؤدّي إلى مشاكل عند وصول فريدريك أخيراً إلى الأراضي المقدّسة، ذلك أنّ تنظيمات على غرار فرسان الهيكل لن يُسمح لها بدعمه رسمياً. وعندما يدخل فريدريك أخيراً إلى فلسطين، سيضطر الصليبيون المتمركزون هناك أساساً للسفر لمدّة يوم كامل للحاق به.

أبحر أسطول السفن أخيراً في مطلع عام 1228، على طول ما يُعرف اليوم بالسواحل اليونانية والتركية. وبعد توقّف وجيز في قبرص، التي قام فيها الإمبراطور بجمع جزية 10 سنوات من الحاكم تعيس الحظ، عبر التهديد باعتقاله في وسط مأدبة، وصل فريدريك مع أسطوله إلى مملكة عكّا الرومانية على الساحل السوري/ الفلسطيني. على الرغم من الحرمان الكنسي، فرح الصليبيون الموجودون هناك بوصوله. فهم لم يتمكّنوا من البقاء على هذا الساحل إلاّ بفضل القوّة البحرية البندقية. لهذا السبب كان وصول فريدريك، حتّى بأسطوله المتواضع المؤلّف من ستّين سفينة، مشهداً مرحّباً به. في عكّا، طرح فريدريك على سفير الملك الكامل سؤاله الشهير عمّن يكون خليفته. فأجاب فخر الدين شارحاً له كيف أنّ الخليفة هو في الأساس سليل النبي محمّد (ص)، وهو لقب يتمّ تناقله من الأب إلى الابن. فوافقه فريدريك قائلاً للسفير الذي عقدت لسانه الدّهشة: «فكرة جيّدة. أمّا نحن، عندما نختار خليفتنا، نأخذ رجلاً من الحضيض، لا تجمعه بالمسيح لا علاقة دم ولا أيّ علاقة أخرى، رجلاً جاهلاً عاجز حتّى عن التواصل مع الناس»[33].

كان لدى فريدريك سبب وجيه لكره البابا الجديد. إذ لم يكد يغادر

مملكته وينطلق في حملتـه الصليبية، حتّى أمـر غريغوري جيوشـه بالهجوم على مملكة فريدريك. وبـدأت الجيوش المتعاطفة مـع القضية البابويـة، يقودها حمو فريدريك، في مشـهد سريالي، بالتجمّع لشـنّ الهجوم. كما شـجّع البابا بارونات أبوليا في جنوب شـرق إيطاليا علـى التمرّد. حتّى إنّ غريغوري بدأ بنشـر شـائعة كاذبة تفيـد أنّ فريدريك مـات غرقاً في البحر، مـع أنّ البابا يعـرف أنّ هذا الخبر كاذب، لأنّه كان مطّلعاً على تقدّم الإمبراطور بانتظام. حتّى بالنسـبة إلى مؤسسـة ماكيافيلية مثـل البابوية، فإنّ غزو أراضي صليبي غائب شـكّل عمـلاً غير عادي، جعل عدداً من الملوك يشعرون بعدم الارتياح. كان يفترض بهذا الوضع أن يدفع فريدريك إلى التسـاؤل ما إذا كان يجدر به أن يقفل عائداً على أعقابه على الفور للدّفاع عن مملكته.

لكنّ التطـوّرات التي اسـتقبلته فـي عكّا أيضـاً أظهـرت أنّ الأمـور لم تكن تجري حسـب مشـتهاه. فقد توفّي شـقيق الملك الكامل، وكان السبب الأساسي الذي دفع السـلطان إلى دعوة فريدريك إلى الأراضي المقدّسة في المقام الأول، الأمر الذي جعل السلطان بغنى عن خدمات فريدريك.لم يعد الكامل بحاجة إلى جيش صليبي لمحاربـة أخيه المتوفّى. فأصبح جيش فريدريـك المؤلّف من ثلاثة آلاف جنـدي، يزحفون في ذلك الوقت نحـو مدينة صور، مصدر إحراج بالنسـبة إليه. في الواقع، لم يتصرّف السـلطان المصـري بالضرورة عن سـوء نيّة. غير أنّ وفاة شقيقه قلبت كلّ الموازين، وبفضل سـرعة بديهته ووريث أخيه عديم الخبرة والكفاءة الديبلوماسية (عملياً، أُزيح الشـابّ المسكين جانباً من قبل عمّيه)، وجد الكامل نفسه فجأةً مسؤولاً عن مساحة واسـعة من الأراضي الممتدّة من فلسطين إلى دمشـق[34]. وكانت دعوة فريدريك أقرب إلى اسـتدعاء طـارئ، اتّضح لاحقاً أنّه لم يعد له ضرورة.

لـم يستسـلم فريدريك. فقد اسـتثمر طاقـة هائلة فـي الحملـة الصليبية: دفع المال للمرتزقة، وأُصيب جيشـه بالمرض، وخاض رحلة بحريـة صعبة، وتعرّض للحرمان الكنسي... ببسـاطة، لم يكن ممكناً للإمبراطور العودة إلى إيطاليا خالي

الوفاض. أشـار بعض المؤرّخين أيضاً إلى جنون العظمة الذي كان يشوب تفكير الإمبراطـور. فقد داعبتـه بالفعل أفـكار خياليّة حـول تأدية دور عظيـم كإمبراطور العالم (imparator mundi) في اسـتيلائه على القدس. هكذا بدأ واحدة من أبرع مناوراته السياسية. في البداية، شـرع في هجوم ساحر، فأرسل أُسقف باليرمو إلى بلاط السـلطان مع مجموعة كبيـرة من الهدايا، بمـا فيها جواده الخاصّ، وسـرج مرصّع بالجواهر. وأرسل إلى السلطان رسالة قال فيها:

أنتـم تعرفون أنّنـا أعظم ملوك الغرب. وقـد كتبتم إلينا طالبيـن منّا القدوم. في هذا الوقت، عبر البابا وغيره من ملوك الغرب شـواطئنا، وشـنّوا هجوماً على أراضينا. إن عدنا الآن صفر اليدين، سنخسر ماء وجهنا. والقدس هي أسـاس عقيدتهم وغايـة حجّهم، وقد دمّرها المسـلمون، وهـي لا تفيدهم بشيء. فإن قرّر السلطان، حفظه الله، أن يمنحنا السيطرة على المدينة وحقّ زيارة الأماكن المقدّسة الأخرى، سيُظهر بذلك حكمته، ويتيح لنا أن نحفظ كرامتنا بين الملوك. وإن رغب السـلطان، فنحن على اسـتعداد للتنازل عن عائدات الضرائب، وتسليمها إلى بيت مال الخلافة[35].

بعد ذلك جلس ينتظر. خلافاً للكاردينال الـذي رفض «التعامل مع الكفّار»، كان دهـاء فريدريـك يكمن فـي فهم الحاجـة إلـى الحفاظ علـى سـمعة الكامل وسمعته على السواء. إذ لا يمكن للسلطان أن يسلّم القدس إلى الفرنجة ببساطة. ولا يمكنه أن يسمح أيضاً لإمبراطور الإمبراطورية المقدّسة بالتجوّل في فلسطين مع جيشـه الصليبي، لا سـيّما وأنّ هذا الجيش أتى بدعوة منه. غيـر أنّ فريدريك تصـرّف بذكاء عندمـا عزف علـى وتر «الشـرف»، الذي يتيـح للطرفيـن التعاطف مع حاجـات بعضهما البعـض، وفهـم أحدهما لموقـف الآخر. كانـت لفتة عجز الكاردينال المتعنّت عن الإقدام عليها قبل سبع سنوات.

هكذا تمّت الصفقة. فسـلّمت القدس للمسـحيين لمدّة عشـر سـنوات، مع شـريط من الأراضـي المؤدّية إلـى البحر، وعـدد من الممـرّات المحـدّدة بعناية، والتي تـؤدّي إلى أماكـن مثل الناصـرة وبيت لحـم (الخارطة المعقّـدة التي تظهر

هذه الممرّات شبيهة على نحو غريب بالمعالم والحدود المعقّدة للاتفاقيات الإسرائيلية الفلسطينية في يومنا). بموجب الصفقة، سيتمّ إجلاء المسلمين من المدينة، مع السماح لهم بالوصول إلى قبّة الصخرة، أي بيت المقدس الذي يعدّ أحد أقدس الأماكن في العالم الإسلامي. ولا يُسمح للفرنجة تحت أيّ ظرف من الظروف بالخروج من مناطقهم، ولا بإعادة بناء أسوار المدينة المقدّسة، بل ستبقى القدس مدينة بلا أسوار. بعد عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعين يوماً (وهي المدّة القصوى التي تسمح بها الشريعة الإسلامية ببقاء أملاك إسلامية في عهدة غير المسلمين)، يعاد تسليم المدينة إلى الملك الكامل. وقّع فريدريك على المعاهدة، بحضور مبعوثي السلطان وأساقفة إكسيتر ووينشستر، عصر يوم أحد من شهر فبراير من عام 1229. ثمّ قال في وقت لاحق لمعاونه فخر الدين: «لو لم أكن أخشى أن أخسر كرامتي بين أبناء شعبي، لما أزعجت السلطان بأيّ من هذا. فبالنسبة إليّ، لا القدس، ولا أيّ مكان آخر في فلسطين يستحقّ العناء»[36]. فقد سئم إمبراطور العالم هذه المسألة برمّتها. وروي عن فريدريك، بعد سنوات من مغامرته في أرض الميعاد، أنّه لم يجد فيها شيئاً أكثر جمالاً من أبوليا وكالابريا اللتين ترعرع فيهما.

قبل مغادرة الأراضي المقدّسة، كان لفريدريك طلب أخير واحد: زيارة القدس، ودخول المسجد الأقصى، ورؤية قبّة الصخرة. فوافق السلطان، ورتّب مع القاضي المحلّي، قاضي بلدة نابلس الفلسطينية، لمرافقته في تلك الزيارة. في الواقع، تُعتبر التقارير العربية عن الزيارة التي قام بها فريدريك مثيرة للاهتمام، لا بل أصبحت أسطورية إلى حدّ أنّها تستحقّ الذكر. فالعرب الذين رأوا الإمبراطور شخصياً وصفوا رجلاً قصير القامة، أحمر الشعر، بدأ الصلع يغزو رأسه، لا يستحقّ، بحسب مقولة أحد المؤرّخين غير المتعاطفين، «عشرين درهماً في سوق العبيد»[37]. كان الانطباع الذي أعطاه فريدريك عن نفسه لجمهوره المسلم هو أنّه «ماديّ»، «لا تتعدّى المسيحية كونها لعبة» بالنسبة إليه. اصطحب القاضي الإمبراطور إلى المسجد ليراه من الداخل. كانت قد تمّت استعادة البناء من

الفرنجة قبل سنوات، ونُقشت على جدرانه عبارة عربية تفيد أنّ صلاح الدين طهّر القدس من المشركين[38]. ولا يقتصر معنى كلمة مشركين باللغة العربية على الكفّار، بل يُستخدم أيضاً كإشارة مهينة للمسيحيين. وقد فهم فريدريك ذلك، فسأل القاضي بخبث: «من هم المشركون إذاً؟» فأُحرج القاضي ولم يستطع الردّ.

استمرّ العرض. رأى فريدريك عند باب المسجد شبكة معدنية على المدخل، فسأل دليله عن السبب. شرح له القاضي أنّ الشباك تستخدم لمنع الطيور من دخول المسجد. فضحك فريدريك قائلاً:» والآن جلب الله الخنازير إليه!» لا يمكن لنا سوى أن نتساءل عما فكّر فيه القاضي هذه المرّة. عندما همّ الإمبراطور بالخروج، رأى عند باب المسجد كاهناً (من غير المعروف ما إذا كان مسيحياً عربياً أم من الفرنجة) يوزّع مقاطع من الكتاب المقدّس على الدرج. فطرح فريدريك الرجل المسكين أرضاً، ونعته بالكلب، وهدّد بقتله إن رآه على مقربة من المسجد مرّة أخرى.

في الليلة الأولى التي قضاها الإمبراطور في القدس، أعطى الكامل أمراً بعدم رفع الأذان في المدينة احتراماً للإمبراطور المسيحي. غير أنّ القاضي نسي إخبار المؤذنين بذلك. فصدح صوت الأذان في المدينة كالعادة في تلك الليلة خلال نوم الإمبراطور. في اليوم التالي، وبّخ القاضي رجاله، وطلب منهم الحفاظ على الهدوء في الليلة التالية. لكن يُقال إنّ الإمبراطور استدعى القاضي في صباح اليوم التالي، وسأله عن الرجل الذي نادى إلى الصلاة في الليلة الفائتة. فأخبره القاضي بما أمر به السلطان. عندئذٍ سأله الإمبراطور:»إن أتيتم في زيارة إلى بلادي، هل تظنّون أنّني سآمر بإسكات أجراس كنيستي من أجلكم؟» ويصرّ المؤرّخون على أنّ فريدريك أعطى المال للمؤذّنين وحرّاس المسجد تعويضاً على ذلك.

كانت ردود الفعل على حملة فريدريك غير الدموية مختلطة في العالم المسيحي الأوروبي. فمن توقّعوا على نحو غير واقعي أن يستعيد الإمبراطور الأراضي المقدّسة من أجلهم، شعروا بخيبة أمل إزاء ما كان في حقيقة الأمر

عقد إيجار لمدّة عشر سنوات. يلاحظ معظم مؤرّخي الحملات الصليبية بحكمة الفرق الكبير بين الحماسة الجنونية، والمتطرّفة، وغير الواقعية للمسيحيين في بلادهم، والنهج الأكثر حكمةً وبراغماتية للصليبيين الذين انتهى بهم الأمر بتمضية سنوات، لا بل حياة كاملة في بعض الأحيان، في تعايش مضطرب مع المسلمين الذين ذهبوا للاستيلاء على بلادهم. هذا لا يعني أنّ الصليبيين الذين تولّوا إدارة الأراضي التي تمّ التنازل عنها حديثاً كانوا يشعرون بالرضى التامّ. فقبل مغادرة الأراضي المقدّسة، كان فريدريك ما زال غاضباً من البابا. فلم يسلّم المناصب الرئيسة لأيّ من المنتمين إلى التنظيمات الكنسية، كفرسان الهيكل أو الإسبيتارية، بل إلى رجاله، الأمر الذي نثر بذور شقاق كبير. حاول فريدريك عبثاً أن يتصرّف في فلسطين كما لو كان في باليرمو، وبدا رافضاً أو حتّى عاجزاً عن رؤية الحقيقة الواضحة والثابتة: كان الشرق اللاتيني مملكة خاصّة بذاتها، بتاريخها المصغّر الخاصّ بها، وحتّى برؤيتها الخاصّة للسلطة، والبارونات اللاتينيون الذين كانوا يسيطرون على المدن العربية لأكثر من قرن من الزمن رأوا في إمبراطورية فريدريك نظاماً بعيداً ومجرّداً إلى حدّ ما. أخذ التوتّر يتصاعد بين الإمبراطور والبارونات الصليبيين، حتّى بينما كان فريدريك في طريق العودة إلى الساحل. وانتشرت شائعات تفيد أنّ فرسان الهيكل يخطّطون لاغتياله، أو أنّ الإمبراطور ينوي اختطاف القائد الأكبر لفرسان الهيكل وأخذه إلى إيطاليا كرهينة[39]. وعندما استقلّ فريدريك سفينته أخيراً من ميناء عكا، واستعدّ للإبحار عائداً إلى وطنه، تمّ رشقه بالفضلات من قبل حشد من جزّاري المدينة.

كان إنجاز فريدريك، على الرغم من تواضعه، ملفتاً من نواح عديدة. فقد تمّ من دون إراقة دماء، وفي الوقت الذي كانت فيه بلاده تتعرّض لهجوم من قبل البابا نفسه الذي أرسله إلى فلسطين، هذا بالإضافة إلى الدور الحاسم الذي أدّته معرفته بالعالم الإسلامي في الاستقبال الذي ناله. فعلى الرغم من مغالاة المؤرّخين في هذه النقطة – لم يكن فريدريك يجيد العربية بالقدر الذي أشيع عنه، ولم يكن بلاطه يحفل بالمفكّرين المسلمين بقدر بلاط النورمان قبل

خمسين عاماً – لا شكّ في أنّ الانفتاح الثقافي لأسرة هوهنشتاوفن على الثقافة الإسلامية كان له دور بارز في نجاح مفاوضاته مع العالم الإسلامي، لا سيّما في الصفقة التي أجراها مع الكامل. فوجود جنود مسلمين في بطانة فريدريك لم يخفَ على الكامل، بل كان من أوّل الأمور التي أبلغه بها فخر الدين بعد زيارته الأولى لبلاط فريدريك. بعد سنوات من ذلك، عندما أرسل ملك فرنسا، لويس التاسع، حملته الصليبية إلى مصر في عام 1249، تردّدت شائعة أنّ فريدريك بعث سفيراً سرّياً، متنكّر بزيّ تاجر، إلى الأيوبيين لتحذيرهم من هجوم وشيك من قبل الملك الفرنسي. واستعداد المؤرّخين العرب لرواية هذا التفصيل، وتصديقه، يكشف الكثير عن مكانة فريدريك في العالم الإسلامي.

هكذا غادر فريدريك الأراضي المقدّسة عام 1229، تاركاً خلفه الصليبيين يتنازعون مدينة القدس. لم يعد إليها أبداً بعد ذلك، على الرغم من أنّ ما سيحدث كان متوقّعاً. فقد انتهت هدنة السنوات العشر بمحاولة جديدة للاحتفاظ بالمدينة. لكنّ الصليبيين الذين أضعفتهم الفتن الداخلية هزموا، واستعاد المسلمون المدينة عام 1244، أي بعد خمسة عشر عاماً من رحيل فريدريك. ولن يسترجع المسيحيون المدينة بعد ذلك مرّة أخرى. من وجهة نظر غربية، كان من الملفت لواحد من آخر انتصارات الحملات الصليبية أن يتحقّق – لأنّ هذا هو ما أنجزه فريدريك – ليس من خلال القوّة أو التفوّق العسكريين، بل عن طريق الجلوس ببساطة، والانتظار، والتفاوض.

الشجار مع البابا: الحملة ضدّ عصبة لومبارد (1230–50)

يُعتبر الجزء التالي من قصّتنا معقّداً، ويحتاج استيعابه إلى بذل شيء من الطاقة والجهد. إنّها أحداث حافلة بالمدن المتصارعة، والتجّار بالغي الطموح، هذا فضلاً عن الحصارات، والنهب، والمجازر، وكلّها أعمال تغذّيها المنافسات والعداوات الإقليمية التي يرجع تاريخها إلى قرون من الزمن. ويجب أن نأخذ

باعتبـار علاقات صعبـة ومتعـدّدة الأوجه، وروابـط بين أسـاقفة ومـدن، وأباطرة وطغـاة، وبابـاوات وملوك في مـدن نائيـة، كلّهـا تخضع لتحـوّل وتطوّر مسـتمرّ بحسب آليات السلطة الباروكية، والآلية الدقيقة للتحالفات دائمة التغيّر.

ستشـهد السـنوات العشـرون الأخيرة من حكم فريدريك (1230-50) حرباً مشتركة ضدّ مدن شـمال إيطاليا، التي تجسّدت في حلف يسـمّى عصبة لومبارد. ومع مـرور الزمن، أصبحـت الحرب ضدّ باباويـة اصطفّت على نحـو متزايد إلى جان تلك المـدن ضـدّ الإمبراطـور. تُعتبر هـذه الفتـرة مهمّة بالنسـبة إلينـا، لأنّنا سنشـهد فيها اسـتخداماً غير مسـبوق لجنود مسـلمين في جيـوش فريدريك، ألا وهم مسـلمو لوتشـيرا. إذ تشـير السـجلّات العسـكرية، حتّى مع أخـذ أعدادهم المبالغ فيها بعين الاعتبار، إلى أنّهم شـكّلوا عنصراً أساسـياً في حملة فريدريك، وعاملاً مركزياً في عملياته. وقد سجّل وجودهم في كلّ من سجلاّت الإمبراطور الخاصّـة ولـدى أعدائـه علـى السّـواء. إذ قيـل أنّ سـبعة آلاف مسـلم شـاركوا في المعركـة التي وقعـت خارج مانتـوا في عـام 1237. كمـا شـارك آلاف الرماة المسلمين في حصارَي بريشيا وبارما. أمّا في معركة كورتينوفا الحاسمة، فحارب ما بين سبعة وعشرة آلاف مسـلم. كما يشـير أحد المؤرّخين إلى إرسال أكثر من عشرة آلاف مسلم إلى مدينة رافينّا عام 1237[40].

قبل أن نذهب بعيداً، تجدر الإشـارة إلى أنّ عدد سكان لوتشـيرا المسلمين يبلغ حوالـى ثلاثين ألفاً. مـن هنا، يرى باحث لوتشـيرا، تايلـور، أنّ من المنطقي أكثر أن يتراوح عدد الجنود المسـلمين بين ألفين وثلاثـة آلاف، عوضاً عن العدد الذي يُذكر بانتظام، والمتراوح بين سبعة وعشرة آلاف. لكنّ هذا الرقم يبقى كبيراً بالنظر إلى حجـم الجيوش الصغير نسـبياً فـي تلك الفتـرة. فقوّات ملـك إنكلترا مثلاً لم تكن تتجـاوز في تلك الفترة عشـرة آلاف رجل[41]. لدى قراءة سـجلّات أعداء فريدريك، ندرك أنّ المسـلمين شـكّلوا قـوّة بارزة، لا سـيّما وأنّهـم جلبوا معهـم الفيلة. فيذكـر المـؤرّخ الثرثار سـاليمبيني رؤية فيلـة تعلوها أبراج خشـبية استُخدمت خارج أسوار كريمونا. كما شـاركت الفيلة أيضاً في تكتيكات الحصار

الذي ضُرب علـى كلّ من مونتيكياري وبريشـيا. ولا شـكّ أنّ فريدريك اسـتمتع باستخدام الوسائل الغريبة والأجنبية لترويع أهالي تلك المدن. فتحوّل استخدامه لـ«المسـلمين غير المؤمنين» في جيوشـه إلى لازمة متكرّرة في مساجلات أعدائه ضدّه. فبالنسـبة إلـى البابـا غريغـوري، كان ذلـك أشـبه بمحاولـة التحالـف مع الشيطان.

عندما عـاد فريدريك مـن حملته في عـام 1229، كان بالنسـبة إلـى كثير من رعايـاه كالعائد مـن بيـن الأمـوات. فقد عمّـت الثـورة مملكتـه، من فوجيـا إلى باليرمـو، بعد أن اقتنـع الناس بالشـائعات التـي أطلقهـا البابا غريغـوري. فكانت جيوش حميه (والـد زوجته الراحلة إزابيـلا) على أطراف جنوب إيطاليا، تشـجّع مدن لاتسـيو على الإطاحة بالإمبراطور. غير أنّ ظهور فريدريك مجدّداً بأعجوبة كان له دور كبيـر في قمع الثـورات، تماماً كما أمِل. فقد انسـحبت جيـوش البابا خوفاً منه إلى كابوا، شـمال نابولي، التي قاد فيها فريدريك، كما يُقال، جيشـاً من عـدّة آلاف من المسـلمين. وبحلـول نهايـة أكتوبر، تمكّن من سـحق التمـرّد[42]. تصرّف فريدريك من دون رحمة مع بعض المدن. فتمّت تسـوية سورا بالأرض، وقُتل سـكّانها بأكملهم، رجـالاً، ونسـاءً، وأطفالاً، ليكونـوا عبرة لمـن يعتبر. مع ذلك، ومـع أنّ الإمبراطور كان قادراً على الزحف على رومـا، واجتياح الولايات البابَاوية، إلاّ أنّ ما أراده قبل كلّ شيء كان السـلام؛ السلام والغفران. إذ لم يكن البابا في وضع يسـمح له بمواصلة القتال أمام الانتصارات السـاحقة التي حقّقتها جيـوش الإمبراطور، والتي كانـت عملياً علـى أعتابه. هكذا، في إحدى أمسـيات شـهر سـبتمبر من عام 1230، تمّ ترتيب عشـاء لثلاثة رجـال فقط، وكانـت مأدبة يتمنّى أيّ مؤرّخ للقرون الوسـطى حضورها، وإن كلّفه ذلك أغلـى ما لديه. ضمّ ذلك العشـاء البابا غريغوري، وفريدريك، ووسـيطاً أرسـتقراطياً (الألماني هرمان فون سالزا) جلسـوا إلى طاولة واحدة لتناول الطعام والحديث. ونظراً إلى الأمور التي سـبق وقالها الرجلان عن بعضهما البعض، لا بدّ أنّ الاجتماع سـاده التوتّر. غير أنّ النتيجة كانت سـعيدة بالنسـبة إلى الإمبراطور. فقد نال العفو، وسُـمح له

بالعودة إلى حظيرة الكنيسة. هذا على الأقل حتّى يقرّر البابا غريغوري حرمانه كنسياً للمرة الثانية بعد ثماني سنوات[43].

ستشهد السنوات الخمس التالية عدداً من التطوّرات المنفصلة. والأحداث التي ستتلو ذلك، ستتشابك مع بعضها البعض مع تقدّم قصّتنا. فقد استمرّ عدد مسلمي لوتشيرا بالتزايد، مع انخفاض عدد سكّان صقلية بسبب استمرار عمليات الترحيل من باليرمو. وبدأت مدن شمال إيطاليا، لا سيّما ميلانو وفيتشنزا، تشهد اضطرابات متعاظمة تطالب بالاستقلال عن الإمبراطور الألماني، وبدأت الحرب تبدو وشيكة. في بلدة واقعة على هضبة صغيرة في جنوب إيطاليا، وضع فريدريك دستوراً استمدّه من القانون الروماني والكنسي، الأمر الذي اعتبرته بعض الجهات في روما إهانة أخرى لسلطتها. على الرغم من انشغال فريدريك الواضح، إلاّ أنّه وجد الوقت والطاقة للزواج للمرّة الثانية، من امرأة إنكليزية هذه المرّة، هي شقيقة هنري الثالث، متّخذاً لنفسه للمرّة الثانية أيضاً زوجة تدعى إيزابيلاّ. اختلف البابا غريغوري مع فريدريك حول عدد من المسائل. فالإمبراطور لا يقوم بحماية كنيسة صقلية بجدّية كافية، بل يسمح للمسلمين بإلحاق الضرر بالكنائس، واستخدام موادّها لبناء المساجد. كما أنّه لا يبذل جهداً كافياً لتنصير المسلمين الموجودين عنده في لوتشيرا[44]. ثمّة أيضاً قضية ابن أخ أمير تونس الغريبة، الذي هرب من عمّه عام 1236، ولجأ إلى لوتشيرا. كان البابا غريغوري على قناعة أنّ الشابّ يرغب في اعتناق المسيحية، لكنّ فريدريك يمنعه من المجيء إلى روما لتعميده. ومع أنّ فريدريك أنكر دائماً هذا الادّعاء بعيد الاحتمال، غير أنّ المسألة تحوّلت إلى مصدر توتّر حقيقي. أخيراً، وفي أثناء كلّ ذلك، في منطقة نائية في شمال فرنسا، كان ثمّة صبي صغير يكبر في منطقة أنجو. إنّه ولد لن يلتقي به فريدريك أبداً. فعند وفاته، سيكون الشابّ في حملة صليبية إلى مصر، إلى جانب أخيه ملك فرنسا. لكن عندما يكبر، سيكون مسؤولاً عن سجن وإعدام ذرّية الإمبراطور، والإبادة النهائية لسلالة هوهنشتاوفن.

يُعتبر اسم عصبة لومبارد مألوفاً اليوم، لأنّ السياسي الإيطالي أومبرتو بوسّي استخدمه لتأسيس حزب سياسي في تسعينيات القرن الفائت. غير أنّه كان أساساً اسم مجموعة من المدن في القرون الوسطى تحالفت مع بعضها البعض في محاولة لتأسيس حكم ذاتي مستقّل عن الإمبراطورية الرومانية المقدّسة. كانت تلك المدن إمّا تحت حكم الأرستقراطيين المحلّيين أو نخبة من التجّار. ويُعتبر تاريخها معقّداً يصعب الدخول في تفاصيله، وذلك لعدد من الأسباب. أوّلاً، لم تبقَ هذه المجموعة على حالها دائماً، فبعض المدن مثل كريمونا، بدّلت موقعها، في حين انقلبت مدن أخرى، مثل فيرّارا، على الإمبراطور عندما خشيت من دعم فريدريك للطغاة المحليين أمثال طاغية فيرونا ، إتسيلينو. ثانياً، كانت العلاقات بين المدن نفسها في تغيّر دائم. فأبناء بيزا يكرهون أبناء جنوة، وأهالي كريمونا يشتكون من قسوة أهالي ميلانو. أخيراً، حتّى ضمن المدينة الواحدة، كان ثمّة فصائل موالية للبابا وللإمبراطور، الأمر الذي يضاعف من تعقيد شبكة الأحلاف بأكملها. بالنسبة إلى كلّ من فريدريك والبابا، كانت عصبة لومبارد أشبه برقعة شطرنج مارسا فيها، حتّى عام 1238 على الأقلّ، حرباً سرّية ضدّ بعضهما البعض، بحيث قام أحدهما بدعم عناصر معادية من هنا، وانتخب الآخر أساقفة مناوئين من هناك. ويُعتبر هذا الوضع مهمّاً بالنسبة إلينا لأنّ مشهد شمال إيطاليا سيشكّل ساحة معركة لمسلمي فريدريك خلال السنوات العشرين الأخيرة من حكمه.

كما سنرى لاحقاً، كان فريدريك يعتبر نفسه تجلّياً للحكم الإلهي على نحو غير قابل للجدل. في الواقع، يصعب عدم التأكيد على هذا الأمر، ذلك أنّ من ثاروا على الإمبراطور لم يكونوا بنظره مجرّد متمرّدين، بل زنادقة. والقسوة التي عامل بها ابن عبّاد، ذلك الثائر المسلم الذي ركله بمهمازه حتّى أوشك على الموت، سيستخدمها لاحقاً ضدّ مدن لومبارد، التي ستسقط أمام جيوشه. ففي حصار بريشيا، عمد فريدريك إلى تعليق مئات الأسرى من سكّان المدينة من أعلى الأبراج لمنع المدافعين من تحطيمها (ردّ عليه المدافعون

عن المدينة بالمثل، وعلّقوا أعداداً كبيرة من جنود فريدريك الذين وقعوا في الأسر على أسوار المدينة، وغالباً ما جعلوهم يتدلّون في طريق جياده المندفعة للهجوم)[45]. بالنسبة إلى فريدريك، كانت حربه ضدّ مدن عصبة لومبارد حرباً صليبية فعلية. وفي الدعاية التي رافقت ذلك، صوّرها على أنّها مرحلة أوّلية من حرب مقدّسة سيمضي فيها حتّى تطهير العالم بأسره؛ وهذه خدعة بلاغية في الواقع، استخدمها عدد من الباباوات والأباطرة لتحويل أحقادهم إلى قضايا عالمية، وتصوير حروبهم المحلّية كبدايات كحروب صليبية أوسع ضدّ بحر من الكفر. يبقى من غير الواضح مقدار الحماسة الدينية التي أضفاها فريدريك على المعارك والحصارات العديدة التي شارك فيها في هذا الوقت. ففي حصار فاينزا، أمضى صيف عام 1240 في تصحيح الترجمة اللاتينية لمقالة عربية عن البزدرة، في حين تشير بعض المصادر إلى أنّ معسكراً كاملاً من المشاة في جيشه تعرّض للنهب من قبل العدو بسبب ذهابه في رحلة صيد بعد ظهيرة أحد الأيام[46].

سيمضي فريدريك السنوات الخمس عشرة الأخيرة من حكمه، أي حتّى وفاته عام 1250، في عدد لا يحصى من الحصارات المماثلة، ينتظر في المعسكرات لأشهر على أبواب مدن إيطالية صغيرة، مثل فاينزا أو بريشيا، محاولاً تحطيم دفاعاتها. واستخدامه للمسلمين العرب في جيشه كان ملفتاً، بيد أنّه لم يكن غريباً. فلو ألقينا نظرة سريعة على تشكيل الحملات العسكرية التي قادها الإمبراطور، لرأينا أنّها كانت تضمّ مرتزقة من جنوب ألمانيا، فضلاً عن وحدات كاملة من المتطوّعين من الممالك الفرنسية والإسبانية، وبعض الجنود من المجر واليونان اللاتينية. وفي حملته ضدّ ميلانو، كان في خدمته مائة فارس إنكليزي. من هنا، لم يعد من المستغرب زواج فريدريك من شقيقة ملك إنكلترا[47].

كان الجنود المسلمون في جيش فريدريك من الرماة بمعظمهم، هذا بالإضافة إلى بعض الفرسان، ونسبة كبيرة من المشاة، غير أنّ «مسلمي لوتشيرا» كانوا ذائعي الصيت كرماة سهام. فمع أنّهم كانوا يحاربون في الوقت الذي بدأ

فيه استعمال القوس والنشّاب، إلاّ أنّهم واصلوا استخدام «القوس المركّب»، وهو عبارة عن قوس بسيط في الأساس، مقوّى بقطعة ثانية من الخشب أو العظم لمنحه مزيداً من القوّة والمسافة. هكذا، بإمكان ألف رامٍ إطلاق وابل من السهام على هجوم للعدوّ. ولا بدّ أنّ الرماة البالغ عددهم ألفين أو ثلاثة آلاف الذين ساعدوا فريدريك على الاستيلاء على قصر مونتيكياري (بالقرب من مانتوا، شمال إيطاليا) عام 1236، كانوا يطلقون وابلاً مماثلاً من السهام كلّ دقيقة تقريباً. ويصف لنا المؤرّخون العسكريون للقرون الوسطى كيف استُخدم الرماة لتفريق مربّعات رماة الرماح المخيفة أو المشاة وبثّ الفوضى في صفوفهم، ليتمكّن الفرسان المدرّعون من الهجوم عليهم[48].

رأينا ذلك في أكثر انتصارات فريدريك إقناعاً، وهي معركة كورتينوفا، التي وقعت في 27 تشرين الثاني 1237. دار القتال على ضفّة بحيرة كومو، عند سفوح جبال الألب، وهي على الأرجح أبعد نقطة في الشمال حارب فيها المشاة المسلمون على الأراضي الإيطالية. وحتّى يومنا هذا، بعد ثمانية قرون من الزمن، مازال من المستغرب أن يقوم أكثر من ثلاثة آلاف مسلم ناطقين باللغة العربية، يقاتلون ليس كمرتزقة بل كرعايا رسميين لإمبراطورهم الألماني، بالمشاركة بحماسة في حروب أهلية بين مدن إيطالية، على أراضٍ شمالية، مثل سهول لومبارديا الباردة. وإن كانت صورة المسلمين الإيطاليين، في حقبة دانتي والأكويني، الذين يحاربون جنود ميلانو وبولونيا أمام خلفية جبال الألب الإيطالية، تبدو غريبة جداً في نظرنا، فإنّ هذا ناتج أكثر من أي شيء مضى عن جهلنا للتاريخ. ذلك أنّ صورة «أوروبا المسيحية» التي وقعنا في حبّها، والتي ترسل رعشة في أجسادنا كلّما قمنا بزيارة كاتدرائية أو بالاستماع إلى مقطوعة موسيقية لباخ، اعتمدت على إزالة أيّ أثر للإسلام أو اليهودية من تقاليدنا الأوروبية العظيمة. وحتّى تتبدّل هذه العمليّة، فإنّ فكرة مشاركة العرب في قتال مدينتي كريمونا وفيرارا ضدّ جيوش ميلانو ستبدو لنا دائماً فكرة غير قابلة للتصديق.

في كورتينوفا، تدخّل الرماة المسلمون التابعون لجيش الإمبراطور بشكل

ملحوظ في نهاية المعركة، بحيث»أفرغوا جعبتهم«، كما سيروي لاحقاً بييرو ديلا فيغنا، أكثر مروّجي فريدريك براعة. كان فريدريك يطارد جيش متمرّدي ميلانو منذ يومين، ويتتبّعه بعناية وهو يشقّ طريقه على طول الضفّة الأخرى لنهر أوغليو. لم يكن المتمرّدون يعرفون ببساطة أنّه يتبعهم، وفي أواخر العصر، بدأوا بعبور النهرز فشنّت فرقة فرسان صغيرة من قوّات فريدريك هجوماً غير متوقعٍ عليهم، وتصادمت معهم. استغلّ الفرسان عنصر المفاجأة، ودفعوا اللومبارديين المذهولين للعودة على أعقابهم عبر النهر. ثمّ تبعت ذلك معركة واسعة النطاق، أحاط فيها المتمرّدون بعربتهم الثمينة، الكاروتشو، التي كانت تحمل رفاة قدّيسين وآثاراً مقدّسة اعتادوا على اصطحابها معهم إلى المعركة، وهي المرادف الإيطالي في القرون الوسطى لما كان معتمداً لدى الرومان. في البداية، عجزت قوّات فريدريك ببساطة عن اختراق جدار الرماح والدروع. ولم تبدأ دفاعات جيش ميلانو بالانهيار إلاّ عندما أخذ الرماة العرب يمطرونهم بالسهام. وبحلول المساء، كانوا قد تكبّدوا خسائر رهيبة. خلال الليل، هرب معظم جيش المتمرّدين. هكذا، عندما استعدّت قوّات فريدريك ليوم آخر من المعارك الضارية، وصلت لتجد أمامها معسكراً مهجوراً تماماً.

كيف تعاطى جنود فريدريك المسلمون مع زملائهم؟ وكيف كانت العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في جيوش هوهنشتاوفن؟ إنّ ندرة السجلاّت تجعل من الصعب بمكان معرفة الإجابة، مع أنّنا نعرف أنّ معظم سرايا الجيش المسلمة غالباً ما كانت تحت قيادة نقباء مسلمين، وهي ممارسة استمرّت حتّى أواخر القرن. وكون الجنود المسلمين يشكّلون الجزء الأساسي من جيش فريدريك الشخصي (بعد معركة كورتينوفا، اصطحب مجموعة صغيرة منهم معه في طريقه إلى سونتشينو) يشير بالفعل إلى المكانة شبه المميّزة التي حظي بها بعضهم، مع أنّه لا يجدر بنا المبالغة في ذلك. لكن سجّل خلاف واحد على الأقلّ بين جنود مسلمين ومسيحيين، كانوا في خدمة ابن فريدريك، مانفريد، وتمّ تناوله على نحو عابر بعد سنوات عديدة من معركة كورتينوفا، في معركة بينيفينتو

(1266). بحسب أحد المصادر، لم يقاتل المسلمون في تلك المعركة بتفانٍ كامل (non furono in fede) بسبب شجار وقع مع بعض المسيحيين عشية المعركة[49]. ومجرّد ذكر تلك الواقعة يشير إلى أنّ هذا النوع من الحوادث كان نادراً. بالإضافة إلى ذلك، يورد المتعاطفون مع هوهنشتاوفن بعض الملاحظات الإيجابية أيضاً حيال قيام المسلمين في السنوات اللاحقة بالتضحية بأفضل رجالهم دفاعاً عن المملكة، في آخر المعارك الضارية التي خاضتها أسرة هوهنشتاوفن: سان جرمانو، وبينيفنتو، وبالطبع، الحصار الأخير للوتشيرا نفسها.

بيد أنّ ما أشار إليه المؤرّخون تكراراً هو عدم انضباط مسلمي فريدريك. ففي بعض الأحيان كانوا شديدي الحماسة والاندفاع، وغير منظّمين. كما كانوا يهاجمون أحياناً بسرعة زائدة، ولا ينتظرون إشارة الهجوم. خير مثال على ذلك هي الهزيمة النكراء التي لحقت بالإمبراطور في حصار بارما 1248. كانت بارما مدينة موالية لقضية فريدريك، غير أنّها قرّرت فجأة قبل عام من ذلك الانضمام إلى عصبة لومبارد. فما كان من فريدريك إلاّ أن ضرب حصاراً حول أسوارها. في صباح 18 فبراير، أخذ فريدريك عدداً كبيراً من فرسانه الألمان، ونصف مُشاته الآتين من كريمونا، وتقدّم إلى أعلى نهر بو لاعتراض تعزيزات متّجهة إلى المدينة المحاصرة. خارج مدينة بارما كان يقع مخيّم فيتّوريا التّابع للمهاجرين، والذي يضمّ كما يقال أربعة آلاف رامٍ مسلم، مع عدد قليل جداً من المشاة والفرسان. تظاهر المدافعون عن بارما بذكاء أنّهم يرسلون جزءاً كبيراً من قوّاتهم لشنّ هجمة. فانطلق ما بقي من الفرسان الألمان والمشاة الكريمونيين في أعقابهم، وتركوا المعسكر من دون دفاع. ابتلع الرماة المسلمون الطعم هم أيضاً، وظنّوا أنّ بارما أصبحت خالية تماماً من السلاح. فانقضّوا بجنون على أمل إسقاط المدينة المتمرّدة وجني الغنائم. غير أنّهم اكتشفوا الفخّ بعد فوات الأوان، ووقعوا ضحيّة مجموعة كاملة من الجنود كانت تتربّص بهم، ناهيك عن الفرسان العائدين، وبحر من السكّان الغاضبين، من رجال، ونساء، وأطفال، بحسب ما قيل. ولم يتمّ طرد الجنود المسلمين المتسرّعين فحسب، بل تمكّنت قوّات

المدينـة من اختراق معسـكر العـدوّ وتسـويته بالأرض. ولـم تكن خناجـر الرماة ودروعهم قادرة على مجاراة أسـلحة الفرسان الثقيلة وسـيوفهم العريضة. هكذا، تكبّد مسلمو فريدريك خسائر مروّعة.

سـواء كان مسـلمو لوتشـيرا منضبطيـن أم لا، فقـد شـاركوا فـي كلّ معركة من المعارك التي خاضهـا فريدريك. اقترنوا باسـمه، وتحوّلـوا تدريجياً إلى جزء أساسي ليس من حملاته فحسـب، بل أيضاً من المعركة الترويجية مع البابا، التي سـتحتلّ العقد الأخير من حيـاة الإمبراطـور. في أربعينيـات القرن الثالث عشـر، نرى إمبراطوراً آمناً عسـكرياً (بحلول عام 1244، سـيطرت جيوش فريدريك حتّى على رومـا، ودفعـت البابا إلـى الفرار إلـى فرنسـا)، لكنّه غـارق في عـدم اليقين السياسـي، والدبلوماسـي، والاقتصـادي. فقـد حروبه كانـت المطوّلة مـع المدن الإيطالية مكلفة. لتمويلها، اضطر لشراء ذهب البندقية بأعداد لا تحصى من سفن الحبوب الصقلية. وكانت مكانته الدبلوماسـية لتكون أفضل هي الأخرى. فبغضّ الأعمال التي ارتكبها، مثل خطف أسـطول بابوي مليء بالكرادلة والأسـاقفة عام 1241 (بمفهوم اليوم، الأمر أشـبه بخطف قاعة مؤتمرات مليئة بسـفراء إلى الأمم المتّحدة)، جعلت فريدريك يخسـر تعاطف الأسـر المالكة فـي أوروبا، وضاعف صورته كطاغيـة الكنيسـة. مع ذلـك، كان ارتبـاط فريدريـك بالإسـلام، الذي لا يمكن للمـرء ألاّ يلاحظه، والشـكوك التـي أثارها ذلك بشـأن صحّـة إيمانه، هي التي أدانـت الإمبراطور فـي أذهان كثيريـن. فالحرمانات الكنسـية التـي أصدرها البابا غريغوري، ومن بعده البابا إنوسـنت الرابع، في حـقّ فريدريك صيغت بلغة مهينة لم يعتد أحد من الباباوات على اسـتخدامها في حقّ رئيـس دولة. كما اتُّهم ببناء حريم شـرقي في لوتشـيرا، وربّما كان هذا الاتّهام أكثر صحّـة من غيره نظراً إلى الجِمال، والفيلة، والفهود التي كان يحضرها إلى هناك باسـتمرار، فضلاً عن الراقصات الأفريقيـات اللواتـي كان يحتفظ بهنّ للترفيـه في القصـر[50]. ولنكون منصفين، فإنّ علاقات الإمبراطور خارج الزواج لا تكذّب تماماً هذا المأخذ. مع ذلك، وعلى الرغم من أنّ حرمانات الكنسـية التي صدرت فـي حقّ فريدريك لم

تكن رسمياً على علاقة بلوتشيرا بقدر ما كانت ناتجة عن تعدّياته على السلطة البابوية (مثل مطالبته بجزيرة سردينيا)، من الصعب علينا ألاّ نرى في مدينة الإمبراطور المسلمة، القريبة إلى هذا الحدّ من روما، استفزازاً دائماً. فمثال لوتشيرا المسلمة، بشريعتها الإسلامية، وحرسها الملكي المسلم، وأصوات الأذان التي تتعالى من مساجدها (وكلّها على بعد مائة وخمسين ميلاً من الفاتيكان) تتناقض تماماً مع المفهوم البابوي الكامل للحرب الصليبية.

توفّي فريدريك في 13 ديسمبر من عام 1250، عن عمر يناهز 56 عاماً. وحلّت نهايته فجأة في خضمّ حملة كادت ربّما أن تتحوّل لصالحه. والدليل على الكراهية التي نمّتها البابوية ضدّه هو اعتباره، بكلّ جدّية، المسيح الدجّال. وقد اتّبع أصحاب هذا الاعتقاد نبوءات راهب عجوز من كالابريا، يدعى يواكيم من فيوري، ووصفوه أنّه عدوّ حقيقي للسيّد المسيح، ونذير بنهاية العالم. وحتّى يومنا هذا، تُعتبر الإشارات الزائفة المتعلّقة بنهاية العالم والمحيطة بفريدريك مثيرة بالاهتمام. فبعد سنوات من وفاته، ظلّ كثير من رعاياه يعتقدون أنّه سيعود من بين الأموات، لا بل سيخرج، بحسب إحدى الشائعات، من قلب جبل إتنا، الذي تسكن فيه روحه. وقد انتحل عدد من المحتالين هوية فريدريك، وادّعوا أنّه ظهر بعد سنوات من وفاته. ووفقاً لأحد المصادر، قبض الملك مانفريد على أحدهم وعذّبه بوحشية. ويؤكّد ساليمبيني، المؤرّخ المعادي للإمبراطور، أنّه لم يستطع هو نفسه تصديق خبر وفاة فريدريك عندما سمعه، على الرغم من أنّه يقف بجوار البابا عندما أعلن النبأ[51]. كما ذكر أنصار البابا أنّ رائحة جثّة فريدريك الكريهة فاحت بقوّة، بحيث لم يكن من الممكن حمله إلى باليرمو لدفنه مع بقيّة الملوك، وأنّه حال وفاته، راحت الديدان تخرج بكثرة من جيفته المتعفّنة، وكلّه دليل على الكره الذي أضمرته له رعيّة الكنيسة. بالطبع، لا ينبغي لنا رسم صورة مثالية عن فريدريك الثاني. ففي النهاية، وبأخذ كلّ الأمور بالاعتبار، كان طاغية، وإن يكن غير عاديّ. في آخر سنة من حياته، عمد إلى سجن أقرب رجال الدولة إليه وأبرعهم، ألا وهو الخطيب العبقري بييرو ديلا

فيغنا، بتهمة الخيانة. الأمر الذي دفعه إلى الانتحار من خلال إيذاء نفسه في عزلة زنزانته. وحتّى لو أنّ المسيح الدجّال المزعوم عاش أكثر من عددٍ من الباباوات، إلاّ أنّه من المفارقة أن تكون الباباوية هي من ضحك أخيراً. فخلال عشرين عاماً من موت الإمبراطور، لن يبقى أيّ وريث شرعي لسلالته على قيد الحياة.

ما بعد فريدريك: من مانفريد إلى معركة بينيفينتو (1266)

ماذا حلّ بأسرة هوهنشتاوفن بعد وفاة فريدريك؟ وماذا حلّ بلوتشيرا ومسلميها؟ من كان المسؤول عن نهاية سلالة فريدريك، وعن نهاية الإمبراطورية الرومانية المقدّسة في إيطاليا، وكيف نجحت الباباوية في ذلك؟ للإجابة عن هذه الأسئلة، يتّسع نطاق أبحاثنا فجأة، ليشمل البحر الأبيض المتوسط بأكمله، من أراغون إلى آسيا الصغرى: مؤامرات ومكائد الإمبراطورية البيزنطية، والباباوية التي دفعها التهديد المغولي إلى الحوار مع القسطنطينية، واستياء ملك إسباني ساخط، والتعاطف المسيحي مع أمير تونسي ونبيل متديّن وقاسٍ من أنجو من شمال فرنسا. ستتضافر كلّ هذه العناصر خلال السنوات الخمسين التالية لإنقاذ القسطنطينية من عمليّة نهب لاتينية ثانية، ولتبدأ قرون الحكم الإسباني لجنوب إيطاليا، وأخيراً وليس آخراً، النهاية الفعلية للإسلام على الأراضي الإيطالية.

وجد الجنود المسلمون أنفسهم في عداد الجيوش التي خاضت معظم معارك تلك الفترة، وفي بعض الأحيان كانوا يقاتلون مع الطرفين. فقد ساعد المسلمون حزب الغيبيلينيين المعادي للبابا على الاحتفاظ بسيينا في معركة مونتابيرتي (1261)، كما ساعدوا على الاستيلاء على مدينة سان جرمانو عن طريق التسلّل سرّاً وفتح أبواب المدينة (1254)، وماتوا بالآلاف في معركة بينيفنتو (1266). وحتّى بعد أن هُزمت أسرة هوهنشتاوفن على يد أعدائهم الأنجوفيين الفرنسيين، حارب المسلمون لصالح حكّامهم الجدد في مدن ألبانيا ورومانيا ضدّ الجيوش البيزنطية. كما ساعدوا اللاتينيين في وسط اليونان في حربهم ضدّ

المرتزقة الأتراك الذين كانـوا يقاتلون لصالح الإمبراطور اليونانـي ميخائيل الثامن. وفي صقلية وكالابريا، كان يتمّ إرسـال مسـلمي لوتشـيرا بانتظام كجنود إلى حرب الفيسـبر (1282– 1302)، والأهـمّ من ذلـك أنّهم مثّلوا الوجود العسـكري لشـارل أنجو في الحملة الصليبية إلى تونس (1271–2)، ليخوضوا حرباً تحت راية مسيحية على الشـواطئ نفسـها التي أتى منهـا أجدادهم المسـلمون إلى صقليـة، قبل قرون من الزمن. وكانت الجيوش الصليبية لتجد بين صفوف العـدوّ عدداً لا بأس به من الجنود المسيحيين المنتمين إلى فريدريك ملك قشتالة[52]، الأمر الذي لم يعد ليثير استغرابنا. هكذا وقف المسيحيون والمسلمون مجدّداً ضدّ مسيحيين ومسلمين.

كان مانفريد، ابن فريدريك غير الشـرعي، آخر حاكم إيطالي يسـتخدم عدداً كبيراً مـن المسـلمين في جيشـه. فقد تابـع من نـواح عديـدة تقاليد والـده، ليس فقط علـى صعيد امتـلاك حرس شـخصي عربي، أو قصر «شـرقي» في لوتشـيرا، أو لناحية ولعـه بالصيد، بل نظـراً أيضاً إلى سلسـلة من الجوانـب الهامّة، كرعاية الفكر الإسـلامي (تمّت ترجمة التعليقات العربية لأرسـطو إلـى اللاتينية على يد الباحث هيرمان فـي بلاطه)، والعلاقـات المتينة التي أقامها مع العالم الإسـلامي (تمّ استقبال سفير المماليك المصريين بحفاوة كبيرة مع كامل التشريفات في عام 1261، وأقام في أبوليا لعدّة أشـهر كضيف مدلّل، حتّى إنّ السلطان بيبرس أهدى الملك زرافـة، كدليل على حسـن النيّـة)[53]. ونجد فـي تقرير السـفير وجهة نظر مثيرة للاهتمام، وإن يكن مبالغاً فيها على الأرجح، لبلاط مانفريد:

> ذهبتُ سـفيراً للسـلطان لدى مانفريد فـي رمضان من عام 659/ أغسـطس 1261، واسـتقبلني بحفـاوة كبيرة في مدينة تسـمى بارليتّا فـي أبوليا، البلاد الطويلة [إيطاليا]، بالقرب من إسبانيا. على مقربة من البلدة التي يعيش فيها، كان ثمّة مدينة تدعى لوتشيرا، كلّ سكّانها مسلمون، أتوا من جزيرة صقلية. كانوا يقيمون صلاة الجماعة هناك يوم الجمعة... وكان معظم المسـؤولين ورجال الحاشية [لدى مانفريد] مسلمين/ كما كان الأذان يُرفع علناً، حتّى في الصلوات اليومية[54].

بالطبع، حافظ مانفريد على عادة أخرى من عادات هوهنشتاوفن، ألا وهي العداء الواضح، والمتبادل، للبابا.

وصل مانفريد إلى الحكم عام 1254، بعد فترة وجيزة من استلام أحد ورثة فريدريك الشرعيين للحكم، وهو الملك كونراد. ومع أنّ كونراد كان لديه ابن، إلاّ أنّ مانفريد استغلّ الفرصة لاغتصاب العرش، مستنداً إلى شائعات عن وفاة الصبي الصغير، وتوّج نفسه في النهاية ملكاً على صقلية عام 1257. لم تقبل البابوية أبداً هذا التتويج، بل ستكرّس كلّ طاقاتها خلال العقد التالي لسلبه التاج.

في البداية، بدت الأمور مختلفة تماماً. فقد قام البابا بمبادرة ودّية تجاه الملك مانفريد، البالغ الثانية والعشرين من عمره. فمُنح لقب أمير تارانتو، حتّى أنّه جُعل كاهناً للإمارات الجنوبية للبرّ الرئيس. وعندما أتى البابا لمقابلة مانفريد في سبتمبر من عام 1254، خرج الملك لملاقاته في منتصف الطريق عبر نهر غاريليانو، وقاد جواد البابا وهو يتحدّث معه[55]. غير أنّ أهداف الملك الشابّ والوسيم والحبر العجوز تعارضت في نهاية المطاف. ولم يكد يمضي شهران حتّى انهار السلام بينهما. ففي ظروف غامضة (خلال مناوشات جرت على جانب الطريق، كما قيل) قام مانفريد بقتل مساعد بابوي، وفرّ هارباً على الفور إلى قصره في لوتشيرا، عند أهلها المسلمين الموثوقين، الذين فتحوا له أبواب مدينتهم، وأقسموا على الولاء للملك الجديد. بعد تلك الحادثة لم يعد من الممكن العودة إلى الوراء. فصدر قرار بالحرمان الكنسي ضدّ مانفريد في عام 1255، وعاد شبح الحرب ليقرع مجدّداً أبواب المدن والبلدات الإيطالية. تردّد اسم لوتشيرا في أنحاء أوروبا بينما كانت العشور «الصليبية» تُجمع في محاولة لتمويل حملة ضدّ مانفريد. وفي إنكلترا، لم تقتنع مملكة هنري الثالث بالمساهمة سوى بعد انتشار شائعة تفيد أنّ الحملة ستستهدف قلعة للمحمّديين الذين أقاموا معقلاً لهم على أرضٍ مسيحية.

هكذا تمّ جمع الأموال، واستئجار المرتزقة، وتشكيل جيش. واتُّخذ القرار

بإبادة سلالة هوهنشتاوفن وحلفائهم المسلمين عن بكرة أبيهم. في أواخر عام 1255، زحف كاردينال روماني بجيش ضخم يفوق عديده خمسين ألف رجل على لوتشيرا، وعبَر وديان كامبانيا ولاتسيو. باءت تلك الحملة البابوية بفشل ذريع. ذلك أنّ عملاء مزدوجين في جيش البابا أخذوا يبلغون مانفريد بتحرّكات الحملة، ممّا سمح له بقطع الإمدادات، وتجويع جيش العدوّ، حتّى استسلم له. هكذا، اضطرّ الكاردينال الذليل لتوقيع معاهدة سلام مع مانفريد، وهي معاهدة أعلنها رئيسه باطلة على الفور. كانت تلك التجربة مهينة بالنسبة إلى البابا الجديد.

في الواقع، تعتبر السنوات التي سبقت عام 1962 سنوات الذروة بالنسبة إلى مانفريد، إذ بدا أنّ كلّ شيء يصبّ في صالحه. فمعظم المناطق المعروفة على أنّها دول باباوية، لا سيّما الجزء الأوسط من إيطاليا، أصبح تحت سيطرته بحلول عام 1257. وفي عام 1262، كان قد قام عملياً بتزويج ابنتيه في الشرق والغرب، إحداهما إلى طاغية بيزنطي، والأخرى إلى ملك أراغون المستقبلي، وهو زواج ستكون له عواقب غير متوقّعة في السنوات القادمة. ولا شكّ أنّ مانفريد عرف مصيره وهو يسير على خطى أبيه الأسطوري. بالإضافة إلى ذلك، وعلى نحو لا يختلف كثيراً عن نهج بعض الحكومات الغربية اليوم، تبنّى ابن فريدريك سياسة ناجحة في شمال إيطاليا عبر دعم الطغاة والأوليغارشيّات المحلّية التي كانت متعاطفة مع قضيّته المناهضة للبابا، كما فعل والده مع شخصيّات مثل إتسيلينو، ديكتاتور فيتشنزا.

شهدت هذه السياسة ذروتها في 4 سبتمبر من عام 1260، على تلّة صغيرة تسمّى مونتابيرتي، خارج مدينة سيينا تماماً. فقد تمكّنت قوّة أصغر حجماً، مدعومة من مسلمي مانفريد ومرتزقة ألمان، من إنقاذ المدينة من جيش يفوق عدده، كما قيل، ثلاثين ألف فلورنسي موالٍ للبابا، مع حلفائهم التوسكانيين[56]. بالكاد كان حجم جيش سيينا يعادل ثلثي القوّة الفلورنسية، حتّى بمساعدة الفرسان الألمان، ومسلمي لوتشيرا، الذين أرسلهم مانفريد كدعم لحلفائه

الموالين للإمبراطورية. بيد أنّ الجيش السييني كان في جعبته ورقة رابحة، تمثّلت في خائن موجود بين الصفوف الفلورنسية. فبعد اليوم الأول من المعارك الضارية، أمر قائدهم ظاهرياً بتنفيذ هجمة انتحارية ضدّ الجيش الفلورنسي. في الواقع، لم يكن المقصود هو القيام بهجوم كاميكاز، بل كانت مجرّد إشارة. رأى عميل سرّي بين القادة الفلورنسيين، يدعى بوكّا ديلي أباتي (سيخلّد دانتي اسمه بعد ذلك)، الهجوم، فتوجّه نحو حامل راية الفيلق، وقطع يده. عندما سقط حامل الراية، عمّت الفوضى على الفور، وسقط آلاف الفلورنسيين في المذبحة. بعد معركة بونتابيرتي، تحوّلت سيينا إلى مركز للفصائل المناهضة للبابا خلال السنوات التالية. وبما أنّ سيينا هي مسقط رأس البابا ألكسندر السابع، فإنّ هذا الأمر لم يسرّه إطلاقاً. فالنصر الذي أحرزه مانفريد جعل إيطاليا فعلياً تحت سيطرته بحلول عام 1261.

كان مانفريد على قناعة أنّ قضية هوهنشتاوفن على وشك أن تفوز أخيراً. فقد كان يملك السلطة العسكرية على البرّ الإيطالي الرئيس (سارت جيوشه بِحُرّية عبر أراضي البابا). ومن خلال زيجاته وتحالفاته، أمل بالفوز قريباً باعتراف رمزي، إن لم يكن من روما، فمن الحكّام الآخرين في أوروبا والشرق بالتأكيد. غير أنّ الفاتيكان لم يجلس مكتوف اليدين. فبدءاً من عام 1255، سيكرّس سبع سنوات التالية للبحث عن ملك جديد لصقلية يحلّ محلّ مانفريد، مستخدماً المهارات الثلاث التي شحذها حتّى الكمال على مرّ القرون: التنسيق، والتفاوض، والتأييد. مثل مجموعة ساخطة من المساهمين الذين يبحثون عن مدير جديد، مشّط البابا ألكسندر الأسر المالكة في أوروبا بحثاً عن ملك يتمتّع بما يلزم من الفطنة – والثروة – ليتولّى هذه المهمّة.

عُرضت فرصة اعتلاء عرش صقلية، التي تعني فعلياً هزم مانفريد، أوّلاً على الأخ غير الشقيق للملك الإنكليزي، ريتشارد، إيرل كورنوال، الذي رفض العرض، وقال إنّه كمن عُرض عليه القمر، شرط أن يُنزله له أحد من السماء[57]. ثمّ تبع ذلك الفشل الذريع والمكلف مع ملك إنكلترا نفسه. فعندما سمع هنري

الثالـث أنّ مملكـة صقليـة معروضة لمـن يرغب فـي شـرائها، رأى فـي الجزيرة مملكة ممتـازة لابنه الرضيـع. لكنّ أربعـة أعوام مـن الصعوبات الماليـة (وعدداً مـن البارونـات الإنكليز) أقنعـت الملـك المتهوّر بالانسـحاب من المشـروع في نهايـة المطاف. أخيـراً، تحـوّل البابا إلى شـارل، أمير أنجو، شـقيق ملك فرنسـا. للحصول على عـرش صقلية، كان شـارل علـى اسـتعداد لقبول شـروط الاتّفاق المرهقة: تقديم عشـرة آلاف قطعة نقدية من الذهب سـنوياً إلى البابوية، والوعد بتأميـن ثلاثمائـة سـفينة عندمـا يطلـب البابـا ذلـك، والتعهّد بعدم تسـمية نفسـه إمبراطـور روماني مقـدّس، أو معارضـة أوامر البابا بأيّ شـكل من الأشـكال[58]. تفيد الشـائعات أنّ زوجة شـارل، التـي كانت تتوق إلـى امتلاك لقب أكثـر أهمّية من مجرّد «بيياتريس أميرة بروفانس»، هي التي دفعتـه إلى الموافقة على العرض. ونظراً إلى القسـوة التي سيتعامل بها شـارل مع عدوّه، يبدو أنّ طموحاته لم تكن تحتاج إلى أيّ تشجيع من زوجته.

لـم يرحـم التاريخ شـارل أمير أنجـو. والسـبب لا يقتصر على كون شـقيقه، لويس التاسـع، أحدَ أشـهر ملوك فرنسـا (سـمّى المستكشـفون الفرنسـيون مدينة سـانت لويس الأميركية على اسـمه). إلى جانب الشـخصيات الشـابّة والوسـيمة لأسرة هوهنشـتاوفن الذين مدحهم الشـعراء الرومانسـيون أمثال هايني، ظهر هو كشـخصية محافظة وصارمة، «وحـش كئيب وبلا إحسـاس» على حـدّ تعبير أحد المؤرّخيـن[59]. فمن الصعـب أن ننكـر قتله للملـوك الأطفال، واسـتغلاله لحمّى الحروب الصليبية مـن أجل غاياتـه الخاصّة. فقد اسـتغلّ الحاكمُ الفرنسـي جيّداً الحملـة الصليبية الفاشـلة على تونـس عام 1271، لعقـد صفقة تجاريـة وتحصيل ضريبة عشـر سـنوات من الأمير تعيس الحظ. دفع هذا الأمر كثيراً من الصليبيين إلـى التعبير عـن اسـتيائهم بصراحـة، بينما اشـتبه البعـض أن تكـون الصفقة هي السـبب الحقيقـي وراء الحملة. مـع ذلك، وكما سـنرى لاحقـاً، لم يكن شـارل مختلفاً جداً عن حكّام أسـرة هوهنشـتاوفن الذين حـلّ مكانهم. فغالبـاً ما ذكرت التعليقـات السـاخرة أنّ الحاكـم الأنجوفـي، الذي وصـف المسـلمين في جيش

مانفريـد بـ«الشـيطانيين»، لم يتـورّع عن اسـتخدامهم فـي أفواجه الخاصّـة عندما استلم العرش.

بينمـا كان البابـا يدبّر نهايـة أسـرة هوهنشـتاوفن، ويجمع من خلال شـارل مختلف النبلاء، والفصائـل، والمرتزقة في جيش واحد لمواجهـة العدوّ مانفريد، كان ثمّة أمر آخر يجري في تلك الأثناء. فقد أصبح تهديد الغزو المغولي وشيكاً جداً مع توغّـل التتار فـي أوروبا الشـرقية. قبل عقدين مـن الزمن، هـزم المغول جيشـاً بولندياً في معركة ليغنتز (1241) في جنوب بولندا، ولـم يمنعهم من التقدّم عبر الممالك الألمانية سـوى الموت المفاجئ للخان. تردّدت أصداء الهزيمة في روما وبيزنطة على السـواء. وعلى الرغم من الانقسام المرير الذي شقّ الكنيستين قبل قرنين من الزمن، ساد شـعور في الفاتيكان بضرورة المصالحة وتكوين جبهة موحّـدة. هـذه المسـكونية الزائفـة، التي أنتجتهـا الظـروف وليس روح التسـامح والتفهّم، ستسـبّب شـعوراً دائمـاً بالإحباط لدى شـارل، الـذي كانـت عينه على القسطنطينية، كمصدر ممكن للثروة والتجارة، لا كحليف بالتأكيد.

أتت حملة شـارل عبـر إيطاليـا مثل انهيـار جليـدي، وضمّت إليهـا الحلفاء المؤيّديـن للباباوية وهي تعبر المـدن واحدة تلـو الأخرى، وتخـوّف المتعاطفين مع مانفريـد. كان ذلك في العـام 1266. في مكان مـا في المناطـق الإيطالية التي كان جيش شـارل يعبرها، بدأ أعظـم مفكّر في القرون الوسـطى المسـيحية، توما الأكويني، رائعتـه الخلاصة اللاهوتية. وفـي قرية صغيرة في فسـبينيانو، وُلد طفل يدعى جوتّو. وعلى مسـافة خمسـة عشـر ميلاً على الطريق، كان دانتـي أليغييري البالغ عاماً واحداً يبكي على الأرجح طلباً لحليب أمّه. بالنسـبة إلى مانفريد، كان للعام 1266 دلالة أكثر كآبة، مع أنّ ثقته بنفسـه منعته على ما يبدو من إعطاء أدنى اعتبار للهزيمة، فما بالك بالموت. عندما وصلت جيوش شـارل من دون مقاومة إلى روما، أعلـن مانفريـد بحماقـة: «أصبح العصفـور فـي القفـص»[60]. ومع أنّ المتردّدين بدأوا أساسـاً بالانضمام إلى حملة شارل، شـجّعهم على ذلك التتويج الرمزي الذي قام به خمسة كرادلة للأمير الفرنسـي في روما، بدا أنّ مانفريد أساء

تقدير خطـورة اللحظة. وعوضاً عن التقدّم إلى مخيّم شـارل فـي تيفولي، جنوب روما، لأخذ المبادرة بدلاً من انتظار وصول المُطالب بالعرش، قام مانفريد بعمل لا يصدّق. فقد عاد إلى مملكته، وأمضى شهراً في الصيد مع حاشيته.

لـم يبـق العصفور فـي القفـص. فبعـد اسـتعادة روما مـن دون جهـد يذكر، توغّل شـارل في كامبانيا، نحو حـدود مملكة هوهنشـتاوفن. في هـذه التحرّكات النهائية للعبة أنجو-هوهنشـتاوفن خيّم جوّ خاتمة فعلي، فالمرء يشـعر أنّ سـلالة غير عادية على وشـك الانتهاء. تقـدّم جيش شـارل تدريجياً نحو مدينـة بينيفنتو، الواقعة على نهر كالوري، وراحت القلاع تتساقط واحدة تلو الأخرى في طريقه. لم يكن الوقت في صالح شـارل، ذلك أنّ التمرّد بدأ يتسـلّل إلى صفوف جيشـه الجائع والمتعب. لذلك، كان متحمّساً للهجوم، وبسرعة. بدأت تعزيزات مانفريد بالتجمّع في الشـمال، وكلّ ما فعله حاكم هوهنشـتاوفن هو الجلـوس والانتظار. بحسـب الباحـث رونسـيمان، عندما شـقّ جيش شـارل طريقـه أخيراً عبـر الممرّ الجبلي المـؤدّي إلى بينيفنتـو صبيحة 25 فبرايـر 1266، رأى أمامه مشـهداً مخيفاً: جيش من أكثر من عشرة آلاف رجل، بمن فيهم مشـاة مانفريد، وفرسانه، وجنود الاحتيـاط، بانتظاره أمـام المدينـة، لا يفصـل بينهم سـوى النهر، وتحديداً جسـر واحد[61].

اختـار مانفريد الهجوم فـي اليوم التالي، وعبَر الجسـر بحـذر لملاقاة جيش العدوّ علـى السـهول الممتـدّة أمـام المدينة. فـي الواقـع، تثبـت معركـة بينيفنتو القـول المأثـور أنّ الجيـش المنظّم، مهما يكـن حجمه، يهـزم دائمـاً الجيش غير المنظّم. فخلافاً لجيش شـارل، كانت قوّات مانفريد أكثر تنوّعـاً. يأتي أوّلاً الرماة المسـلمون والمشـاة بسـلاحهم الخفيـف، يتبعهم فـي الغالـب الفرسـان الألمان بدروعهم الثقيلـة، ووراء هؤلاء مجموعـة من أفـواج المرتزقة الإيطاليـة والنبلاء الإيطاليين غير الجديريـن بالثقـة، كما سـيتبيّن لاحقاً، هـذا بالإضافة إلـى مائتي أو ثلاثمائة مسـلم بالأسـلحة الخفيفة. وربّمـا كان هـذا التنوّع مـن العوامل التي ساهمت في سـوء التواصل الذي أعقب ذلك. فالوجود الكبير للقوّات الإسلامية

والألمانيـة، وقلّة الاحتياطات المحلّية نسـبياً يرجـع إلى حدّ كبير إلـى انعدام ثقة مانفريد بولاء رعيته. كان عدد الفرسـان الألمان يتجاوز ألف فارس. ولا شكّ أنّ دروعهم الثقيلة التي تكسـو أجسـادهم بدت غريبة ومخيفة وهم يتقدّمون بأقصى سـرعتهم نحو الجيوش الفرنسـية (كانت بينيفنتو من أوّل المعارك التي اسـتخدم فيها هذا الابتكار الجديد).

انتهـت المعركة في آخـر النهـار. ذكـر المؤرّخون أنّ المشـاة العـرب كانوا يهاجمـون الصفـوف الأماميـة لجيـش شـارل مـن دون انتظـار الأوامر. وبـدا أنّ الجنود المسـلمين أحرزوا بعض النجاح، إلى أن أمر شـارل فرسـانه البروفانسيين بالتدخّل لتفريق المسلمين، بحيث تمكّن من صدّهم بسـرعة. ولا بدّ أنّ الفرسان الألمان رأوا ذلك من بعيد، فاندفعوا لمسـاعدة رفاقهم المسلمين، وشنّوا هجوماً قوياً على جناحَي الجيش الفرنسـي، مـن دون انتظار أوامر مانفريـد أيضاً. وعلى الرغم من أنّ جيش العدوّ يفوقهم عدداً بكثيـر، أثبتت دروعهم الضخمة مقاومتها لأيّ سـلاح يوجّه ضدّهم. لا ريب أنّ منظرهم أخاف العـدوّ كثيراً؛ مئات الرجال المكسـوّين بالفولاذ يمتطون ظهور الخيـل، ويردّون ضربات السـيوف والفؤوس كما لـو كانت عصيّاً وهـراوات. لكن في مرحلـة معيّنة مـن القتـال، لاحظ أحد الضباط في جيش شـارل أنّ منطقة الإبطين لدى الفرسـان الألمان تنكشـف كلّما رفعوا أسـلحتهم. فأمر كلّ الرجال فوراً بتوجيه ضرباتهم إلى تلك المنطقة. هكذا تحوّل مسـار المعركة، وبدأت الوحدة الألمانية تتعرّض لخسائر فادحة. بالإضافة إلى ذلـك، وبسـبب هجومهـم المبكـر مـن دون انتظـار الأوامـر، لم تكـن كتيبة المرتزقة الإيطاليين والفرسان المسـلمين الذين يدعمونهم في المؤخّرة قد عبروا الجسـر لمسـاعدتهم. هكذا، وبعدما قضت القوّات الفرنسية على الجـزء الأكبر من الفرسـان الألمان (بالكاد بقي سدسـهم على قيد الحياة)، شـنّت هجوماً على جيوش مانفريد وهي تتجمّع للهجوم. اقترن هذا التحرّك بهجوم ثالث شنّه شارل على جناحَي الجيـش، وكان كافياً لبثّ الفوضى بين من تبقّـى من قوّات مانفريد. بحلول المساء، كان قد ضاع كلّ شيء. ومع أنّ مانفريد كان يستطيع الهرب، إلاّ

أنّه اختار البقاء مع حاشيته، وحرّاسه المسلمين، والقتال حتّى آخر رجل. وبعد تبادل المعاطف مع صديقه تيبالدو، استلّ سيفه واندفع يقاتل. بعد أيّام من انتهاء المعركة، عثر جنديّ على جثّته وهو يتجوّل وسط ساحة المعركة. أقام شارل للحاكم جنازة تليق به، ودفنه عند أسفل جسر بينيفنتو. لكن قيل لاحقاً إنّه بعد ذهاب الجيش، أمر رئيسُ أساقفة المدينة بنبش القبر، وإعادة دفن الجثّة خارج حدود المملكة.

تُعتبر قصّة زوجة مانفريد الشابّة وأطفالها حزينة هي الأخرى. فعندما وصل الملكة خبر وفاة زوجها وهي في قصر لوتشيرا، أخذت ولديها، وهربت إلى الساحل بحثاً عن سفينة تقلّها إلى اليونان. فقبض عليها رجال شارل في بلدة تراني الساحلية، لتموت في السجن بعد خمس سنوات، ولم تبلغ بعد عامها الثلاثين. ولقي ولداها المصير نفسه، فسُجنا لمدى الحياة هما أيضاً، وكانا لا يزالان خلف القضبان على ما يبدو في عام 1309[62].

تغيّر النظام: مسلمو لوتشيرا تحت حكم شارل أمير أنجو

من نواح كثيرة، وبقدر ما يتعلّق الأمر بتاريخ التحالفات الإسلامية المسيحية، يجب أن تشكّل نهاية أسرة هوهنشتاوفن نهاية قصّتنا أيضاً. في الواقع، ما من شيء «غريب» في شارل أنجو. فهو لم يتحدّث العربية، ولم يبنِ قصوراً «شرقية» الطراز، ولم يمتلك حرساً شخصياً مسلماً. لم يكن ثمّة خطر في أن يقيم أيّ تحالفات مع «غير المؤمنين». وإن كان لديه أيّ اهتمام بديانات أخرى، فقد احتفظ بذلك لنفسه (مع أنّه قام في الواقع بترجمة مؤلّفات الرازي، الفارسي المتشكّك، في بلاطه). في الواقع، كان الشيء الوحيد «الشرقيّ» في الحاكم الجديد هو طموحاته، إذ أنّه أعلن على الفور تقريباً الحرب على أمير تونس (وهو حليف قديم لأعداء شارل الأراغونيين)، وبدأ يضع خطّته بعناية لاستعادة القسطنطينية من اليونان.

غير أنّ براغماتيكية شـارل، والبعد الاسـتثنائي لطموحاته (التـي لا تقلّ عن السـيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسّـط) تفسّـر إلى حدّ ما التسامح الغريب الذي أبـداه تجـاه رعايـا هوهنشـتاوفن المسـلمين، الذيـن أصبحـوا الآن رعاياه. فعندما قـدّم أهالي لوتشـيرا التماس استسـلام عـام 1266، واعترفوا فوراً بشـارل كحاكم جديد، أبـدى تجاههم تسـامحاً كبيـراً، وأمر أتباعـه بعدم تدميـر المدينة، والسـماح للمسـلمين بالاحتفاظ بشـريعتهم. يقـول البعض إنّ مسـلمي لوتشـيرا أبعدوا عنهم خطر الدمار بواسـطة الرشـوة. ولدينـا عدد من العظـات التي ترجع إلى تلك الفتـرة والتي تلوم شـارل علـى قبول الذهب مـن المسـلمين[63]. وربّما رأى شـارل، على غرار فريدريك، أنّ مسلمي لوتشيرا يشـكّلون قوّة مقاتلة مفيدة عند الحاجة. مهما يكن السبب، فإنّ لوتشـيرا لم تعرف مصير المدن (المسيحية) الأخرى، التي حاولت، بدافع إخلاصها لمانفريد، مقاومة الفرنسـيين المنتصرين. فتمّ التعامل مع مدينة أوغوستا الصقليّة مثلاً من دون رحمة ولا شفقة.

بالنسبة إلى لوتشيرا، كانت فترة السـلام الوجيزة التي أعقبت ذلك في عامي 1266 و1267 هي هدوء ما قبل العاصفة. على الأرجح، اسـتاء السكّان المسلمون من الظهور المفاجئ للموظفين الناطقين باللغة الفرنسـية والضرائب التأديبية التي أتـوا بها، وتحسّـروا بصمت علـى رحيل أسـيادهم من سـلالة هوهنشـتاوفن. إلاّ أنّهم، من جهة أخرى، تنفّسـوا الصعداء لأنّ الدمار المحتّم لم يحلّ بمدينتهم. تمّ اعتقال بعض المسـلمين الذين هربوا شمالاً إلى أبروتسـو، وأعيدوا إلى لوتشيرا، ذلك أنّ شـارل كان حريصاً علـى ما يبدو على تبنّي سياسـة سـلفه بإبقـاء جميع المسلمين في مكان واحد.

بيد أنّ كلّ شـيء تغيّر عـام 1268. فقد وصلت شـائعة إلى لوتشـيرا تفيد أنّ حفيد فريدريك الثاني، الصبيّ الصغير الذي أشـيع عنه أنّه قتل، يتقدّم عبر إيطاليا من الشـمال على رأس جيش من المؤيّدين للهوهنشـتاوفن، ويسـتعدّ لاسـترجاع المملكة التـي اسـتولى عليها شـارل بالعنـف. كان الشـاب المدعوّ كونـراد يبلغ الرابعة عشـرة مـن عمـره. أمـام إمكانية عودة سـلالة هوهنشـتاوفن إلـى الحكم،

نسيت لوتشيرا سلامها مع الأنجوفيين، وانتفضت على الفور.

علينا أن نتذكّر هنا أنّ لوتشيرا كانت مدينة ملَكية كاملة، تضمّ بين سكّانها الذكور عدداً كبيراً من الجنود، وترسانة ضخمة في أقبية القلعة. وقد حارب جنود لوتشيرا المسلمون في كافّة أنحاء إيطاليا تحت راية فريدريك ومانفريد. صحيح أنّهم جامحون، لكنّهم محاربون قدامى ذوو خبرة ومهارة. لم تكن انتفاضة لوتشيرا مجرّد تمرّد، بل بداية لحرب استقلال واسعة النطاق. وقد أخذهم شارل على محمل الجدّ عندما طلب جواداً وجندياً من كلّ بيت في المملكة لمحاربتهم. حتّى أمالفي، الواقعة على الساحل المقابل، طُلب منها المساهمة في الجيش الذي أرسله على الفور لمحاصرة المدينة المسلمة. أعلن البابا كليمنت الرابع أنّ الحرب على المدينة هي حرب صليبية، مع أنّ شارل لم يورد أيّ إشارة إلى ديانة أهالي لوتشيرا في اللغة الرسمية التي تحدّث بها عن ثورتهم، واختار تسميتهم ببساطة «خونة» (proditores)[64]. وقد يكون من أسباب ذلك هو أنّ متمرّدي لوتشيرا لم يكونوا من المسلمين وحسب، بل انضمّ إليهم أيضاً جيرانهم المسيحيين الذين سيقاتلون معهم حتّى النهاية.

عام 1268، خرج مسلمو لوتشيرا أخيراً عن الحدود التي رُسمت لهم منذ عقود. ففي سلسلة من الحوادث، قام عدد من عصابات المدينة بمداهمة عدد من البلدات الأصغر حجماً في المنطقة. فسرقوا الطعام، وأحرقوا المنازل، وقتلوا وشوّهوا المتعاطفين مع الأنجوفيين. ولم تكن قوّات شارل تتفوّق عليهم أخلاقياً بأيّ شكل من الأشكال. فعندما قبض جنوده على أحد المتمرّدين، ويدعى فالّوني، اقتلعوا عينيه، وشنقوه لاحقاً في بلدته[65]. لكن على الرغم من شراسة الانتفاضة، كانت نهاية المتمرّدين تقترب بسرعة لم يتوقّعها أحد. ففي عام 1268، في معركة تالياكوتسو، هزم شارل جيش المتعاطفين مع هوهنشتاوفن. وفي عمل وحشي سيتذكّره الشعراء والمؤرّخون لقرون من الزمن، أمر بإعدام قائدهم البالغ خمسة عشرة عاماً. فقُطع رأس الصبي أمام حشد كبير في ساحة السوق في نابولي.

مع تبدّد آخر آمال أسرة هوهنشتاوفن، وعدم إمكانية العودة إلى الوراء، هبطت معنويات متمرّدي لوتشيرا. فقام شارل شخصياً بقيادة جيش، وزحف به على المدينة في عام 1269. ثمّ ضرب حولها حصاراً طويلاً وصعباً أرهق سكّانها. في النهاية، يُقال إنّ أهالي لوتشيرا بدأوا بأكل العشب. وعندما استسلمت المدينة أخيراً في شهر أغسطس، لم تحتلّ قوّات شارل البلدة من دون مقاومة من سكّانها المسيحيين والمسلمين. يسجّل أحد المؤرّخين وفاة أكثر من ثلاثة آلاف مسلم، في حين يشير آخر إلى غضب شارل على المسيحيين الذين وقفوا في صفّ المسلمين خلال الثورة. وقد تمّ إعدام كلّ من تعاون معهم من المسيحيين[66].

دمار لوتشيرا

مع انتهاء حصار لوتشيرا، حلّت نهاية إرث فريدريك الإسلامي المسيحي. في الواقع، من المغري التشديد على أنّ ضحايا الاحتلال النهائي للمدينة كانوا من الديانتين، لكن من الحكمة على الأرجح مقاومة هذا الإغراء. إذ يرى علماء النفس أنّ حالات الحرب أو الموت الوشيك تُنتج حسّاً غير عادي بالتضامن بين الفئات الاجتماعية، وربّما كان هذا هو ما جمع أبناء لوتشيرا، مسيحيين ومسلمين، تحت الحصار. وربّما كان ثمّة هوية سياسية، تمثّلت بحسّ بالوفاء لمانفريد، ونفور مشترك من الأنجوفيين، هي التي أتاحت هذا التعامل. وربّما كان السبب أيضاً هو اللغة، التي دفعت بالمسيحيين إلى القتال إلى جانب جيرانهم الناطقين بلغتهم الإيطالية، ضدّ العدو الناطق بلغة فرنسية عصيّة على فهمهم. أخيراً، قد يكون جوهر المقاومة الإسلامية المسيحية في لوتشيرا أتى ببساطة من تعايش البشر الذين أمضوا سنوات بجوار بعضهم البعض، بحيث لم يعد وارداً أن يسمحوا لأحد، سواء كان نبيلاً فرنسياً أو بابا فضولياً، بإخراجهم من مدينتهم.

أيّاً يكن السبب، لم تتح الفرصة للوتشيرا بالتمرّد مجدّداً خلال العقود

الثلاثة المتبقّية من وجودها. فكما سبق وأشرنا، لم تضع نهاية حكم مانفريد حدّاً لخدمة الجنود المسلمين في جيش الملك. فقد حارب مسلمو لوتشيرا بأعداد أقلّ تحت راية شارل أنجو، وابنه شارل الثاني، في كافّة بلدان البحر الأبيض المتوسّط؛ في البلقان ضدّ البيزنطيين، وفي تونس ضدّ الأمير العربي، وفي صقلية ضدّ قوّات حلف الأراغونيين الإسبان (من سخرية الأقدار أن تكون ابنة مانفريد هي من شجّع على إقامة هذا الحلف). لكن يبقى من غير الواضح ما إذا كانوا قد حاربوا بالحماسة نفسها لصالح شارل. فقد سُجّلت حالات عديدة لجنود مسلمين يغادرون مواقعهم في ألبانيا أو صقلية، ويفرّون عائدين إلى لوتشيرا. قد يكون سبب ذلك هو احتياجات عائلية في الوطن، وليس تنكّراً لولائهم للملك. ويبدو أنّ بعض القادة الأنجوفيين لم يثقوا بالمسلمين بقدر ما فعلت أسرة هوهنشتاوفن. ففي مناسبة واحدة على الأقلّ، عندما تمّ نقل الرماة المسلمين عبر البحر الأدرياتيكي من إيطاليا إلى ألبانيا، لم يعمد القائد الحذِر إلى إرسالهم في قارب واحد، بل قسّمهم إلى مجموعات من عشرة أفراد، وأرسلهم في سفن متفرّقة[67].

خلال سبعينيات، وثمانينيات، وتسعينيات القرن الثالث عشر، استمرّ ازدهار لوتشيرا، غير مدركة أنّها ستسحق قريباً بوحشية. فوفاة شارل عام 1285 لم تؤثّر على استمرارية الموقف المتسامح نسبياً إزاء مسلمي المدينة. وبدا أنّ بعض المسلمين، لا سيّما أولئك الذين اختاروا مهنة عسكرية، كانوا في وضع جيّد في تلك الفترة. مثال على ذلك، «عبد العزيز» (بالإيطالية، أبديلازيو)، وهو ضابط مسلم ونبيل كان من أصحاب الأملاك والمنازل في لوتشيرا وخارجها، حتّى أنّه استأجر الأراضي من الكنائس والأديرة. وهذا أمر ملفت عندما نأخذ بعين الاعتبار ما كان يقال عن الفقر الذي عاش فيه أسقف لوتشيرا حتّى في عام 1294. ويروي المؤرّخ تايلور أنّ تشارلز الثاني أعطى الضابط المسلم إقطاعية في عام 1296، في سياق احتفال حضره جوفاني بيبينو. وهي مفارقة كئيبة، لأنّ بيبينو نفسه سيشرف على دمار لوتشيرا بعد أربع سنوات بالكاد[68].

كان مـن الممكن رؤية نذُر شـؤم أخـرى في الرسـائل الآتية مـن روما. فقد تزايد الوعـي للحاجة إلى تنصير مسـلمي لوتشـيرا. وعلـى الرغم مـن أنّ التنصّر لم يكن بالتأكيد شـرطاً من شروط الترقّي في جيش شـارل، إلاّ أنّ العدد المتزايد من مسـلمي لوتشـيرا الذين يحملون أسـماء مسـيحية، مثـل ريـكاردو أو بييترو، يشـير إلى أنّ نزعة معيّنـة بدأت تظهـر، تمامـاً مثلما سـيتحوّل اليهود فـي أوروبا الوسطى إلى البروتستانتية أو الكاثوليكية. وكان المفكّر المسيحي الشهير ريموند لول، وهـو باطنيّ وواحد مـن أبرع المدافعيـن بالحجج عن الدين المسـيحي في القرون الوسـطى، يخطّط لزيارة لوتشـيرا عـام 1294 بهدف التبشـير. كان لول قد سبق أن بشّـر في وقت سـابق من ذلك العام بعض مسلمي لوتشـيرا المسجونين في نابولي، مع أنّه من غير الواضح ما إذا كان الفيلسـوف الشـهير قد زار المدينة المسـلمة نفسـها[69]. في الواقع، كانت حمّى التنصيـر جزءاً مـن روح العصر في تسـعينيات القرن الثالث عشـر. ففي صقلية مثلاً، أُجبر آلاف اليهـود على التخلّي عن معتقدهـم. وأُعيدت تسـمية الأحياء اليهوديـة لمدن مثل سـاليرمو، لمحو أيّ أثر للديانة غير المسـيحية من ذاكرة المدينة بشكل دائم. وفي لوتشيرا، ستستخدم طريقة مشابهة.

أتى أمر إزالة مسـتعمرة فجأة في صيف عام 1300. فقد أعلن شارل الثاني، وهو ملك لم يسـبق أن شـارك في حملة صليبية أبـداً خلافاً لأبيه، عـن رغبته في تحسين وضع الديانة المسـيحية في المنطقة. فأمر أتباعه بالقضاء على من رفضوا التجاوب مع الدعوة إلى التنصّر التي أطلقها قبل ثمانية أسابيع في المدينة. دامت العمليّة أكثر من شـهر بقليل. قاد جوفانـي بيبينو رجاله إلى المدينـة، وعمدوا إمّا إلى خطف السـكان، أو قتلهم في كثير من الحالات. وقعت على أثر ذلك مذابح واسـعة النطاق. وبما أنّه لا يوجد اليـوم أيّ أثر للعمارة الإسـلامية في لوتشـيرا، يمكننـا الافتراض أنّ مسـاجد المدينة ومـدارس تعليم القرآن دمّـرت تماماً. نعلم أنّ جوفاني واجه بعض المقاومة، لأنّه طلب لاحقاً من شـارل الثاني تعويضه عن خسـارة عدد من رجاله في أثناء العمليّة. وبما أنّ عشـرات آلاف المسلمين كانوا

يعيشـون في لوتشـيرا في ذلـك الوقت، مـن الصعب معرفـة عدد الناجيـن منهم. فقد تمّ نقل أعـداد كبيرة من اللاجئين إلـى مراكز أخرى في الأريـاف، علماً أنّهم غالباً ما تعرّضوا للسـلب والقتل من قبل السـكّان، كما حدث مع 150 مسلماً في فينوزا. فقد ساد اسـتياء كبير في المقاطعات الفقيرة إزاء مسلمي لوتشيرا الأثرياء. فاستغلّ بعض المسـيحيين عديمي الضمير الفرصة، وقاموا بشراء أعداد كبيرة من العبيد في الفوضى التي تلت ذلك، وبيعت نسـاء وفتيات فـي جميع أنحاء أبوليا. لكن على صعيد آخر أكثر إيجابية، نجد سـجلّات عن مسـيحيين خبّأوا مسـلمين لإنقاذهم من العملية، أو اشـتروهم كعبيد بهدف حمايتهم. في هذا السّياق، وجّه الفاتيكان أمراً إلى أحد الأديرة في بينيفنتو بتسـليم فارس مسلم موجود عنده. في حين قام قائد جوقة في كنيسة أخرى في تروِيا بشراء زوجين مسلمين مع طفلهما البالغ ستّة أشـهر في ظروف تدلّ علـى رغبته فـي حمايتهم[70]. مع ذلك، تشـير الأدلّة العامّة إلى أنّ الارتياح خيّم على السـكّان، والباباوية، والملك لأنّهم أزالوا كلّ أثر لـ«عقيدة محمّد» من الأرض الإيطالية.

من أكثر الأمور الملفتة في مسـتعمرة فريدريك المسـلمة، بغـضّ النظر عن السرعة التي نسـيناها بها، هو حجم الشـذوذ الذي تضفيه على الصورة المسيحية المريحـة للقـرون الوسـطى الإيطالية. فبالنسـبة إلـى القـارئ المعاصر (وإلـيّ أنا نفسـي، قبل أبحاثي حول هـذه الفترة)، فـإنّ كلمات مثـل «عربيّ» و«فلورنسـا»، و«مسـلم» و«ميلانو» لا تتناسـب ببسـاطة، كما أنّ فكرة ترابط هذه التعابير بشكل وثيق في فترة معيّنة من التاريخ تُعتبر بالنسـبة إلينا خيالية. في الواقع، لست أدري كيف يمكن التغلّب على هذه المقاومة لما لا يمكن تصوّره في التاريخ. إذ يجب لحقبات مثل مدينة لوتشيرا المسلمة أن تدفعنا إلى التشكيك في أوروبا المسيحية التي حمّلناها وثبّتناها بسـهولة في رؤوسـنا، وفي البرامج التي تعمـل تلقائيّاً كلّما وردت كلمة «إسـلام» في الحديث. إنّ المثير للاهتمام في مواقف هوهنشـتاوفن ومؤيّديهـم تجاه أنصارهـم من المسـلمين هو مـدى عدم غرابتهم، فضـلاً عن قلّة الاهتمام التي أعيرت للمسلمين الموجودين في جيوشهم. فبالنسبة إلى فريدريك

وأتباعه، وحتّى بالنسبة إلى شارل أنجو ربّما، كانت الهويّة الأساسية لمسلمي لوتشيرا تتمثّل في كونهم رعايا الملك. في النهاية، ربّما لم تكن عقيدتهم الإسلامية أكثر أهمّية من مجرّد لهجة محلّية.

الفصل الثالث

التحالفات التركية المسيحية في آسيا الصغرى

1402-1300

يتحوّل اهتمامنا هنا بضع مئات من الأميال شرقاً، وعدّة عقود إلى الأمام، من إيطاليا في القرن الثالث عشر، إلى اليونان وآسيا الصغرى (مايعرف اليوم بتركيا) في القرن الرابع عشر. نتناول في هذا الفصل انهيار إمبراطورية، والظهور الكاسح لأخرى. اعتماداً على وجهة نظر القارئ، يمكن لهذا الفصل أن يشكّل القصّة الحزينة للزوال التدريجي لبيزنطة، التي تضمّ النصف الشرقي الناطق باليونانية للإمبراطورية الرومانية السابقة. ونروي فيها أحداث العقود الأخيرة التي شهدت اضمحلال قوّة استعمارية سابقة، حكمت في يوم من الأيّام مدناً تمتدّ من شبه جزيرة القرم إلى ساحل شمال أفريقيا، وتحوّلها إلى مدينة فقيرة تمزّقها الصراعات، يحكمها إمبراطور غالباً ما كان مجرّد تابع للسلطان. بالنسبة إلى هذا القارئ، يشكّل هذا الفصل عدّاً تنازلياً كئيباً للحصار الأخير ولاستسلام القسطنطينية، تلك العاصمة المسيحية، «روما الثانية»، التي ستتّخذ بعد عام 1453 اسم اسطنبول. فعندما دخل السلطان محمّد الثاني أخيراً آيا صوفيا، وهي أقدس كنيسة في القسطنطينية، في عام 1453، وحطّم مذبح الكاتدرائية، أنهى ألف عام من الحكم البيزنطي[1].

من جهة أخرى، يمكن لهذا الفصل أن يروي البداية الجديدة لسلالة أخرى، هي سلالة العثمانيين، وحكاية إمبراطورية ستنشأ من قبيلة صغيرة من الرعاة الأتراك أتت من شمال غرب تركيا، لتتحوّل لاحقاً إلى واحدة من أعظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم. من هذه الناحية، سيتحوّل الحزن إلى تعجّب،

وأمـل، ورهبة، مـع نمـوّ المملكة، وترامـي أطرافهـا، لتبلـغ أوكرانيـا، والجزائر، وهنغاريا، واليمن، وتأسيس إدارة ستدوم لما يزيد عن ستّمائة عام. بالنسبة إلى هذا القارئ، يصبح «سقوط» القسطنطينية فتحاً (وهي كلمة مهمّة في القاموس التركـي). لا يـرى فيهـا النهايـة التراجيدية لألفيّـة بيزنطية، بـل التأسيس المجيد لمشروع عثماني جديد بالكامل.

من الشـائع بين المؤرّخين أن يأتي انتصار رجل من موت آخر، وأن يشـكّل فوز أحدهم دائماً كارثة بالنسـبة إلى غيره. هكذا، شـكّل عام 1453 ببسـاطة بداية بالنسـبة إلى كثير مـن الأتـراك، ونهاية لـدى كثير مـن اليونانييـن. وما أرمـي إليه هنا، من خـلال التركيـز باسـتمرار علـى التحالفات التـي لا تحصى بيـن الأتراك والمسـيحيين (كاتلانيين، ويونانييـن، وصرب) في تلـك الحقبة، هـو الإظهار أنّ هذيـن الرأيين لا يشـكّلان الطريقتين الوحيدتيـن لفهم تاريخ المنطقـة. فالهويّات لا تتغيّر بين ليلة وضحاها، حتّى لو استولت شعوب أخرى على الأرض. وكما سـنرى، كان للمناطق الناطقة باليونانية التي اسـتولى عليها الأتـراك دور بارز في تطـوّر الإمبراطوريـة العثمانية. ولا يرجـع ذلك إلى الوجود المسـيحي الكاسـح في الجيش فحسـب، بل بسـبب التأثير الثقافي والسياسي الحاسـم الذي مارسوه على العثمانيين أنفسـهم. فتنوّع الثقافة العثمانية، واستعدادها الدائم لدمج عناصر وثقافات أجنبية في هياكلها، اعتُبـر تدريجياً جزءاً من نجاحهـا. ويمكن أن نروي قصّة مشـابهة عن الثقافة البيزنطية، لا سـيّما عن اليونانيين البيزنطيين الذين قطنوا في المناطق «الحدودية» من آسـيا الصغرى، وعاشـوا لأجيال جنبـاً إلى جنب مع السـلاجقة والإلخانيين الأتـراك، وتقاسـموا معهم اللغـة والطعـام، وتزوّجوا من بعضهم البعـض، حتّى أنّهـم امتلكوا فـي بعض الحـالات دور عبادة مشـتركة[2]. وكما سـنرى، فإنّ فهـم الفتـح العثماني لآسـيا الصغرى والقسـطنطينية علـى أنّه صراع تاريخي بين الإسـلام والمسيحية هو إسـاءة فهم تامّة لسلسلة معقّدة للغاية من العمليّـات. فعندما يكون نصف الجيـوش التركية مكوّناً من جنود مسـيحيين، ونصف الجيـوش البيزنطية مكوّنـاً من مرتزقة أتـراك، يصبح علينـا أن نتناول هذا

التاريخ بطريقة مختلفة. مع أنّ عدد الشخصيات والمجموعات العرقية المعنيّة بهذه الفترة كبيرة (من المغول، والتركمان، إلى المجريين، والبربر، وحتّى الحرس الشخصي الأنغلوسكسوني للإمبراطور البيزنطي نفسه، الفرنجة)، فإنّ القوى التي سأتناولها هي ثلاثة في الأساس: الأتراك، والبيزنطيين، واللاتين. والثلاثة هم عبارة عن كيانات معقّدة، تعصف بها الخلافات، والتداخلات الثقافية، والمتغيّرات العرقية، وتاريخ معقّد. بالتالي، لكي نفهم كيف يمكن لإمبراطور بيزنطي أن يزوّج ابنته عن طيب خاطر لسلطان تركي، ويشارك لأربعة أيّام في احتفالات الزفاف، علينا تخصيص بعض الوقت لدراسة سياق كلّ «لاعب» بدوره.

اللاتين: الكتالانيون، والبنادقة، والجنوانيون

لم يكن للممالك والدول اللاتينية دور مستحبّ في زوال الإمبراطورية البيزنطية. وليس من الممتع القراءة عن انقساماتهم، وخلافاتهم، واستعدادهم للاستفادة، على حساب اليونانيين، وإخوانهم الكاثوليك، والأتراك، من أيّ أزمة يصادفونها. فعندما نهب الصليبيون القسطنطينية عام 1204، أمضوا أربعة أيّام في القتل، والاغتصاب، ونهب ثرواتها. اقتحم الجنود كنيسة القدّيسة صوفيا الأرثوذكسية، ووجدوا مومساً في الشارع، فأحضروها وأجلسوها على عرش البطريرك ووضعوا بيدها صولجاناً وهمياً، كما لو كانت مومس بابل. احتلال القسطنطينية الذي تلا ذلك ودام ستّين عاماً (لن تتحرّر من اللاتين إلاّ عام 1261) أرهق الإمبراطورية، ومنعها من استعادة عظمتها السابقة يوماً ما. ونظراً إلى ما فعله البنادقة، والجنوانيون، والكتالانيون باليونانيين على أرضهم، لا يفاجئنا أن نسمع آخر رئيس وزراء للقسطنطينية يقول: «جبّة السلطان ولا طاقيّة البابا»[3].

على الرغم من العقيدة الكاثوليكية المشتركة، لم يكن الاحترام يسود العلاقات بين البنادقة، والكتالانيين، والجنوانيين. فالمنافسة الشرسة بين البندقية وجنوة، خصوصاً على طرق التجارة القيّمة عبر مضيق البوسفور، أبقت العداء

سـائداً بينهما. وحتّى في الأيام الأخيرة للقسـطنطينية، التي كانـت محاطة بجيش من حوالى سـتّين ألف جنـدي عثمانـي، ظلّت الشـجارات تندلع بيـن أبناء جنوة والبندقية وهـم يقاتلون من داخل أسـوار المدينة دفاعاً عنها. خـلال القرن الرابع عشـر، ومع نموّ ثروة ونفوذ القوّتين التجاريتين المتنافستين للبندقية وجنوة، ومع ازدياد القسـطنطينية فقراً، غالبـاً ما كانت عاصمـة الإمبراطورية السـابقة خلفية لا حول لها ولا قـوّة للصدامات التي وقعـت بين القوّتين الإيطاليتيـن، والتي اضطرّ فيها اليونانيون المساكين إلى الوقوف في صفّ أحد الفريقين على مضض.

عـام 1300، أصبـح الوجـود اللاتينـي، لا سـيّما الإيطالي، في شـرق البحر الأبيـض المتوسّـط حقيقـة ثابتـة. على غـرار الـدول الصليبيـة التي تشـكّلت في فلسطين وسـوريا، فإنّ السـيطرة اللاتينية على مساحات واسـعة من الإمبراطورية البيزنطية، بما في ذلك أثينا والبرّ اليوناني الرئيس نفسـه، أتت إلى حدّ كبير نتيجة طموحـات أوروبية غربيـة، وكأثـر لثلاثـة حـروب صليبيـة باباوية كبـرى. كانت جزيرة كريت خاضعة لسـيطرة البندقية، إلى جانب عدد من أكبـر الجزر اليونانية، مثل ناكسـوس، في حين تمّ تأسـيس كيان حـول الأكروبوليس يدعـى دوقيّة أثينا اللاتينيـة، تديره واحدة من أسـر رومـا الأقوى نفوذاً، هي أسـرة أورسـيني، وهي دوقيّـة سيسـتولي عليهـا الكاتلانيون لاحقـاً ويحكمونهـا (كما سـنرى) حتّى عام 1388. ومع أنّ بعض الحكّام اللاتين، أمثال وليام أمير أخائيا، كانوا يجيدون اللغة اليونانية، إلاّ أنّ وجود البنادقة، والجنوانيين، والكاتلانيين على الأراضي البيزنطية شـكّل بالنسـبة إلى أهلها احتلالاً أجنبياً وحشـياً أحياناً. وحتّى هذا اليوم، ما زال اليونانيون المعاصرون يسـتخدمون القول المأثـور: «حتّى الكاتلانييـن لا يفعلون ذلك»[4]. بالتالي، ليس من المسـتغرب أن يعمد البيزنطيـون، أمثال أندرونيكوس، إلـى اسـتئجار المرتزقـة الأتـراك ضدّهم. ففـي حصـار لمدينـة إيوانينـا اليونانية، الواقعة تحت السـيطرة اللاتينية في عام 1292، تشير السـجلاّت إلى قيام أكثر من أربعة عشر ألف فارس تركي بمسـاعدة ثلاثين ألف جندي بيزنطي (الأرقام مبالغ فيها بوضوح، مـع أنّ النسـب دقيقة علـى الأرجـح)[5]. والأهـمّ أنّ اللاتين كانوا

هم أيضاً على استعداد لإقامة تحالفات مع الأتراك في حروبهم ضدّ بعضهم البعض. فرغبة الكاتالانيين مثلاً بطرد المحتلّ الإيطالي من شبه الجزيرة اليونانية دفعتهم إلى إقامة سلسلة كاملة من الأحلاف العسكرية مع أتراك الأناضول، على الطرف الآخر من بحر إيجه.

ومع أنّنا أشرنا سابقاً إلى أنّ اللاتين اعتُبروا أغراباً من قبل البيزنطيين، تجدر الإشارة إلى مستعمرة بيرا التابعة لجنوة، والواقعة على تلّة قبالة جدران القسطنطينية. فبالنسبة إلى أيّ شخص يتجوّل في وسط إسطنبول اليوم، بسكّانها الذين يتجاوز عددهم خمسة عشر مليون نسمة، من الصعب أن نتخيّل أنّ المدينة كانت في السابق مدينتين. مع ذلك، عاش الجنوانيون واليونان فيها جنباً إلى جنب، في انسجام نسبي، وعملوا وسط مركز تجاري في القرن الرابع عشر، تسافر فيه السفن من شواطئ البحر الأسود عبر القسطنطينية، إلى موانئ بعيدة مثل ساوثهامبتون ولندن. بالتالي، كان الوجود الجنوي في بيزنطة قديماً، وبارزاً وغامضاً. وفي عام 1453، عندما حاصر العثمانيون القسطنطينية، لم يستطع جنوانيو بيرا سوى الجلوس بلا حول ولا قوّة، ومشاهدة المدينة وهي تنهار أخيراً.

البيزنطيون: انقسامات السلالة، والمنطقة، والطبقة والدين

كانت الانقسامات التي فرّقت البيزنطيين خطيرة إلى حدّ أنّ اقتراب جيش غازٍ لن يتمكّن من توحيدهم. ومن الممارسات القياسية لمعظم روايات التاريخ البيزنطي هي الإشارة باستغراب، في مرحلة معيّنة، إلى عدد الحروب الأهلية التي خاضتها الإمبراطورية في الداخل، على الرغم من حدودها التي كانت في انكماش مستمرّ بسبب التعدّي الدائم عليها من قبل أعدائها المحيطين بها. غير أنّ هذا الاستغراب لا ينمّ دائماً عن الذكاء. فالبيزنطيون، شأنهم شأن رعايا أيّ إمبراطورية، كانوا يتألّفون من مجموعات مختلفة جدّاً، تنتمي إلى مناطق

وطبقات شديدة الاختلاف أيضاً. ولا يدهشنا أن يتساءل الفلّاح الناطق باليونانية، الذي كدّ طوال حياته تحت الحكم البيزنطي، ما إذا كانت الحياة ستكون أسوأ تحت حكم الأتراك.

قبل أن نبحث في أسباب انقسام البيزنطيين، تجدر الإشارة أوّلاً إلى أنّ كلمة «بيزنطي» لم يستخدمها البيزنطي لوصف نفسه. فرعايا القسطنطينيّة، وسالونيك، وطرابزون اعتبروا أنفسهم روماناً (وهو معنى ما زال موجوداً في التعبير التركي للإشارة إلى اليونانيين اليوم، روم)، وسمّوا الأتراك إمّا «الفرس» أو «البربر»، وهذا يتوقّف على كونهم متحالفين معهم أم لا. كانت المدن الرئيسة الثلاث المذكورة آنفاً، والتي تتألّف منها الإمبراطورية، متباعدة جغرافياً. إذ تقع طرابزون على الحدود الشمالية الشرقية، بين تركيا وجورجيا. وخلال المائتي عام من عهد الإمبراطورية البيزنطية، كانت فعليّاً دولة مستقلّة (ولاحقاً إمبراطورية مستقلّة)، وعاصمة مقاطعة يفصلها الساحل التركي عن القسطنطينية. وقد تعاطى أهل القسطنطينية معهم بغرور. إذ وصف بعض المؤرّخين اليونانيين حكّامَ طرابزون بالبربر، وأطلقوا على بطريركهم لقباً تركياً، ملمحين إلى أنّه ليس يونانياً حقّاً[6]. وكان لهذا الجفاء بين القسطنطينيّة ومحافظاتها الشقيقة في التسهيل على العثمانيين تجنيد حلفاء مسيحيين في حملاتهم ضدّ عاصمة بيزنطة. فعندما أحرز الأتراك أوّل تقدّم جدّي لهم في آسيا الصغرى البيزنطية، استعانوا، كما سنرى، بيونانيّي الأرياف الذين كانوا يشعرون بالخيبة والأسى من لا مبالاة وتجاهل القسطنطينية.

تعتبر طرابزون المثال الأكثر إثارة للاهتمام على التعاون الإسلامي المسيحي على كافّة المستويات، لكونها الولاية البيزنطية الأبعد شرقاً. إذ تشكّل عمارة الكنائس، كما رأينا في إسبانيا وصقلية، مؤشّراً جيّداً على التأثّر والتعايش بين الأديان. وكلّ من يزور اليوم الكنيسة المركزية في طرابزون، يلاحظ أنّها تشكّل خليطاً بين دير بيزنطي ومسجد سلجوقي[7]. فالنقش الحجري المسيحي حافل بلوحات الأزهار الإسلامية والأفاريز الهندسية متعدّدة الأسطح التي

نجدها في أعمدة مدارس القرآن. نجد أدلّة على هذا التعاون في التكتيكات العسكرية أيضاً. فقد استخدم يونانيّو طرابزون الرماية عن ظهر الحصان، المشابهة لتلك التي يستخدمها السلاجقة. فكانوا يُطلقون السهام من على سرج الفرس، بحيث لا يميّزهم المسافر الإسباني عن الأتراك[8]. وكان الزواج بين يونانيي طرابزون والنبلاء الأتراك شائعاً هو أيضاً. فمع انكماش الأراضي البيزنطية، وتوسّع الأراضي التركية، أصبح الزواج وسيلة جذّابة على نحو متزايد لتجنّب خسارة الأرض. هكذا، عندما زوّج حاكم طرابزون شقيقته لزعيم قبائل أكويونلو التركي عام 1352، كفّ الأتراك عن غزو أراضيه (بعد أن أصبح الآن فرداً من العائلة). كان يتحتّم على النساء في هذه الحالة اعتناق الإسلام، غير أنّ هذا الأمر اعتُبر ثمناً بسيطاً مقابل سلام واستقرار المملكة.

بعبارة أخرى، لم يكن ثمّة يوناني نموذجي. فبالنسبة إلى إمبراطورية متنوّعة بقدر الإمبراطورية البيزنطية، لا بدّ أن يكون اختلاف سكّانها صارخاً بقدر الاختلاف بين سكّان جزر شِتلاند اليوم وسكّان كورنوال، أو بين أهل برشلونة وأهل غرناطة. غير أنّ تفاوت مستوى الألفة مع الأتراك كان يفوق أيّ مسافة جغرافية. فالناطقون باللغة اليونانية القاطنون في المناطق «الحدودية» للإمبراطورية، أي مناطق الحدود المفتوحة التي عاش فيها الأتراك واليونانيون معاً لقرون من الزمن، كانت فكرتهم عن الاحتلال العثماني تختلف عن فكرة اليونانيين القاطنين في مناطق تخلو من المستوطنين الأتراك. وكان البيزنطيون والأتراك يعيشون معاً على ضفاف بحيرة بيشهير (في وسط غرب تركيا)، منذ أوائل القرن الثاني عشر، الأمر الذي يعني أنّه بحلول عام 1350، كانوا يتقاسمون المجتمعات نفسها منذ أكثر من مائتي عام. وفي بلدة إسكيشهير (الواقعة اليوم في شمال غرب تركيا)، كان لدى الأتراك سوق يقع بالقرب من حمّام، يبيع فيه المسيحيون كؤوساً وبضائع أخرى[9]. بالمقابل، بالنسبة إلى اليونانيين الذين عاشوا على الساحل الأوروبي، لم يكن «البربر» جيراناً لهم، بل لصوصاً وسارقين يظهرون دورياً في الأفق لغزو بلدتهم.

حفلت بيزنطة أيضاً بالانقسامات السياسية، التي لم تكن أقلّ تدميراً من الشقاقات الإقليمية. فخلال المائتي عام الأخيرة من حياة القسطنطينية، هيمنت أسرتان مرموقتان على المشهد السياسي، وهما آل بالايولوغوس، وآل كانتاكوزينوس. ومع أنّ الإمبراطور انتمى على الدوام تقريباً إلى أسرة بالايولوغوس (لم يعتلِ آل كانتاكوزينوس العرش سوى لعقد واحد)، إلاّ أنّ أسرة كانتاكوزينوس كانت تتمتّع بمكانة مرموقة جداً في المدينة، واحتلّت بعضاً من أهمّ المناصب الإدارية في الإمبراطورية. وربّما كان أهمّ أعضاء عشيرة كانتاكوزينوس هو جون السادس كانتاكوزينوس، موضوع هذا الفصل، وهو رجل دولة لامع ومؤرّخ قيّم، تنازل عن العرش الإمبراطوري وهو في سنّ الثانية والستين، وأمضى السنوات الثلاثين الأخيرة من حياته كراهب. أقامت الأسرتان علاقات جيّدة مع بعضهما البعض، وربطت بينهما عدّة صداقات وزيجات شهيرة. لكن عند وقوع شجارات بينهما، كان الطرفان على استعداد للذهاب إلى أبعد الحدود لحماية مصالحهما، حتّى لو تطلّب ذلك جلب قوّات تركية إلى جيوشهما للقتال ضدّ الطرف الآخر. وليس من المستغرب أن تؤدّي هذه الخلافات بين السلالتين اليونانيتين دوراً محورياً في إنتاج بعض من أهمّ الأحلاف الإسلامية المسيحية في هذا الفصل. في الواقع، يبرز التوتّر بين هاتين الأسرتين اختلافاً آخر، ربّما كان متوقّعاً بين البيزنطيين، ألا وهو الاختلاف الطبقي. ففي فترة من الفترات على الأقلّ، كانت أسرة كانتاكوزينوس تُعتبر أكثر نخبويةً وبعداً عن الشعب، في حين تمتّعت أسرة بالايولوغوس الحاكمة بدعم شعبي أكبر في الشارع. وبالنسبة إلى أيّ مؤرّخ اشتراكي للقرون الوسطى، يبحث في ثورات ما قبل العصر الحديث، يشكّل زيلوت سالونيك مثالاً غير عادي للانتفاضة الشعبية المدبّرة. فقد نظّم الفلّاحون أنفسهم في حركة سياسية عنيفة (مثيرة للاهتمام بالنسبة إلى عام 1347)، وطردوا ممثّلي إمبراطور تلك الفترة المنتمي إلى أسرة كانتاكوزينوس من المدينة، ثمّ أسّسوا إدارتهم الخاصّة غير الأرستقراطية. وعندما أرسل كانتاكوزينوس جنوده إلى المدينة، مُنعوا من

دخولها. لم تكن ثورة أهالي سالونيك مجرّد رياح عابرة، بل بدايةً لسخط أكثر استمرارية إزاء الطبقات الحاكمة. وقد دام لمدّة طويلة خلال ثمانينيات القرن الرابع عشر، عندما اقترح بعض الثوّار عقد صفقة مع الغزاة الأتراك عوضاً عن حكّامهم البيزنطيين. استاء الإمبراطور مانويل الثاني من استقلالية فكر رعاياه. فكتب في عام 1383 يشتكي لصديق له من أنّه حتّى أدنى الفلّاحين رتبةً كانوا « أشبه بقواميس متنقّلة»[10].

كان خوف الطبقات الحاكمة من ثورة شعبية على نطاق الإمبراطورية هو السبب وراء ارتفاع عدد المرتزقة الأجانب في جيوش الإمبراطورية. فبالنسبة إلى أرض واقعة تحت تهديد دائم، أبدى البيزنطيون ممانعة مدهشة عن تحريض الشعب ضدّ العدو، سواء كان بلغارياً أو تركياً، لأنّهم اعتبروا أنّ الدّفاع عن الإمبراطورية هو «مهمّة» الجيش، ولا يقع على عاتق مجموعات كبيرة من الفلّاحين. هكذا، عندما قام زعيم شعبي في شمال غرب اليونان يدعى «بيغيرد» بجمع ثلاثمائة شخص من أهل المنطقة عام 1304 لمحاربة الأتراك في آسيا الصغرى، لم تشجّعه الحكومة على هذه المبادرة، بل زجّت به في السجن لتسعة أشهر[11].

أمّا الانقسام الأخير الذي ذرّ بذور الشقاق بين الناطقين باليونانية في آسيا الصغرى، ومكّن العثمانيين إلى حدّ ما من استخدام وتقليب فئة على أخرى فكان الدين. بالطبع، كانت ديانة البيزنطيين واحدة، ألا وهي الأورثوذكسية. بيد أنّ موضوع الدين في بيزنطة أنتج خلافات على ثلاثة صعد: خلافات حول المِلكية والسلطة بين البطريركية والسلطات غير الدينية (أي الأباطرة والحكّام)؛ وجدالات دينية حول مسائل لاهوتية معيّنة اتّخذت بعد ذلك معانٍ سياسية ؛ وأخيراً، عجز عن إيجاد موقف مشترك حيال الكنيسة الكاثوليكية الغربية، وهي مؤسّسة كانوا بحاجة يائسة إلى مساعدتها ضدّ الأتراك، إلاّ أنّهم مازالوا يشعرون إزاءها بالاستياء وانعدام الثقة. في الواقع، كان بين البطاركة والأباطرة البيزنطيين خلافات لا تحصى حول الحقّ في الأملاك والحقّ في بيعها. ففي سالونيك،

رفض زعماء الكنيسة بغضب تسليم أبنيتهم، حتّى عندما قيل لهم إنّها ضرورية للدفاع عن المدينة[12]. وفي عام 1303، كانت الدفاعات العسكرية على حدود الإمبراطورية ضعيفة إلى حدّ أنّ أندرونيكوس الثاني فكّر بتبنّي خطّة جذرية، وإعطاء مربّع من الأرض لكلّ جندي، لكي يشعر بالرغبة في البقاء والدفاع أرضه ضدّ الأتراك. غير أنّ الخطّة لم تنفّذ بسبب المعارضة التي واجهتها. ويمكننا أن نتخيّل أنّ السلطات الكنسية لم تكن راضية عندما استخدم كانتاكوزينوس أموال الكنيسة/ ودفعها للجيوش التركية التي استعان بها ضدّ خصمه (المسيحي) جون الخامس.

على الرغم من أنّ الجدالات الباطنية الغريبة تسبّبت في انقسامات خطيرة بين اليونانيين (إذ يبدو أن البيزنطيين كانوا يعشقون الجدل الديني الجيّد)، فإنّ مسألة الغرب هي التي أنتجت الشقاقات والصراعات الأكثر مرارة. ذلك أنّ العرض الذي قدّمته روما، والقاضي بمساعدة القسطنطينية ضدّ ما اعتبرته المدّ الإسلامي الذي يهدّد باكتساحها، كان له عدد من الجوانب غير المرضية التي لا تقتصر على التجارة والتنازلات السياسية، بل تتعدّاها إلى «عودة» الكنسية الأرثوذكسية إلى العقيدة الكاثوليكية القويمة. في الواقع، لا يمكن المبالغة إطلاقاً في وصف المعارضة العنيفة التي ولّدتها هذه القضيّة بين معظم اليونانيين، الذين رأوا في اللاتين عموماً مجموعة من القراصنة وقطّاع الرؤوس الذين نهبوا أراضيهم لأكثر من قرنين من الزمن. وقد كان ميخائيل الثامن أوّل إمبراطور يحاول توحيد الكنيسة الكاثوليكية، الأمر الذي يعني، على أرض الواقع، أن يسافر الأساقفة اليونانيون إلى روما لتقبيل يد البابا باعتباره زعيمهم الروحي. والاستياء الذي نجم عن ذلك، كاد أن يكلّفه إمبراطوريته. تمّ نفي البطاركة المتمرّدين الذين رفضوا الموافقة على التحالف مع الغرب، وهُدّدوا باقتلاع أعينهم. مع ذلك، وحتّى مع اقتراب العثمانيين بمرور كلّ عقد من الزمن، وتحويلهم الإمبراطورية البيزنطية المجيدة إلى ثلاث مدن يونانية، فإنّ الحاجة إلى مساعدة الغرب لم تدفع البيزنطيين إلى الاتّفاق على موقف مشترك. وأمام

جيش من ستّين ألف عثماني علـى الأبواب، لم يتراجـع وزير القسـطنطينية عن تصريحه أنّه يفضّل عمامة السلطان على قبّعة الكاردينال.

من هم «الأتراك»؟

ليـس من السـهل أن نـروي انتقـال مجموعـة من الناس من سـهول شـمال الصين، إلـى المناطق الجبليـة في أوزبكسـتان، ومنهـا إلى مراعي وسـط وغرب تركيا. وربّمـا كانت أهـم الحقائـق التي يجـب التأكيـد عليها هـي أنّه فـي الفترة التـي دارت فيها أحـداث هـذا الفصـل (1300-1453)، كانت المجموعـة العرقية المعروفة عموماً باسـم التـرك، والتي تتحدّث بلغة من لغات آسـيا الوسـطى التي لا علاقة لها كلّياً بالعربية والفارسـية، بل هـي مليئة بكلمات مسـتعارة من هاتين اللغتيـن، تحتلّ معظـم الأراضـي البيزنطية سـابقاً في آسـيا الصغرى منـذ حوالى مائتي عام.

على غرار اليونان البيزنطيين، لـم يكن ثمّة وجود للـ«أتراك» ببسـاطة. فعلى الرغم من اللغة المشـتركة تقريباً، والديانة الإسلامية السنّية، كانت بلاد الأناضول (وهو المصطلح يشـمل البرّ الرئيس لتركيا التي نعرفها اليـوم) عبارة عن رقع من الإمـارات في عـام 1300، نشـأت كلّ منها علـى حسـاب الأخـرى. وكان التوتّر يسـود العلاقـات بيـن دول ساروهان، وجيرميـان، وكاراس، وآيـدن التركمانية، التي غالبـاً ما اختـارت التحالـف مع جيرانهـا المسـيحيين للإغارة علـى أراضي بعضها البعض. وترجع أصـول الإمبراطوريـة العثمانية العظيمة إلـى إحدى تلك الإمارات، وكانت قبيلة جبلية متواضعة يتزعّمها رجـل يدعى عثمان (العثمانيون، بالتركية عثمنلي، نسبة إلى عثمان). ويصعب التصديق أنّ هذا المربّع الصغير من الأرض، الواقع في شـمال غرب تركيا، سـيفرض يوماً ما احترامه على بلاط كلّ من إليزابيث الأولى ودوج البندقية، لا بل وسـيتقاضى الجزية منهما. في الواقع، فإنّ السـرعة الخاطفة التي تحوّل فيها العثمانيون من قبيلة إلـى إمبراطورية، ومن رعاة وغزاة إلى مهندسـين وبناة إمبراطوريـة، فاجأت الجميع، لا سـيّما جيرانهم

البيزنطيين، الذين كانوا يتوقّعون المتاعب من اتّجاه مختلف تماماً خلال معظم القرن الثالث عشر.

في هذه المرحلة، لا بدّ لنا من التطرّق لنقاش تاريخي حديث، مع أنّني لا أرغب في تعقيد الأمور أو جعلها «أكاديمية» جداً. وهذا النقاش هو أكثر ارتباطاً بسياسة القومية التركية الحديثة – والمفاهيم الغربية المتسرّعة حيال الإسلام – منه بالحقائق التاريخية نفسها. لسنوات عديدة، اعتبر الإسلام واحداً من الأسباب الرئيسة للنجاح المذهل لصعود العثمانيين إلى السلطة. فقد شدّد كثير من المؤرّخين البارزين، أتراكاً وغربيين على حدّ سواء، ليس على الأصل التركي والمسلم فحسب للعثمانيين، بل أيضاً على أنّ فكرة الغازي هي السرّ وراء نجاحهم الباهر.

خلال السنوات الثلاثين الماضية، بدأ عدد من المؤرّخين الروّاد بالتشكيك بجدّية في هذه الفرضية. ويرجع ذلك جزئياً إلى أنّ الغازي يشنّ حربه على غير المسلمين، لكن كما رأينا للتوّ، شنّ العثمانيون حروبهم الأولى بالتعاون مع اليونان غير المسلمين ضدّ إخوانهم المسلمين. فبمساعدة البيزنطيي المسيحي هارمان كايا، استولى العثمانيون على إمارتي كاراس وجيرميان من خصومهم المسلمين في عشرينيات وثلاثينيات القرن الرابع عشر. في الواقع، كان من أبرز الغزاة الذين ورد ذكرهم في الملاحم هو يوناني مسيحي يدعى كوس ميهال (اعتنق الإسلام في نهاية حياته)، وكان شخصيّة مركزية في نموّ الدولة العثمانية، ورفيق صيد مقرّب من عثمان نفسه. وفي ملحمة تركية ترجع إلى أوائل القرون الوسطى، تحمل عنوان باتالنامي، كان أحد أقرب أصدقاء عثمان بيزنطي. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ كلمة غازي لا تظهر بشكل بارز بقدر ما تحملنا التقاليد على الاعتقاد. فبما أنّ عديداً من الملاحم التي تتناول ولادة العثمانيين كتبت بعد أكثر من مائة عام من وقوع الأحداث، فإنّ الاستناد إليها في تصوّرنا هو أشبه بمحاولة فهم الحرب الأهلية الإنكليزية فقط من خلال قراءة كتب ترجع القرن التاسع عشر؛ ففي النهاية، ما تعرفه عن حقبة المؤرّخين يفوق ممّا تعرفه

عن التاريخ نفسه. إذ عمد كثير من الشعراء العثمانيين، الذين شعروا بالحرج من ذكر دور المسيحيين في تأسيس إمبراطوريتهم الإسلامية، إلى تجاهل غير المسلمين في القصائد التي ألّفوها عن سلاطينهم. ويُعتبر فهمنا المبسّط لتاريخ آسيا الصغرى، الذي نقارنه بمباراة كرة قدم بين اليونان والأتراك، بحيث تقوم مجموعة بطرد الأخرى مثلما يحلّ الزيت محلّ الماء، ناتجاً إلى حدّ ما عن هذه الإعادة لصياغة التاريخ[13].

وتكمن المفارقة في أنّ سرّ نجاح العثمانيين الباهر لا علاقة له بأيّ نوع من أنواع الدعوة الإسلامية إلى الجهاد، بل يبدو أنّه أتى نتيجة العكس. فالعثمانيون الأوائل لم يكونوا إسلاميين على الإطلاق، ويبدو أنّهم لم يتردّدوا في عقد صفقات ملائمة مع أيّ من جيرانهم، مسيحيين كانوا أم مسلمين، إن ساعدهم ذلك على المضيّ قدماً في طموحاتهم (على القارئ أن يقرّر بنفسه موقفه من هذا التعدّد الثقافي الاستراتيجي). وكما يشير عالم الأجناس ليندنر، غالباً ما تكون المجموعات القبلية منفتحة على عناصر جديدة، إن كان في دمجها فائدة للمجموعة ككلّ[14]. خلافاً للإمبراطورية العثمانية، لا يبدو أنّه مورس ضغط معيّن على غير المسلمين لاعتناق الإسلام خلال القرن الأوّل من التوسّع العثماني. فثمّة سجلّات لقضاة مسيحيين في بيثينيا العثمانية (شمال غرب تركيا) في أربعينيات القرن الرابع عشر، في حين تشير سجلاّت الأعمال الخيرية لمدن مثل بورصة إلى أنّهم كانوا منفتحين على كافّة الأديان، من مسلمين، ومسيحيين، ويهود. وعندما سأل السلطان العثماني أورهان، في عام 1326، رئيسَ الوزراء لماذا قرّرت مدينته اليونانية أخيراً الاستسلام للأتراك، أجابه بما يلي:

> لقد استسلمنا لمجموعة من الأسباب. أوّلاً، دولتكم تتّسع يوماً بعد يوم... وثانياً، ... قمتم ببسط سيطرتكم على كلّ القرى. وقد فهمنا أنّهم مرتاحون، وأدركنا أنّهم لا يفتقدون إلينا. لذلك، رغبنا نحن أيضاً في هذه الراحة[15].

يُظهر لنا هذا النصّ أنّ العثمانيين الأوائل كانوا أكثر اهتماماً بضمّ المدن إلى مملكتهم عوضاً عن تخريبها. وإن كان هذا يعني السماح للمسيحيين بممارسة

دينهم ومنحهم قدراً من الحكم الذاتي، فليكن. أهمّ نقطة ينبغي التأكيد عليها هنا هي أنّ الاستيلاء على الأراضي البيزنطية خلّف أثراً على العثمانيين واليونانيين على السواء. وما تبع ذلك هو تسوية مؤقّتة، أي نمط من التعايش الذي لا ينبغي تحويله إلى يوتوبيا من التسامح والعيش الرغيد (عندما كان الأتراك يستولون على بلدة ما، فإنّ أوّل ما يفعلونه هو تحويل كنيستها المركزية إلى مسجد)، بل رؤيته ببساطة كنتيجة لشعبين يعيشان في مكان واحد. ومع أنّ أحداً لم يذهب إلى ما ذهب إليه المؤرّخ اليوناني، الذي أطلق على الإمبراطورية العثمانية اسم»الإمبراطورية اليونانية»[16]، فإنّ الثقافة البيزنطية لم «تختفِ» ببساطة بوصول الأتراك. فحتّى بعد مائة وخمسين عاماً من غزو الأتراك لمدينة سالونيك، بقيت أحياء المدينة تحمل أسماء يونانية، مع أنّ سكّانها كانوا مسلمين[17].

شهدت الأناضول في القرون الوسطى حقبات متكرّرة من العنف. فقد عانت المدن والمستوطنات اليونانية، شأنها شأن جاراتها التركية، الكثير خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر. لكن من غير الممكن تقسيم هذا العنف ببساطة بين «مسلمين» و«مسيحيين». فالجيوش والقوّات العسكرية التي سبّبت الجزء الأكبر من هذه المعاناة كانت مؤلّفة من الفريقين. ويروي لنا التوسّع العثماني في البلقان قصّة مشابهة. فحتّى في مرحلة متأخّرة مثل عام 1472، تُظهر سجلاّت إحدى المناطق أنّ أكثر من 85 بالمائة من القوّات التركية المغيرة (أكينجيلار) كانت مؤلّفة من المسيحيين[18]. والتكتيك العثماني القديم، الرامي إلى امتصاص الثقافات الأجنبية، من يونانيين، وأرمن، ويهود، في الجيوش والإدارات تحت لوائه، يجعل من الصعب للغاية رسم صورة بالأبيض والأسود للصراع الديني والعرقي في هذه المنطقة. وكما سنرى، فإنّ سياسة القسطنطينية، القاضية باستخدام أيّ جيش ممكن، مسيحياً كان أم غير مسيحي، للدفاع عن مصالحها، تجعل الوضع برمّته أكثر تعقيداً.

بما أنّ صورة حشد من البرابرة «المسلمين» المندفعين عبر حدود الحضارة هي جزء من الأسطورة التي نحاول تكذيبها، علينا أن نخصّص أخيراً بضع دقائق

لدراسة الثقافة التي أحضرها معهم الأتراك، ونفهم كيف اختلطت بالعادات والممارسات المحلية التي وجدوها في الأراضي التي استولوا عليها. فالشعر الصوفي ليونس إمري، والأمثال الفارسية لجلال الدين الرومي (المعروف في تركيا باسم مولانا)، والحكايات الشعبية لنصر الدين خوجة، والروحانية الفذّة التي نجدها لدى حاجي بكداش، كلّها حدثت في الأناضول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. ويُظهر الرومي وحاجي بكداش على وجه الخصوص مدى امتداد التأثير المسيحي[19]، إذ أدرج البكداشيون ممارسات مسيحية، مثل كسر الخبز والاعتراف بالخطايا، في الطقوس الإسلامية الخاصّة بهم، في حين نجد في منثوي الرومي جُملاً يونانية متفرّقة.

رأى كثيرون أنّه في ظل البلبلة وعدم الاستقرار اللذين سيطرا على الأناضول، شكّل الاضطراب والقلق بيئة روحية مثالية لاعتناق دين جديد. بالطبع، يُعدّ امتزاج التقاليد المسيحية والإسلامية في مناطق تركية مثل كابادوكيا مثيراً للاهتمام، وليس من المستغرب أن تتمكّن حركات صوفية من إحراز ذاك التقدّم في مثل هذا المناخ من الخوف وعدم اليقين. وما نتج عن ذلك كان خليطاً غريباً من الديانات والثقافات، كالكنائس الكابادوكية التي يصوَّر فيها السلطان مسعود والأمير باسيل ويمجّدان على الجدار نفسه، فضلاً عن اعتماد بعض الأتراك لممارسات مسيحية مثل التعميد. وتروى بعض الطرائف العائدة إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالروح نفسها. إذ يُحكى أنّ كاهناً لم ينجح في طرد الأرواح الشريرة من زوجته، فقامت امرأة تركية بذلك، وأنّ أحد الدراويش أكل من خبز المسيحيين، فتضاعفت محاصيله إثر ذلك. وكون حاجي بكداش، الوليّ المسلم، هو نفسه القدّيس شارالامبوس الذي وقّره بعض اليونانيين، يشير بالفعل إلى تداخل ملحوظ في الروحانيّات. ففي إحدى القصائد، ينتحب اليهود، والأرمن، والمسيحيون على موت وليّ مسلم في القرية، ويبكونه قائلين: «أين شيخنا؟»

شكّلت بلاد الأناضول الإسلامية أيضاً مركزاً مهمّاً للإنتاج الفكري. ومع

أنّ بعض الأرقام تُعتبر وهمية بوضوح (يُقال إنّ أحد العلماء كان يحتفظ بأكثر من «عشرة آلاف كتاب» في مكتبته في عام 1431)، كانت ثقافة الكتب ناشطة حتماً. فقد ضمّ مسجد أومور بيه في بورصة، مثلاً، حوالى ثلاثمائة كتاب عام 1455. ومنذ أوائل القرن الثالث عشر، كانت قد بدأت مدرسة واحدة على الأقلّ في كونيا بإنتاج المخطوطات. وتُعتبر مدينة بورصة التركية الواقعة في شمال غرب البلاد مثيرة للاهتمام، بصفتها العاصمة المكتسبة حديثاً للسلالة العثمانية، الأمر الذي جذب إليها العلماء من مختلف أنحاء العالم، بما في ذلك دمشق وشيراز (في إيران)[20]. وقد أنتج النموّ الهائل للهندسة المعمارية العثمانية في تلك الفترة (والتأثير السلجوقي والبيزنطي الذي يظهر في أنصاف القبب والقواقع) موجة من مدارس تعليم القرآن، والمساجد، والحمّامات في مختلف أنحاء الأناضول والبلقان، بدءاً من المجمّع العثماني في إزنيق عام 1334. وتوّجت هذه الجهود المعمارية بلؤلؤة الهندسة المعمارية العثمانية المبكرة، والمتمثّلة في المسجد الأخضر (Yeşil Cami) في بورصة، الذي يمتاز بخزفه الفيروزي اللامع، وداخله المكسوّ بعناية بالخزف الأزرق والأصفر والذهبي[21]. مخطوطات، ومساجد، وشعر، وأمثال؛ تلك كانت الثقافة «البربرية» التي عرفتها بلاد الأناضول في بداية القرن الثاني عشر.

الفرقة الكاتالانية (1303-11):

المرتزقة الذين بدّلوا انتماءهم

تعتبر قصّة الثلاثة آلاف كاتالاني، وأراغوني، وصقلي الذين ذهبوا إلى آسيا الصغرى لمحاربة الأتراك تحت لواء الإمبراطور البيزنطي، وقرّروا في منتصف الطريق التحالف مع الأتراك في حربهم ضدّ البيزنطيين، مقدّمة جيّدة للنظرة التي سنلقيها على نهاية الإمبراطورية البيزنطية. ولا يرجع السبب فقط إلى كونه أوّل التحالفات الإسلامية المسيحية (والتركية اللاتينية) في القرن الرابع عشر، بل لأنّه يعطينا أيضاً صورة جيّدة عن الوضع البائس لجيش الإمبراطورية البيزنطية

الزائلة، وسبب استعانته غالباً بالقوّات التركية.

في عام 1300، وجد البيزنطيون أنفسهم في وضع سيستمرّ عبر الخمسين عاماً القادمة، التي سيواجهون خلالها تهديد وهجوم البلغار والصرب شمالاً، ومختلف الإمارات التركية جنوباً. ومع أنّه، خلال السنوات الثلاثين السابقة، كان البيزنطيون أكثر قلقاً إزاء الحملات الصليبية اللاتينية والغزو اللاتيني لأراضيهم (كما رأينا في الفصل الأخير، مع شارل أنجو)، إلاّ أنّ السقوط التدريجي لمدينة يونانية تلو الأخرى في آسيا الصغرى بين أيدي العثمانيين شكّل ظاهرة مقلقة على نحو متزايد بالنسبة إليهم. وكان لدى الإمبراطور أندرونيكوس الثاني (وهو رجل كان ينبغي أن يكون أستاذ لاهوت، على حدّ قول أحد المؤرّخين، لكنّ «الصدفة جعلت منه إمبراطوراً بيزنطياً[22]) مبرّراً للقلق. فعلى الصعيد العسكري، تجاوزت الإمبراطورية ذروة مجدها منذ زمن طويل. إذ اتّخذ أندرونيكوس نفسُه واحداً من أسوأ القرارات في تاريخ اليونان في القرون الوسطى، تمثّل في تفكيك البحريّة تقريباً عام 1285، وهي خطوة منحت السيطرة الفعلية على مضيق البوسفور الفاصل بين أوروبا وآسيا إلى البندقية وجنوة. فذهب عدد كبير من البحّارة الذين خسروا عملهم للعمل على السفن التركية واللاتينية[23]. وكان عدد الجنود البيزنطيين الناطقين باليونانية في جيوش الإمبراطورية صغيراً أساساً، وسيقلّ أكثر مع مرور الوقت، واعتماد البيزنطيين المتزايد على المرتزقة الأجانب.

من هم أولئك المرتزقة الأجانب؟ لقد جاؤوا من مختلف الاتّجاهات. كان بعضهم لاتينياً؛ كاتالانيين، وإيطاليين، وفرنسيين. وكان بعضهم، كما سنرى، أتراكاً مسلمين من هضاب الأناضول. تجدر الإشارة أيضاً إلى مجموعتين أخريين، هما الألان والتوركوبولوي. كان الآلان شعباً مغولياً تركياً يدين بالمسيحية، وترجع أصوله إلى منطقة تُعرف اليوم باسم مولدافيا، شمال رومانيا. استخدم الإمبراطور البيزنطي حوالى ثمانية آلاف منهم في حربه ضدّ الأتراك (ومن ثمّ ضدّ المرتزقة الذين استخدموهم لمحاربة الأتراك...). واستعان

بهـم أندرونيكوس على مـا يبدو لأنّه سـئم من «مواطنيـه المخنّثيـن والضعفاء... ومواقفهم وميولهـم الحقـودة»[24]. وقد ذاع صيـت الألان أنّهم يخلصون للسـيّد الذي أعلنوا الولاء له، وهو أمر سيثبتون صحته قريباً.

أمّـا التوركوبولـوي (كلمة يونانيـة تعني «الشـعب التركي») فهم أيضـاً أتراك متنصّرون، وذلك لسـبب من اثنين. فـي بعض الحالات، ولدوا مـن زواج يوناني تركي، عـادةً من أب تركـي وأمّ يونانيـة، وهي ظاهرة أكثر شـيوعاً بكثيـر ممّا تقرّ به السـجلّات. غير أنّ تعبير «توركوبولوي» يُسـتخدم أيضاً لوصف الأتراك الذين مكثوا فـي الأراضـي البيزنطيـة، ودانوا بالمسـيحية بعد انسـحاب السـلاجقة عام 1264. فتـمّ الاعتـراف بوجودهم في سـجلّات ذلـك الوقت. على سـبيل المثال، قاد التركي المسيحي نيكيفوراس ريمبسـاس الوحدة التركية في الجيش البيزنطي ضدّ اللاتين في الحملة الثيسـالية لعـام 1273[25]. وفي عام 1300، سـتؤدّي هاتان المجموعتـان، أي الألان والتوركوبولـوي، دوراً بارزاً في محاولـة بيزنطة الرامية إلى وقف التوغّل التركي المتزايد في أراضيها.

عام 1302، في بلدة نيقوميديا (إزميت اليـوم)، ألحقت عصبة من المحاربين الأتراك، تحت قيـادة تركي يدعى عثمـان، هزيمة كبيـرة بالجيـش البيزنطي الذي أصيب بالذهول التامّ. بالنسـبة إلى بيزنطة، شـكلّت تلك الهزيمة نذيراً بالمستقبل القاتم الذي ينتظرها. وحتّى معاصري أندرونيكوس توقّعوا خسـارة آسيا الصغرى لصالح الأتـراك، ومعها كلّ مدنهـا ودولها اليونانيـة، حتّى لو لـم يكـن ممكناً بعد تصوّر الاستسـلام النهائي للقسـطنطينية نفسـها. بالتالي، شـعرت بيزنطة بالحاجة إلى حلّ جذري للتهديـد التركي. وهذه هي المرحلة التـي يدخل فيها على الخطّ روجر د فلور وفرقته الكاتالانية.

تُعتبر قصة روجـر دي فلـور ومرتزقتـه كأنّها من قصـص كيبلينـغ القصيرة. كان دي فلـور ينتمـي إلـى فرسـان الهيـكل الذيـن حاربـوا ضـدّ المسـلمين فـي فلسـطين، لكنّه طرد من التنظيم بسـبب ابتـزازه للاجئين. فقام لاحقـاً بالعمل في منطقـة البحـر الأبيـض المتوسّـط كجنـدي محتـرف يقاتـل لصالح أراغـون ضدّ

الأنجوفيين. وكان والده الألماني أحد صقّاري فريدريك الثاني. فكتب في عام 1302 إلى الإمبراطور البيزنطي، يعرض خدماته وخدمات أتباعه المرتزقة. وافق أندرونيكوس الثاني، الذي كان توّاقاً إلى المساعدة من أيّ جهة أتت، ولم يتخيّل أن يتجاوز عدد فرقة دي فلور 1.500 رجل. تقاضى دي فلور أجر أربعة أشهر مسبقاً، وفاز بابنة أخت الإمبراطور من ضمن الصفقة. بعد عام، وصل إلى القسطنطينية أسطول مؤلّف من أكثر من اثنتي عشرة سفينة، يُقلّ حوالى سبعة آلاف رجل. فتذمّر أندرونيكوس قائلاً: «نحن لم نطلب منك جمع كلّ هذا الحشد»[26].

كان المرتزقة الكاتالانيون مقاتلين مهرة واستراتيجيين ذوي خبرة. غير أنّهم امتازوا أيضاً بالعنف. اندلع القتال بينهم وبين الجنوانيين فور وصولهم تقريباً. إذ وقع خلاف حول المال المخصّص للسفن التي استأجرها الكاتالانيون لتقلّهم إلى القسطنطينية (وهو مال اقترضه دي فلور من الجنوانيين). ثمّ اندلع نزاع عنيف، تبعته حرب ضيّقة النطاق، دارت فيها اشتباكات بين الجنوانيين والكاتالانيين في شوارع المدينة. وقع كلّ ذلك في الأسبوع الأوّل من وصولهم. في النهاية، اضطرّ الإمبراطور نفسه للتدخّل لتسوية النزاع، بعد أن وصلت الاشتباكات إلى القصر الملكي. وتنفّست المدينة الصعداء عندما رحل دي فلور ورجاله أخيراً من القسطنطينية في شتاء عام 1303، ليبدأ حملته من آسيا الصغرى، ويقاتل من كان يفترض به قتالهم، ترافقه مجموعة كبيرة من المرتزقة الألان المستائين للغاية.

أيّاً يكن رأينا بالفرقة الكاتالانية، وسلوكها العدواني، والجامح، وغير المنضبط، ثمّة حقيقة تعترف بها كلّ المصادر، وهي أنّهم هزموا كلّ الجيوش التي واجهوها، والتي كانت في بعض الأحيان تفوق عددهم بثلاثة أو أربعة أضعاف. صحيح أنّ أعمال النهب والسلب التي ارتكبوها لم تكن منضبطة، إلاّ أنّ وحدتهم القتالية كانت على درجة عالية من التنظيم. ففي خلال خمسة أشهر فقط، أخرجوا الأتراك من مدينة فيلادلفيا، وأجبروهم على فكّ الحصار عن ماغنيسيا (الواقعة اليوم في وسط غرب تركيا)، ثمّ وصلوا إلى حدود أرمينيا، قبل

العودة إلى القسطنطينية في أواخر عام [27]1304. بالطبع، تقاضوا أجراً مرتفعاً. فأجور بعض ضبّاطهم كانت أعلى بكثير من أجور نظرائهم الألان، وهو أمر يرجع إلى حدّ ما إلى العلاقات السيّئة جدّاً بين تلك المجموعتين من المرتزقة. اندلعت النزاعات والمعارك بوتيرة أعلى بين الألان والكاتالانيين. وفي إحدى المناوشات، قتل رجال دي فلور ابنَ زعيم الألان، مع معظم حرّاسه البالغ عددهم ثلاثمائة رجل. فترك الألان الفرقة الكاتالانية لاحقاً في ذلك العام، وشرحوا خطوتهم تلك، على حدّ قول أحد المؤرّخين، أنّهم «يفضّلون الموت على روجر دي فلور»[28].

بصرف النظر عن خلافات رجال دي فلور مع غيرهم من المرتزقة البيزنطيين، فإنّ أحد أبرز المشاكل التي ارتبطت بهم هي قيامهم غالباً بنهب المدن التي كُلّفوا بحمايتها. ففي مغنيسيا وفيلادلفيا، عمد الكاتالانيون إلى تعذيب اليونان المحلّيين ليطلعوهم على المكان الذي أخفي فيه أهالي البلدة كنوزهم. ومن نواح كثيرة، تبيّن أنّ الحلّ الذي استقدمه أندرونيكوس إلى آسيا الصغرى لا يقلّ سوءاً عن المشكلة بحدّ ذاتها. أمّا المشكلة الثانية فتمثّلت في سطحية الحملة. فعلى الرغم من أنّ الكاتالانيين نجحوا في التغلّب على مختلف الجيوش التركية التي واجهوها، إلاّ أنّهم كانوا يغادرون بأجمعهم بعد انتهاء المعركة، فيعاد الاستيلاء على الأرض فور رحيل المرتزقة.

ثمّة عوامل أخرى أدّت تدريجياً إلى تخلّي الكاتالانيين عن ولائهم لأرباب عملهم البيزنطيين، وتعاونهم مع الأتراك ضدّهم. فالوضع المالي السيّئ للإمبراطور كان له دور في ذلك. إذ اشتكى دي فلور من عدم تقاضيهم أجورهم. ومحاولةُ أندرونيكوس خداع المرتزقة بقطع نقدية مزيّفة تعكس أنّه كان يائساً على الصعيد المالي. ينبغي أن نأخذ بالاعتبار أيضاً أوهام دي فلور التي كانت تتجاوز الواقع. فبحلول عام 1304، أقنع ابن الصقّار نفسه أنّه وريث «مملكة الأناضول»، وهو لقب منحه إيّاه أندرونيكوس بسرور، لا سيّما وأنّ البيزنطيين كانوا قد خسروا عملياً سيطرتهم على آسيا الصغرى، على أيّ حال.

آخر سبب لتبديل الكاتالانيين انتماءهم هو ابن الإمبراطور أندرونيكوس (الذي شاركه في الحكم بحسب الممارسة البيزنطية)، ويدعى ميخائيل التاسع. كان ميخائيل يكبر روجر دي فلور بثلاثة أعوام، وكان مستاءً جدّاً من براعته العسكرية. مهما تكن المهارات والمواهب التي يتمتّع بها ميخائيل التاسع، إلاّ أنّ قيادة الجيوش لم تكن واحدة منها. ففي عام 1302، قاد حملة كارثية لحماية مدينة مغنيسيا (تسمّى اليوم مانيسا، وتقع في غرب تركيا)، وعندما وصل إلى هناك، كان نصف جيشه قد فرّ من الجندية. فتوتّر ميخائيل كثيراً من هذا الأمر، وهرب سرّاً إلى بيرغامون في منتصف الليل. عندما استيقظ جنوده في صباح اليوم التالي، واكتشفوا الأمر، حزموا أمتعتهم ولحقوا به[29].

حين اكتشف الكاتالانيون أنّهم لن يتمكّنوا من الحصول على مزيد من المال من أندرونيكوس، عادوا إلى القسطنطينية عام 1305، غير أنّهم لم يتوغّلوا في المدينة، بل أسّسوا قاعدة لهم على شبه الجزيرة جنوب العاصمة، في غاليبولي. بعبارة أخرى، كان البيزنطيون يواجهون خطر التعرّض لهجوم من قبل الجيش الذي موّلوه لحمايتهم من الأتراك. وتكمن المفارقة الأكبر في الصداقة التي أقامها الكاتالانيون مع بعض أتراك الأناضول، وأدخلوهم في فرقتهم. نذكر في هذا السياق الأسلوب الودود الذي يصف فيه أحد المؤرّخين الكاتالانيين، ويدعى رامون مونتانر، قرار قبول مساعدة الأتراك، الذين كان قائدهم يحمل اسم «زيمليش»، لأسباب مبهمة:

> هكذا استقبلْنا [الأتراك]، الذين انضمّوا إلينا مع ثمانمائة حصان وألفي رجل. فعرفناهم رجالاً مطيعين لنا، ومخلصين، وصادقين، على الدوام، كما كانوا خبيرين في استخدام السلاح. هكذا مكثوا معنا مثل الأخوة، ولازمونا دائماً... وهكذا... غزونا الإمبراطورية [البيزنطية] بسهولة. فعندما كان الأتراك والتوركوبولوي يذهبون في غزوات، كان يرافقهم مَن يرغب من رجالنا، ويعامَلون باحترام كبير... بالتالي، لم يكن بيننا وبينهم أيّ خلاف يذكر[30].

مع أنّه من المؤثّر رؤية مثل هذه اللحظات السامية من التعاون بين الأديان، والتواصل بين الثقافات، بين المسلمين والمسيحيين، إلاّ أنّ الأشخاص الذين نتحدّث عنهم هنا هم قتلة، ومخرّبون، ومغتصبون. فالفترة الكاتالانية كانت كارثة على سكّان آسيا الصغرى، وانتكاسة للبيزنطيين أنفسهم. مع ذلك، من المثير للاهتمام أن نرى حجم التضامن «الأخوي» (سيطالعنا هذا التعبير مجدّداً مع قصّة أومور باشا وكانتاكوزينوس) الذي يمكن أن يتواجد بين مجموعات ثقافية شديدة الاختلاف. ذلك أنّ الكاتالانيين، والأراغونيين، والصقليين الذين وجدهم الأتراك بين عناصر المرتزقة كانوا أكثر اختلافاً عنهم بكثير على الصعيد الثقافي من يونان الأناضول البيزنطيين الذين يغيرون عليهم معاً.

ماذا حلّ بالفرقة الكاتالانية في النهاية؟ بعد وفاة قائدهم روجر دي فلور في ظروف غريبة (قتل في أثناء زيارته لميخائيل التاسع، وهي زيارة ما زالت أسبابها تعصى على التفسير) انتقم الكاتالانيون، مع حلفائهم الأتراك، من ابن الإمبراطور، وألحقوا هزيمة نكراء بالبيزنطيين في معركة أبروس (الواقعة الآن على الحدود التركية اليونانية) في شهر يوليو من عام 1305. بحسب السجلاّت، انتصر ما يقدّر بـ2.500 فارس كاتالاني وتركي على قوّة متفوّقة عددياً تضمّ حوالى أربعة عشر ألف يوناني. ومن العوامل التي ساهمت في انتصار الكاتالانيين هم التوركوبولوي البالغ عددهم ألف رجل تقريباً، الذين كانوا في جيش ميخائيل، إلاّ أنّهم تحوّلوا إلى الطرف الآخر في منتصف المعركة، لعدم رغبتهم ربّما في قتال إخوانهم الأتراك الذين يحاربون بين صفوف الكاتالانيين[31].

بعد هزيمة ميخائيل التاسع، أمضت الفرقة الكاتالانية الكبرى العامين التاليين في غزو تراقيا ونهبها. وبحلول عام 1307، كان قد أصبح عددهم ستّة آلاف إسباني، وثلاثة آلاف تركي. في نهاية المطاف، قرّروا الانتقال جنوباً إلى البرّ اليوناني الرئيس، الذي كانت تحتلّه القوّات اللاتينية التابعة لدوق فرنسي يدعى والتر [كونت] بريان. في الواقع، كانت المنطقة بأكملها تسمّى

دوقية أثينا، وتخضع للحكم الاستعماري (حقّاً، ما من تعبير آخر لوصف ذلك) لأوروبا الغربية منذ عام 1204. فعند النظر إلى أنواع اللاتين الذين كانوا يملكون إمارات صغيرة في اليونان (دوقات من ليتشي، وأنجوفيون من نابولي، وكونتات فرنسيون، وتجار بنادقة) نتبيّن بوضوح امتداد الحكم الأجنبي الذي اضطرّ اليونانيون للخضوع له. بدأ الكاتالانيون بالقتال لصالح الدوق الفرنسي. لكن في عام 1311، تقلّبت قلوبهم وثاروا في وجه سيّدهم السابق. في معركة كيفيسوس، هزمت الفرقة الكاتالانية الكبرى (مجدّداً) جيشاً يفوقها عدداً بكثير، مؤلّفاً من خيرة رجال الأرستقراطية الفرنسية في اليونان، لتضع أسس دوقية أثينا الكاتالانية، التي ستدوم حتّى عام 1388[32]. وعلى مدى السنوات السبعين التالية، سيكون لمملكة كاتالونيا، الواقعة على الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسّط، معقلاً للسلطة والنفوذ في قلب الإمبراطورية البيزنطية.

قبل أن نترك الكاتالانيين للتحدّث عن الصداقة التي جمعت بين حاكم بيزنطي وبك تركي من آيدن، لا بدّ لنا من أن نتطرّق لفترة وجيزة وهامّة في آن من التحالفات التركية الكاتالانية التي شهدتها الفترة الممتدّة بين عامي 1318-29، ضدّ البندقية وتوابعها، في أجزاء أخرى من شبه الجزيرة اليونانية. فكما سبق وقلت، شهدت العلاقات بين البنادقة، والجنوانيين، والكاتالانيين توتّراً مستمرّاً. وما من شيء يعبّر بوضوح عن هذا العداء المتبادل مثل التحالفات التي أقامها ألفونسو، الدوق الكاتالاني الجديد لأثينا، مع إمارتين تركيتين واقعتين على الساحل المقابل؛ أميرَي مينتشي وآيدن. والأكثر غرابة في هذا الحلف هو سرّيته. فالتعاون العسكري مع غير المسيحيين كان معيباً بالنسبة إلى الكاتالانيين. لهذا السبب، بذل ألفونسو قصارى جهده لإخفاء تفاهمه مع أعداء المسيح، إلى حدّ أنّه طلب من الأتراك القيام من وقت إلى آخر بمهاجمة بعض جزره. في عام 1327، نهب أتراك آيدن إحدى جزر ألفونسو، وتدعى أيجينا، لجعل الأمر يبدو وكأنّهم يهاجمون كلّ الأراضي المسيحية، وليس أراضي البندقية التي طلب منهم ألفونسو غزوها وحسب[33].

بطبيعة الحال، اكتُشفت خدع ألفونسو في نهاية المطاف. فقد كان البنادقة متشكّكين أساساً تجاه الكاتالانيين ومخطّطاتهم على الأراضي التي تسيطر عليها البندقية في اليونان، ولم يكن يخفى على أحد أنّ «علاقة مميّزة» تجمع بين الكاتالانيين والأتراك. بحسب أحد مؤرّخي عام 1322، دعا العالم البندقي سانودو إلى شنّ حملة صليبية ضدّ الأتراك والكاتالانيين، وذكر تعبيري Turchorum و Saracenorum في الوقت نفسه مع Cathalanorum.. وكان موقف البابا مشابهاً. فقد كان الفاتيكان يحاول تنظيم عصبة ضدّ الأتراك عام 1327. ومع أنّ الأنجوفيين أبدوا شيئاً من الفتور، إلاّ أنّ البندقيّة كانت تحاول أساساً إعادة إقامة علاقات تجارية مع الأتراك، وبدا البيزنطيون متردّدون في الانضمام إلى الحلف، وأكثر استعداداً لتوقيع معاهدات مع إمارتي ساروهان وعثمان. لا بل إنّ رئيس الأساقفة اللاتيني في طيبة نصح البابا، أثناء وضع شروط الحملة، باعتبار الكاتالانيين «منشقّين» ومتحالفين مع الكفّار. بتعبير آخر، أصبح الكاتالانيون بالنسبة إلى روما مجرّد نوع آخر من الأتراك.

بالتالي، ما شهده البحر الأبيض المتوسّط في تلك الحقبة، وبعيداً عن أيّ شكل من أشكال الحروب الدينية، كان عبارة عن تداخل معقّد ومحيّر من القوى والآليات، لكلّ منها تاريخه المصغّر الخاصّ: مجموعة من الدول اللاتينية التي تحتلّ اليونان، والتابعة لأجزاء مختلفة جدّاً من أوروبا (كاتالونيا، وفرنسا، والبندقية)، كلّ منها تكافح من أجل السيطرة على الأخرى، وكلّها على أهبة الاستعداد للاستعانة بالمسلمين في سعيها إلى ذلك. فنرى إمارة تركية راضية تماماً عن تعاملها مع البنادقة، ومن ثمّ مع الكاتالانيين، ومن ثمّ حتّى مع البيزنطيين ضدّ الاثنين. كما نجد القسطنطينية تحاول التأكّد، في خضمّ كلّ الطرق التجارية، والتوتّرات العسكرية، والغارات البحرية، من أيّ اتّجاه يأتي التهديد الأكبر، بينما تسعى في الوقت نفسه إلى مواجهة الصراعات الداخلية على السلطة. من هذا الوضع المربك، ستخرج الشخصية البارزة لجون كانتاكوزينوس السادس.

مع أنّ ولع كانتاكوزينوس بالأتراك كان مذهلاً (كان بالتأكيد أوّل إمبراطور بيزنطي يصاهر مسلماً)، إلاّ أنّ علاقات المودّة بين حكّام القسطنطينية وجيرانهم الأتراك لم تكن جديدة من نوعها بالطبع. فعندما هزم المغول الحاكم السلجوقي المسلم قيقاوس الثاني عام 1261، لجأ إلى بيزنطة. إلاّ أنّ اختياره للملجأ كان مستغرباً. فقبل خمس سنوات، طُرد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن من بلاطه من قبل خصومه السياسيين، وهرب إلى العاصمة السلجوقية في قونيا. هناك، خدم قيقاوس لمدّة قصيرة كقائد للقوّات الأجنبية التابعة للحاكم المسلم[34]. كما تُظهر الحكاية النادرة للجنرال المحترم وواسع الشعبية، فيلانتروبينوس، الذي أحسن معاملة أعدائه الأتراك المهزومين بعد استعادته فيلادلفيا عام 1295، ووجّه له بلاط الإمبراطور انتقادات لاذعة على إنسانيّته، كيف أنّ صداقة كانتاكوزينوس مع الأتراك لم تكن ظاهرة غريبة وفريدة من نوعها. فقد أحسن فيلانتروبينوس معاملة أسراه الأتراك إلى حدّ أنّ جيشه سرعان ما ضمّ كتيبة تركية كبيرة. وعندما ضرب أتراك الأناضول حصاراً حول المدينة نفسها بعد ثلاثين عاماً، أي في عام 1323، أرسلت القسطنطينية الجنرال نفسه، وكان قد أصبح عجوزاً كفيفاً، للتفاوض معهم. فتذكّر الأتراك كرم فيلانتروبينوس معهم قبل ثلاثين عاماً، وفكّوا الحصار عن المدينة، ثمّ انسحبوا عائدين[35].

من بين كلّ التحالفات التي نشأت بين البيزنطيين والأتراك، فإنّ الصداقة والتحالف العسكري الممتدّين على عقد من الزمن بين أومور حاكم آيدن وجون كانتاكوزينوس (أو كانتاكوزيني) السادس يستحقّان اهتماماً خاصّاً. ولدت هذه العلاقة من احتياجات السياسة الواقعية بالطبع، لكن على ما يبدو، كان عنصر الصدق والأمانة حاضراً على نحو مؤكّد في الحلف. فاستناداً إلى أحد المؤرّخين غير المتعاطفين، كان كانتاكوزينوس وأومور أشبه بـ«أوريستس وبيلادس»، الصديقين المقرّبين في الميثولوجيا اليونانية[36]. ففي كثير من الحالات، كان أومور يحترم صداقته لكانتاكوزينوس، حتّى لو لم تكن الفرص في صالحه. وهذا

دليل إمّا علـى إخلاص أومور أو على قـدرة كانتاكوزينوس الشـهيرة على الإقناع (وربّما للسـببين معاً). ففي النهاية، كان كانتاكوزينوس يسـتطيع أن يسـتقلّ سفينة قراصنة متوجّهة شـرقاً، ويقنـع أصحابها بالالتفـاف، والانضمام إليـه لغزو مدينة معادية تقع في الاتّجاه المعاكس.

تجدر الإشـارة أيضاً إلـى أنّ الأحلاف التركيـة البيزنطية الأخـرى، وإن كان عددهـا غير قليـل، إلاّ أنّهـا لم تكـن ناجحة تمامـاً، لا سـيّما وأنّها أُسّسـت على الضرورة السياسـية المحض، مـن دون عنصر أعمـق من التعاطـف المتبادل. من الأمثلة البديهية علـى ذلك هو الحلف الذي أقامته آنّا سـافوي (زوجة الإمبراطور المتوفّـى)، وإحـدى خصـوم كانتاكوزينـوس. إذ قامـت، ردّاً علـى فاعليـة حلفاء كانتاكوزينـوس الأتـراك، بتأسـيس حلف خـاصّ بها عـام 1346، مـع أمير إحدى الإمارات التركية المنافسـة، سـاروهان، من دون نجاح يُذكـر. فعندما وصلوا إلى تراقيـا لمسـاعدتها، بدأوا علـى الفور بغـزو ونهب القـرى التـي كان يفترض بهم حمايتها، ووقفـوا في نهايـة المطاف في صـفّ كانتاكوزينوس. كلّ هـذا يثبت أنّ «الصفقات» البسـيطة لم تكن كافية لضمان تحالف متيـن[37]، بل ينبغي أن يُعجب الطرفـان أيضاً ببعضهمـا البعض، وأن يحتـرم واحدهما الآخر. وكما سـنرى في حالة كانتاكوزينـوس وأومور، تجـاوزت العلاقـة مجرّد الـودّ المتبـادل والضيافة الدبلوماسية. فمنذ البداية، كان كلّ منهما ينادي الآخر «أخي».

التقى أومور وكانتاكوزينـوس للمرّة الأولى في عـام 1335، في بلدة تقع في غرب تركيا، وتعرف اليوم باسم كارابورون. في ذلك الوقت، كان كانتاكوزينوس يبلغ الأربعيـن من عمـره، فيمـا كان أومـور في الخامسـة والعشـرين تقريبـاً[38]. وربّما كان فارق السـنّ يفسّـر الاحترام الذي أظهره أومور دائمـاً لنظيره اليوناني، على الرغم من أنّ قدرة كانتاكوزينوس على التحدّث باللغة التركية، وعدم ثقتهما باللاتين الذين أتيـا لقتالهم في كارابورون ، سـاهما كثيراً فـي ولادة تفاهم فوري بينهما. تـروي التقاريـر التركية اللقـاء على النحـو التالـي: «تحدّثا، وتمنّيـا الخير لبعضهمـا، ثـمّ أصبحـا أخويـن» (gorişip esenleşip kardaş olur). ويبـدو أنّ

الرواية دقيقة، لأنّ المذكّرات التي كتبها كانتاكوزينوس في كبره تتضمّن رواية مشابهة للأحداث من حيث الودّ الذي خيّم فوراً على علاقتهما:

> كنت قد تراسلت مع أومور، وأبديت له حسن نواياي. وعندما أتى إلى فوقايا، التقيت به لفترة قصيرة...
>
> حين نزلت من السفينة، رحّب بي على الفور، وأظهر لي قدراً كبيراً من الكياسة. فأمضيت أربعة أيّام مع صديقي، وتمكّنت من إقناعه باعتبار الإمبراطور [البيزنطي] سيّداً له ولي، باعتباره أحد أهمّ النبلاء في المنطقة. وهكذا ولدت بيننا صداقة متينة[39].

غير أنّ أوضاع الرجلين كانت معقّدة للغاية، وربّما كان الأمر يستحقّ التوقّف عنده. بالطبع، نحتاج إلى فصل كامل للتطرّق إلى الصراعات على السلطة التي عاشها كانتاكوزينوس خلال الأعوام الخمسة عشر الماضية من حياته حتّى تلك اللحظة، علماً أنّ الأمور لن تكون أفضل حالاً مع مرور الزمن. فعلى غرار معظم الإمبراطوريات، غالباً ما تضمّنت الخلافات البيزنطية صراعات أسرية؛ الأب ضدّ ابنه، وابن الأخ ضدّ عمّه، وحتّى الجدّ ضدّ حفيده. كانت شخصية كانتاكوزينوس أشبه بشخصية كينيدي في القسطنطينية في عشرينيات القرن الرابع عشر. إذ كان شاباً، وثرياً، يتمتّع بالأهلية السياسية، وينتمي إلى إحدى العائلات الأكثر نفوذاً في العالم الناطق باليونانية.و كان الصديق المقرّب للإمبراطور الشاب أندرونيكوس الثالث، ورفيقه منذ أيّام الدراسة. فأدخلته هذه الصداقة في الصراع الوجيز على السلطة بين أندرونيكوس الشابّ وجدّه، أندرونيكوس الثاني. في عام 1330، أي قبل خمس سنوات من لقاء أومور وكانتاكوزينوس، وافق الإمبراطور العجوز أخيراً على التخلّي عن العرش لصالح حفيده. فحاول أندرونيكوس الثالث، في عدّة مناسبات، إقناع كانتاكوزينوس بمشاركته في الحكم، لكن يبدو أنّ نائب الحاكم لم يكن طامعاً في هذا المنصب.

كما سبق وأشرت، غالباً ما كانت صراعات بيزنطة على السلطة كبيرة، لا سيّما وأنّها وقعت في وقت كان فيه نفوذ الإمارات التركية يتنامى يوماً بعد

يوم. فقد بدأت جيوش الأتراك، واليونانيين الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً، والمسيحيين البيزنطيين الساخطين بالاستيلاء على بلدة تلو الأخرى من الساحل الآسيوي. وكثر اعتناق الناس للإسلام، الأمر الذي اضطرّ البطريرك اليوناني، عام 1338، بإرسال كتاب إلى أهالي نيقيا (إزنيق اليوم) يأمرهم فيه بعدم التخلّي عن دينهم[40]. في خضمّ كلّ ذلك، وفي ظلّ أزمة واضحة، شارك أباطرة بيزنطة المتنافسين في عدّة حروب أهلية طويلة، وتورّط فيها كانتاكوزينوس على نحو مركزي. لهذا السبب، وعلى الرغم من كون كانتاكوزينوس رجل دولة كبير وكاتباً موهوباً، إلاّ أنّه كان يتمتّع بسمعة غامضة بين المؤرّخين، المعاصرين له واللاحقين على السواء، ليس فقط بسبب أنانيّته، التي جعلته يفضّل تقسيم البيزنطيين عوضاً عن التخلّي عن العرش، بل أيضاً كيوناني أدّى استخدامه لحلفائه الأتراك إلى ترسيخ وجودهم على الطرف الأوروبي من البوسفور، الأمر الذي أدّى لاحقاً إلى انهيار القسطنطينية نفسها. لا بل إنّ معرفة كانتاكوزينوس باللغة التركية والسهولة التي يتحاور ويتفاعل بها مع «البرابرة» (علاقات وصلت إلى الزواج بالطبع) اعتبرها بعض المؤرّخين تواطؤاً مع العدوّ. يكفي أن نعرف أنّ كانتاكوزينوس كان يسمّي القوّات التركية الموجودة في جيشه «مشاة الاحتياط» (symmachia peze)، في حين أنّ المؤرّخين سمّوهم «مرتزقة» (mistophoroi)، ليتبيّن لنا اختلاف نظرة الناس إلى أحلافه مع المسلمين[41]. لا بل كان لديهم شكّ، على حدّ قول أحد المؤرّخين، في أنّ «كانتاكوزينوس أحبّ الأتراك بقدر ما كره الرومان [البيزنطيين]».

على أيّ حال، عندما التقى كانتاكوزينوس بأومور، كان إمبراطوراً في كلّ شيء، ما عدا الاسم. سبّبت له علاقته القديمة بأندرونيكوس الثالث مشاكل مع زوجة الإمبراطور، التي شعرت على الأرجح بالغيرة من الصداقة الحميمة التي جمعت بين كانتاكوزينوس وزوجها، علماً أنّ هذه المشاكل لن تظهر بشكل ملموس إلاّ بعد وفاة الإمبراطور. ولم يكن الحاكم التركي الذي التقى به كانتاكوزينوس في عام 1335 شاباً عديم الخبرة أو سريع التأثر على الإطلاق. بل

كان أومور حاكم إمارة تركية فتيّة نسبياً، هي إمارة آيدن، الواقعة على الساحل الغربي، وكانت تتمتّع في ذلك الوقت بالقدر نفسه من القوّة والهيبة اللتين امتازت بهما أراضي العثمانيين الإسلامية المجاورة. غير أنّ القدر، فضلاً عن لحظة نادرة اتّحدت فيها البندقية، وجنوة، وروما، سيحوّلانها إلى إحدى الإمارات الخاسرة في بدايات التاريخ التركي. فبحلول عام 1390، ستصبح جزءاً من الأراضي العثمانية. حين التقى أومور بكانتاكوزينوس، كان والده قد توفّي في العام الفائت، تاركاً له إمارة آيدن، المؤلّفة من عدّة مدن، بما فيها ميناء سميرنا الثري، المعروف اليوم باسم إزمير.

ليس مستغرباً حقّاً أن يتّفق أومور وكانتاكوزينوس. في الواقع، نرى مديحاً غير عاديّ لإنسانية أومور وحسن خلقه صادراً عن الراهب الأرثوذكسي والمؤرّخ غريغوراس، الذي عاصر أومور. وهو يعتبره (بالنسبة إلى شخص تركي) رجلاً لا يفتقر تماماً إلى «الحضارة الهلّينية»[42]. ما يؤكّد هذا الانطباع هو بلاط أومور، الذي ضمّ ممثّلين عن الديانات الثلاثة. في الواقع، ثمّة حكاية تعزّز هذا القول، لكنّها تأتي من اتّجاه مختلف تماماً. ففي حوالى عام 1331، مرّ الرحّالة العربي الشهير ابن بطّوطة ببلاط آيدن، في طريقه إلى القسطنطينية. فكان تقريره مليئاً بالثناء على البلاط وحسن الضيافة التي تلقّاها. لكن في يومه الأخير هناك، رأى طبيباً يهودياً يدخل إلى غرفة السلطان. كان ابن بطّوطة معتاداً على معاملة مختلفة لليهود في بلده الأمّ تونس. فتعجّب أشدّ العجب لدى رؤية وجهاء البلاط يقفون لتحيّة الطبيب اليهودي، الذي بلغت منه الجرأة أن يجلس بالقرب من السلطان، وفوق قرّاء القرآن. فشتمه الرحّالة، وأخذ يهينه على جلوسه فوق قرّاء القرآن، وهو يهودي. يُعتبر غضب الرحّالة العربي دليلاً واضحاً على مدى امتداد العلاقات بين الأديان في بلاد الأناضول الخاضعة للحكم التركي، وإن كان من المستحسن عدم المبالغة في ذلك. فبينما كان ابن بطّوطة مارّاً بإمارة آيدن، ابتاع لنفسه عبدين يونانيين[43].

كان أتراك أومور قد أمضوا السنوات العشر الماضية في غزو الأراضي

اللاتينية واليونانية في كلّ من بحر إيجة والبحر الأسود، كما حاولوا الاستيلاء على المدن البيزنطية المتبقّية في آسيا الصغرى. وكما سبق ورأينا، استفادوا من عدد من الأحلاف مع الكاتالانيين. لكن في عام 1335، بدأ الغرب بالتحرّك ضدّهم. فبتشجيع من البابا الإنجيلي على نحو غير عاديّ (كان يوحنّا الثاني والعشرين قد أسّس أسقفيات للمرّة الأولى في أرمينيا، وإيران، والهند) استعاد اتّحاد البنادقة، والجنوانيين، والقبارصة، والفرنسيين سيطرته على بحر إيجة مع أسطول مؤلّف من أربعين سفينة، وحاول استرجاع مدينة إزمير من أومور عام 1334. في الواقع، كان أومور يلتقي باليونانيين لأنّ الجنوانيين استولوا على إحدى جزرهم (ليسبوس) الواقعة في خليج إزمير، وكانوا يحتفظون بابن أمير تركي آخر، هو أمير ساروهان، رهينة لديهم.

يبدو أنّ المفاوضات جرت على خير ما يرام. فقد وافق أحد الأمراء الأتراك على إرسال أسطول من السفن لمساعدة اليونانيين، لا سيّما وأنّ ابنه هو المحتجز رهينة لديهم. كما يبدو أنّ كانتاكوزينوس أقنع أومور بالمشاركة في الهجوم. ومع أنّ الحاكم التركي الشابّ سبق أن قاد عدداً من الحملات ضدّ الأراضي البيزنطية، إلاّ أنّ عدوّ اليونانيين هذه المرّة كان حتماً أخطر تهديد تواجهه مملكة أومور. باتّحادهم ضدّ اللاتين، لم يكن من المستغرب أن يولد «رابط صداقة لا ينفصم». ومن الشروط الأخرى المثيرة للاهتمام هي أنّ كانتاكوزينوس طلب من أومور أن يكفّ عن مهاجمة مدينة فيلادلفيا اليونانية، في وسط مملكته. ويبدو أنّ أومور وافق على ذلك، لكنّه حذّره من أنّ حملاته تحتاج إلى هدف آخر، إن كان مضطرّاً لوقف غزواته البيزنطية.

ما تبع ذلك يُعتبر صفقة غريبة بالنسبة إلى القارئ المعاصر (أو على الأقلّ المصادر المعاصرة). فقد عثر كانتاكوزينوس بذكاء على أهداف مناسبة يُرسل إليها أومور وجنوده الأتراك، وهو تكتيك نال رضى بيزنطة، إلاّ أنّه لم يُفرح الألبان والبلغار. فبما أنّ هاتين المجموعتين كانتا تضغطان على الحدود الشمالية للإمبراطورية، وجّه كانتاكوزينوس ببساطة حليفه أومور للهجوم عليهما، ترافقه

جيوشـه اليونانية الخاصّة، وأعطاهم وعداً بنيل غنائم كبيرة. في ربيع 1338، غادر فوج من المشاة مؤلّف من ألفَي جندي تركي، بالإضافة إلى قوّة بيزنطية مساعدة، مدينـة سـالونيك البيزنطيـة باتّجاه سـفوح تراقيـا لمهاجمة قـوّة من قطّـاع الطرق الألبـان[44]. كان الهجوم موفّقـاً. فقد أُربك قطّـاع الطرق أمام الأتراك بأسـلحتهم الخفيفة، وانسـحبوا أخيراً، تاركين خلفهم غنائم كثيرة (ماشـية، وبضائع، وعبيد) بحيث عجزت قوّات أومور وكانتاكوزينوس عن أخذ كلّ شيء.

سـيتحوّل قتـال الأتـراك إلـى جانـب الجنـود اليونانييـن مباشـرة، أو حتّى مختلطين فـي جيش واحـد أحياناً، إلى ممارسـة شـائعة خلال السـنوات العشـر القادمة. ففـي معركة لاحقـة (بيريثيوريـون، 1345) التـي خاضوها ضـدّ الصرب، تعطي التقارير صورة واضحة عن كيفيّة تنظيم كانتاكوزينوس للجيش المسـيحي/ المسلم. ففي الميسـرة، وقف الفرسـان (البيزنطيون) بأسـلحتهم الثقيلة والتابعين لآسـين، صهر كانتاكوزينوس. وفي الوسـط، وقف حرس اختـاره كانتاكوزينوس بنفسـه، وكان مؤلّفاً من قـوّات بيزنطية وتركية. أمّـا الميمنة، فاحتلّهـا رماة أومور الأتراك. في الواقع، تشـير قدرة القوّات التركية والبيزنطية على القتال بالقرب من بعضها البعض، من دون أن تكون مقسّـمة على أسـاس عرقي، كما هو معتاد في ذلك الوقت، إلى مسـتوى عالٍ جـدّاً من التعـاون والتواصل بيـن اليونانيين وغير اليونانييـن. وبالتأكيـد، فـإنّ حـرس كانتاكوزينوس الشـخصي، وقتالهـم جنباً إلى جنب مع بعضهـم البعض، لا يدعم فكـرة كون أتـراك أومور قوّة بربرية اسـتعان بها إمبراطور بيزنطي من وقت إلى آخر لكسب إحدى المعارك أو الاستيلاء على إحدى المدن[45].

إنّ فكرة كون القوّات التركية التـي تقاتل لصالح اليونانييـن غريبة أو مخيفة نوعاً ما سينفيها واقع آخر، يتمثّل في التجانس التدريجي للتكتيكات، والمعدّات، والزيّ العسـكري فـي تاريـخ القـرون الوسـطى البيزنطـي. فكمـا يشـير المؤرّخ العسـكري بارتوسـيس، فإنّ العهود الطويلـة من اختـلاط التأثيـرات النورماندية، والإيطالية، والتركية، والبدويـة، الذي نجده مثلاً في أنماط الأسـلحة أو الدروع،

أنتـج بحلول القـرن الرابع عشـر أسـلوب حـرب سـيتحوّل إلـى طريقة قياسـية، بغـضّ النظر عمّـا إذا كان الجيـش المعني تركيـاً أم بيزنطيـاً. على سـبيل المثال، تكشف رسـومات وأوصاف الجنود البيزنطيين تأثيراً إسـلامياً واضحاً في لباسهم وأسلحتهم: سـيوف وخناجر مقوّسة، وخوذ سـلجوقية الطراز يمتدّ مؤخّرها حتّى الكتفيـن. وفي لوحـة صربية، يبدو السـيف المقوّس شـبيهاً حتّى بأسـلحة مماثلة استُخدمت في القرن الرابع عشر في مصر في ظلّ حكم المماليك[46]. باختصار، لـم يكـن «البرابـرة» الأتراك الذيـن أتوا لمسـاعدة البيزنطييـن يضعـون قروناً على رؤوسهم، بل كان مظهرهم الخارجي شـبيهاً تقريباً بمظهر اليونانيين الذين جاءوا لمساعدتهم.

حتّـى الآن، استخدم كانتاكوزينـوس القـوّات التركيـة ضـدّ غيـر اليونانييـن فقـط، وذلـك لقتـال الجنوانييـن وصـدّ العصابـات الألبانيـة عـام 1338. لكن في عـام 1341، وقعـت حادثـة ستؤدّي إلى انـدلاع حـرب أهلية مكلفـة بالنسـبة إلى بـلاط القسـطنطينية خلال السـنوات الثلاثيـن المقبلـة. وتتمثّـل تلـك الحادثة في وفـاة أندرونيكوس الثالث بسـبب المـرض، عن عمر يناهـز الخامسـة والأربعين. وستشـهد تلك الحرب الأهلية اسـتخدام القوّات التركية من كلا الجانبين. سـبّبت وفـاة الإمبراطـور اضطرابات فـي مختلـف أنحـاء الإمبراطوريـة المنكمشـة، كما تفعل وفاة الملوك دوماً. اسـتجابت الدول المجـاورة لبيزنطة مع النبـأ على الفور تقريباً، وذلك من خمسـة اتّجاهات مختلفة. من الشـمال الغربي، بـدأ الإمبراطور الصربي بالتوغّل في مقدونيا. وفي الشـمال، أخذ القيصر البلغاري يطالب بتسـليم السجناء السياسـيين في القسـطنطينية. أمّا في الجنوب، في آسيا الصغرى، فواصل أورهان وإمارته العثمانية التوسّع، واسـتولى على مدينة تلو الأخرى، على حساب الانهيار التدريجي للإمبراطورية البيزنطية. وحتّى أومور ملك آيدن اسـتعدّ لسلسلة مـن الغـارات ضـدّ الأراضـي البيزنطية لـدى سـماعه الخبر، للاسـتفادة مـن وفاة الإمبراطور (إلـى أن أوقفـه كانتاكوزينوس في الوقت المناسـب تماماً، واسـتخدم براعته الفائقة في الإقناع ليحثّ «أخاه» على مهاجمة البلغار عوضاً عن ذلك)[47].

كان كلّ ما يجري سيّئاً بما فيه الكفاية لو أنّ الطبقات السياسية في القسطنطينية كانت متّحدة. غير أنّها لم تكن كذلك، بطبيعة الحال. فقد ترك الإمبراطور خلفه صبيّاً ضعيفاً نوعاً ما، لم يتجاوز التاسعة من عمره، وهو جون الخامس بالايولوغوس. ولم يعرف كانتاكوزينوس ما إذا كان ينبغي عليه إعلان نفسه إمبراطوراً، أو وصيّاً على الطفل ببساطة. كانت أرملة الإمبراطور، آنّا سافوي، شخصيّة قويّة وحازمة، لم يعجبها كانتاكوزينوس يوماً، وبدأت تساورها الشكوك في أنّه ينوي الاستيلاء على عرش زوجها الخالي. وما زاد الأمور سوءاً هو أنّ «صديقاً» سابقاً لكانتاكوزينوس يدعى أبوكاوكوس، ولا علاقة له إطلاقاً بأيّ من الأسرتين النافذتين، راح يشنّ حملته الخاصّة لاعتلاء العرش. أخيراً، اندلعت موجة عنيفة من الاضطرابات الاجتماعية، بتحريض من عامّة الشعب المحبطين الذين سئموا من الطبقة الأرستقراطية وسوء إدارتها للشؤون الداخلية والخارجية. في مدن مثل أدريانوبوليس (أدرنة) وسالونيك، خرج الناس إلى الشوارع، وأحرقوا المباني، وأطلقوا على كلّ ما يمثّل الأرستقراطية والنخبوية اسم «الكانتاكوزينية». يصوّر المؤرّخون المتعاطفون مع البرجوازية هذه الحقبة كفترة مؤسفة من الفوضى. لكن يمكن اعتبارها أيضاً سابقة منعشة للاحتجاج الشعبي. وبصرف النظر عن رأينا في ذلك، بدت الإمبراطورية أنّها تنهار. وبشكل عامّ، سادت حالة من الفوضى.

أدّت هذه الفوضى إلى اعتماد متزايد على القوّات التركية، وسهّلت صداقة أومور هذا الاعتماد. فعندما سيقرّر كانتاكوزينوس أخيراً أنّه يريد فعلاً عرش الإمبراطورية (رغبة منه في تسليمه إلى ابنه، ماثيو)، سيقدّم له أومور وأتراك آيدن مساعدة كبيرة في نضاله للاستيلاء على السلطة.

عام 1341، ذهب كانتاكوزينوس إلى مدينة ديديموتيكيون، التي كانت في ما مضى من أهمّ المدن اليونانية البيزنطية، وتوّج نفسه إمبراطوراً. فقامت آنّا، أرملة الإمبراطور السابق، بدعم قضية أبوكاوكوس. هكذا اندلعت حرب أهلية بكلّ ما للكلمة من معنى. في البداية، بدا واضحاً أنّ كانتاكوزينوس متردّد في

دعوة الجنود الأتراك إلى الأراضي اليونانية (سيُمضي وقتاً طويلاً في الاعتذار على ذلك للجميع في السنوات القادمة، بمن فيهم البابا). في الواقع، يبدو أنّ خياره الأوّل في التحالف كان يميل إلى مملكة صربيا، وهو خيار خطير، لأنّ توسّعها هدّد الأراضي البيزنطية التي كان كانتاكوزينوس يكافح للسيطرة عليها. كان حاكم صربيا، الملك الأسطوري ستيفان دوشان، قد أمضى طفولته في القسطنطينية، وكان بالتالي على دراية بالثقافة اليونانية البيزنطية. فنشأ حلف قصير الأمد عام 1341 بين الرجلين، اللذين سيختصمان لاحقاً، ويتحوّلان إلى ألدّ الأعداء. وافق ستيفان على مساعدة كانتاكوزينوس في الزحف العسكري على مدينة القسطنطينية.

تُعتبر قصّة تعاون كانتاكوزينوس مع الصرب أقرب إلى كارثة. في المرّة الأولى، أعطاه ستيفان جيشاً من الجنود بقيادة عشرين من أفضل ضبّاطه، إلاّ أنّ معظمهم هلك بتسمّم غذائي قبل وصولهم إلى القسطنطينية. وانتهى الأمر بكانتاكوزينوس وهو يقود عدداً قليلاً منهم عائداً إلى صربيا. في المرّة الثانية، أعطاه ستيفان «غوغاء عديمي الفائدة» (بحسب التعبير البيزنطي)، وبوصول كانتاكوزينوس مجدّداً إلى الحدود الصربية، هرب نصفهم من الجندية خشية عدم رؤية وطنهم مجدّداً. كان الوضع في المرّة الثالثة هزلياً تقريباً. فقد عاد كانتاكوزينوس إلى صربيا لإحضار جيش لائق، فحصل هذه المرّة على وحدة عالية الجودة من المرتزقة اللاتين والكاتلانيين، ومنهم من أصبح لاحقاً حرسه الشخصي. لكن في هذه المرّة، كان الفتور قد بدأ يشوب العلاقات بين كانتاكوزينوس وستيفان. ومع وقوف المدن البيزنطية واحدة تلو الأخرى إلى جانب كانتاكوزينوس، شعر أنّه لم يعد بحاجة إلى المساعدة الصربية[48].

بدا كلّ ذلك متناقضاً بشكل صارخ مع نوع المساعدة التي حصل عليها كانتاكوزينوس من «أخيه» أومور. فقد طلب الإمبراطور الطموح مساعدة صديقه التركي في ثلاث مناسبات، في عام 1342، و1343، و1345. وفي المرّات الثلاث، أتى أومور بقوارب محمّلة بالجنود الأتراك، واليونان الأناضوليين، منهم من

اعتنق الإسلام حديثاً، ومنهم من لم يفعل، ليتحدّد موقف كانتاكوزينوس إلى حدّ كبير، أوّلاً ضدّ البلغار (الذين أخرجهم أومور من أبواب ديديموتيكيون)، ومن ثمّ ضدّ أبوكاوكوس خصم كانتاكوزينوس (الذي انسحبت جيوشه على عجل من سالونيك عندما رأوا أومور يهبّ لمساعدة «أخيه»، ووراءه حوالى ستّة آلاف جندي)، وأخيراً ضدّ الصرب أنفسهم الذين تحالف معهم كانتاكوزينوس لمدّة قصيرة[49].

عام 1345، وصل أومور، مع أمير مسلم آخر من الساحل التركي الغربي يدعى الأمير سليمان، إلى الساحل البلغاري، برفقة عدد هائل من سلاح الفرسان، وساعد حليفه البيزنطي على قهر مغامِر سلافي يدعى مومسيليو، الذي كان يعمل لصالح الملك الصربي. وما إن تمّ حسم الأمر مع الصرب، حتّى رافق أومور صديقه كانتاكوزينوس إلى أبواب القسطنطينية، قبل أن ينطلق عائداً إلى موطنه. وهذه أبعد من أن تكون المرّة الوحيدة التي سيصل فيها جيش تركي إلى أسوار المدينة، المقدّر لها أن تصبح تحت سيطرة الأتراك بعد قرن من الزمن. ستُنتج المساعدة العسكرية التي قدّمها أومور إلى «أخيه» البيزنطي سلسلة من التدخّلات التركية في السياسة القسطنطينية، مع قيام سلطان تلو الآخر بالتدخّل، إمّا عن نوايا صادقة أو عن رغبة في الشِقاق، في صراعات اليونانيين على السلطة. في الوقت الراهن، كانت قوّات أومور التركية مجرّد قوّات مساعدة أجنبية أتت لمدّ يد العون إلى حليف سياسي محلّي للاستيلاء على السلطة. لكن يوماً ما، لن يكون وجودهم مؤقّتاً.

أمامنا هنا نوعان من التحالفات الإسلامية المسيحية. الأوّل هو ذاك الذي نجده مثلاً بين عثمان (أوّل سلطان عثماني) وأوّل حاكم مسيحي لهارمان كايا، ويدعى كوس ميهال، وهو رابط لم يجمع بين فردين وحسب، بل بين شعبين متجاورَين تشارك أحدهم ثقافة الآخر، أو على الأقلّ كان على دراية بها. أمّا النوع الثاني من التحالف، فهو ذاك الذي جمع بين كانتاكوزينوس وأومور، وكان عبارة عن تفاهم، وحتّى صداقة وثيقة، بين النخبتين الاقتصادية والعسكرية، لكنّه

لم يعكس بالضرورة أيّ مشاعر مشابهة لدى اليونانيين والأتراك الذين يمثّلهم هذان الحاكمان. فكثير من رعايا كانتاكوزينوس كانوا يكنّون له الكره بسبب حلفه مع الأتراك (مع أنّ مواطني سالونيك شعوروا بالامتنان بعد أن أخرجت قوّات أومور قطّاع الطرق الألبان من البلدة عام 1338). بيد أنّ تلك الصداقة الحقيقية التي جمعت بين أومور وكانتاكوزينوس لم تمنع أومور من نهب ساحل تراقيا كلّما حلا له ذلك. وحقيقة أنّ كانتاكوزينوس رأى في إحدى المعارك، في مناسبة واحدة مسجّلة على الأقلّ، أتراكاً في جيش العدوّ قاتلا تحت لوائه قبل سنوات، تشير أيضاً إلى أنّ بعض التحالفات كانت أقلّ مثالية من غيرها.

زواج ثيودورا من السلطان أورهان الأوّل:
صهر مسلم لإمبراطور بيزنطي

لم تنتهِ قصّة أومور وكانتاكوزينوس. إذ يروي المؤرّخون الأتراك حكاية مثيرة للاهتمام عن بنات كانتاكوزينوس الثلاث الجميلات. بالطبع، وكما يشير المؤرّخ كفادار، يميل المؤرّخون الأتراك إلى الانغماس في تخيّلهم للنساء البيزنطيات اللواتي يلقين بأنفسهنّ عند أقدام المحاربين المسلمين الشجعان. ويُحكى هنا أنّ إحدى بنات كانتاكوزينوس، وتدعى ثيودورا، وقعت في حبّ أومور خلال زيارة له إلى منزل الحاكم اليوناني. فعرض كانتاكوزينوس على أومور يد ابنته، لكنّ أومور رفض بشدّة لأنّ الصداقة التي تربطه بكانتاكوزينوس وثيقة جدّاً بحيث سيشعر كما لو أنّه يتزوّج امرأة من أسرته: «من الذي يعرض يد ابنته على أخيه؟ الإمبراطور أخي، وابنته هي ابنتي، وفي ديننا لا يمكن لهذا الزواج أن يتمّ»[50]. حتّى إنّ أومور ذهب بعيداً إلى حدّ اعتبار هذا الزواج محرّماً. لكن بينما كانوا يصطادون في الغابة في وقت لاحق، أتت إليه ابنة الإمبراطور مجدّداً، وتوسّلت إليه مرّة أخرى للقبول بالزواج منها. فأتى ردّ أومور أشبه بكلام للسِير جاوين:

«اذهبي، ألا تخجلين من الله. لا تكوني بلا كرامة، ولا تتحدّثي معي بهذه الطريقة».

وضع الباشا يديه على وجهه، وغطّى عينيه وهو يلعن ضعفه. أمّا المرأة الشابّة، فرحلت وهي تنظر خلفها حائرة، بعينين دامعتين[51].

مع أنّه يبقى من غير الواضح مدى صحّة هذه الرواية في الواقع، وكم بذل فيها الشاعر التركي من خياله، يبدو أنّ معظم المؤرّخين يشعرون أنّ عرض زواج قُدّم إلى أومور من قِبل الحاكم البيزنطي من دون أن يلقى قبولاً، وذلك على الأرجح قبل عامين من زواج الفتاة نفسها، ثيودورا، من جار أومور العثماني، أورهان[52]. على الصعيد السياسي، كان أورهان خياراً جيّداً. فإمارته، كما نعلم، كانت تتوسّع عبر بلاد الأناضول وتتحوّل بسرعة إلى النظام السياسي الأكثر نفوذاً في المنطقة. وكان من المفيد الزواج بهذه السلالة، نظراً إلى الاتّجاه المعاكس الذي اتّخذته حظوظ بيزنطة السياسية والعسكرية. في الواقع، وخلال السنوات السبع التي تلت زواج أورهان من ابنة كانتاكوزينوس، لم يُقدم العثمانيون على أيّ توغّلات في الأراضي البيزنطية.

أمّا موقف ثيودورا من المسألة فهو مختلف تماماً. تمّ الزواج عام 1346، وكان أورهان يناهز الستّين من عمره، في حين أنّ ثيودورا لم تكن قد تجاوزت الخامسة والعشرين. من الواضح أنّ أورهان كان معجباً بابنة الإمبراطور. أمّا ثيودورا، فلا بدّ أنّها كانت، بحسب الروايات، تفكّر بأومور الوسيم (ناهيك عن كونه أكثر شباباً) الذي حالت صداقته بوالدها دون زواجهما. على أيّ حال، سيُقتل أومور بعد عامين من هذا الزفاف، وهو في سنّ الثامنة والثلاثين، في قتال خاضه للحؤول دون استعادة اللاتين لإزمير.

جرت مراسم الزواج على الأراضي البيزنطية، بغياب العريس عن الاحتفال. فقد أرسل أورهان ثلاثين سفينة من الرجال لمرافقة عروسه الشابّة من بلدة سيليمبريا التراقية إلى موطنها الجديد. تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الدين الإسلامي لا يفرض على المرأة غير المسلمة اعتناق الإسلام عند زواجها من رجل مسلم.

في موكب الزفاف، يبدو أنّ والد العروس بقي على ظهر الخيل، في حين أنّ الجميع، بمن فيهم جنود أورهان الأتراك، ترجّلوا وساروا على أقدامهم من باب الاحترام. كان احتفال الزفاف كبيراً، شارك فيه عدد كبير من اليونانيين والأتراك. وخرجت ثيودورا (بحسب التقاليد البيزنطية) محاطة بالستائر المذهّبة والحريرية. بعد مدّة طويلة عُزفت فيها الموسيقى، حلّ الصمت، وتُليت صلوات أرثوذكسية من أجل العروس، قبل أن يتمّ اصطحابها إلى زوجها[53].

في العام التالي، ذهب كانتاكوزينوس إلى آسيا الصغرى لزيارة صهره، للمرّة الأولى على الأرجح، وزار سكوتاري التركية (أوسكودار اليوم) الواقعة مقابل القسطنطينية. ويبدو أنّهم أمضوا وقتاً ممتعاً، ذلك أنّ كانتاكوزينوس جلس وتناول الطعام مع أورهان، في حين أنّ أبناء أورهان الأربعة (من زوجاته الأخريات) أكلوا على طاولة منفصلة. ويبدو أنّ أورهان كان لا يزال حذراً إزاء زيارة الأراضي البيزنطية، لأنّه رفض دعوة كانتاكوزينوس لردّ الزيارة له في القسطنطينية، مع أنّ أبناء أورهان الأربعة عادوا معه إلى بيزنطة لمواصلة الاحتفالات هناك. ورافقتهم ثيودورا أيضاً، مستغلّة الفرصة لزيارة أمّها لبضعة أيّام، قبل أن تعود إلى قصر أورهان. ستبقى هناك في بيثينيا العثمانية، وستكون مسيحية مثالية بحسب الروايات، حتّى أنّها ستشجّع (كما يقال) المسيحيين السابقين الذين اعتنقوا الإسلام على العودة إلى عقيدتهم، وذلك حتّى وفاة أورهان عام 1360. بعد ذلك، ستعود للعيش مع أمّها في بيزنطة. هل أمضت تلك السنوات وهي تتحسّر على الرجل الذي رفضها، أومور الذي قُتل في المعركة؟ أو على أحد النبلاء اليونان الذين عرفتهم في طفولتها؟ أم أنّها تعلّمت أخيراً حبّ رجل يكبرها بثلاثين عاماً؟ حقّاً، ما من سبيل إلى معرفة الجواب.

الزواج بين الأديان

لا تُعتبر الأحلاف القائمة على الزواج أقلّ أهمّية من الأحلاف العسكرية، في سعينا لنُظهر، على مستويات وبطرق مختلفة، أنّ المسلمين لا ينتمون إلى

حضارة «أخرى». ففي أغلب الأحيان، كانت هذه الأحلاف متلازمة. إذ يشير كانتاكوزينوس في مذكّراته إلى وجود مدارس في الممالك البيزنطية مثل طرابزون، والقسطنطينية، تُرسَل إليها الفتيات اليونانيات فائقات الجمال (أحياناً أميرات، وأحياناً من أصل أكثر تواضعاً) لتعليمهنّ وإعدادهنّ كعرائس للحكّام المغول، ولاحقاً الأتراك. كان الهدف الأوحد هو «الهرب من الدمار»، وقد كان ذا جدوى لمدّة من الزمن على ما يبدو[54]. نحن نعلم بالتأكيد أنّ الزواج بين المسلمين والمسيحيين في هذه الفترة لم يقتصر على الطبقة الأرستقراطية، ويشهد على ذلك العدد الذي لا يحصى من المورتاتوي (الذرّية الناتجة عن زواج اليونانيين والأتراك). مع ذلك، تُعتبر الزيجات التي حصلت بين مسيحيي ومسلمي الطبقة الأرستقراطية مثيرة للاهتمام، ولا يرجع ذلك فقط إلى قيمتها الرمزية الهائلة. فمع أنّنا نستغرب ذلك اليوم، إلاّ أنّ الأحلاف القائمة على الزواج، التي أقامها بيزنطيو أواخر القرون الوسطى، تربط أرستقراطيات أوروبا الغربية بكيريلتايس آسيا الصغرى الأتراك. كما تُعتبر هامّة بسبب الآثار الإقليمية والسياسية البارزة لتلك الأحلاف على الفريقين. فالعدد الكبير من الأميرات اليونانيات اللواتي تزوجن من سلاطين عثمانيين يعني، بحسب الباحث برابر، أنّه بحلول عام 1453، كان لمحمّد الثاني حقّ أكثر إقناعاً بالعرش البيزنطي من ذاك الذي كان لكانتاكوزينوس في عام 1345[55]. فقد كانت أمّهات عديد من السلاطين يونانيات، بمن فيهم والدتا مراد الأوّل وبايزيد. وتوضح هذه الزيجات بين الأديان ما كنتُ أحاول قوله منذ البداية، أي إنّ البيزنطيين والعثمانيين لم يشكّلا كيانَين مستقلَّين ومختلفَين، ولم يكونا مجرّد «يونان وأتراك» أو «مسلمين ومسيحيين». لقد كان التقليدان مترابطان بعدد من الطرق العميقة والمعقّدة، التي تشير إلى أنّ الهويّة الدينية لم يكن لها دائماً دور أساسيّ أو حتّى هامّ. وتكشف لنا جملة محمّد الثاني، التي قالها وهو يزور موقع طروادة القديمة بعد سقوط القسطنطينية، كيف رأى فتحه لبيزنطة: «الإغريق والمقدونيون... هم من دمّروا هذا المكان في الماضي، وذرّيتهم هي من دفعت الآن ثمن... ظلمهم لنا نحن

الآسويين»[56]. فقدرة الأتراك على رؤية أنفسهم، وإن للحظات، ليس كمحاربين إسلاميين، بل كطرواديين عائدين، تُثبت أنّه ثمّة عديد من الطرق الأخرى لرؤية الإمبراطورية العثمانية أكثر من مجرّد إمبراطورية «مسلمة».

بين عامي 1297 و1461، تمّ تزويج أكثر من أربع وثلاثين أميرة بيزنطية وصربية لحكّام مسلمين، من مغول، وأتراك، وتركمان. بالتأكيد، ترجع الزيجات بين الأديان إلى ما قبل تلك الفترة. إذ يذكر عدد من الملاحم والقصص التركية ترتيبات من هذا النوع. كما أنّ سلالة دانيشمند التركمانية غالباً ما كانت ترحّب بإدخال أنساب أرمنية في تاريخ سلالتها، ولذلك بالطبع دوافع خفية تتمثّل في تبرير حكمها لهؤلاء الرعايا. وثمّة مؤرّخ بيزنطي واحد على الأقلّ ادّعى أنّ عثمان، المؤسّس الأسطوري للسلالة العثمانية، كان حفيد أميرة سلجوقية ونبيل بيزنطي يدعى جون كومنينوس، تزوّجا في أربعينيات القرن الثاني عشر[57]. لكن نظراً إلى غموض أصول عثمان، فإنّنا نتحفّظ على الحُكم على صحّة ذلك، على رغم من أنّ هذا المثال مثير للاهتمام، لكونه واحداً من عدد قليل من الحالات التي تزوّجت فيها أميرة مسلمة من رجل مسيحي، وليس العكس.

يُعتبر احتفاظ ثيودورا بعقيدتها المسيحية بعد زواجها من أورهان أمراً استثنائياً، على الرغم من وجود حالات أخرى لأميرات مسيحيات، تزوّجن من حكّام مسلمين، وقاومن اعتناق الإسلام. أبرز تلك الحالات هي أميرة أخرى تدعى ثيودورا، عاشت بعد قرن من الزمن، وتزوّجت من حاكم تركي يدعى أوزون حسن عام 1458، وأصبحت خاتون، أو أميرة. لم تكتفِ ثيودورا هذه بالاحتفاظ بعدد كبير من الخدم المسيحيين، بل قامت أيضاً بتمثيل زوجها المسلم في الحوار السياسي مع الحكّام الغربيين. وحتّى عندما كانت الأميرات المسيحيات يعتنقن الإسلام عند زواجهنّ، لم يكن إسلامهنّ حقيقيّاً دائماً. في هذا السياق، يذكر الرحّالة ابن بطّوطة رحلة قام بها في قافلة واحدة مع نبيلة بيزنطية تزوّجت حاكماً من قبائل كيبشاك في آسيا الوسطى. كانت الأميرة، التي اعتنقت الإسلام، عائدة إلى القسطنطينية في زيارة قصيرة لأهلها. وما إن

وصلت القافلة إلى بلغاريا، المسيحية، حتّى صُعق ابن بطّوطة لدى رؤيتها تخلع حجابها[58].

عهد كانتاكوزينوس وما بعده (1347-1400)

اعتلى كانتاكوزينوس العرش سبع سنوات. بعد ذلك، عادت الإمبراطورية للخضوع إلى حكم سلالة بالايولوغوس الطويل. إلاّ أنّ الأعوام الأربعين التالية لن تشهد سوى الصراع الأهلي بين الأسرتين. كان المشهد معقّداً مع ماثيو، ابن كانتاكوزينوس، الذي واصل الصراع ضدّ ابن وحفيد أندرونيكوس الثالث (بالايولوغوس). ومع أنّ الجانبان استخدما قوّات تركية، إلاّ أنّ كانتاكوزينوس هو الذي ظهر فعلاً كحليف لأورهان والعثمانيين. وكان جون الخامس، الصبيّ الصغير الذي كان ينبغي أن يُتوَّج إمبراطوراً عند وفاة أبيه أندرونيكوس الثالث عام 1341، قد كبر ليصبح الخصم العسكري لكانتاكوزينوس، والذي سيقيم ضدّه حلفاً ليس مع الأتراك، بل مع الصرب واللاتين.

بالتالي، ما نراه في القسطنطينية فعلاً هو لعبة شطرنج بين لاعبَين غير يونانيَين، يتصارع فيها فريقان متنافسان على عرش الإمبراطورية، مدعومَين بجارَين قويَّين (الصرب والأتراك)، يرحّبان برؤية الدولة البيزنطية الغارقة بالمشاكل تنهار تدريجيّاً. خلال هذه الفترة، أصبح قتال الجنود الأتراك إلى جانب قوّات أحد الفريقين المتناحرَين (عادة كانتاكوزينوس) أمراً عادياً، بحيث لم يعد يستحقّ الذكر. بينما كان كانتاكوزينوس إمبراطوراً، حاول جون الخامس على نحو يائس حشد المساعدة من حوله للإطاحة بالحاكم «الغاصب». غير أنّ الحظّ لم يحالفه لمدّة من الزمن. ففي معركة دارت عند نهر ماريكا عام 1352، ألحق آلاف من أتراك أورهان، الذين يقاتلون لصالح كانتاكوزينوس، هزيمة ساحقة بالجيش الصربي الذي استدعاه جون الخامس للقتال من أجله. وبحسب المزاعم، قرّر سلاح الفرسان البلغاري أمام هذه الهزيمة الانسحاب في الدقيقة الأخيرة، من دون المشاركة على الإطلاق في الصراع[59]. عام 1356، أرسل

أورهان خمسة آلاف تركي لمرافقة ماثيو في زحفه على مدينة القسطنطينية. فحدثت المناورات نفسها، بأسماء وتواريخ مختلفة، مراراً وتكراراً، مع قيام السلاطين العثمانيين بدعم هذا الخصم البيزنطي أو ذاك. وفي سنة 1376، نظّم أندرونيكوس الرابع انقلاباً، وتمكّن بمساعدة الأتراك والجنوانيين من استعادة عرشه (مع أنّه اضطر إلى إعطاء غاليبولي للعثمانيين لقاء ذلك). عام 1379، أحضر جون الخامس جيشاً تركياً (بمباركة السلطان مراد الأوّل) إلى القسطنطينية. وعام 1390، ضرب جون السابع حصاراً حول القسطنطينية بجيش تركي وجنواني. والمثير للاهتمام، أنّه على الرغم من فرحة الأهالي برؤية جون السابع، إلاّ أنّهم سمحوا للجيش الجنواني بدخول أبواب المدينة، ومنعوا الأتراك من ذلك.

يُظهر هذا الاستخدام المتكرّر للقوّات التركية من قبل الأباطرة (أو الأباطرة المستقبليين) البيزنطيين مدى اعتماد بيزنطة على جارتها العثمانية. في الواقع، تُعتبر كلمة «جارة» غير وافية. فبحلول تسعينيات القرن الرابع عشر، كانت الإمبراطورية العثمانية عبارة عن بحر يمتدّ عبر البلقان من الساحل إلى الساحل، في حين اقتصرت «الإمبراطورية» البيزنطية على سلسلة من الجزر الصغيرة في ذلك البحر العثماني؛ القسطنطينية، وسالونيك، وشبه الجزيرة اليونانية. وخلافاً للأحلاف الأولى مع أومور وأورهان، والتي كانت، إلى حدّ ما، أحلافاً بين نظراء متساوين، تمّ التعاون في النصف الثاني من القرن الرابع عشر مع قوّة عظمى، لم تكن بأيّ حال من الأحوال حسنة النيّة، بل مهتمّة بالاضطرابات الداخلية لدولة صغيرة. بعد سبعينيات القرن الرابع عشر، تحوّل الأباطرة البيزنطيون إلى «أتباع» للسلطان، ما يعني أنّهم كانوا ملزمين بالذهاب للقتال في حروبه. وجدت الدول الأرثوذكسية في أجزاء أخرى من العالم هذا الواقع مهيناً. فقد شعر أحد الأمراء الروس باشمئزاز كبير من وجود إمبراطور بيزنطي في جيوش السلطان التركي، وذهب إلى الإعلان أنّ العالم الأرثوذكسي ما زال لديه بطريرك، لكنّه لم يعد يملك إمبراطوراً بعد اليوم، حتّى أنّه حذف اسم الإمبراطور

من القدّاس. بالتأكيد، كانت علاقة التابع بالملك غريبة. ففي عدّة مناسبات، أشار السلطان إلى الإمبراطور البيزنطي بكلمة «ابننا» في الوثائق الرسمية (أطلق مراد الأوّل على مانويل الثاني هذا الوصف في مناسبة واحدة على الأقلّ)، وفي عام 1403، أشار الأمير سليمان إلى جون السابع بكلمة «والدنا»[60]. مع ذلك، لا شكّ أنّ التبعية قد تكون مهينة جدّاً أحياناً، لا سيّما عندما يضطرّ الملك نفسه إلى مرافقة سيّده في الحملة المقرّرة. وهذا ما أُجبر الإمبراطور مانويل الثاني بالايولوغوس، الذي لم يكن إمبراطوراً فحسب، بل عالِماً وشاعراً أيضاً[61]، إلى فعله عام 1391-2، عندما وجد نفسه مع جيش من اليونانيين الذين يحاربون تحت لواء السلطان بايزيد الأوّل في وسط شرق تركيا، ضدّ أحد خصوم السلطان التركمان. ومن خلال الرسائل التي كتبها مانويل الثاني إلى صديقه في الوطن، نكتشف أنّه كان يعاني من إحباط عميق لاضطراره للخدمة في جيوش بايزيد، وحضور الحفلات التي يقيمها السلطان في خيمته كلّ مساء [62].

مع أنّ القسطنطينية سقطت عام 1453، إلاّ أنّ الاستيلاء عليها كان يجب أن يتمّ قبل خمسين عاماً. فبحلول عام 1390، كان معظم البيزنطيين قد أدركوا أنّ اللعبة انتهت. وكانت مسألة وقت قبل أن تصبح التبعية العثمانية غير الرسمية (هذا ما كانت بيزنطة عليه أساساً) جزءاً معترفاً به من الإمبراطورية العثمانية. بنهاية القرن، كانت علاقة التبعية المتوتّرة، التي حالت دون سقوط القسطنطينية، قد بدأت تنهار. فمن بعد السلطان مراد الأوّل الأكثر رصانة، أتى بايزيد، الذي اتّضحت على الفور مخطّطاته بشأن القسطنطينية. في الواقع، كان بايزيد قد بدأ أساساً بحصار المدينة عام 1402، وكان ليستولي عليها لولا الوصول المفاجئ لجيش غير عادي إلى شرق آسيا الصغرى، أمضى السنوات السبع الفائتة في نهب مدن دلهي، ودمشق، و(قريباً جدّاً) موسكو. فقد وصل عدوّ بايزيد، المعروف في الغرب باسم تيمرلين [تيمورلنك]. وعندما ترك بايزيد حصار القسطنطينية متوجّهاً إلى آسيا الصغرى للتصدّي له، خلّف وراءه مدينة لن يراها مجدّداً.

تيمورلنك ومعركة أنقرة (1402):
حلفاء بايزيد، صرب أوفياء وأتراك غدّارون

لدى ذكر بايزيد الأوّل والتبعية، علينا أخيراً أن نحوّل انتباهنا من التحالفات التركية البيزنطية إلى التحالفات التركية الصربية. مع أنّ الأتباع نادراً ما يشكّلون نماذج عن التعاون الطوعي والتحالف بين الثقافات، إلاّ أنّ معركة أنقرة، التي تخلّى فيها الجيش التركي بأكمله تقريباً عن السلطان العثماني، في حين دافع عنه بإخلاص أتباعُه الصرب المسيحيون، هي حالة غير عادية تستحقّ الذكر.

امتدّت الحملات العسكرية الواسعة التي شنّها تيمورلنك في كافّة أنحاء عالَم القرن الرابع عشر، من الهند إلى روسيا، ومن الصين إلى العراق. وحجم الدمار ومستوى الفظائع التي ارتكبها هذا القائد القبلي المغولي التركي جعلت اسمه مرادفاً للثوران المطلق الذي لا يردعه رادع. إذ قامت جيوش تيمور بنهب المدن بشكل منهجي، وقتْل شعوب بأكملها، غالباً بأفظع الطرق؛ السلخ، وحرق أو دفن آلاف منهم أحياء في خنادق. ومع أنّهم يدّعون الإسلام، وغالباً ما ينتقدون الدول الأخرى لأنّها غير ملتزمة بالإسلام كما ينبغي، إلاّ أنّ المجازر التي ارتكبوها لم تميّز بين الأديان.

ذاك هو الجيش الذي وصل إلى مشارف مدينة سيواس العثمانية (الواقعة اليوم شمال شرق تركيا الحديثة) عام 1400، على أطراف إمبراطورية بايزيد المتنامية. كانت معظم الجيوش العثمانية التي دافعت عبثاً عن المدينة ضدّ تيمور هم من السِباهي أو الفرسان الأرمن. وعندما استسلمت المدينة أخيراً، دُفنوا أحياء في خندق المدينة. يروي أحد المؤرّخين المسيحيين كيف خرجت جوقة من الأطفال، وهم يغنّون، في محاولة لاستعطاف الزعيم. غير أنّ تيمور أمَرَ فرسانه ببساطة بقتلهم[63]. ومقارنة بالحكم العثماني المعتدل نسبيّاً، لا بدّ أن يكون الأرمن قد وجدوا هذا الفاتح المسلم أقرب ما يكون إلى الجحيم على الأرض.

رأى تيمورلنك في السلطان بايزيد قوّة إقليمية كبيرة، لا يمكن لطموحاتها

أن تتواجد مع طموحاته من دون شكل من أشكال الاعتراف من جانب العثمانيين، وهو أمر لم يكن بايزيد (الذي لا يقلّ غروراً بنفسه عن تيمورلنك) غير مستعدّ لتقديمه. كان الحاكمان قد سبق وتبادلا الإعلانات. وتمّ إرسال السفراء إلى بلاط بايزيد، مع رسالة تناول فيها تيمورلنك الأصول الغامضة للسلالة العثمانية، مشيراً إلى أنّهم متحدّرين من العبيد[64]. فأعاد بايزيد السفراء إلى تيمور حليقي الذقون، وحذّره من المجيء إليه. في الواقع، سيلتقي الرجلان قريباً، لكن في ظلّ شروط لم يتخيّلها بايزيد.

عام 1402، ترك بايزيد حصار القسطنطينية من دون أن يرفعه (في الواقع، ستكون المدينة على شفير الاستسلام في غيابه)، واتّجه جنوباً مع جيشه لمواجهة تيمور في وسط تركيا، بالقرب من العاصمة الحديثة أنقرة. يقول أحد المؤرّخين إنّ تيمور جنّد في طريقه غرباً من سيواس إلى أنقرة، عبر وسط تركيا، أعداداً كبير من الأرمن في جيشه[65]. في هذه الحالة، فإنّ المعركة التي دارت رحاها في يوليو من ذلك العام، حارب فيها مسيحيون من كلا الطرفين. وأحضر بايزيد معه، بالإضافة إلى أمرائه الأتراك، تابعه الصربي (وشقيق زوجته) ستيفان لازاريفيتش.

تُعتبر قصّة الأمير ستيفان لازاريفيتش غريبة، وتوضح كيف أنّ التبعيّة لأحد الملوك لا تُفرغ بالضرورة العلاقة من المشاعر الشخصيّة. في حالة ستيفان، يُعتبر وفاؤه لبايزيد ملفتاً لسببين. الأوّل هو طبع بايزيد، الذي غالباً ما اتّسم بالقسوة، وغرابة الأطوار، والتسرّع (يسمّى بالتركية يلديريم أو «الصاعقة»). والثاني هو أنّ والد ستيفان قُتل على يد جيش بايزيد في معركة كوسوفو عام 1389، وهو الصراع الذي وضع مملكة صربيا بين أيدي العثمانيين. وتشتهر معركة كوسوفو بكونها المعركة التي اغتيل فيها السلطان مراد الأوّل (والد بايزيد) في خيمته على يد فارس صربي، ادّعى أنّه أتى لزيارة السلطان، وأنّه خائن يريد أن يدلي بمعلومات هامّة. بعد هزيمة الصرب، تمّ إحضار والد ستيفان، الملك لازار، إلى الخيمة نفسها، وأُعدم هناك. ربّما كان للطريقة العنيفة التي توفّي بها والدا

الرجلَين دور في ولادة نوع من التعاطف بينهما.

مهما يكن ما جرى في الماضي، يقال إنّ بايزيد كان يكنّ تقديراً كبيراً للأمير ستيفان، ويعامله باحترام كبير لم يستخدمه دائماً مع أتباعه المسيحيين الآخرين، أو حتّى مع أبنائه المسلمين. وقد تزوّج من شقيقة ستيفان (مع أنّ هذا يهدف بطبيعة الحال إلى إضفاء الشرعية على إخضاعه للصرب)، ويبدو أنّه عامَل ستيفان وأفراد أسرته باحترام، وأولاهم اهتماماً خاصّاً. على سبيل المثال، عندما اشتكى بعض نبلاء ستيفان لبايزيد من أنّه عقد صفقة مع المجريين ضدّ الأتراك، سمح ستيفان أوّلاً لوالدته بالسفر إلى أدرنة للدفاع عنه أمام السلطان، قبل أن يذهب بنفسه. وتمّ استقبال كلّ من الأمّ والابن بحفاوة من قبل بايزيد، وحُلّت تلك المسألة المحرجة[66]. قال له بايزيد بحسب الروايات: «أنا أعتبرك أكبر أبنائي والمفضّل لديّ بينهم. فمن يقف أمامي بهذا الشرف مثلك؟ لقد أصبحت طاعناً في السنّ، وقريباً ستوافيني المنيّة في إحدى المعارك أو بسبب المرض، وعندها سيحين دورك»[67]. كما يشير الدور الذي أدّاه ستيفان في إنقاذ حياة الأمير سليمان ابن بايزيد في معركة أنقرة، وإبعاده عن أرض المعركة، إلى أنّ تبعية الصرب لم تكن مجرّد خضوع لسيّد.

يظهر ذلك في ترتيبات الجيش الضخم الذي واجه جيش تيمور الأكثر ضخامة في 20 يوليو 1402. من الصعب التأكّد من دقّة الأرقام. إذ يقال إنّ جيش بايزيد بلغ 85.000 جندي، في حين أنّ فصائل تيمور الثمانية تجاوزت 140.000 جندي (ناهيك عن خمسة وثلاثين فيلاً هندياً). والمثير للاهتمام أنّ الأمير ستيفان لم يتولَّ قيادة قوّاته الخاصّة، التي أوكلت لأخيه، فوك، بل قيادة ميمنة الجيش العثماني بأكملها، بمن فيها نبلاء مسلمون مثل تيمورتاش باشا، وفيروز بك[68]. وبلغ عدد جنود الكتيبة الصربية نفسها حوالى خمسة آلاف رجل، يرتدون الزيّ الأسود المميّز الذي أدّى دوراً في تميّز الصرب في القتال (والذي يبدو أنّه معترف به بالإجماع في كافة المصادر، الإسلامية المسيحية على السواء).

وقعت المعركة في يوم حارّ من أيّام شهر يوليو، خارج قرية جوبوك الصغيرة، على سهل مرتفع تتخلّله الهضاب والوديان، وذلك شمال شرق مدينة أنقرة. قام تيمور بذكاء بسدّ النهر، الذي شكّل مورد الماء الوحيد لجيش بايزيد، بحيث اضطرّت الجيوش العثمانية إلى خوض معركة واسعة النطاق من دون مياه، وفي منتصف الصيف. دامت المعركة بحدّ ذاتها حوالى ستّ ساعات. في البداية، أمر تيمور رماته بإطلاق وابل من السهام على ميسرة الجيش العثماني، التي يقودها الأمير سليمان، ابن بايزيد. تكبّد الجناح الأيسر خسائر باهظة. في الوقت نفسه، هاجم جنود تيمور الكتيبة الصربية، التي قاومت بنجاح، لكن سرعان ما ضعفت وأُجبرت على التجمّع حول نبيل تركي آخر هو ملك شاه.

في تلك اللحظة، وقع حادث لن يُمحى من ذاكرة المؤرّخين الأتراك في السنوات القادمة. فقد كان أمراء بايزيد المسلمون يشعرون بالاستياء من سلطانهم العثماني منذ مدّة طويلة، لعدد من الأسباب. فاقترن ذلك مع الظروف غير المرضية للحملة (والتودّد السرّي من قبل تيمور) ودفعهم إلى ارتكاب خيانة ستكلّف السلطان إمبراطوريته وحياته. فجأة، انتقل الفرسان التتار في ميسرة جيش بايزيد، الواقعة في مؤخّر الجيش، إلى جانب تيمور فجأة، وبدأوا بمهاجمة الجيش العثماني من الخلف. فعمّت الفوضى مع بدء الجناح الأيسر بالانهيار بأكمله. عندما رأى قائد جيش تيمور الاحتياطي الإرباك الذي حلّ بالعدوّ، طلب الإذن لمهاجمة مركز الجيش العثماني، الذي يقوده بايزيد نفسه، وحصل على الإذن بذلك. فتحرّك جيش سمرقند وسط المعركة، وضغط بقوّة على مركز الجيش العثماني وجناحه الأيمن.

في الوقت نفسه، انتقل نبلاء الأناضول أنفسهم الذين يقودهم الأمير ستيفان (أمراء منتش، وآيدن، وساروهان، وجيرميان) إلى جانب تيمور. سرعان ما اكتشف الأمير الصربي أنّ ميمنة الجيش لم يعد لها وجود، باستثناء جنود بايزيد وقوّاته الصربية. فقام الصرب، بعدما تخلّى عنهم نبلاء الأناضول، بتكوين دفاع منيع حول ملك شاه، ودافعوا عن موقعهم بحماسة أثارت إعجاب تيمور،

الـذي ظنّهم من بعيـد مسـلمون. في المقلـب الآخر من سـاحة المعركـة، عندما رأى عليّ باشـا قوّاته المنهارة تتعـرّض للهجوم، مـن الأمام من قبـل تيمورلنك، ومن الخلف ممّـن كانوا حلفاءه قبل سـاعتين، قرّر الدعوة إلى الانسـحاب، لكي يرافـق الأمير سـليمان فـي طريق العـودة إلـى العاصمـة بورصة. في وسـط ذلك الإرباك والفوضى، تمكّن سـتيفان من الوصـول إلى بايزيد، وطلـب منه أن يعلن الانسـحاب، نظراً إلى المذبحة الهائلة التي كانت تقع في تلك اللحظة، وتسـاقُط جيوش السلطان من حوله. غير أنّ بايزيد رفض ذلك.

أدرك الأميـر الصربـي ما رفـض السـلطان الاعتراف بـه؛ لقد انتهـى القتال، وخسـروا المعركة. فجمـع سـتيفان قوّاته الصربيـة وقـرّر تغطية انسـحاب الأمير سـليمان مـن أرض المعركـة، للذهـاب إلـى بورصـة الأكثـر أمانـاً نسـبيّاً. فتبعه الصرب، وتركوا بايزيد علـى تلّة صغيرة بمفـرده، محاطاً بآخر جنـوده، أي فرقته الإنكشـارية (نخبة الحـرس العثماني) ورماته (شـو لاك). ومع أنّ عـدداً من نبلاء بايزيد توسّـلوا إليه تكـراراً للفرار إلـى مكان آمن، لكنّ السـلطان رفـض على ما يبدو، واعتبر هذا الحلّ مخزياً.

عندمـا رأى تيمـور، فـي خضـمّ المعركـة، رايـة السـلطان ترفرف فـوق تلّة جاتال، أمَرَ قوّاتـه بتركيز جهودهـا هناك. انتقلـت المعركة إلى مرحلتهـا النهائية، بينما راح بايزيـد يناضل، محاطـاً بجنوده القلائـل الأوفياء، لمقاومـة تفوّق عديد جيوش تيمـور، تحت وابل متواصل من السـهام. حـاول بايزيد الفـرار على ظهر الخيل، بعدما خسـر كلّ جيشـه تقريباً، لكنّه طُرح أرضاً بالقـرب من قرية محمود أولان اليوم، ووقع أسيراً بين أيدي رجال تيمورلنك. على الأرجح، فإنّ القصص التي تـروي كيف أُحضـر بايزيـد إلـى تيمورلنك علـى ظهـر مهـر، أو أُجبر على الانتظار خارج خيمة المغولي إلى أن أنهى لعبة شـطرنج، ليسـت صحيحة. ذلك أنّ تيمور اسـتقبل بايزيد بكلّ التشـريفات التي يسـتحقّها سـلطان مهـزوم. ومات بايزيد في الأسر بعد عام من ذلك، ربّما نتيجة لجروح تسبّب بها ذاتياً[69].

مـع أنّ تيمورلنـك مضـى قُدمـاً، واجتـاح الأناضـول لمـدّة وجيـزة، إلاّ أنّ

معركة أنقرة لم تشكّل ضربة قاضية بالنسبة إلى الإمبراطورية العثمانية، حتّى وإن اعتُبرت هزيمة نكراء ومهينة إلى حدّ بقائها محفورة في ذاكرة التاريخ التركي على نحو غريب، فشكّلت كارثة وولادة جديدة في آن (يرى البعض أنّ الهزيمة كانت عاملاً هامّاً في اختيار أتاتورك لأنقرة كعاصمة حديثة للبلاد). استغرق العثمانيون عشر سنوات للتعافي من آثار تلك الضربة، واستئناف زحفهم إلى داخل الأراضي البيزنطية. أمّا البيزنطيون من جانبهم، فرأوا في الهزيمة التي ألحقها تيمور بالسلطان فترة راحة مؤقّتة، لكن لم يكن مقدّراً لها أن تدوم.

بعد خمسين عاماً من معركة أنقرة، سقطت القسطنطينية، روما الثانية، وآخر المدن الكبرى للإمبراطورية البيزنطية بين يدي السلطان محمّد الثاني البالغ الثانية والعشرين من عمره، وذلك في 29 مايو 1453، بعد حصار شاقّ دام ستّة أسابيع. بسقوطها، انتهت بيزنطة. بالنسبة إلى الوطنيين اليونانيين والقوميين الأتراك على حدّ سواء، فضلاً عن تقليد قديم لدى العلماء المسلمين والغربيين، يمثّل هذا التاريخ سقوط مدينة مسيحية أمام إمبراطوريّة مسلمة. لكن خلال السنوات الثلاثين الفائتة على الأقلّ، حاولت مجموعة كاملة من الباحثين المعاصرين التركيز على مدى تعقيد القوى التي كانت كامنة خلف هذا النزاع. فقصّة سقوط بيزنطة بحدّ ذاتها تتضمّن مفارقات لا تحصى، تتراكم في نهاية المطاف، لتكذّب فكرة المدينة «المسيحية» التي تسقط أمام جيش «مسلم»، والحضارة «المسيحية» التي تفسح المجال لأخرى «مسلمة».

على سبيل المثال، تمّ بسهولة نسيان الأتراك الذين حاربوا إلى جانب اليونانيين داخل أسوار القسطنطينية. فقد كان الأمير أورهان، منافس السلطان على العرش، يعيش لسنوات عديدة في القسطنطينية كمنفي سياسي، مع جيش صغير من الأتراك المخلصين. وفي آخر أيّام الهجوم الأخير، أوكلت إليهم أهمّ أجزاء دفاعات المدينة، أي الأسوار البحرية على طول ميناء إيلوثيريوس (مقاطعة إمينونو اليوم)، وقاموا هناك، بمساعدة الرهبان اليونانيين، بصدّ الهجمات العثمانية على الدفاعات البحرية للمدينة. لسوء الحظّ، لا يمكننا أن نعرف رأي

بقيّة المسيحيين بالأتراك الذين دافعوا معهم عن المدينة، وما إذا كانوا قد حقدوا عليهم مع ازدياد قوّة الهجوم، أم شعروا بتضامن أكبر معهم. لكن نظراً إلى أنّ معظم مؤرّخي الحصار يأتون على ذكرهم من دون أيّ ازدراء لعقيدتهم، فهذا يشير إلى أنّ انتماءهم للإسلام لم يكن مهمّاً. عندما دخل العثمانيون، حاول أورهان الفرار في عباءة سوداء، على أمل أن يبدو يونانياً. لكنّ بعض الجنود العثمانيين تعرّفوا عليه، وأحضروه إلى السلطان. فتمّ قطع رأسه على الفور[70].

مثلما دافع المسلمون عن القسطنطينية مع المسيحيين، شارك المسيحيون في هجوم المسلمين عليها. فكما هو الحال في معركة أنقرة، شاركت وحدة صربية (تنتمي إلى الطاغية جورج)، في الحصار والهجوم النهائي، مع أنّ أحد المؤرّخين ذكر استنكار القوّات الصربية عندما علمت أنّها تلقّت أمراً بمساعدة الأتراك على الاستيلاء على القسطنطينية. وكان عدد كبير من الجنود العثمانيين أنفسهم، لا سيّما المشاة والقوّات البحرية، من المسيحيين. كما أنّ الباشي بازوك، أو المرتزقة العثمانيين، الشهيرين بقلّة انضباطهم، أتوا أساساً من بلدان مسيحية مثل المجر، أو إيطاليا، أو الممالك السلافية، وكانوا من الموجة الأولى من المهاجمين الذين حاولوا تسلّق أسوار المدينة[71].

من المفارقات أنّ الوزير المسؤول عن تحريض محمّد الثاني الشابّ على فتح المدينة كان منشقّاً يونانياً ومسيحياً، وهو زاغانوس باشا الشهير، الذي تزوّجت ابنته السلطان أيضاً. كان زاغانوس واحداً من عدد من الوزراء الذين كرّسوا جهودهم على نحو متطرّف تقريباً لإقناع الحاكم الشابّ بمهاجمة القسطنطينية، خلافاً للوزير المسلم خليل باشا، الذي دفعه تعاطفه مع المسيحيين إلى محاولة ثني السلطان عن مخطّطاته. ويمكن إيجاد المفارقة الأكبر في كون مهندس مسيحي هو الذي بنى المدفع الضخم الذي وجّه الضربة القاضية إلى جدران المدينة المنيعة. ففي عام 1452، عرض صانع مدافع مَجَري خدماته على الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر، لكنّ الحاكم البيزنطي لم يكن قادراً على تحمّل كلفتها. من الواضح أنّ المجري لم يشغل باله بالقناعات أيدولوجية، بل

قام على الفور بزيارة لمحمّد الثاني، الذي عرض عليه فوراً أربعة أضعاف راتبه ليصنع له مدفعاً قادراً على «نسف أسوار بابل نفسها»[72]. فكان المدفع العملاق الذي بناه المسيحي أخيراً، والذي يزن طنّين، ويمكنه إطلاق كرات حديدية كبيرة على بُعد ميل، قبل دفنها في الأرض على عمق ستّة أقدام، هو المسؤول عن هدم دفاعات القسطنطينية الهائلة، التي حافظت على أمن المدينة لأكثر من ألف عام.

قُتل قسطنطين الحادي عشر، آخر أباطرة بيزنطة، على سطح أسوار المدينة، وهو يدافع عنها حتّى الرمق الأخير. فما الذي حلّ بخلفائه؟ وما كان مصير ورثة العرش البيزنطي خلال تحوّل القسطنطينية إلى إسطنبول على يد العثمانيين؟ بحسب الباحث لاوري، لم يكن لدى قسطنطين أيّ أولاد، وبالتالي فإنّ خطّ الخلافة كان سينتقل إلى أبناء أخيه الثلاثة. ونظراً إلى الإمكانيّة السياسية لاستمرار وجودهم ضمن مدينة استولى عليها الغزاة، كان من الممكن أن يُقتلوا بسهولة. عوضاً عن ذلك، تمّ اصطحابهم إلى قصر السلطان و«عثمنتهم». بعد عشرين عاماً، نجد اثنين منهم في بعض من أعلى المناصب في الإمبراطورية العثمانية. أصبح أحدهما (مراد باشا) حاكماً في البلقان، وتوفّي وهو يقود جيشاً عثمانياً ضدّ زعيم تركماني في شرق الأناضول. أمّا الآخر (مسيح باشا)، فأصبح أميرال الأسطول العثماني، ولاحقاً الصدر الأعظم في الحكومة العثمانية، وهو أعلى منصب في الإمبراطورية العثمانية بعد السلطان نفسه[73]. بتعبير آخر، أصبح أطفال الإمبراطورية البائدة البذور التي توسّعت بها إمبراطورية أخرى. ولا يفاجئنا ذلك إلاّ إن نظرنا إلى الصراعات التاريخية على أنّها لعبة شطرنج، يقوم فيها كلّ بيدق بإزاحة آخر أو أخذ قطعة، وننسى الاستمرار المدهش للتقاليد، المسيحية والإسلامية، واليونانية والتركية، في طيّات التاريخ.



الفصل الرابع

مسلمون، وبروتستانت، وفلاّحون:
المجر العثمانية 1526-1683

بالنسبة إلى البعض، جرت الأحداث على النحو التالي: عام 1526، زحف الأتراك على المجر، وأسروا شعبها المسيحي الحرّ لأكثر من مائة وخمسين عاماً. دُمّرت البلاد، وكان مصير أهلها إمّا الجوع أو القتل، وخضعوا للحكم التركي الاستبدادي على الرغم من محاولات جيرانهم المسيحيين تحريرهم. وفي مناسبتين، حاولت جحافل المسلمين الزحف على فيينّا، وأوشكت ظلال الإسلام أن تسقط على قلب أوروبا نفسها. في المحاولة الثانية، توحّد العالم المسيحي في وجه العدوّ المحمّدي وصدّ الغزاة، قبل أن يحرّر المجر، ويُجبر العثمانيين على التراجع إلى بلغراد. هكذا تمّ إنقاذ أوروبا المسيحية، واستعادة البلقان (بالمعنى الإسباني للكلمة) والحدّ أخيراً من الخطر التركي. فابتهج المسيحيون، بروتستانت وكاثوليك، وفلاّحون ونبلاء، وسلاف وجرمان.

نشأت ذكرى الحصار التركي لفيينّا (1683) من هذا المشهد من الرموز؛ جيش مسلم، مليء بالرايات، والسيوف، والعمائم يضرب حصاراً على مدينة مسيحية تقع على أبواب أوروبا. تُظهر النقوش الخشبية لتلك الفترة جِمالاً وفيلة في معسكرات الأتراك، وشرقيين يدخّنون النرجيلة أو يربطون حيواناتهم، في حين تنتظر المدينة المسيحية بأبراجها خلفهم بلا حول ولا قوّة. غير أنّ ذكرى الحصار التركي لم تكن بصرية وحسب. فبعد مائة عام، نجد في قاموس غريم أنّ كلمة «تركي» ما زالت تحمل دلالات حربية سلبية، على الرغم من زوال التهديد العثماني منذ وقت طويل. فكان الناس يسمّون كلابهم «تُرْك»، وظلّت

الكنائس مزوّدة بأجراس تركية (Turckenglocken) حيث تجمّع الناس للصلاة طلباً للعون ضدّ العثمانيين. وما زالت كلمات مثل türkenzen (التصرّف مثل البرابرة) أو turkeln (ترنّح) مستخدمة على نطاق واسع. كانت فيينّا ببساطة أبعد مكان وصل إليه الأتراك في حلمهم بالسيطرة على أوروبا (كانوا يصيحون: «إلى روما! إلى روما!»). شكّلت المواجهة صدمة بالنسبة إلى المسيحيين الناطقين بالألمانية في ذلك الوقت، لا سيّما أولئك الذين لا يملكون أيّ دراية بالثقافات الإسلامية. صُدم الفيلسوف لايبنتز عندما سمع بخبر وصول جيوش السلطان إلى الضفّة الأخرى من الدانوب. ولم تقتصر المفاجأة عليه وحده. فمع أنّ آل هابسبورغ عرفوا بمخطّطات الأتراك منذ أكثر من عام، إلاّ أنّ أحداً منهم لم يصدّق أنّ الجيش البالغ عدده 200.000 جندي، الذي انطلق من إسطنبول في الربيع، سيصل في نهاية المطاف[1].

وحتّى اليوم، بعد أكثر من ثلاثمائة عام، ما زالت ذكرى حصار فيينّا (Belagerung von Wien) عالقة في الأذهان. فاستناداً إلى بعض المعلّقين السياسيين، ترجع محاولات النمسا الأخيرة لمنع تركيا من الانضمام إلى الاتّحاد الأوروبي، والشريحة الواسعة من الرأي العام التي وافقت على هذه الاستراتيجية، ليس فقط إلى القلق إزاء الشعب التركي في اليوم الحاضر، وتزايد الهجرة، وتحلّل القيم الوطنية النمساوية، بل هي متأثّرة أيضاً إلى حدّ ما بذكرى الترك الرهيبين الذين أوشكوا على الاستيلاء على المدينة قبل ثلاثة قرون.

يهدف هذا الفصل إلى تكذيب بعض الأساطير المتعلّقة بالزحف التركي على فيينّا، لا سيّما الطريقة التي يُعرض فيها على أنّه صراع بين الشرق والغرب، بين أوروبا المسيحية والشرق المسلم، وهو تفسير لا يتجاوز في النهاية كونه نسخة ديزني للتاريخ. سنرى على مستويات مختلفة، من المستوى الدولي والدبلوماسي، إلى المحلّي والعسكري، ومن السفراء والمعاهدات إلى صغار الجنود والفلاّحين في القرى، كيف أنّ مسيحيين ودولاً مسيحية تورّطوا مباشرة مع الأتراك في محاولة اجتياح فيينّا. من حلف لويس الرابع عشر مع السلطان،

إلى الجيش البالغ عدده 100.000 جندي من المسيحيين المجر الذين شاركوا في الهجوم العثماني، ومن آلاف اليونانيين، والأرمن، والسلاف الموجودين في الجيوش العثمانية، الذين حاربوا بإخلاص تحت لواء السلطان، إلى بروتستانت ترانسلفانيا والفلاّحين الساخطين، الذين سئموا من نير أسرة هابسبورغ الكاثوليكية (أو من أرستقراطيتهم المجرية) وانتقلوا إلى الجانب التركي. وتبلغ الأمور ذروتها مع شخصيّة إمري ثوكولي، الأمير المجري البروتستانتي الذي كان أوّل من أقنع الصدر الأعظم بمحاولة الاستيلاء على المدينة، والذي حارب جيشه المؤلّف من الكوروتسين [مصطلح يُستخدم للدلالة على المتمرّدين المناهضين لآل هابسبورغ في المجر] إلى جانب الأتراك والتتار، ووصلوا شمالاً حتّى سلوفاكيا اليوم.



عملة معدنية نقش عليها وجها ثوكولي والوزير الأكبر إبراهيم

ليست النيّة هنا هي الإظهار العثمانيين كجيش من الملائكة (فما من جيش، مسيحياً كان أم مسلماً، استحقّ يوماً صفة «الملائكي»)، ولا إظهار إمبراطوريتهم على أنّها واحة من التسامح والعدالة (فالإمبريالية هي إمبريالية، تركية كانت أم نمساوية)، ولا حتّى الادّعاء أنّ الدين لم يكن له مكان في الصراع، بل

على العكس، كان من الشائع استخدام كلمات مثل «كافر» وغياور (أي «كافر» بالتركية). عوضاً عن ذلك، لديّ هدفان متواضعان آخران: الأوّل هو الإثبات أنّ الوجود العثماني في البلقان لم يكن جحيماً من الطغيان والاستبداد المطلق، كما حاول كثير من الكرادلة تصويره؛ في بعض الحقبات، يبدو أنّ عديداً من المجريين فضّلوا التسامح البراغماتي للحكم العثماني على الحماسة الكاثوليكية لهيمنة آل هابسبورغ. أمّا في المقام الثاني، فسأحاول أن أُظهر أنّه تحت حروب البروباغاندا الدينية التي شنّها الطرفان على حدّ السواء، حدث تعاون على مستوى غير عادي بين المسلمين والمسيحيين، وهي أحلاف لم يكن المؤرّخون من كلا الديانتين على استعداد للاعتراف بها.

بما أنّ الأحداث التي أدّت إلى حصار فيينّا عام 1683 وقعت فعليّاً في المجر، فإنّ قصّتنا تتمحور إلى حدّ كبير حول تاريخ المجر العثمانية. إنّها قصّة بلد علق لمدّة قرن ونصف بين إمبراطوريتين، وثلاث ديانات، وأكثر من اثنتي عشرة مجموعة عرقية. أوّل ما يجب أن يقال هنا هو أنّ مجر القرن السابع عشر التي نتناولها في هذا الفصل (أونغارن بالألمانية، ومجرستان بالتركية) كانت مساحتها تبلغ ثلاثة أضعاف البلد الذي يحمل هذا الاسم اليوم. إذ كانت تلك البلاد تغطّي سلوفاكيا اليوم، وأجزاء من الحدود الشمالية للنمسا، وجزء طويل من رومانيا في الجنوب، هذا فضلاً عن مساحة كبيرة من صربيا وكرواتيا اليوم غرباً. لقد كانت مملكة هائلة، غنية بالمراعي والأراضي الزراعية، واعتُبرت في العقد الأوّل من القرن الخامس عشر حصناً مسيحياً ضدّ التوغّل التركي. كان الملوك المجريون يُلقّبون «أبطال المسيح»، وشكّلت أرضهم البوّابة الشرقية للعالم المسيحي[2]. لكن بعد عام 1526 المصيري، سيتغيّر كلّ شيء.

من الأهمّية بمكان إدراك الخلفيّة اللغوية والعرقية المختلفة لمن نسمّيهم اليوم «المجريين»، لفهم الصعوبات التي واجهوها لاحقاً مع جيرانهم المسيحيين. فاللغة المعروفة بصعوبةِ تعلُّمها هي لغة أورالية (من آسيا الوسطى)، ولا يجمعها عمليّاً أيّ قاسم مشترك مع الجرمانية، أو السلافية، أو اللاتينية.

في الواقـع، وصل المجريون إلى السـهول المحيطة ببودابسـت فـي أواخر القرن التاسـع، أي تقريباً فـي الوقت نفسـه الذي كان فيـه الأنجلوساكسـونيون يعتنقون المسـيحية. وجلبوا معهم ثقافـة السـهوب البدوية، ومزيجـاً كاملاً مـن التأثيرات التركيـة والفنلندية الأوغرية من مناطق غرب سـيبيريا. ومع أنّـه ليس من الحكمة رؤية هـذا العنصـر التركي فـي التاريـخ المجري علـى أنّه يسـهّل أيّ شـكل من أشـكال التعاون مـع العثمانيين (عند وصـول سـليمان القانوني إلـى المجر، كان المجريون مسـيحيين منـذ أكثر من خمسـمائة عـام)، إلاّ أنّـه كان بالتأكيـد عاملاً مسـاعداً على تحفّظاتهـم الثقافيـة تجـاه الجرمانييـن. بالإضافة إلى ذلـك، لدينا سـجلاّت عن حاكم مجري واحد على الأقـلّ، هو الملك ماتيـاس (وفاة 1490)، طوّر فكـرة العلاقـة الهونّو-مجرية، ولقّب نفسـه «أتيـلا الثاني»، حتّـى أنّه عرض حلفاً على السلطان محمّد الفاتح، على أساس رابطة الدم المشتركة[3].

مهما يكـن رأيُنـا، تبقـى الحقيقة أنّـه قبل قـرون مـن دخـول العثمانيين إلى أوروبا، شـكّلت المجر مكانـاً بدأت تمتـزج فيه تيّـارات مختلفة جدّاً مـن العالم المسـيحي اللاتيني، وبيزنطة اليونانية، والثقافات البدوية للسهوب الآسيوية. وقد يكون الأصـل غير الأوروبـي للمجريين، بحسـب مـؤرّخ واحد علـى الأقلّ، هو السـبب الذي جعلهم لا يرون الأتـراك كغرباء أو مصـدر تهديد لهـم مثلما رآهم الجرمانيون أو اللاتينيون، والذي سـهّل على بعـض المجريين، بالتالـي، التعاون معهم ودعوتهم للمشاركة في حروبهم[4].

الإسلام في المجر قبل الأتراك (1000-1300)

بمـا أنّ هذا الفصـل يتناول المجـر العثمانية، لا بـدّ لنا من النظـر في وجود المسـلمين المجريين في القرون التي سـبقت ظهـور الأتراك في الأفـق. على أيّ حال، كان عدد المسـلمين الذين يعيشـون فـي المجر في أوائل القرون الوسـطى قليلاً جدّاً (بالكاد 5٪)، واختفوا تماماً (إمّا عبر التنصير، أو المجازر، أو الترحيل) بحلول عام 1300، أي قبـل مائتي عام من الفتـح التركي. ونحن نعلـم أنّ القرى

المسلمة وجدت في المجر حوالى عام 1100 – حتّى أنّه تمّ التنقيب عن إحداها. ونظراً إلى وجود سجلاّت تتحدّث عن تجّار مسلمين سافروا إلى براغ ومدن جنوب بولّندا منذ عام 965، يبدو محتملاً وجود مجتمعات مسلمة في المجر في ذلك الوقت[5]. لا أحد يبدو واثقاً حقّاً من أين أتى مسلمو المجر أساساً، فالمصادر نادرة جدّاً في هذا المجال. وبما أنّه لم يكن يوجد جنوب البلقان سوى بيزنطيين، يرى كثير من العلماء أنّ الإسلام أتى أساساً إلى المجر من الشرق، على طول الطريق التجاري الذي يربط الإمبراطورية الجرمانية بكييف. إن صحّ ذلك، قد يكون المسلمون الأوائل الذين استوطنوا في المجر من الأتراك الخزر الذين سافروا عبر جورجيا وأوكرانيا.

نحن نعلم بالتأكيد أنّه بحلول عام 1200، استقرّت مجموعة صغيرة لمدّة طويلة في المجر، واعتمدت العادات المجرية، وتحدّثت لغة موطنها «الجديد». وقد التقى رحّالة إسباني مسلم ببعضهم في ثلاثينيات القرن الثاني عشر، وانتقدهم لأنّهم لا يرتدون ملابس المسلمين، بل المجريين، حتّى أنّهم ذهبوا إلى حدّ حلق لحاهم. يقول الرحّالة إنّهم كانوا يلمّون بالعربية قليلاً، وكانوا مقتنعين بالحرب ضدّ البيزنطيين في جيوش الملك المجري، حتّى عندما عرفوا بوجود مسلمين يقاتلون في الجيوش البيزنطية أيضاً. قالوا له إنّ «أعداء المجر هم أعداء الإسلام». هذه المرّة، ظهرت كلمة مسلم بالمجرية (böszörmény). وبحلول عام 1217، أشارت بعض التقارير إلى مسلمين مجريين يسافرون إلى القدس وحلب لتعلّم العربية. وقد عرفنا ذلك بسبب نبيل مجري أسره المسلمون بينما كان في الأراضي المقدّسة، وتمّ تحريره بفضل تدخّل بعض المسلمين المجريين الذين صدف وجودهم في القدس في ذلك الوقت[6].

واجه مسلمو المجر في نهاية المطاف المصير نفسه الذي واجهه مسلمو صقلية، وفي الفترة نفسها تقريباً. فبعد عام 1300، وهو العام الذي دُمّرت فيه المستوطنة المسلمة في لوتشيرا، اختفى مسلمو المجر هم أيضاً من السجلاّت التاريخية، باستثناء الإشارة إلى متنصّر ما من وقت إلى آخر. وخلافاً ليهود

المجر، الذين تمكّنوا من الاستمرار كجماعة مستقلّة وشبه محميّة، اختفى المسلمون ببساطة. وبما أنّهم كانوا أقلّية تجارية صغيرة، لم يخلّف زوالهم التأثير الذي خلّفه زوال المسلمين من صقلية. مع ذلك، ستنقضي مائتا عام قبل أن تُبنى المساجد مجدّداً على الأراضي المجرية.

المجريون بين إمبراطوريتين

وُصفت المجر أنّها بلد محاط بأمّتين وثنيتين (الجرمانيون والترك)[7]. ومهما بدا هذا الوصف قومياً، من الصعب عدم التعاطف مع كثير من المجريين في القرنين السادس والسابع عشر، حين وجدوا أنفسهم يكافحون للمناورة بين عملاقَين، إمبراطورية هابسبورغ والإمبراطورية العثمانية. في الواقع، يُعتبر تاريخ الدبلوماسية المجرية في تلك الفترة هو تاريخ نفاق الضرورة، الذي حفل برحلات مكّوكية بين إسطنبول وفيينّا، مع اضطرار ملك تلو آخر تطوير شخصيات مزدوجة، لكي يهمس بأمور مختلفة في آذان كلّ من السلطان والقيصر. وغالباً ما اضطُرّ حكّام مثل الملك جانوس زابولياي، أو أمراء متمرّدون أمثال بوكسكاي، للتحفّظ على رهاناتهم حتّى اللحظة الأخيرة بين «الجرمانيين» و«الترك»، وحتّى التنقّل من جانب إلى آخر مع تطوّر الصراع على السلطة.

شمال المجر، تقع إمبراطورية آل هابسبورغ، وهم سلالة إسبانية جرمانية، كاثوليكية على نحو ناشط، نشأت على الأراضي النمساوية، وانتقلت عبر سلسلة من الزيجات المخطّط لها بعناية مذهلة، إلى الموقع الذي كانت تتمتّع به في أواخر عشرينيات القرن السادس عشر، لتصبح واحدة من أهمّ القوى المهيمنة في أوروبا. ولا يمكن ببساطة فهم التاريخ المجري، وتعاون آل هابسبورغ المتكرّر مع الأتراك، من دون أن نفهم المواقف الاستعمارية حقّاً التي كان بلاط فيينّا قادراً في بعض الأحيان على تبنّيها تجاه المجريين، والكراهية التي أحسّ بها كثير من المجريين بدورهم تجاه السمات الإمبريالية للجيوش النمساوية. فمن الجمل المألوفة بين دبلوماسيي هابسبورغ: «يجب أن تُحرق جميع قوانين

المجريين على رؤوسهم». في الواقع، عندما استعاد النمساويون أخيراً بودا من الأتراك عام 1686، كان من أوّل القوانين التي وضعوها هو أنّ الألمان والكاثوليك وحدهم من يحقّ لهم امتلاك منازل في محيط القلعة. وفي بعض الأحيان، دفع التعصّب الكاثوليكي آل هابسبورغ إلى قتل البروتستانت المجريين وترويعهم، وأجبروا الآلاف على التحوّل عن عقيدتهم، كما أرسلوا مئات القساوسة إمّا إلى حبل المشنقة أو للعمل كعبيد. وليس من المستغرب أنّ كثيراً من المجريين رأوا في آل هابسبورغ مشكلة أخرى في صراعهم ضدّ العثمانيين، وليس جزءاً من الحلّ. وكما كتب ميكلوس زرينيي (وفاة 1664) العظيم، «إن أتت أيّ مساعدة من آل هابسبورغ، ستأتي ببطء، مثل السرطان»[8].

جنوب المجر، عاش الأتراك بطبيعة الحال. ليس هذا بالتأكيد المكان المناسب للتحدّث بمثالية عن الإمبراطورية العثمانية. فجنودها المنتشرين في معظم أجزاء المجر كانوا على الأرجح بمقام حامية بريطانية في إحدى ضواحي بيلفاست، أو شرطة فرنسية في قرية جزائرية. لكن كما سنرى لاحقاً، بقي التبادل الثقافي والتأثير المتبادل ممكناً بين الأتراك والمجريين بدرجة أقلّ. علاوة على ذلك، تُعتبر الإمبراطورية العثمانية التي سأتناولها هنا مختلفة كثيراً عن القوّة الإقليمية المتنامية التي رأينا كانتاكوزينوس يتعامل معها في الفصل السابق. فبعد مائتي عام من عهد السلطان أورهان وقبائله الجبلية، كان الجيش الذي زحف إلى المجر عام 1526 هو جيش إمبراطورية عالمية فعلاً. كانت إمبراطورية انتمت إلى أحد أشهر الأسماء في التاريخ التركي، ألا وهو سليمان القانوني (حكم بين عامي 1520-66). لُقّب هذا السلطان بـ«العظيم» بسبب فتوحاته، وبسبب إعادة الهيكلة الجذرية للدولة العثمانية، هذا فضلاً عن المشاريع المعمارية الرائعة التي تمّت في عهده في كافة أنحاء الإمبراطورية، من مساجد، ومدارس، وجسور. وشاء سوء حظّ المجر أن تتعرّض للغزو من قبل إمبراطورية في أوج قوّتها.

بالطبع، كان الامتداد الشاسع لإمبراطورية سليمان هو أحد مشاكلها أيضاً. فسلسلة الحروب على الجبهة الفارسية ستمنع العثمانيين إلى الأبد من ترسيخ

أقدامهم تماماً في شمال البلقان. كما أنّ الثورات السياسية، والانقلابات، والانتفاضات واسعة النطاق التي شهدتها تركيا الأناضولية في مطلع القرن السادس عشر ستشغل العثمانيين عن توغّلهم شمالاً في أوروبا (وسعيهم إلى «التفّاحة الذهبية»، وهي المدينة الأوروبية الأسطورية التي يعني الاستيلاء عليها نهاية التاريخ، ومجيء المسيح (المسلم)). وتُعتبر أهمّ التطوّرات على الأرجح، مقارنة بالعثمانيين الذين رأيناهم في الفصل السابق، هو تأسيس الإنكشارية (بالتركية yeni ceri، أي الجنود الجدد)، وهم نخبة من الجنود، كانوا في الأصل شباباً مسيحيين أُخذوا من أسر بلقانية، وتمّت تربيتهم كمسلمين ليصبحوا جنوداً ورجال دولة، ويحتلّوا أعلى المناصب فيها. إنّها إمبراطورية بُنيت أساساً على تعليم وتربية فئة صغيرة من التلامذة الميتّمين. والمؤسّسة التي نشأت أساساً لتجنّب النزاعات القبلية أو العائلية، شكّلت في القرن السادس عشر واحدة من الفئات السياسية الأقوى نفوذاً في الدولة العثمانية، حتّى أنّها ستتمكّن من الإطاحة بسلطان أو اثنين.

كان على المجر أن تشقّ لها طريقاً بين هذين الكيانين. أوّلاً، انقسمت أرستقراطية المجر حيال الجانب الذي ينبغي عليهم الاصطفاف معه. منهم من اختار آل هابسبورغ، ومنهم من ارتأى بشكل أكثر براغماتية إجراء تسوية مؤقّتة مع العثمانيين. وقد جعل المزيج المتنوّع من سكّان المجر، وتاريخها كنقطة التقاء لثقافات مختلفة، هذه المهمّة الصعبة أكثر تعقيداً. وتفسّر هجرة المستوطنين الناطقين بالألمانية خلال القرنين الثاني والثالث عشر سبب هذا العدد الكبير من «الساكسونيين» في المجر. وحتّى اليوم، ما زال كثير من المدن المجرية والرومانية يحمل أسماء ألمانية بديلة؛ على سبيل المثال، بودابست تدعى «أوفن»، وسيبيو تدعى «هيرمانشتادت». وفي غرب ترانسلفانيا، التي تشكّل اليوم جزءاً من رومانيا الحديثة، يأتي عدد كبير من السكّان الرومانيين والسيكيليين (مجموعة عرقية مجرية أخرى) ليلوّن أكثر هذه الفسيفساء. أخيراً، تسبّب مسألة الدين، وتحوّل مساحات واسعة من المجر إلى العقيدة

البروتستانتية، مزيداً من الانقسام في المملكة المجرية، لا سيّما عندما اختار العثمانيون بذكاء تفضيل اللوثريين والكالفينيين على الكاثوليك.

فلاّحو المجر: «العبد يكره سيّده»

قبل أن نستغرق كثيراً في الحديث عن الأمم والشعوب، من مجريين، وأتراك، وهابسبورغ، ينبغي علينا أن ندخل عاملاً آخر في المعادلة. إنّه عامل غالباً ما يتمّ إغفاله، إلاّ أنّه يعقّد أيّ نسخة مبسّطة للفتح العثماني، ألا وهم الفلاّحون.

في الواقع، كان أرستقراطيو المجر بارعون جدّاً في الحديث باسم شعوبهم. فعندما كان البحث جارياً عن جنود لمساعدة آل هابسبورغ على إيقاف التقدّم التركي في راباكوز، عرض الكونتان المحلّيان بسخاء إرسال رعاياهم، وتوسّلا للإمبراطور ليوبولد لكي «يسمح للأمّة المجرية بالتعبير عن إخلاصها الأكيد»[9]. أمّا ما شعرت به «الأمّة المجرية» بالضبط حيال ذلك، فهو مسألة مختلفة. كان وضع الفلاّح المجري في القرن السادس عشر بائساً إلى حدّ كبير. إذ لم تكن المجر نفسها، وذلك لأسباب عديدة، قد اختبرت النزعات السياسية والاقتصادية التي عصفت بممالك أوروبا الغربية في ذلك الوقت، والتي أنتجت، أكثر من أيّ شيء آخر، طبقة متوسّطة تجارية نامية وصحّية في بلدان مثل فرنسا وإنكلترا. على العكس من ذلك، كانت المجر في زمن الفتح التركي لا تزال دولة إقطاعية متأخّرة، تتميّز باستعباد متزايد للفقراء[10]. ومن الأسباب التي جعلت الأتراك قادرين على بسط سيطرتهم على المجر بهذه السهولة، والاحتفاظ بها، كان هذا التوتّر الاجتماعي بين العبيد وأسيادهم «المسيحيين». فقد كان متوقّعاً من الفلاّحين، الذين تعرّضوا للضرب والتجويع من قبل أسيادهم، أن يستجيبوا فوراً للدعوات الوطنية إلى الوحدة المسيحية ضدّ العدوّ غير المسيحي. وكما تُثبت الوثائق العائدة إلى تلك الفترة، خلص كثير من العبيد إلى أنّ الحياة لن تكون تحت حكم الأتراك أسوأ من الظروف الفظيعة التي عاشوها تحت حكم الكونت أو البارون في بلادهم. وفي رسالة ترجع إلى عام 1561، أرسلها قائد قلعة حدودية مجرية إلى رؤسائه الأرستقراطيين، حذّر ممّا يلي:

لديّ سبب آخر للخوف، سيّدي، سبق وكتبتُ عنه، وأخبرتكم به... العبيد يكرهون أسيادهم، ولديهم الحقّ في ذلك. إذ لا يملك الفلاّحون أحداً يعلّمهم وصايا الله. لذلك، يعتقدون أنّ العثمانيين هم شعب الله، وأنّ دينهم هو الدين الحقيقي، وأنّ الله إلى جانبهم. وأنا أخشى ألاّ يصدّوا العثمانيين، بل أن ينقلبوا على أسيادهم، كما كانوا يهتفون في أماكن عديدة في طريقهم من هيغيشد. كانوا يصيحون: «لا يجرؤ البارونات أن يطلبوا منّا القتال، لأنّهم يخافون منّا. فهم يخشون أن نفعل ما فعله سيكيلي [قائد ثورة فلاّحين عام 1514]، وحقّهم أن يخافوا!»[11]

إنّ الاعتقاد أنّ الفقراء قد يتّحدون مع الأتراك القادمين ضدّ أسيادهم المسيحيين لم يكن خوفاً أرستقراطياً وهمياً، بل استراتيجية عثمانية مجرّبة، غالباً ما استخدمتها القوّات التركية في فتحها الكاسح لبلاد البلقان. فمنذ عام 1461، أي قبل قرن من تاريخ الرسالة الواردة أعلاه، نجد ملكاً بوسنياً يشتكي للبابا من قلّة إيمان فلاّحيه:

العثمانيون يعاملون الفلاّحين بمودّة، ويعدون الفلاّح الذي ينضمّ إليهم بالحرّية. والفلاّحون السذّج لا يدركون أنّهم يتعرّضون للخداع، بل يظنّون أنّ هذه الحرّية ستدوم إلى الأبد... إلاّ أنّ الأثرياء لن يتمكّنوا من الحفاظ على قصورهم طويلاً بعد تخلّي الفلاّحين عنهم[12].

مع أنّه لا ينبغي لنا أن نُفتتن كثيراً بتعطّش العثمانيين للعدالة الاجتماعية (كما سنرى، لم يتردّدوا في إبرام صفقات مع الحكّام الذين اضطهدوا عبيدهم كما هو معروف)، كان ثمّة نظام متّبع يمنح العبد الذي يعتنق الإسلام فرصة أفضل ليحسّن وضعه الاجتماعي. إذ يعطينا المؤرّخ فودور مثالاً عن مجَري ساعد الأتراك على الاستيلاء على بلدة أوراهوفيكا، وبعد اعتناقه الإسلام وتغيير اسمه إلى مصطفى، حصل على قطعة أرض ودخْل يناهز 5.000 أقجه في السنة[13]. ولم تكن هذه الحوادث غريبة ونادرة، بل عادية تماماً. وقد نما الجيش العثماني، مع التدفّق المسيحي الهائل إلى صفوفه، من هذه الاستراتيجية تحديداً.

لم يكن الأرستقراطيون وحدهم هم المسؤولون عن عدم رغبة الفلاّحين في «القتال تحت لواء الملك والبلاد»، بل الجنود المجريون أيضاً. فبما أنّ الجنود أنفسهم كانوا يتقاضون أجوراً زهيدة، عمدوا بانتظام إلى نهب الفلاّحين لرفع مداخيلهم أو حتّى استبدالها. ليس من المستغرب إذاً وجود توتّرات واسعة النطاق بين مشاة الحدود والفلاّحين الذين يُفترض بهم «حمايتهم». وكما أشارت إحدى المصادر لعام 1633، كانت المجموعتان «تُبغضان بعضهما البعض إلى حدّ أنّهما عوضاً عن القتال معاً ضدّ الترك، انتهى بهما المطاف في قتال بعضهما البعض»[14]. في الواقع، كانت طبقة الجنود تشعر بالازدراء إزاء الفلّاحين، وتنظر إليهم على أنّهم أدنى مرتبة، وأنّ أملاكهم وبضائعهم هي من حقّها. وعلينا أن نذكر أنّ كثيراً من الجنود كانوا هم أنفسهم فلاّحين في الأساس، ورأوا في المهنة العسكرية السبيل الوحيد للهرب من بؤس العبودية. في ظلّ هذه التوتّرات الاجتماعية، لم يكن مستغرباً أن يفرض الأتراك سلامهم العثماني في البلقان بتلك السرعة. وثمّة أغنية مجرية كان يردّدها الفلاّحون في القرن الخامس عشر، وتعدّ معبّرة جدّاً: «إن دخل الجنود قريتنا/ لا يهمّ من أين أتوا/ إنّهم أعداؤنا»[15].

بتعبير آخر، كان للسخط والاستياء اللذين سيطرا على فلاّحي المجر ثلاثة نتائج: أوّلاً، رفض كثير من الفلاّحين، وحتّى بعض الجنود الأدنى أجراً، القتال ضدّ العثمانيين بكلّ بساطة. استناداً إلى أحد المؤرّخين، خلال كامل القرنين السادس والسابع عشر، لا يمكننا أن نجد سوى حركة فلاّحين واحدة واسعة النطاق كانت تمتاز بعداء تركي واضح (انتفاضة الكاراكسوني لعام 1570)[16]. فقد انتشرت منظّمات الفلاّحين في كافة أنحاء المجر، لكنّ هدفها الأساسي كان تأمين الحماية إمّا ضدّ هجمات من جنود بلادها، أو ضدّ الدمار الذي كانت تحدثه قوّات الإمبراطورية (هابسبورغ). وفي كثير من المناسبات أعاقت أنشطتهم الحملات المعادية لتركيا. على سبيل المثال، في كرواتيا عام 1660، أدّت الاضطرابات بين مشاة الحدود والعبيد إلى إحباط هجوم عسكري ضدّ الأتراك[17].

أمّا النتيجة الثانية، وكما رأينا في الفصل السابق مع البيزنطيين، فتمثّلت في خوف السلطات من تسليح العبيد ضدّ العثمانيين، خشية إثارة انتفاضة يعجزون عن قمعها. ففي منطقة الدانوب، خلال أربعينيات القرن السادس عشر، لم تجرؤ القيادة العسكرية على استخدام الأهالي في الدفاع عن المنطقة ضدّ التوغّل العثماني، لأنّ فكرة تسليح السكّان كانت تُعتبر خطيرة جدّاً ببساطة[18].

ثالثاً، حدث في بعض الأحيان أن حاربت مجموعات من الفلاّحين فعليّاً مع العثمانيين، إمّا بتلقّي المساعدة منهم على نحو غير مباشر (عام 1631، تحوّلت انتفاضة للفلاّحين في شرق المجر العليا إلى باشا منطقة إيجير طلباً للمساعدة)، أو حتّى بالذهاب للقتال لصالحهم. وثمّة حادثة توضح تماماً هذه الفكرة. ففي عام 1660، رفض الفلاّحون الرومانيون في مدن بيهار أن يدفعوا مزيداً من الضرائب، أو يدينوا بالولاء لطبقة النبلاء المحلّية. وراحوا ينتقلون من قرية إلى أخرى، في زوبعة من الأبواق والأعلام، ثمّ تجمّعوا بأعداد كبيرة دفعت النبلاء أخيراً إلى الفرار إلى بلدة فاراد المجاورة، خوفاً على حياتهم. وقام قائد تركي محلّي، من الواضح أنّه كان يعي حساسيات التحالفات في الحرب، بعرض إعفاء من الضرائب لمدّة عام على الفلاّحين، وذلك لكلّ قرية تُرسل ثلاثة رجال إلى جيوش السلطان. وقد نجحت الخدعة، وفعلت العجائب بالنسبة إلى العثمانيين. إذ ذهب الفلاّحون، واستولوا على ثلاث مدن لصالح الأتراك، كما ضربوا حصاراً غير مُجدٍ على بلدة رابعة[19].

معركة موهاج (1526) وبداية الحكم العثماني

تُعتبر معركة موهاج ببساطة المعركة الأكثر أهمّية في تاريخ المجر. إذ يعتبرها معظم المجريون مثل هاستينغز أو غيتيسبورغ، مواجهة غيّرت بشكل حاسم تاريخ البلاد. فقد سجّلت تلك المعركة (التي يوجد موقعها اليوم في أقصى جنوب البلاد) بداية أكثر من 150 عاماً من الحكم العثماني. فالقوّات المجرية التي تفوّقت عليها عددياً قوّات سليمان القانوني بشكل كبير، والتي

اضطُرّت لخوض المعركة بمزيج من الفخر العسكري وقلّة الكفاءة، والأهمّ أنّها خُدعت للتقدّم على نحو أخرق وانتحاري عبر تغطية العثمانيين الذكيّة لتحرّكات جيوشهم، أُبيدت في أقلّ من ساعتين، بمن فيها مجمل الجيش المجري تقريباً، والنخبة الأرستقراطية والدينية، ناهيك عن 20.000 جندي. لم يكن المجريون يدركون حتّى أنّ العثمانيين يملكون مدافع، إلى أن فتحوا النار عليهم. فقُتل الملك المجري، ومعظم حاشيته. وخرج ثلاثة أساقفة أحياء من ساحة المعركة[20].

لم يكن الجميع تعساء بسبب ما جرى. فمن المعروف أنّ أوّل ما فعله المجريون هو الاحتفال بالتخلّص من الملكة ماري هابسبورغ[21]. بعد هزيمة جيش هابسبورغ المجري على يد الأتراك، عمّ نوع من الفوضى فوراً، مع قيام المجريين المستائين من حكّامهم النمساويين بنهب القصور الملكية وسلب رجال الحاشية، في حين أنّ عدداً كبيراً من الكهنة، والمنتمين إلى أسرة هابسبورغ، والساكسونيين الألمان هربوا شمالاً من الأتراك. ويقال إنّ العاصمة أُفرغت خلال أيّام.

في البداية، لم يبدُ أنّ لسليمان القانوني أيّ رغبة في استعمار البلاد؛ يرجع ذلك إلى حدّ ما إلى أنّه كان يتطلّع منذ ذلك الوقت إلى أوّل حصار (فاشل) لفيينّا، كما أنّ المجر كانت بعيدة بالنسبة إليه شمالاً، بحيث لن يكون من السهل السيطرة عليها كما ينبغي. عوضاً عن ذلك، وجد ملكاً من ترانسلفانيا، هو الملك جانوس زابولاي، وولاّه على العرش ليس بصفة تابع تماماً. فأصرّ آل هابسبورغ المهزومون على طرح منافس خاصّ بهم على عرش المجر؛ فرديناند الأوّل، إسباني المولد، ذكيّ، ومتواضع، لم يقدر أبداً على التحرّر من سيطرة شقيقه اللامع (بطل أوروبا المسيحي، شارل الخامس)، لكنّه بالتأكيد أفضل من بعض أحفاده المختلّين عقلياً الذين أتوا بعده. ما أعقب ذلك، حتّى وفاة الملك جانوس عام 1540، هو خمسة عشر عاماً من التوتّر، والحروب الخفيفة، مع حرص العثمانيين على دعم الاستقلالية النسبية للملك المجري ضدّ آل هابسبورغ،

الذين تـمّ صدّهم إلـى الأطـراف الشـمالية للمجـر. وعندما أرسـل النمسـاويون جنـرالاً لاسـتعادة بـودا عـام 1530، بعـث العثمانيـون ببضعـة آلاف مـن الجنود لمسـاعدة المجريين على الاحتفاظ بها. بتعبيـر آخر، كان الملـك جانوس يتمتّع بحرّية أيّ ملك معتمد على قوّة أجنبية.

اعتبر كثيرون في أوروبا هزيمة موهاج وما تبعها من ضمّ العثمانيين لأراضي المجر تعدّياً إسـلامياً آخر على أراضي الإمبراطورية الرومانية المقدّسـة. لتكذيب أسـطورة الصليب ضدّ الهلال، يجدر بنا التركيز على التعاون المجري، سواء كان ذلك عن رغبة أم لا، مع العثمانيين لضمّ المجر. لكن ينبغي أيضاً أخذ عامل آخر بالاعتبار، ألا وهو العدد الكبير من المسيحيين في الجيوش العثمانية نفسها.

فثلث الجنود والموظّفين الإداريين في الحاميـات التركية التي أتت لاحتلال بودابسـت والسـيطرة عليها كانوا من رعايا الدولة العثمانية الـروم الأرثوذكس[22]. ولا يفاجئ هذا الواقع سـوى القـارئ غير المطّلـع على تاريـخ العثمانيين، والآلة العسـكرية الهائلـة التـي كانـوا يديرونهـا للسـيطرة علـى إمبراطوريتهـم بأطرافهـا المترامية، وثقافاتها المتعدّدة، وتعزيزها. فالمدى الذي ذهب إليه العثمانيون لدمج اليونانيين في مشـروعهم بنجاح لا يمكـن التغاضي عنه، ويسـتحقّ أن نخصّص له بضع كلمات إن أردنا أن نفهم الدور الذي كان لهم في الجيش التركي.

هـذه «العثمنـة» للناطقين باليونانيـة قديمة العهـد، بدأت في القـرون الأولى للإمبراطورية، وبلغـت ذروتها مع «الفناريين» في القرنين الثامن والتاسـع عشـر. والفناريـون هم مواطنـون يونانيون مـن مقاطعة فنار (فنر) في إسـطنبول، أسّسـوا واحـدة من أقـوى الفئـات الإداريـة وأكثرهـا نفـوذاً فـي الإمبراطوريـة العثمانية. اصطحب العثمانيون معهم الـروم الأرثوذكـس أينما حلّوا فـي فتوحاتهم، وحتّى إلى بلاد فارس والأراضي المقدّسـة (سـيعتبرهم الشـاعر الألمانـي غوتيه «عبيد» الأتـراك). ومـع أنّ كثيـراً مـن اليونانييـن كانوا يكرهـون الحكـم التركـي بطبيعة الحـال، إلاّ أنّه لـم يكن مـن النادر وجـود درجـة كبيرة مـن الاسـتيعاب الثقافي للهومو أوتومانيكوس. بحلول أواسط القرن السابع عشـر، كانت اليونانية العامّية

تضمّ عدداً كبيراً من الكلمات التركية؛ حتّى السلطان العثماني كان يسمّى، على الطريقة اليونانية، باسيليوس[23]. كما نجد كهنة يعبّرون على ما يبدو عن إعجاب حقيقي ببشاوات مناطقهم، وعن حزن فعلي لوفاة محمّد الرابع (وثمّة حالات فاضحة عن كهنة أرثوذكس اعتنقوا الإسلام بعد وقوعهم في حبّ فتاة تركية)[24]. ويعكس الوجود اليوناني الكبير في الحاميات التركية التي أرسلت إلى المجر بوضوح هذا الاستيعاب لليونانيين في الدولة العثمانية.

غير أنّ المسيحيين الذين حاربوا في الجيوش العثمانية لم يكونوا يونانيين فحسب، بل صربيين، وبلغاراً، ورومانيين أيضاً. ولو ألقينا نظرة على لوائح أسماء الجنود العثمانيين الذين تمركزوا على ضفاف نهر الدانوب في خمسينيات القرن السادس عشر، وذلك بعد عشرين عاماً من معركة موهاج، نرى وجودَ الجنود السلاف المسيحيين ملفتاً. فمن بين 6.200 جندي مدرج، كان أكثر من 1.200 منهم مسيحياً. في بيست، خضعت مجموعتان من سلاح المدفعية إلى قيادة مسيحيين، معظمهم من الصرب الأرثوذكس الشرقيين، الذين انتقلوا إلى خدمة العثمانيين بعد سقوط تيميسوارا. واختلاط الأسماء المسيحية والمسلمة في السجلّات هو ذو دلالة أيضاً (نجد «عليّ من البوسنة» بالقرب من «ديمتري ديراغاس»، و«مراد عبد الله» بجانب «نيكولا مانويلو»)، ويشير إلى أنّ الجنود المنتمين إلى الديانتين كانوا على علاقة وثيقة ببعضهم، وعاشوا في مجموعات صغيرة جدّاً (نادراً ما تجاوز عددهم اثني عشر جندياً في كلّ أوضة عثمانية)[25]. وتكثر الأسماء السلافية مثل فوك، وبيتري، ولازار، ويمكن إيجادها في المجموعات الصغيرة التي تضمّ مسلمين، مع أنّه كان ثمّة ميل عام على ما يبدو إلى إدخال جنود مسلمين في مجموعاتهم، ومسيحيين مع الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً.

نحن نعرف من هم الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً في السجلّات لأنّهم يسمّون عادة «عبد الله» أو «ابن عبد الله». فقد فضّل الكتبة العثمانيون عدم كتابة الشهرة المسيحية لأولئك الجنود، واكتفوا بتسميته «ابن عبد الله». وكان عددهم

هائلاً؛ عملياً، فإنّ أكثر من ربع الجنود المسلمين المدرجين كانوا حديثي العهد بالإسلام، وأتوا على الأرجح من أسر مسيحية بوسنية أو صربية. ومع أنّنا نستخدم عادة صفة «تركية» لوصف تلك الجيوش المتمركزة في المجر، فإنّ العدد الفعلي للأتراك في تلك الحاميات كان منخفضاً جدّاً، بحيث لم يتجاوز ربّما 5 بالمائة. وكما أشار المؤرّخ ديميتروف، تأسّس الحكم العثماني في المجر بشكل رئيسي من خلال المسيحيين البلقانيين والبوسنيين، والمسيحيين المؤسلَمين، والمتحدّرين مباشرة ممّن اعتنقوا الإسلام حديثاً[26].

بالتأكيد، خدمت في الجيوش العثمانية أنواع مختلفة من المسيحيين وذلك على مستويات متنوّعة وبطرق مختلفة. فقد تألّف الفوينوك (voynuk) العثمانيون، وهم أكبر التشكيلات العسكرية في الإمبراطورية العثمانية، بالكامل تقريباً من العبيد البلغار. وعمل بعض المسيحيين كجنود في سلاح المدفعية (topcilar) أو على المدافع الثقيلة (humbaracilar). وكان من الممكن إيجاد معظم المسيحيين يقاتلون كجنود غير مرتبطين (martolos) إلى جانب الأفواج الرسمية للسلطان، أو كجنود في القلاع، أو في الأسطول العثماني في نهر الدانوب. كما خدم آلاف المسيحيين كمغيرين (akincilar)، وهي قوّات يتمّ تجنيدها بمعظمها من شمال البلقان، وتنفّذ غارات قطع وحرق على مناطق مختارة قبل الحملة[27]. وكان الجزء الأكبر من احتياط الجيش العثماني (سلك الذخائر الذي يزوّد بالبارود، والمؤونة، والإصلاحات، إلخ.) بمعظمه من الأهالي المسيحيين: نجّارين، وصانعي أسلحة، وحدّادين. على سبيل المثال، كان بناة السفن في بيست مسيحيين بشكل حصري تقريباً. أخيراً، يأتي «مساعدو» العثمانيين الأقلّ حظّاً، العمّال العاديون (cerehor)، وهم مجموعة فرعية ضخمة مؤلّفة من الفلاّحين المسيحيين الفقراء عادة الذين ساعدوا في بناء أو نقل البنية التحتية للجيش.

قد يشعر القارئ بالإحباط لدى معرفة أنّ تجارة السلاح الدولية وتكنولوجيا الأسلحة كانت موجودة في القرنين السادس والسابع عشر في العهد العثماني.

فقد شهدت الإمبراطورية العثمانية تطوّراً كبيراً في التكنولوجيا العسكرية، معظمه أتى عن طريق المسيحيين الغربيين والعثمانيين. وكان يتمّ بانتظام استخدام خبراء عسكريين أجانب، لا سيّما خبراء في سلاح المدفعية، أو أسرهم في بعض الحالات. فخلال حصار بلغراد (1456)، مثلاً، تمّ تشغيل كثير من المدافع من قبل الألمان، أو الإيطاليين، أو المجريين. وغالباً ما لاحظ الرحّالة الغربيون المسافرون إلى إسطنبول العدد الهائل من المسيحيين واليهود الذين يعملون في المسابك؛ عام 1510، قيل إنّ عشرين من أصل ثمانين عاملاً في مسبك واحد كانوا من أصل مسيحي أو يهودي[28]. ويبيّن لنا المؤرّخ أغوستون أنّ إسطنبول كانت عبارة عن خليّة من الإبداع التكنولوجي، عمل فيها نجّارو السفن البنادقة، والحدّادون الفرس، وعمّال الحديد اليهود، والمهندسون الهولنديون، وخبراء الألغام، والخبراء العسكريون اليونانيون جنباً إلى جنب لتعزيز الآلة الحربية العثمانية[29].

قصّة لودوفيكو غريتّي

لقد سعيت إلى التركيز على تعقيد ما يُعتبر فتحاً إسلامياً لبلد مسيحي، وكيف أنّ جيوش «الترك المرعبين» كانت في الواقع عبارة عن حلف من جموعات مسلمة ومسيحية في غاية التنوّع، ومزيج ملفت من الهويّات الدينية شديدة الاختلاف، التي لا تحمل سوى صفة «إسلامية» سطحية. إن كان ثمّة قصّة واحدة توضح هذا التعقيد أكثر من أيّ حادثة أخرى، فهي قصّة المفاوض والذراع الأيمن للسلطان سليمان، الإيطالي لودوفيكو غريتّي.

تكشف قصّة غريتّي، والأسابيع الأربعة الأخيرة التي سبقت موته العنيف، الكثير عن التطوّرات المعقّدة للفتح العثماني للمجر، والعلاقات المتقلّبة والتي لا يمكن استباقها بين القوى ومختلف المجموعات العرقية/ الاجتماعية المعنيّة. فمع أنّ غريتّي كان تاجراً، إلاّ أنّ والده لم يكن سوى دوج البندقية. وقد عاش عشرين عاماً في إسطنبول كدبلوماسي؛ بنتيجة ذلك، كبر غريتّي في العاصمة العثمانية، وأتقن التركية واليونانية بقدر ما أتقن لغته الإيطالية الأمّ. كان غريتّي

تاجراً وعضواً بارزاً في المجتمع على حدّ سواء. فقد عاش في إسطنبول حياة نبيل تركي، يرتدي الحرير مثل رجال البلاط العثماني، ويقيم حفلات عشاء ضخمة لكبار الشخصيات الأوروبية والتركية في منزله الفخم (تضمّنت إحدى قوائم المدعوّين إلى مأدبة أقامها عام 1524 ثلاثمائة مسيحي وتركي). استخدم غريتّي مهارته الفطرية في إقامة العلاقات، ومكانته شبه الأرستقراطية في إسطنبول لجني عائدات ضخمة كتاجر. كما جمعته صداقة وثيقة بالصدر الأعظم إبراهيم باشا، إلى حدّ أنّه عندما استولى العثمانيون على ثلاث سفن غاليون آتية من البندقية عام 1533، أعطاها إبراهيم باشا إلى صديقه غريتّي (مع أسرى الحرب) كهدية من السلطان[30].

تجدر الإشارة هنا إلى نقطة هامّة. فعلى الرغم من كوزموبوليتانية غريتّي وهويّته متعدّدة الأوجه، لا يجب رفعه إلى المكانة المثالية لصاحب الروح الحرّة والعالمية، الذي يتحاور مع المسيحيين والأتراك على السواء، ويعتبر نفسه أخاً للبشرية جمعاء. ففي واقع الأمر، كان غريتّي رجلاً جشعاً، وقاسياً، وأنانياً. وعلى الرغم من أنّ صداقته للصدر الأعظم كانت حقيقية على الأرجح، إلاّ أنّ ولاءه للعثمانيين لم يكن كذلك. فعندما التقى به مبعوث هابسبورغ في بلاط السلطان عام 1534، أخذه غريتّي جانباً وأطلع الدبلوماسي المذهول على خطّة جامحة وخيالية لإعادة توحيد القوى الأوروبية، واستعادة إسطنبول من الأتراك[31].

بطريقة ما، كان نجاح الدبلوماسي البندقي في ارتقاء المراتب العليا من الهرم الاجتماعي التركي هو ما هيّأ ظروف وفاته في نهاية المطاف. فقد احتلّ غريتّي مكانة محترمة في البلاط العثماني إلى حدّ أنّه، خلال المفاوضات مع المجريين وآل هابسبورغ، بدأ السلطان والصدر الأعظم يخبران الفريقين أنّهما سيقومان بإرسال غريتّي إلى المجر نيابة عنهما لرسم حدود أراضي الأطراف الثلاثة[32]. غير أنّ غريتّي، الذي تردّد في مغادرة إسطنبول، لم تعجبه فكرة ترك تجارته الرابحة في العاصمة، والذهاب في بعثة دبلوماسية تحيط بها ظروف عدائية للغاية. فقد كانت الأراضي المجرية عبارة عن ساحات معارك خفيفة،

ومناوشـات دائمة، وأعمال خطف، وجيـوش صغيرة متنقّلـة. وكان عدد كبير من الشخصيات المحيطة بسليمان القانوني يشـعرون بالغيرة من النجاح المالي الذي حقّقه الإيطالي، ومـن علاقته الحميمة بالسـلطان ووزيره. ويُزعـم أنّ أحد النبلاء العثمانيين قال لغريتّي قبل رحيله، بعبـارات لا لبس فيها، إنّه إن أصابه مكروه في البلقـان، فلن يُهرع لمسـاعدته. وعمد آخـر، وكان كبير مترجمي بلاط السـلطان، إلى سؤال دبلوماسي نمساوي باشـمئزاز لماذا لـم يتمّ العثور على مجري «يريحنا من هذا النذل»[33].

هكذا، في شـهر يوليو من عام 1534، انتقل غريتّي شـمالاً، بصفته المبعوث الرسـمي للسـلطان، وبصفتـه إيطاليـاً مفوّضـاً بسـلطات التعـاون مـع الملكيـن النمسـاوي والمجري، فرديناند وجانوس، نيابة عن السلطان. وكانت وجهته بلدة ميديـاس النائية، التـي يفتـرض أن يقابله فيها الملـك جانوس. ورافقـه جيش من حوالى ألفي جندي عثماني من الفرسـان والمشاة. لم يكن غريتّي يدرك المخاطر التي تنتظره، فاصطحب معـه ابنه البالغ اثني عشـر عاماً. كان يتخيّل أنّه سـيرجع إلى قصـره الصغير في إسـطنبول في غضون سـتّة أشـهر علـى أبعد تقديـر، ولـم يخطر له أنّه لن يرى تلك المدينة مجدّداً.

كانت أوّل محطّة له هي بلدة تيرغوفيشـتي (الواقعة اليوم في رومانيا) لزيارة فويفودي وهو قائد عسـكري تابـع للعثمانيين وبغيض على نحو خـاصّ. فأغرقته تلك المحطّة على الفور في شـبكة معقّدة من التوتّرات والصراعات على السلطة في البلقان العثمانية. كان السـلطان قد أمَرَ القائد بإقراض غريتّي ألفاً من المرتزقة الرومانييـن. ومع اقتـراب غريتّي من المدينة، انضمّ إلى جيشـه خمسـة وسـبعون متمـرّداً محلّيـاً (مـن أعـداء الفويفـودي) وطلبوا منـه مسـاعدتهم علـى الإطاحة بالحاكـم المحلّـي. عندما أعيـد القبض عليهم بسـرعة، اضطُـرّ غريتّي لمشـاهدة الفويفودي وهو يقطع آذان وأنوف المتمرّدين الخمسة والسبعين، ثمّ يفقأ أعينهم، قبل أن يعدمهم أخيـراً. ما إن حصل غريتّـي على الرجال الإضافييـن، حتّى ابتعد مسرعاً[34].

كانت محطّته التالية هي بلدة رومانية أخرى تسـمّى براشـوف. سنتوقّف هنا مع الجيش الـذي اصطحبه غريتّي إلـى البلدة، لأنّه يعطي فكـرة عن طبيعة معظم الصراعـات العسـكرية فـي تلـك الفتـرة. أوّلاً، كان يضـمّ ألفـي فـارس عثماني، معظمهم مـن الأتـراك واليونانييـن. يأتـي بعدهم ألـف فـارس تقريباً مـن ولاكيا الرومانيـة، اقترضهم مـن الفويفـودي (لم يكـن الرومانيـون، بصفتهـم رعايا روم أرثوذكـس، يحبّـون جيرانهـم المجرييـن الكاثوليـك، الذين لـم يعتبرونهـم حتّى أقلّية في ترانسـلفانيا). أخيراً، تضمّنـت قوّة غريتّي وحدة مـن ألف جندي مجري انضمّت إليهـم فـي الطريق، وقادهـا ابنـه البكـر، أنطونيو. بعبـارة أخـرى، تألّف الجيش من أتـراك، ويونانيين، ورومانييـن، ومجريين، يقودهـم إيطاليون نيابة عن السلطان. كما رافقهم أيضاً بعض التجّار اليهود.

عندما وصـل غريتّي إلى براشـوف، ارتكـب خطأً أخـرق وقاتـلاً. فمن بين العناصر المتعاطفـة والمعتدلة التي اسـتقبلته في البلـدة كان ثمّة عـدوّ لدود، هو أسقف فاراد. كان هذا الأسـقف المجري جندياً وجنرالاً، وكان غريتّي على علم تامّ بمشـاعره المعادية للعثمانيين. بحسـب الروايات، أمر غريتّي بطعن الأسـقف المسكين، وقطع رأسه، بعد أسـبوع بالكاد من وصوله إلى براشوف. والأسوأ من ذلك هو أنّ القتلة أحضروا رأس الأسقف إلى غريتّي بينما كان يتحدّث مع اثنين من زملاء الأسـقف الراحل، هما مايلاد وكون. لا بدّ أنّ لحظة غريبة من الإرباك مرّت، بينما استوعب الرجلان المصدومان أنّ الرأس المقطوع هو رأس صديقهم القديم. على الفور، ادّعى غريتّي أنّ لا علاقة لـه بالجريمة، وتعهّد بإيجاد القاتل. أمّـا زميلا الأسـقف المرعوبـان، فاسـتأذنا بتهذيـب، وفرّا مـن المخيّم بأسـرع ما يمكن، خوفاً من ملاقاة المصير نفسه[35].

قيل إنّ البندقي كان في حوزته لائحة طويلة بأشـخاص أراد تصفيتهم، لكنّ قسوة غريتّي انقلبت عليه في نهاية المطاف. فعوضاً عن أن يؤدّي مقتل الأسقف، المعروف بوطنيّته الشرسة، إلى تخويف المجريين، شـجّعهم على إبعاد الإيطالي بأسـرع ما يمكن. عندمـا انتقل جيشـه إلى وجهتـه النهائيـة، ميدياس (هـي اليوم

قرية تقع وسط رومانيا تماماً)، وجد نفسه محتجزاً خارج البلدة من قبل أبنائها الخائفين. كما أنّ غريتّي لم يجد الملِكين اللذين كان يفترض به التفاوض معهما. بعد كثير من التملّق، بما في ذلك تهديد أتباع غريتّي المجريين بتفجير أسوار المدينة، وافق قضاة البلدة المتردّدون على السماح للجيش بالدخول، وأفرغوا عشرات المنازل لتوفير المأوى للجنود.

سرعان ما عمّت الفوضى. لفم يلبث جنود غريتّي أن دخلوا المدينة، حتّى ظهرت فجأة قوّة من متمرّدي ترانسلفانيا (مجريين، وساكسونيين ناطقين بالألمانية، وسيكيليين) خارج المدينة وحاصرتها. كانوا بالآلاف، وكان بينهم بعض جنود الفويفودي الذين قرّروا تغيير انتمائهم في تلك الأثناء. فراح غريتّي يكتب رسالة تلو الأخرى إلى الملك جانوس، طالباً منه المجيء للمساعدة. كان الملك المجري يدرك ما آلت إليه الأحداث، وادّعى أنّه سار إلى فاراد، ليُظهر لسليمان القانوني أنّه حاول مساعدة مبعوثه. في الواقع، ومع أنّه استلم كلّ رسائل غريتّي، إلاّ أنّه اختار عدم الردّ عليها، وتواصل عوضاً عن ذلك مع السلطان. فأخبره أنّ غريتّي حاول الاستيلاء على المجر، وأنّه كان يخون السلطان بمخطّطاته الخاصّة. كانت ميدياس، بحسب أحد المؤرّخين، فخّاً نُصب خصّيصاً لاصطياد مبعوث السلطان، غريتّي[36].

ما زاد الأمور سوءاً هو أنّ غريتّي أصيب بالمرض في أثناء الحصار، وعانى من المغص الشديد، بحيث لم يتمكّن من مغادرة سريره عندما بدأ الجيش المحاصِر بقصف أسوار المدينة. وحين أخذ مساعدوه المجريون يتساءلون على نحو يائس: «ماذا نفعل؟» صاح بهم غريتّي: «ماذا نفعل؟ افعلوا ما وعدتم به وما تقاضيتم عليه كلّ هذا المال. ماذا نفعل؟! واصلوا القتال! تسألونني ماذا تفعلون؟»[37]

من الواضح أنّ المجريين المرافقين لغريتّي كانوا غير مرتاحين للوضع، وهم عالقون في بلدة مجرية مع مرتزقة أتراك، ويونانيين، ورومانيين، يحاصرهم جيش من أبناء بلادهم. لم يتمكّن الترانسلفانيون من اختراق أسوار المدينة إلاّ

بعدما عقدوا صفقة مع الجنود المجريين الذين يحرسـون الأبـواب. فقد صاحوا لأهل البلدة وهـم يندفعون إلى الداخـل: «لا تخافوا أيّها المجريـون، لن يصيبكم أيّ أذى!» ولم يهاجموا سـوى الجنود الأتراك واليونانيين الذين وجدوهم، فضلاً عن المرتزقة الرومانيين الذين لـم يهربوا بعد. حاول غريتّـي وولداه الخروج من المدينة برفقة مجموعة صغيرة من الأتراك والإيطاليين، إلاّ أنّهم سقطوا بين أيدي المحاصرين المجر الذين سـلّموهم إلى مايلاد وكون، وهما الرجلان اللذان كان غريتّـي يتحـدّث معهما عندمـا وصله كيـس يحتوي علـى رأس الأسـقف. صاح الجنـود الذين أحضـروا غريتّـي: «لنقتلـه، اقتلوا هـذا التركـي»[38]. فتوسّـل إليهم غريتّي ليقتلوه بسـرعة، من دون ألـم. ونـال طلبه من خلال رشـوة جلاّده بدبوس من الماس خبّأه في حذائه. فقُطع رأسـه علـى قارعة الطريق. أمّـا المجري الذي قتل الأسـقف من أجـل غريتّي، فلـم يكن محظوظـاً إلى هـذا الحدّ. إذ يقـال إنّه «ضُرب حتّى الموت وهو جالس، مثل كلب»[39]. سُـلبت أمـوال التجّار اليونانيين واليهود الذين سـافروا مع غريتّي، في حين أنّ مائتين فقـط من أصل ألفي جندي عثماني ممّن ساروا إلى ميدياس، عادوا إلى إسطنبول أحياء.

لـم يكن مقتـل غريتّـي فـي ميدياس سـوى لحظـة عابرة فـي تاريـخ المجر العاصف خلال تلك المرحلـة الرمادية العنيفة التي سـادت في القرنين السـادس والسـابع عشـر، وكانت فيهمـا البـلاد ضائعـة بيـن الهيمنـة العثمانيـة وهيمنة آل هابسـبورغ. غيـر أنّنـا نسـتنتج ثلاثـة أمـور: أوّلاً، يتبيّـن لنـا أنّ كلمتـي «مسـلم» و«مسـيحي» لا تكفيان لوصف الشـبكة المعقّدة على نحو ميؤوس منـه تقريباً من العلاقـات المتقلّبـة علـى مسـتوى السـلطة، والتحالفـات الإقطاعيـة، والتعاطف العرقي، والأحقـاد التاريخيـة التي سـادت بين مختلف شـعوب المجـر، وداخل البـلاط وأجهزة السـلطة في إسـطنبول علـى حدّ سـواء. ثانيـاً، نكتشـف إلى أيّ مدى يمكـن أن تصل مكائـد مختلف الأطـراف، وكيـف أنّ احتياجـات اللحظة، وجاذبية السياسـة الواقعية يمكن أن تدفع الفرد إلى الانقـلاب على هويّته العرقية أو الدينية. ثالثاً، وربّما كان الأهمّ، تُظهر قصّة الإيطالي مدى السـهولة التي يمكن

لغير المسـلمين، من بنادقة، ويونانيين، ويهود، أن يتحوّلوا إلـى عناصر فاعلة في المشـروع العثماني. فبالنسـبة إلى الغرباء غير العثمانيين، طبعاً، لا فرق بين تركي ويوناني، ما داما يسافران تحت لواء السلطان.

تقسيم المجر (أو كيف ساعد الأتراك على الإصلاح)

حزازيات شخصية، خلافات عرقية، صراعات طبقية... كلّ هذا يبدو ملتوياً بما فيـه الكفاية. لكـن مع الأسـف، يتعيّن علينـا إضافـة تعقيد آخر إلى المشـهد المجري، ألا وهو الفتنة المذهبية، التي يمكن اختصارها بكلمة الإصلاح.

خـلال الأعـوام التـي تلـت وفـاة غريتّـي، انزلـق مصيـر المجـر فـي ثلاثـة اتّجاهات. فقام ملك هابسـبورغ، فرديناند، بمحاولة فاشلة لاستغلال وفاة الملك جانـوس عـام 1540؛ غيـر أنّ السـلطان سـليمان القانونـي تدخّـل وأعلـن الابن الرضيع للملـك المتوفّـى خلفـاً حقيقياً لـه... كما أعلن نفسـه الوصـيّ الحقيقي عليه، وذلك فـي خطوة سـامية لحماية الطفولة علـى الصعيد العالمـي. تبع ذلك تقسـيم المجر إلى ثلاثة أجزاء. فاحتفظ أمراء هابسـبورغ بالثلـث الغربي، وانتمى إلى فيينّـا. وأصبـح الثلـث الشـرقي (مملكـة ترانسـلفانيا بشـكل أساسـي) إمارة مستقلّة، طبّق فيها أسيادها العثمانيون سياسة عدم التدخّل إلى حدّ ما في شؤونها الداخلية. أمّا الجزء الأوسـط من المجر، فأصبح جزءاً من الإمبراطورية العثمانية نفسـها. وثُبّت هـلال ذهبي فـي أعلى مدينـة بودا، لـن يتمّ إسـقاطه إلاّ بعـد مائة وخمسين عاماً.

ما علاقة تقسـيم المجر إلى ثلاثة قطاعات (هابسـبورغ، وعثماني، ومجري) بالإصـلاح؟ سـاعد العـداء التركـي للكنيسـة الكاثوليكيـة الرومانيـة المواليـة لإمبراطوريـة هابسـبورغ، وذلـك خـلال خمسـينيات وسـتينيات القرن السـادس عشـر خصوصاً، علـى السـماح للعقيـدة البروتسـتانتية الجديـدة فـي المجر على التنفّس والنموّ. في الواقع، سـاعد العثمانيون بروتسـتانت المجر كثيـراً، إلى حدّ أنّ بعـض المؤرّخين يفسّـرون النصـر التركي في معركـة موهاج علـى أنّه مرحلة

من مراحل الإصلاح[40]. بحلول عام 1540، كانت ارتدادات إعلانات لوثر في فيتنبرغ قد بلغت كلّ أنحاء أوروبا. في ظلّ الوضع السياسي الفريد في المجر، وجد البروتستانت والكالفينيون لدى العثمانيين حماية غير متوقّعة ضدّ القوّة الدفاعية للإصلاح الكاثوليكي المضادّ. فشهدت معظم الأراضي المجرية الواقعة تحت السيطرة العثمانية صعوداً سريعاً للبروتستانت، وتراجعاً كبيراً في أعداد الكاثوليك. وفي بعض المناطق التركية، تراجعت حصّة الكهنة الكاثوليك بنسبة 70 بالمائة[41]. باختصار، وصل العثمانيون والبورتستانت معاً إلى المجر في الوقت نفسه تقريباً، وهو واقع استفاد منه الفريقان لتحقيق مصلحتهما المتبادلة.

لا يبدو أنّ العامل الرئيس لهذا الخروج للكاثوليك من المناطق الواقعة تحت السيطرة التركية هو الاضطهاد الجسدي للكاثوليك المجريين، بل تحيّز قانوني متواصل ضدّهم من جانب السلطلت العثمانية. فعندما كان البروتستانت والكاثوليك يختلفون في المجر العثمانية، كانوا يرفعون مشكلتهم إلى القاضي التركي. وما نراه، لا سيّما في الفترة الفاصلة بين عامي 1540 و1560، هو تعاطف عثماني متكرّر مع الشكاوى البروتستانتية ضدّ الكاثوليكية، وتحيّز واضح عندما يتعلّق الأمر بحماية المجموعات البروتستانتية من المجموعات الكاثوليكية.

كان البروتستانت سعداء بذلك. إذ كتب أحد القساوسة عام 1542: «لقد حمانا الربّ بأعجوبة على يد السلطان والنبلاء الأتراك!»[42]. ففي كلّ مكان آخر، كان اللوثريون والكالفينيون يتعرّضون للاضطهاد والسجن، في حين لم يسمح لهم الأتراك بالتبشير فحسب، بل أمّنوا لهم الحماية أيضاً. وفي بعض المناطق (التي تضمّ كثافة كاثوليكية)، تمّ تشجيعهم على نحو ناشط. فشهدت بلدة ديبرسين المجرية تحوّل كثيرين إلى العقيدة البروتستانتية، وسرعان ما أصبحت تُعرف باسم «روما الكالفينية». وتلقّى المصلح العظيم ميلانشثون (ذراع لوثر الأيمن) أخباراً إيجابية جدّاً عن التطوّرات هناك، حتّى أنّه فكّر بزيارة المجر لكي يرى بنفسه[43]. في الخارج، سرعان ما أصبح «التسامح التركي» أداة دعائية كلاسيكية في انتقادات البروتستانت للقمع الكاثوليكي. حتّى

أنّ كاتباً ألمانياً تمنّى في عـام 1550 لو أنّ الملوك المسيحيين في الـدول الحرّة «يشعرون بالعار عندما يسمعون عن تسامح الأتراك والحماية التي قدّموها لخدّام المسـيح الحقيقييـن»[44]. وتحوّلـت فكرة وجوب إحسـاس المسـيحيين بالخجل إزاء التسـامح الديني الأكبر لجيرانهم الأتـراك إلى لازمة اعتياديـة ومألوفة. وكما أشـار مؤلّف كَراريـس إنكليزي فـي عـام 1676، كان الأتـراك «العدوّ المشـترك» للمسيحيين، مع ذلك «فهم يسمحون للمسـيحيين بالعيش تحت حكمهم بارتياح وحرّية أكثر ممّا يفعل المسيحيون، الأمر الذي يدعونا إلى الخجل»[45].

لمـاذا كانـت السـلطات العثمانيـة متسـامحة جـدّاً، لا بـل ومضيافـة تجـاه البروتسـتانت، بعقليّتهم التبشـيرية العدوانيـة؟ فلنبدأ بأقلّ الأسـباب تشـاؤماً. في البداية، جـرت العادة فـي الإمبراطوريـة العثمانيـة على تطبيـق القوانيـن المحلّية على المجتمعات المحلّية (كانت الشـريعة الإسـلامية العثمانية ملزمة، في جميع الأحوال، باحترام وضع المسيحيين واليهود). هذا يعني أنّه في كثير من الأحيان، اعتُبر الكتاب المقدّس القانون الواجب تطبيقه في المنازعات المسيحية؛ في مدن مثل موهـاج وتولنا، أعلن الباشـا أنّ المسـيحي الـذي يعارض الكتـاب المقدّس يُقطع لسـانه[46]. بالتالي فإنّ فكرة «الأتراك الذين يحمون البروتستانت» لا تدهش سوى الأوروبيين الذين لا دراية لهم بالممارسات القانونية العثمانية.

ثانياً، شـعر المسـلمون العثمانيون بالتأكيد بشـيء مـن الافتتـان وبالتعاطف الضمني مـع أولئـك المسـيحيين الجـدد المدعوّيـن «بروتسـتانت». إذ أنّ رفض الكالفينييـن للأيقونات والبـذخ وجدَ صـداه لـدى المراقبين المسـلمين الأتراك. فالإسـلام يمنـع التصويـر، ويعتقـد بالقضـاء والقـدر، الأمر الـذي اعتبـره بعض اللاهوتيين «كالفينيـة». ويقال إنّه في بلدة سـيجيد المجرية، في عـام 1545، اعتاد الباشا على حضور الشـعائر الدينية البروتسـتانتية، وزيارة المدارس بانتظام. حتّى إنّ الباشـا نفسـه وقف على ما يبدو إلى جانب الإنجيليين ضدّ الفرنسيسـكان في النزاعات المحلّية. ولا شـكّ أنّ الفضول كان له دور في ذلك. إذ كان المسلمون يرون في البروتسـتانت أتبـاع دين جديـد. وثمّة تقاريـر عدّة عـن مجموعات من

المسلمين الأتراك الذين كانوا يدخلون بصمت إلى الكنائس البروتستانتية لمراقبة الشعائر الدينية، ثمّ يتسلّلون إلى الخارج عند بدء المناولة[47].

على الرغم من ذلك الفضول، إلاّ أنّ التحوّل إلى دين أحد الطرفين كان نادراً. نعرف مثلاً عن مسلم تركي واحد تحوّل إلى الديانة البروتستانتية، ودرس اللاهوت في دبريسين، قبل أن يصبح قسّاً في سيبسي في حوالى عام 1563. أمّا من الطرف الآخر، فنجد الألماني آدم نويسر الشهير، وهو بروتستانتي معارض للثالوث، من هايدلبرغ، انتقل بعد مغامرات دبلوماسية مختلفة من كونه كاهناً في كنيسة ترانسيلفانية إلى اعتناق الإسلام أخيراً في بلاط السلطان في إسطنبول. كان ثمّة اعتقاد أيضاً بين كثير من البروتستانت، داخل المجر وخارجها، أنّ التطوّرات التي كانت تقع في مناطق مثل ترانسلفانيا ستشكّل بداية «التنصير» التدريجي للإمبراطورية العثمانية، مع امتداد بذور الإيمان البروتستانتي جنوباً عبر البلقان، إلى القسطنطينية، لتنصير السلطان، ومن ثمّ عبر أرجاء العالم الإسلامي[48].

مع ذلك، فإنّ من أهمّ الأسباب التي دفعت العثمانيين إلى السماح بوجود البروتستانت في المجر العثمانية، وحتّى تشجيعهم، هو السبب نفسه الذي دفع بالولايات المتّحدة، في سبعينيات وثمانينيات القرن المنصرم، إلى تمويل الأنشطة التبشيرية الإنجيلية الأميركية في دول أميركا اللاتينية، وذلك لتفكيك التضامن السياسي. إذ لم يكن الكاثوليك، بديانتهم المتمحورة حول روما، وبأنظارهم المتّجهة غرباً، رعايا عثمانيين موثوقين. وإن كانت محادثة بين مبشّر بروتستانتي وباشا بودا في عام 1541 هي ذات أهمّية على الإطلاق، يبدو أنّ جوهر البروتستانت الموالي للعثمانيين لا يمكن إغفاله كعامل مساعد على بسط سيطرة السلطان على بلاد فتحها حديثاً (ويغلب عليها الكاثوليك). فالباشا، الذي لم يسبق له أن التقى ببروتستانتي من قبل، سأله عن المبدأ الأساسي لدينه الجديد. فأجابه المبشّر، بلباقته العبقرية: «الانصياع للسلطة الدنيوية، ومنع الناس من الثورة والانتفاض عليها»[49]. بالطبع، سُرّ الباشا بسماع ذلك، وأرسل المبشّر

بمباركته، وذكّره بالصلاة يومياً، وبعدم مخالطة الكاثوليك.

مع ذلـك، لا ينبغي لنا رسـم صـورة وردية عن حيـاة البروتسـتانت في ظلّ الحكـم العثمانـي. إذ يشـير أحد الكتّـاب في بلـدة تولنا إلـى أنّه لا يعـرف كاهناً بروتسـتانتياً لـم يُعامل بخشـونة من قبل الجنود الأتراك[50]. وتجبرنا الاسـتراتيجية العثمانيـة القائمـة على الفتـح من خـلال التسـامح الثقافي علـى رؤيـة الحريّات الدينية التي قدّمتها من وجهة نظر سـاخرة. فمع أنّ الحرّية الدينية في ترانسـلفانيا اسـتمرّت إلـى أن اسـتعاد آل هابسـبورغ المدينـة عـام 1689، إلاّ أنّ محابـاة البروتسـتانت على حسـاب الكاثوليك لـم تبلغ ذروتها إلاّ في الفتـرة المؤدّية إلى سـتينيات القرن السـادس عشـر. في ما بعد، أصبحت أحـكام القاضي أكثـر تأثّراً بالمزاج والرشـاوى منها بالسياسـة الخارجيـة للسـلطان. مع ذلك، عندمـا نطّلع علـى بعـض مـا فعلـه آل هابسـبورغ ببروتسـتانت المجـر، لا يصعب علينـا فهم الحماسـة التي وقف بها هؤلاء في صفّ العثمانيين. ففي عام 1674، عندما عندما تمّ جـرّ سـبعمائة كاهن بروتسـتانتي بالسلاسـل إلى محكمـة في بريسـبورغ، قال لهـم الأسـقف الكاثوليكي: «لقد جهّزنا حبـلاً لأعناقكم هنا، وعندمـا نضعه أخيراً فوق رؤوسـكم، لـن تتمكّن الديانـة الإنجيليـة من السـير مجـدّداً»[51]. نظـراً إلى سلوك هؤلاء «المسيحيين»، لا نسـتغرب البراغماتية متعدّدة الثقافات التي طوّرها البروتسـتانت بتلك السـرعة. فإلى جانب ديكتاتورية هابسـبورغ، تُعتبر الحساسية العثمانية الأكثر ذكاءً جنّة على الأرض.

الحياة في المجر تحت الحكم العثماني

كيف كانت الحياة اليومية للمجريين في ظل الحكم العثماني؟ إلى أيّ مدى تعايش المسلمون والمسـيحيون (أرثوذكس، وبروتسـتانت، وكاثوليك) وتقاسموا ثقافـة مشـتركة فـي ظـلّ السـلام العثماني فـي المجـر، خـلال القرنين السـادس والسـابع عشـر؟ لطالما كانت الحقبـة العثمانية موضوعاً حسّاسـاً ومثيـراً للجدل بالنسـبة إلى المؤرّخين المجريين، الذين اختلفوا بشـكل كبير حـول تأثير الهيمنة

التركية على المنطقة. بدأ المشهد الأوّلي (أي مشهد الكارثة التامّة، مع الرفض المطلق للثقافة العثمانية على كلّ المستويات، ترافقه قناعة بأنّ الأتراك مسؤولون عن قطع غابات المجر، والركود الاقتصادي، والفقدان الجماعي للسكّان في الفترة الفاصلة بين عامي 1526-1683) يتعرّض للنقض في أواخر القرن التاسع عشر، عندما أخذ جيل من المؤرّخين المجريين القوميين (ما عُرف بمدرسة «المحبّة للأتراك»)، الساخطين على الحكم النمساوي، بإعادة النظر في الإرث العثماني. وبدأت الأبحاث تُثبت لاحقاً، خلافاً للتشويه السابق للقرون العثمانية، أنّه لم يحدث فعلاً فقدان جماعي للسكّان، وأنّ الأتراك لم يكونوا هم وحدهم المسؤولين عن إزالة غابات المنطقة على نطاق واسع، وأنّ المجر دخلت في فترة من التراجع الاقتصادي والسياسي قبل زمن طويل من دخول سليمان إلى البلاد[52].

المهمّ أنّ صورة عدم التعاون المطلق بين المجريين والأتراك تغيّرت إلى حدّ كبير بفضل الأبحاث التي قام بها عدد من المؤرّخين. ولا يجب أن نسيء فهم هذه الجملة الأخيرة. فالحقبة العثمانية لم تتحوّل إلى جنّة من الاحترام المتبادل والتسامح الثقافي لم يسبق أن اكتُشفت من قبل. لكن أصبح واضحاً وجود درجة من التعايش بين المسيحيين المجريين والمسلمين العثمانيين في تلك الفترة، وهو تعايش لم يُعترف به مسبقاً. كما أنّه بالتأكيد تبادل ثقافي أقلّ درجة من ذاك الذي شهدته بلاد البلقان العثمانية. فالمجر العثمانية لم تحتضن، مثل البوسنة، بلدات ومدناً اختلطت فيها المساجد ودور العبادة اليهودية والمسيحية على نحو رائع في الشوارع نفسها. ونادراً ما نصادف القصص التي نجدها في مقدونيا، لمسيحيين عرفوا جيرانهم المسلمين على نحو وثيق، إلى حدّ أنّ التاجر المسيحي كان قادراً على تقليد الإمام، بلغته وحركاته، بحيث يصدّق المسلمون أنفسهم الخدعة[53].

تشارك الأهالي من الديانتين تأمين الاحتياجات اليومية. فبحسب الباحث فيكيتي، كان المسلمون والمسيحيون في بودابست يملكون متاجر متجاورة.

فيبيع الجزّارون الأتراك لحم الغنم بجانب الجزّارين المسيحيين الذين يبيعون لحم الخنزير. وانتشر عموماً نوعان مختلفان من المخابز ومحلاّت الحلويات، والحلاّقين، تركي ومجري. كما كانت الحانات المجرية تبيع الكحول إلى جانب الباعة الأتراك للبوظة أو عصير العنب المخمّر. وكان الأهالي يستهلكون نوعان من الخبز، التركي والمجري. فمع الفتح العثماني، لم تعرف البلاد أطعمة جديدة فحسب، بل منتجات وملابس جديدة أيضاً. واستخدامها من قبل المسيحيين والمسلمين على حدّ سواء واضح في كثير من الكلمات التركية – مثل «الشبشب» (papucs) أو «الحذاء» (csizma) – التي انتقلت إلى اللغة المجرية المعاصرة[54]. وكثُر الحرفيون الأتراك، الذين لم يقتصروا على النجّارين وصانعي الأحذية، بل برز كثير من الحرف التي تحتاج إلى مهارة أكبر. مثال على ذلك ساعة مدينة بودا، المبنية في برج كنيسة تمّ تحويلها إلى مسجد، والتي صنعها مسلمون، وشغّلها عام 1638 رجل يدعى حسين أسطا[55].

كان معظم من يسمَّون «تُركاً» (török) في المجر في ذلك الوقت مسلمين بوسنيين في الواقع. وقد استتبع الفتح العثماني تغييرا كبيراً في الإدارة والبنية التحتية للبلاد، مع استبدال الطبقة الاجتماعية الحاكمة، بين ليلة وضحاها، بنخبة جديدة تماماً، اشتملت على بوسنيين، وألبان، وصرب روم أرثوذكس[56]. بعد الفتح العثماني، تمّ تحويل معظم كنائس بودا على الفور إلى مساجد، لتصبح أوّل مدينة «شرقية» يراها المسافر الغربي وهو آتٍ من أوروبا. كان أوّل انطباع يطالع المسافر الآتي من الشمال هو أفق مليء بأبراج ومنارات الكنائس، وهو مشهد وُصف في كثير من تقارير الأسفار، ليشكّل بالنسبة إلى معظم الأوروبيين أوّل مدينة عثمانية يرونها في حياتهم. ومع أنّ كثيراً من الأبنية العثمانية لم تبقَ حتّى وقتنا الحاضر، إلاّ أنّ سوكولّو باشا الشهير هو المسؤول عن أكبر البرامج المعمارية في المدينة، التي تركت في بودابست أكثر من ثلاثين مبنى عاماً؛ أربعة مساجد كبرى، وستّة مساجد (عادية)، ومدرستين، وأكثر من ستّة عشر حمّاماً عامّاً[57]. وكان في المدينة أيضاً كنيسَين يهوديين على ما يبدو، أحدهما إسباني،

والآخر بولّندي، من دون أن يكون للمجتمَعين اليهوديين علاقة ببعضهما البعض، إذ كانا يقطنان مقاطعتين تقعان في أجزاء مختلفة من المدينة. وكان للروم الأرثوذكس الذين أتوا مع العثمانيين كنيستهم وأبرشيّتهم الخاصّة في بودا، وكانوا بنظر المجريين امتداداً للهرميّة العثمانية.

حدث تأثير متبادل في الآداب والفنون المجرية بين المسلمين والمسيحيين. ومع أنّه ضئيل بالمقارنة مع العصر الذهبي للمسلمين في إسبانيا، إلاّ أنّه يُعتبر بارزاً. ولعلّ أروع شاعر مجري في القرن السادس عشر، ويدعى بالينت بالاسي، كان مقلّداً بارعاً لشعر الديوان، ويبدو أنّه ترجم عدداً من القصائد التركية إلى اللغة المجرية[58]. من الجانب الآخر، اهتمّ عدد ضئيل من الكتّاب والشعراء الأتراك بالثقافة المجرية، أبرزهم المؤرّخ التركي العظيم بجوي إبراهيم افندي (وفاة 1650)، الذي قاده فضوله وانفتاحه غير العاديَين إلى خارج حدود ثقافته الخاصّة، ليقوم بالتحقيق في أعمال مؤرّخين مجريين أمثال غاسبار هيلتاي (يقال إنّ بجوي هو واحد من قلّة من الكتّاب الأتراك الذين كانوا على استعداد للخوض في أعمال «الكفّار» والمسلمين على السواء)[59]. لدينا أيضاً عدد من قصائد الغزل والقصائد الوجدانية التركية التي يُعلن فيها الشعراء حبّهم وعشقهم لمدينة بودا، الأمر الذي يشير إلى أنّ الشعراء العثمانيين لم يلبثوا أن اعتبروا تلك المدينة الجديدة مدينتهم.

حرب الخمسة عشر عاماً (1591-1606) وما بعدها

هكذا، بينما كانت إنكلترا تصدّ الأساطيل الإسبانية، وتخبّئ كهنتها في الخزائن، وتعوّد نفسها على ملكة جديدة، كانت الدويلات الثلاث للمجر الواقعة على الطرف الآخر من قارّة أوروبا (هابسبورغ، والمجر العثمانية، وترانسلفانيا شبه المستقلّة) تشهد فترة صعبة من الحرب الخفية بالكاد. فقد امتدّ على حدود المجر العثمانية ومجر هابسبورغ خطّ طويل من القلاع والحصون، وشكّل حدوداً متنازعاً عليها ويسهل اختراقها، شهدت مناوشات عسكرية دائمة وضيّقة

النطاق. كانت فترة غريبة، جعلت من البلقان بلاداً مفتوحة على الجميع، يتصارع فيها العبيد، والكاثوليك، والعثمانيون، والبروتستانت، والنبلاء، وآل هابسبورغ، وحتّى المرتزقة الغرباء (الهولنديون والفرنسيون) على مساحة من الأراضي ذات المعالم المتغيّرة وغير الواضحة. وقد أطلق الألمان على تلك الفترة المزعومة من السلام اسم «الحرب الصغيرة» أو Kleinkrieg. لكن بما أنّ إمبراطور هابسبورغ كان قادراً على تسليم الجزية السنوية للأتراك كلّ عام، والحفاظ في الوقت نفسه على مستوى الأعمال العدائية، فهذا يعني أنّ الجانبين لم يكونا راغبَين في الدخول في نزاع عسكري واسع النطاق.

مع ذلك، وقعت حرب واسعة النطاق في نهاية المطاف. ففي عام 1591، أدّى هجوم تركي على الجزء الكرواتي من الحدود بين الإمبراطورية العثمانية وإمبراطورية هابسبورغ إلى ما أصبح يُعرف باسم «حرب الخمسة عشر عاماً»[60]. وتشتمل هذه الحرب على عدد من النقاط الهامّة بالنسبة إلى قصّتنا عن التحالفات الإسلامية المسيحية. من الحوادث الأكثر سطحية (والأكثر إثارة للاستغراب) هي فرار فوج كامل من الجنود الفرنسيين من جيش هابسبورغ الذي أرسلوا لدعمه، وانضمامهم إلى العثمانيين. ففي منتصف الحرب (1597)، اندلع قتال في قصر بابا على الحدود المجرية الكرواتية، بين فوج من 1.500 جندي فرنسي وعدد أصغر بكثير من زملائهم من المقاتلين النمساويين. قام الجنود الفرنسيون، الذين لم يتقاضوا رواتبهم منذ أشهر عديدة، بقتل جنود هابسبورغ. وعندما عرفوا أنّ قوّة أكبر آتية «لتأديبهم»، عرضوا على العثمانيين الانتقال للقتال إلى جانبهم[61]. فرحّب بهم العثمانيون على الفور، ليس لمجرّد القيمة الدعائية المترتّبة على ذلك، بل نظراً مهاراتهم العسكرية أيضاً. فمعظم الفرنسيين كانوا فرساناً ذوي خبرة، وسرعان ما تميّزوا في الحصار العثماني لكانيج (1600)، والدفاع التركي عن إستولني بلغراد (1601). وبحسب بعض المصادر، اعتنق بعض المتمرّدين الإسلام، وأصبح أحد النقباء الفرنسيين في النهاية مديراً عثمانياً لسنجق سيميندر. وقد تلقّوا معاملة جيّدة، لا بل يمكن القول إنّهم كانوا مدلّلين

من قبل أرباب عملهم الجدد. ففي العام الأوّل من استخدامهم، أُنفق من خزينة السلطان ما يزيد عن اثني عشر مليون أقجه على رواتبهم ورعايتهم. يبقى من غير المؤكّد ما إذا كانوا يستحقّون تلك المعاملة الخاصّة، فمع أنّ بعضهم عاد إلى فرنسا بعد انتهاء الحرب، بقي آخرون في الخدمة، مسبّبين للسفير الفرنسي مشاكل لا تحصى بسبب عدم انضباطهم[62].

من الجوانب الأكثر أهمّية لحرب الخمسة عشر عاماً، والفترة المؤدّية إليها، هو أنّها كشفت استعداداً متزايداً من جانب المجريين المعادين لهابسبورغ للنظر إلى العثمانيين كحليف محتمل في نضالهم ضدّ فيينّا. فالحلف الشائن بين إمري ثوكولي والصدر الأعظم في زحفهم على فيينّا، لم يكن، بحسب عديد من المؤرّخين، حلفاً غريباً بين آثمَين (بحسب تعبير الفاتيكان)، بل الأخير في سلسلة طويلة من التحالفات. ويمكننا إيجاد ثلاث سوابق لثوكولي قبل حرب الخمسة عشر عاماً وفي فترات مجاورة، وكلّها تبدأ بالحرف «ب»: باتوري، بوكسكاي، بيتلين.

حارب باتوري (الذي لم يكن مجرّد أمير ترانسلفاني، بل الملك المستقبلي لبولّندا) ضدّ خصم مدعوم من قبل هابسبورغ في معركة كيريلوسينتبال عام 1575. وقد حرص العثمانيون على مساعدته، وقدّموا له كلّ القوّات التي يحتاج إليها ضدّ مرشّح فيينّا. كما وعده السلطان أنّ باشاوات تيمسفار وبودا على استعداد لتقديم المساعدة له. حتّى إنّ الصدر الأعظم قال لباتوري قبل بدء المعركة إنّه إن شعر أنّ قوّاته غير كافية، عليه البقاء داخل القلعة حتّى وصول التعزيزات العثمانية/الولاكية. تمّ التقليل أيضاً من أهمّية المشاركة التركية لهذه المعركة، وذلك على نحو مثير للاهتمام. فمن أصل ما يقدّر بأربعة آلاف جندي، قيل إنّ باتوري لم يستخدم سوى مائتي فارس عثماني لمساعدته. ونحن نعلم أنّ هذا الادّعاء غير صحيح. إذ أثبت المؤرّخ فودور، من خلال مصادر أخرى، كيف أنّ ما يتراوح بين 1.000 و1.500 عثماني من الفرسان والمشاة كانوا موجودين في النصر «المجري» الذي حقّقه باتوري. وتدخل هنا أيضاً بعض العوامل

الشخصية، التي تختلط فيها السياسة الواقعية. فقائد قوّات الدعم العثمانية كان مسلماً يدعى رجب بك، ويبدو أنّ علاقة جيّدة على نحو غير معتاد جمعته مع باتوري. طلب باتوري من السلطان ترقية صديقه المسلم إلى منصب حاكم محافظة مجاورة، كما قدّم توصية تخصّ أحد قادة ضبّاطه. وكلّها شهادات دامغة على أنّ المحسوبية، في جوهرها، لا تعرف حدوداً طائفية أو أيديولوجية[63].

تعتبر حالة بوكسكاي أكثر غرابة. فبعد أن كان الحليف البروتستانتي المخلص للإمبراطور الروماني المقدّس (ملك هابسبورغ رودولف الثاني، غريب الأطوار)، تبدّل موقفه كلّياً في عام 1599. فقد دفعته سياسات فيينّا المعادية للبروتستانتية في نهاية المطاف إلى تولّي قيادة الحركة التمرّدية الأكثر انتشاراً في ذلك الوقت. وبعد حملة ناجحة من الكمائن ضدّ الجيوش النمساوية عام 1604، وقعت سلسلة من الهجمات ضدّ مراكز لآل هابسبورغ في مختلف أنحاء المجر الغربية. نالت تلك الهجمات دعماً كاملاً من كافّة مستويات المجتمع؛ حتّى العبيد والقرويين انضمّوا إليها وضربوا الجنود بالعصي، وقطعوا خطوط المؤونة عنهم[64]. بيد أنّ قوّة الانتفاضة لم تكن مثيرة للدهشة، ذلك أنّ السلوك الوحشي المرَضي للجنرال النمساوي باستا، الذي قتل، وأحرق، وعذّب الناس في معظم أنحاء شمال المجر، ترك ذكريات لن تنسى لعقود عن فظائع هابسبورغ. فرح العثمانيون بنجاح عدوّهم السابق ضدّ آل هابسبورغ. فقدّموا في البداية دعماً غير مباشر لجهود بوكسكاي، ثمّ اعترفوا به رسمياً (عام 1605، قدّم له السلطان أحمد الأوّل، بصفته أمير ترانسلفانيا، تاجاً مصنوعاً في بلاد فارس). ويُعتبر هذا الدعم مثيراً للسخرية، نظراً إلى أنّ بوكسكاي صدّ جيوش الصدر الأعظم سنان، وأجبرها على التراجع عبر نهر الدانوب قبل عشر سنوات[65].

لم يكن سلوك بوكسكاي، كأمير مجري انتقل فجأة من طرف هابسبورغ إلى طرف العثمانيين، الأوّل من نوعه، ولن يكون الأخير بكلّ تأكيد. إذ تملي الاحتياجات السياسية والمادّية المشتركة بوضوح كم يمكن لغير المؤمن أن يكون «غير مؤمن». ففي الصراع ضدّ عدوّ لدود، لا بدّ أنّ إغراء حشد مساعدة

العثمانيين الحاضرين أبداً، بمواردهم الهائلة من المدافع والجنود، كان لا يقاوَم. بالنسبة إلى بوكسكاي، تحوّل كلّ ذلك إلى تضامن مسيحي؛ لكن في شكل معادٍ للكاثوليكية، وليس لتركيا. في هذا السياق، كتب قسّ بروتستانتي قصيدة محلّية عبّر فيها عن امتنانه لبوكسكاي. فقد حرّرهم من آل هابسبورغ الذين كانوا يسيئون معاملة جيرانهم، ويعذّبون الأهالي، ويخرّبون بلادهم. وطلب من الله أن يعيد بواسطته أولئك الرهبان المقلنسين إلى روما[66]! بالكاد يمكن القول إنّ الانسجام المسكوني كان سائداً.

نصل أخيراً إلى بيتلين. كان من سوء حظّ بوكسكاي أن يموت مسموماً على يد مستشاره، الأمر الذي يشير إلى عدم الاستقرار في السياسة المجرية. فخلَفه عام 1613 غابور بيتلين، وهو كالفيني تمكّن من السير بمهارة على الطريق الفاصل بين فيينّا وإسطنبول، واستخدم بحذق أحدهما لمداهنة الآخر. كانت بدايته المهنية محرجة كملك (في الأساس تابع مفروض على المجريين من قبل أحمد الأوّل)، ذلك أنّ أحد شروط الدعم التركي كان استعادة قلعة في ليبوفا. فاضطُرّ بيتلين إلى محاصرة قلعته، التي يدافع عنها جنوده، ليتمكّن من تسليمها للأتراك، وعُرف بعد ذلك باسم «غابور المسلم»[67]. غير أنّ أميراً ترانسلفانيا آخر سيعقبه، وسيحصل على هذا اللقب ليس في المجر فحسب، بل في جميع أنحاء أوروبا، ألا وهو إمري ثوكولي.

من الصليب إلى الهلال: إمري ثوكولي (1657-1705) وحملة فيينّا

مع أنّنا على وشك أن نروي كيف قام أمير مجري (ثوكولي بالمجرية، مع أنّه غالباً ما كان يسمّى «ثيكيلي» بالإنكليزية) بالتحالف مع السلطان التركي لمهاجمة الإمبراطورية النمساوية، سنبدأ بقصيدة اسكوتلندية مشحونة بالغضب، كُتبت في أدنبرة عام 1685، قبل عامين من حصار فيينّا الفاشل:

متمرّد مرتدّ ووضيع، هو الكونت ثيكيلي،
عمّت فضائحه العالم المسيحي، وجلب العار للبروتستانت؛
جرى لاهثاً وراء مطامعه،
فطلّق دينه، وتحالف مع الترك؛

ترك الصليب لأجل الهلال، والشمس لأجل القمر،
خلع الحقيقة واعتمر العمامة؛ وفضّل مكّة على روما.
راهن على نعمته وعلى ربّه، وعلى كلّ ما هو مجيد
طمعاً بلقب وجاه ملك فخري[68].

تستحقّ القصيدة الذكر لأنّها تعطينا فكرة كم كان ثوكولي ذائع (أو سيّئ) الصيت. فقد عُرف في أدنبرة، ووارسو، وأمستردام، وباريس على أنّه حليف الترك. والناس الذين اعتبروا سلوك ثوكولي «خيانة» تناقلوا أخباره على نطاق واسع في بولّندا، وفرنسا، وإنكلترا، وألمانيا، واهتمّ به مثقّفون من أمثال لايبنتز، وسويفت، ودانييل ديفو (مؤلّف رواية روبنسون كروزو). وانتشرت في كافة أنحاء أوروبا رسوم ساخرة للأمير البروتستانتي وهو يرتدي الزيّ التركي، مع شيطان يهمس في أذنه، أو حتّى بوجه أوليفر كرومويل[69]. وفي إنكلترا، كان ثمّة مجموعة من السياسيين اليمينيين الذين عُرفوا لبعض الوقت باسم «الثيكيليين»، بصفتهم بروتستانت معجبين بالمجريين.

حتّى أكثر التقاليد تعاطفاً (تلك الآتية من كتّاب يعرفون كم أساء هابسبورغ معاملة رعاياهم المجر) صوّرت متمرّداً مسيحياً قام، إذا جاز التعبير، بالمراهنة على الحصان الخطأ. مع ذلك، تساءل بعض المعلّقين كيف حدث أن قام بروتستانتي مخلص مثل ثوكولي، وعشرات الآلاف من أتباعه المخلصين أيضاً، بمرافقة القوّات التركية والتترية حتّى براتيسلافا والحدود البولّندية، تحت الراية الإسلامية للعثمانيين.

من شأن معرفتنا بطفولة ثوكولي، والأحداث التي مرّ بها في ذلك الوقت،

أن تساعدنا على فهم ذلك. فقد انتمى ثوكولي إلى أسرة بروتستانتية ثرية، أتت من أقصى جنوب البلاد (من بلدة تقع اليوم في سلوفاكيا وتدعى كيزماروك)، على بعد خمسين ميلاً بالكاد من الحدود البولّندية، وهي المنطقة التي سيعود إليها ثوكولي، بعد عقود من الزمن، وفي أعقابه جيش تركي.

على الرغم من هذا الثراء، عاش ثوكولي طفولة مضطربة. فقد كان والده من كبار المتآمرين ضدّ نظام هابسبورغ الذي عاشوا تحت نيره. وفي عام 1670، شاهد الصبي البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً والدَه وهو يُقتل على أيدي جنود الإمبراطورية، عند جدران قصره في أورافا. فهرب الصبي جنوباً للمكوث عند أقاربه في ولاية ترانسلفانيا الأكثر أماناً نسبيّاً، والواقعة تحت السيطرة التركية. هناك، كبر في دار الصلح العثمانية (وهي حالة اختار العثمانيون فيها القمع الاقتصادي فقط، وليس العسكري)، واختلط بلاجئين آخرين، فتولّدت لديه نزعة قوية مناهضة لآل هابسبورغ، قتلة أبيه.

امتازت سبعينيات القرن السابع عشر بقمع كبير للمنشقّين المجريين، لا سيّما البروتستانت. فقد كان ثمّة مجموعة صغيرة من السياسيين والإداريين (ستُعرف لاحقاً بمؤامرة فيسيليني) يخطّطون لاستعادة أرضهم من النمساويين منذ عدّة سنوات، بمساعدة سرّية من مجموعة من القوى الخارجية؛ تركيا، وفرنسا، وبولّندا، والبندقية. تجدر الإشارة هنا إلى أنّ المؤامرة اشتملت على بعض العناصر الفكاهية: تعاون المستشار الأعلى لآل هابسبورغ، ومحاولة مزعومة لاغتيال الإمبراطور من خلال فطيرة مسمومة، ومستوى غير مهني على الإطلاق من السرّية (قام مترجم تركي بإفشاء كلّ شيء للنمساويين في بلاط فيينّا، بحيث بدا في النهاية أنّ الأشخاص الوحيدين الذين لم يعرفوا بافتضاح المؤامرة هم المتآمرون أنفسهم)[70]. وكان والد ثوكولي متورّطاً في هذه الخطّة، التي أدّى اكتشافها إلى ردّ فعل قمعي عنيف ذي أبعاد أسطورية.

أوّلاً، تمّ عملياً إعدام كلّ المشاركين، وذلك بعد سلسلة من المحاكمات الصورية غير المقنعة، باستثناء الأمير راكوتسي، الذي تدخّلت أمّه الكاثوليكية،

ووعدت بـردّ ابنهـا إلـى الطريـق القويـم، فنجحـت بذلـك فـي إنقاذه مـن حبل المشـنقة. ثمّ عُلّق العمل بالدسـتور المجـري (بقدر ما كان سـارياً) علـى الفور، وتمّ اعتقال القساوسـة اللوثريين والكالفينييـن في كلّ مكان، وسـجنهم، أو حتّى إرسـالهم للعمل كعبيـد في مطابخ السـفن. أُحرقـت الكتب، وأُغلقـت الكنائس، وتمّ جرّ البروتسـتانت مـن كلّ الطبقات (من أرسـتقراطيين وعبيد على السـواء)، إلى الكنائس الكاثوليكية، وإجبارهم، بأيديهم المقيّـدة على الجانبين، على تناول القربان الكاثوليكي المقدّس. كما عمد ضبّاط ألمان عديمو الضمير إلى استغلال الأزمة من أجل «مصادرة» كمّيات هائلة من الأمـوال والممتلكات المجرية (وهو تكتيك استخدمه أيضاً البروتستانت عندما كان الإصلاح يجتاح المجر). واشتكى كاثوليك المجر بمرارة من الاسـتخدام المنافق للدين، لتبرير ما كان بالنسبة إليهم توطيد الحكم الاستعماري بشكل أساسي[71].

لكي نكـون منصفين مـع آل هابسـبورغ، تجـدر الإشـارة إلى أنّ سـجلاّت البلاط فـي فيينّا تشـير إلـى وجود عناصـر داخـل التسلسـل الهرمـي للإمبراطور دافعت عـن معاملة أكثر ليناً مع «المجريين». فـي الواقع، لم يكن آل هابسـبورغ أغبياء، بل أدرك كثير منهم أنّ النزعة الاسـتبدادية الجديدة سـتنقلب ضدّهم على المدى الطويل. ومع الأسـف، كانت حمائم هابسـبورغ في هذه الحالة أقلّ تأثيراً من الصقور في جـذب الإمبراطور ليبولد إلى جانبها. إذ يبدو أن الجشـع شـكّل حافزاً متكرّراً، فالإغراء باسـتملاك قصر أحد النبلاء أو كنيسـة أحد القساوسة في ظلّ «أزمة» أو «تهديـد» كان ببسـاطة لا يقاوَم[72]. ولا شـكّ أنّه لـو كان حكم آل هابسـبورغ في المجر العليا أكثر اهتماماً بالعدالة منه بالسيطرة، لما تمكّن الجيش التركـي المجري من اكتسـاح البلاد بتلك السـرعة في طريقه إلى الشـمال، وضمّ مدينة تلو الأخرى من دون مقاومة تُذكر.

الأحداث في الخارج:

لويس الرابع عشر وحلفه مع الأتراك

ماذا كان يجري خارج البلقان؟ على غرار ثوكولي، كان الملك الفرنسي لويس الرابع عشر موضوع «حرب إعلامية» في الفترة نفسها. فمع أنّ الأحلاف الفرانكوتركية لم تكن ظاهرة جديدة (بعد قيام آل هابسبورغ بإبادة قوّات فرانسيس الأوّل في معركة بافيا عام 1525، هُرع الملك الفرنسي إلى السلطان سليمان القانوني، وطلب مساعدته ضدّ شارل الخامس)، إلاّ أنّ لويس الرابع عشر أصبح موضوعاً دائماً للهجاء اللاذع والجدل، سواء في فرنسا أو خارجها، بسبب مساندته للعثمانيين ضدّ دولة أوروبية مسيحية. وبشكل خاصّ، شكّل قراره مهاجمة ستراسبورغ، في هابسبورغ الغربية، في الوقت الذي كانت فيه جيوش قره مصطفى تضرب حصاراً على فيينّا، مثالاً سيّئاً عن الانتهازية العسكرية بالنسبة إلى كثيرين. ثمّة من اعتبر الملك المسيحي «تركياً مسيحياً وعدوّاً لدوداً لأوروبا بقدر العدوّ المحمّدي»، في حين أنّ كتيّباً نُشر عام 1683 صوّر وزير الخارجية الفرنسي وهو يتحدّث عن مدى تفاهم الفرنسيين والأتراك[73]. لكن داخل فرنسا، بدا أنّ مناخاً من المحبّة لتركيا بدأ يغلب على بعض قطاعات المجتمع. فعندما تكتب سيّدة أرستقراطية واجتماعية مثل مدام دو سيفينييه لابنتها عن «صديقنا التركي»، يبدو واضحاً أنّه حتّى بالنسبة إلى الكاثوليك الفرنسيين، لم يعد الاختيار بين القوّة الصاعدة لجار نمساوي والجلبة الأبعد لعدوّهم العثماني هو مسألة ديانة[74].

كان دعم لويس الرابع عشر للعثمانيين أقرب ما يكون إلى السياسة الواقعية النقية، شأنه شأن أيّ حلف آخر ورد ذكره هنا. ففي عام 1664، ساعدت القوّات الفرنسية آل هابسبورغ على الانتصار على جيش عثماني (مؤلّف بمعظمه من جنود مسيحيين ورومانيين، بالإضافة إلى القوّات التركية) في سانت غوتهارد، وكانت معركة «مسيحية» نظّمها البابا، وفيها قال إمبراطور هابسبورغ نفسه إنّ المساعدة الفرنسية غير مرحّب بها[75]. وكان لويس الرابع عشر قد أرسل

جنوداً فرنسيين لمساعدة عدوّه اللدود ضدّ العثمانيين، ليكون له موطئ قدم في الشؤون الألمانية، وليس من باب التعاطف مع آل هابسبورغ (في الواقع، وبعد ثماني سنوات، سيقود الجنرال نفسه الذي كسب المعركة جيوشاً ضدّ فرنسا على نهر الراين). وعد لويس سرّاً، غير أنّه لم ينفّذ وعده، بإرسال جيش من 1.500 جندي لمساعدة المتمرّدين المجريين عام 1666. ففي مؤامرة فيسيليني، كانت فرنسا عنصراً رئيساً، إلى أن تمّ اكتشاف المؤامرة. عندئذ، وإنقاذاً لحياة السفير الفرنسي، قام لويس بتهنئة إمبراطور هابسبورغ على إحباطه المخطّطات الغادرة والخبيثة التي حيكت ضدّه.

ليس من المستغرب ألاّ تبدأ فرنسا رسميّاً بدعم العثمانيين إلاّ بعد اندلاع الحرب النمساوية الفرنسية في عام 1673 - بعد ذلك، انخرطت فرنسا في تلك العلاقة بشغف كبير، ووعدت بالوقوف على الحياد في أيّ هجمات مجرية عثمانية على حدود أراضي هابسبورغ، كما موّلت الانقلابيين المجريين، لا بل واستخدمت سفراءها في برلين لثني البروس عن مساعدة فيينّا، مع اقتراب جيش الصدر الأعظم. لم تتبدّد هذه الكراهية الفرنسية القديمة تجاه آل هابسبورغ النمساويين سريعاً. فحتّى خلال العقد الأوّل من القرن الثامن عشر، مع تورّط المجر في حروب الاستقلال ضدّ فيينّا، انشغل الدبلوماسيون الفرنسيون في إسطنبول لمحاولة إقناع العثمانيين بشنّ هجوم آخر على النمسا[76].

تستحقّ بولّندا هي أيضاً الذكر. فكما سنرى لاحقاً، قامت جيوشها بإنقاذ فيينّا من المحاصرين العثمانيين في اللحظة الأخيرة، مع اقتحام الملك البولّندي جان سوبيسكي المعسكر التركي وإخراجهم من كالنبيرغ. مع ذلك، لم يكن تاريخ العلاقات البولّندية بالإمبراطورية العثمانية ينطوي على عداء. فما من دولة أجنبية أوفدت مبعوثين إلى إسطنبول بقدر بولّندا[77]. حتّى إنّ البولّنديين والأتراك قاموا ببعض الحملات العسكرية المشتركة؛ في ستينيات القرن السادس عشر، بُذلت محاولات جادّة لإقامة حلف بولّندي عثماني ضدّ موسكو، وفي ثلاثينيات القرن السابع عشر، تمّ إرسال قوّة بولّندية عثمانية ضدّ القوزاق[78].

وغالباً ما أدّت مشاعر العداء بين بولّندا وآل هابسبورغ إلى التعاطف مع بعض الاستراتيجيات العثمانية. فقد اعتبر البولّنديون دولتي مولدوفيا وولاكيا (اليوم في رومانيا)، التابعتين للإمبراطورية العثمانية، دولاً عازلة ضدّ توسّع إمبراطورية هابسبورغ. وعلى غرار فرنسا، لم تكن بولّندا تثق بجارتها العدوانية، أي إمبراطورية هابسبورغ. لكن خلافاً لفرنسا، قرّرت في نهاية المطاف مساعدتها في اللحظة الأخيرة، وذلك لقاء ثمن اتُّفق عليه بعناية.

وصول ثوكولي إلى السلطة

هكذا، ومع تتابع الأحداث المؤدّية إلى حصار فيينّا ببطء، نرى تكاتفاً تدريجيّاً لعدد من القوى المختلفة: تصاعد التوتّر بين قوّة هابسبورغ المتنامية وجيرانها (بولّندا وفرنسا من الجانبين، والولايات الألمانية في الشمال)؛ ورغبة براغماتية من جانب فرنسا لمساعدة أعداء عدوّها، وصولاً إلى أطراف أوروبا وما وراءها؛ واستياء متزايد من جانب الدول البروتستانتية الشمالية إزاء معاملة آل هابسبورغ لغير الكاثوليكيين؛ احتكاكات في المجر بين النبلاء، والجنود، والعبيد؛ وبشائر سلسلة كاملة من أعمال التمرّد على الأراضي المجرية، مولّدة مزاجاً ثورياً سيقرّر البلاط العثماني في نهاية المطاف الاستفادة منه إلى الحدّ الأقصى في مخطّطاته الخاصّة بشأن وسط أوروبا. هذا المزيج شبه الكيميائي من البروتستانت الساخطين، والفلاّحين المذلولين، والوزراء الطموحين، والقياصرة الظالمين، والنبلاء الجشعين، والكرادلة الذين يحبّون التدخّل في شؤون الدولة وفّر العناصر الأساسية لردّ فعل سيجلب أحد أكبر الجيوش العثمانية على الإطلاق (ما يزيد عن 12.000 جندي) إلى وسط أوروبا.

لفترة معيّنة، أدّى ثوكولي دوراً مركزياً في هذه العلاقة. كان مصيره محزناً، بحيث أنّه من الصعب عدم النظر إلى سنوات حياته الأولى النابضة بالحماسة بمزيج من السخرية والأسف. فقد سار كلّ شيء على ما يرام بالنسبة إليه حتّى عام 1683، لينقلب كلّ شيء ضدّه في ما بعد. كان ثوكولي شابّاً كاريزماتياً، ومليئاً

بالثقة والحماسة الوطنية، ألقى ظلاله على معاصريه، الأمر الذي أعماهم ربّما عن عيوبه المتمثّلة في انعدام البصيرة السياسية، وقلّة فهم التخطيط العسكري. ممّا لا شكّ فيه أنّه كان موهوباً. ففي سنّ الثالثة والعشرين، وجد نفسه جنرال الكوروتسين، واكتسب سمعة كزعيم متمرّد.

كان الكوروتسين (بالمجرية كوروتشوك، أي حرفياً «الصليب» أو «الصليبي») مقاتلين مجريين أشدّاء، وجامحين في أغلب الأحيان، منهم من كانوا خارجين سابقين عن القانون، ومنهم من كانوا جنوداً سابقين، أصبحوا من الأصول القيّمة لدى ثوكولي في الصراعات التي أعقبت ذلك. كانوا مسؤولين عن اقتحام القرى والبلدات الصغيرة في أراضي هابسبورغ، ونهبها، بالتعاون أحياناً مع الأتراك أو التتار (إلى حدّ أنّهم لُقّبوا في مرحلة من المراحل باسم «كروكسيتوركن»[79])، وقد نجح ثوكولي إلى حدّ ما بانتزاع درجة غير عادية من الولاء والطاعة منهم. وشكّل ذلك عاملاً أساسيّاً في ظهوره كقائد بارز لحركة التمرّد. في تركيا، عُرف ثوكولي باسم كوروس بك أو «أمير الكوروتسين». وقد اعترفت به كلّ من باريس وإسطنبول على أنّه المرشّح الوحيد لاعتلاء عرش المجر في المستقبل.

عام 1678، أي قبل خمس سنوات من الهجوم النهائي على فيينّا، أعلن ثوكولي حرباً مفتوحة على آل هابسبورغ. فتحرّك مع جيشه من الكوروتسين، ومباركة العثمانيين، عبر جبال المجر العليا الخاضعة للسيطرة النمساوية (سلوفاكيا اليوم)، واستولى على بلدة تلو الأخرى بنجاح باهر. بحلول عام 1681، أصبح الجزء الأكبر من المنطقة تحت سيطرته. ومع عشرة آلاف من الكوروتسين، والجيش العثماني المنتمي إلى باشا أوراديا إلى جانبه، أصبح قادراً على إجبار إمبراطور الهابسبورغ على إعلان الهدنة[80]. في العام التالي، ولاختتام هذا الصعود المذهل إلى السلطة، تمّ تتويجه ملكاً على المجر العليا من قبل باشا بودا، وتزوّج، وهو في سنّ الخامسة والعشرين، حبّ حياته، إلونا زريني، التي تكبره بثلاثة عشر عاماً. لا شكّ أنّ القدر كان يبتسم لإمري ثوكولي.

ثمّة جدل بين المؤرّخين حول صاحب فكرة محاولة الاستيلاء على فيينّا. في ذلك الوقت، ألقى الرأي العام اللوم على لويس الرابع عشر على نطاق واسع، باعتباره هو من حرّض الأتراك على الزحف على أوروبا. وأصرّ آخرون على أنّ الصدر الأعظم، قره مصطفى، هو من أقنع السلطان بفرض حصار على «التفّاحة الذهبية»، تلك المدينة الأوروبية الأسطورية التي سيؤدّي سقوطها بين أيدي المسلمين إلى نهاية العالم. غير أنّ كثيراً من الناس زعموا أنّ إمري ثوكولي هو الذي أتى بفكرة الاستيلاء على عاصمة الإمبراطورية، في أثناء حديث له مع قره مصطفى. يأخذ المؤرّخ كوبيتسي بهذا الرأي، ويرجع السبب جزئيّاً إلى أنّ ثوكولي أراد أن لجيش العثمانيين الكبير أن يتقدّم بأسرع ما يمكن عبر المجر، لا سيّما وأنّ الوجود العثماني في فيينّا سيعزّز موقعه في المجر.

واجه ثوكولي بعض المشاكل مع نبلائه المستائين من علاقته الوثيقة بالبلاط العثماني. ونظراً إلى حرصهم على حماية مكانتهم الاجتماعية، وقلقهم حيال العلاقة الحميمة المتنامية بين ثوكولي والباشاوات، طلبوا أن يعرفوا تحديداً أيّ نوع من الوثائق وقّع «أمير الكوروتسين» مع السلطان. في البداية، أعطاهم ثوكولي رفضاً دبلوماسياً (قال لهم: إنّ الوثائق لم تجهز بعد، ولن تكون متاحة قبل أن يتمّ التوقيع عليها). فأصرّ النبلاء على أنّهم سيسحبون دعمهم إن لم يطّلعوا على الوثائق. عندئذٍ صاح ثوكولي غاضباً: «ليكن الله بعوني. إن لم تنضمّوا إليّ، لن تدفعوا الثمن بذهَبكم وممتلكاتكم فحسب، بل بأرواحكم أيضاً»[81].

هل كان ثوكولي محبّاً للأتراك؟ وما هي بالضبط درجة الصداقة التي جمعت بينه وبين قره مصطفى والعثمانيين، الذين يتعاون معهم على نحو وثيق إلى هذا الحدّ؟ لا شكّ في أنّ الادّعاء القائل إنّ التحالف المجري التركي كان قائماً على مزيج من الخوف والانتهازية صحيحٌ إلى حدّ ما. فقد رأى ثوكولي في العثمانيين بكلّ بساطة الوسيلة الوحيدة لإخراج آل هابسبورغ من بلاده؛ «الاستقلال تحت شعار الهلال»، كما أشار أحد المؤرّخين[82]. غير أنّ مقتل

والده، والمساعدة المادّية التي قدّمها الباشاوات لاستعادة مدن مثل كاسّا، ناهيك عن انتمائه إلى العقيدة البروتستانتية (التي لا ينبغي الاستهانة بها أمام خلفية من الاضطهاد الكاثوليكي الذي مارسه آل هابسبورغ) كان له دور في تعاونه مع العثمانيين. في الواقع، من الصعب ألاّ نستغرب الحسّ الواضح بالوحدة والتصميم عند قراءة تقارير ثوكولي ولقاءاته مع الصدر الأعظم. فعندما يستقبل قره مصطفى ثوكولي في بلدة إسيك المجرية (في كرواتيا اليوم)، كانت تُتّبع الرسميات المعتادة: يقوم ثوكولي بتقبيل ثوب الصدر الأعظم، ويتبادلان الهدايا، إلخ. لكنّ التفاصيل الصغيرة هي التي تستوقفنا: العدد الكبير من الباشاوات والوجهاء الذين يخرجون لتحيّة ثوكولي عند وصوله، ومختلف الأعلام المجرية التي تختلط مع العلام التركية في موكب الجنود المارّين، أو الطريقة التي يقوم بها كثير من ضبّاط ثوكولي بقيادة فرسان أتراك[83]. من الجانب العثماني، من المثير للاهتمام أيضاً أن نقرأ في التقارير الإسلامية عن دور ثوكولي في الحملة الملاحظات المهينة للمسيحيين، الذين يوصفون أنّهم «كفّار» (gavurlar) وذلك في الصفحة نفسها، لا بل وأحياناً في جمل متجاورة، مع الإشارات المنطوية على احترام كبير إلى «أمير الكوروتسين» (Kurus Beg)[84]. من الواضح جدّاً، بالتالي، وجود نوعين من المسيحيين بالنسبة إلى المسلمين العثمانيين: مسيحيون معادون (وهم الكفّار) ومسيحيون موالون، وفي هذه الحالة لا يعود للانتماء المسيحي لحلفائهم أهمّية تُذكر.

حصار فيينّا (1683) وما بعده

في 3 مايو 1683، اجتمع الجيش العثماني الذي كان ينوي الانطلاق إلى فيينّا في بلغراد أخيراً. وكان عبارة عن حشد ضخم من الجنسيات والأعراق، بحسب المؤرّخ باركر. فبالإضافة إلى الوحدة المسلمة (من أتراك، وعرب، وأكراد) اشتمل الجيش على يونانيين، وأرمن، وصرب، وبلغار، ورومانيين، ومجريين، وسيكيليين، ومجموعة كاملة من المرتدّين الغربيين. من الصعب

التأكّد من الحجم الفعلي للجيش الأسطوري، مع أنّ التقديرات تشير إلى أنّ عديده تراوح بين 100.000 و120.000 جندي، بمن فيهم وحدة دعم من اثني عشر ألف مولدوفي/ ولاكي (مسيحي)[85]. كان جيش ثوكولي متمركزاً على مسافة أبعد بكثير إلى الشمال، وسيتولّى عمليّة منفصلة في معظم فترة الحملة، منتقلاً عبر المجر العليا باتجاه براتيسلافا، في تقدّم مشترك مع القوّات التركية تحت قيادة كور حسين باشا [حسين باشا الأعور]. وإن سلّمنا جدلاً بصحّة التقديرات التي أوردت أنّ عدد الكوروتسين وغيرهم من المؤيّدين الذين جمعهم ثوكولي بلغ 100.000 جندي، تتّضح لنا حقيقة واحدة، وهي أنّ أكثر من نصف الجيش «التركي» الذي زحف على إمبراطورية هابسبورغ كان من المسيحيين[86].

بالطبع، كانت الأجواء متوتّرة في فيينّا. فجيش السلطان، الذي ناهز حجمه ملء ملعبَين مزدحمَين لكرة قدم ، تنقّل من بلدة إلى أخرى بالسرعة والكفاءة التي اشتُهر بها العثمانيون[87]. وبحلول 14 يونيو، وصل الجيش إلى بلدة إسيك. فأصغى الإمبراطور ليوبولد إلى نصيحة مستشاريه، وهرب من المدينة متسلّلاً خارج أسوارها في منتصف الليل، وهو عمل أثار حفيظة الشعب ضدّه (ما نسمّيه اليوم على الأرجح «خطوة سيّئة على صعيد العلاقات العامّة»). ومع وصول الأخبار إلى فيينّا عن المدن المجرية التي استسلمت للجيش التركي من دون مقاومة، نظراً إلى علاقاتها السيّئة مع هابسبورغ، عمّ العاصمة مزيج من الغضب والذعر. على طول الطريق إلى فيينّا، كانت الأحداث تروي القصّة نفسها: توصّلت مدن مثل كيسو وراباكوز بسرعة إلى تفاهم مع الجيش الغازي، وهو أمر سهّلته، بحسب اعتراف أحد المعلّقين النمساويين، درجة الاستياء المجري من القوّات النمساوية المنسحبة. في كيسو، رفض الأهالي مساعدة جيش هابسبورغ على تدمير الجسر، كجزء من حيلة دفاعية. وكتب أحد النبلاء المحلّيين إلى الإمبراطور ليوبولد يخبره أنّ كلّ من في منطقته ذهب لاستقبال ثوكولي والأتراك. ولم ينجُ الأرستقراطيون المجر المخلصون لفيينّا. فقام بروتستانت

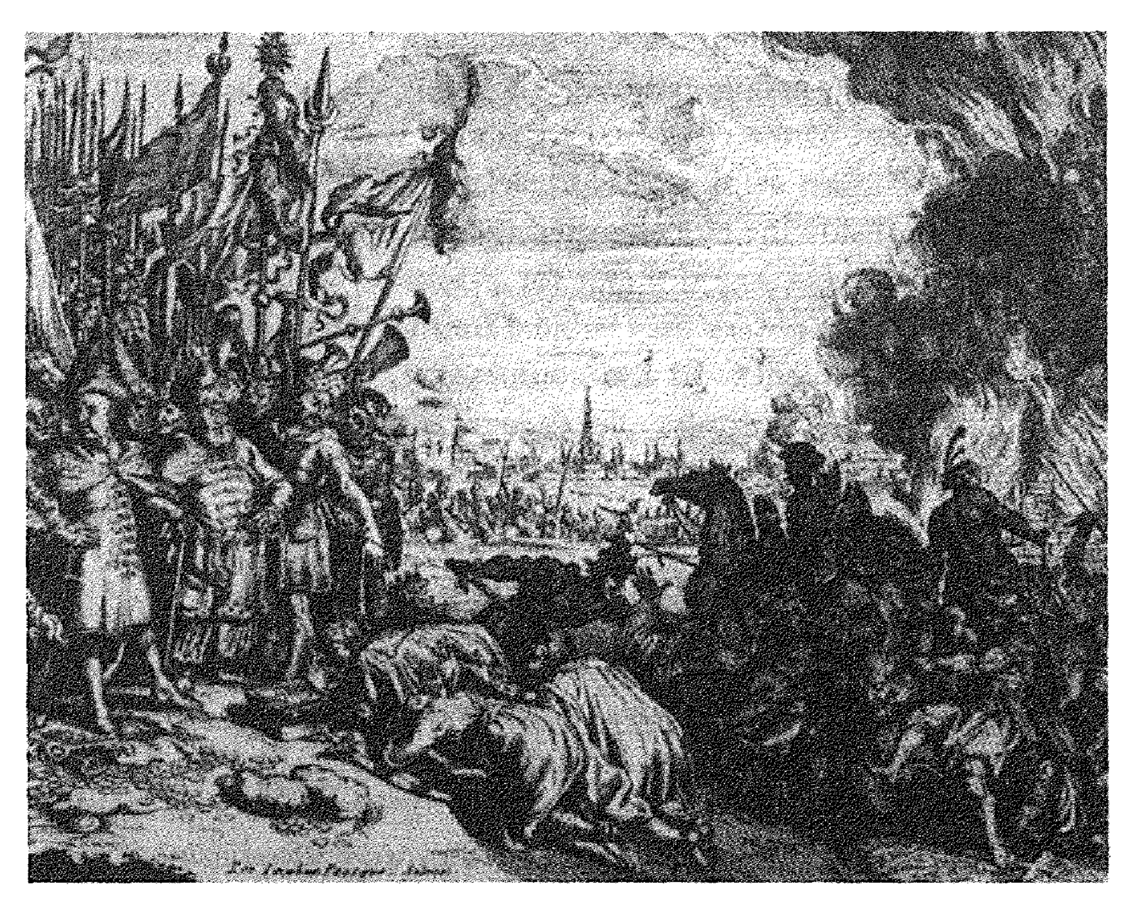
شـوبرون بمسـاعدة الموالين لثوكولي مثلاً علـى نهب قصر الكونت إشـتيرهازي خلال مرور الجيش به[88].

مـن المثيـر للاهتمـام أن نـرى كيـف كان النـاس علـى اسـتعداد، حتّى في عام 1683، لتحميل رؤسـائهم مسـؤولية السياسـة الخارجيـة الخاطئة. ففـي فيينّا، عبّر النـاس العاديون عـن غضبهم من الكنيسـة الكاثوليكيـة، التـي أدّت معاملتها لبروتسـتانت المجـر إلى جلـب الجيـش التركـي والكالفينييـن المجرييـن إليهم. وفي 5 يوليو، أقدم الناس في المدينة على تحطيم نوافذ منزل الأسـقف سـينيلّي. وسـرعان ما أصبح من الصعـب على الكهنة المشـي في الشـوارع، لأنّهـم كانوا عرضة للإسـاءات اللفظيـة أوّلاً، ومن ثمّ للعنف الجسـدي الفعلـي. في الأرياف المحيطـة بفيينّا، كانـت الأمور أسـوأ، بحيث اضطُرّ رجـال الدين فـي النهاية إلى التنكّر بملابس عادية تجنّباً للتعرّض للاعتداءات[89].

كان الفلاّحون الذيـن أُجبروا على إقامـة حواجز على الطرقـات خارج فيينّا مسـتائين وغير متعاونين. فقد أُجبروا لسـنوات عديـدة على دفـع الضريبة التركية (Türckensteuer)، التـي كان الغـرض منها حمايتهـم تحديداً مـن التهديد الذي يواجهونه الآن. غير أنّ نظام الإنذار فشل، وفرّ الأرستقراطيون المشرفون عليهم، بمن فيهم الإمبراطور نفسـه. وليس من المسـتغرب أن يكثر الفسـاد، مع تقاضي العبيد والعمّال الرشـاوى من أجل السـماح بعبور الحواجز التي يشـرفون عليها. وغالباً ما اضطُـرّ الكهنة، خصوصاً، على دفع الرشـاوى لاسـتخدام تلك الطرق، وتعرّضوا في أحيان كثيرة للشتم وسوء المعاملة أثناء مرورهم[90].

مع أنّه، من وجهـة نظر هـذا الكتاب، شـهدت حملـة فيينّا لعـام 1683 أكبر تعاون عسـكري إسـلامي مسـيحي في تاريخ أوروبا، إلاّ أنّ التعاون بين مختلف الأديان لـم يكن متناغمـاً دائماً، علـى الرغم من وجـود عدوّ مشـترك. إذ لا يبدو أنّ ثوكولي والباشـا الـذي يتقـدّم معه نحو براتيسـلافا، كور حسـين، كانـا يكنّان لبعضهمـا تقديـراً كبيـراً (فـي إحـدى المناسـبات، اضطُـرّ الصـدر الأعظـم إلـى

التدخّل علناً، وإجبار الرجلين على المصالحة). كانت العملية مهمّة، شارك فيها ستّة آلاف جندي تركي، إلى جانب خمسة عشر ألفاً من جنود ثوكولي، في محاولة للاستيلاء على المدينة السلوفاكية الصغيرة. يبدو أنّ ثوكولي تفاوض على الاستسلام السلمي للمدينة مع الإدارة (البروتستانتية بمعظمها)، ويبدو أنّ إحجامه عن الدخول في قتال سبّب خلافاً تكتيكياً بين الضبّاط المجريين والعثمانيين. في الواقع، إن أردنا تصديق الرواية المسلمة (العدائية للغاية) لتعاون ثوكولي، نجد أنّ أمير الكوروتسين خشي في أكثر من مناسبة أن يعمد جنوده المسيحيون، الذين يقاتلون إخوانهم في الدين، إلى الانتقال إلى الطرف الآخر. وفي إحدى المناسبات أيضاً، اضطُرّ ثوكولي إلى تذكير زملائه الضبّاط العثمانيين أنّ الأهالي سيصبحون رعايا عثمانيين فور تحقيق النصر، وبالتالي فهم أكثر قيمة أحياءً منهم أمواتاً[91].



نقش يرجع إلى عام 1683 لجنود يكرّمون ثوكولي والوزير الأكبر إبراهيم

نهاية حصار فيينّا معروفة جيّداً، وقد تحوّلت الآن إلى أسطورة. فقد خيّم جيش الصدر الأعظم خارج المدينة لأقلّ من شهرين، يلغّم الأسوار الخارجية ويقصفها، في حين تمكّن البابا أخيراً من إقناع الملك البولَندي سوبيسكي بالانضمام إلى تحالف للدفاع عن المدينة. أمّا قره مصطفى، فارتكب خطأً فادحاً بترك مخيّمه مفتوحاً على الهجوم. هكذا، في 12 سبتمبر، أي بعد سبعة أسابيع من بدء الحصار، وفي وقت كانت فيه القوّات العثمانية على وشك اختراق أسوار المدينة، وصل جيش بقيادة الملك البولَندي من خلف المحاصرين، وطردهم من معسكرهم. فشتّت شملهم، وألحق بالعثمانيين هزيمة دفعتهم إلى الانسحاب جنوباً، حتّى بودا.

بالنسبة إلى العثمانيين، سيؤدّي فشل الحصار والهزيمة إلى خسارة البلقان بأكملها لاحقاً. أمّا بالنسبة إلى ثوكولي، الذي أحرق عملياً كلّ الجسور التي تصله بآل هابسبورغ بوقوفه إلى جانب العثمانيين، فكان ذاك هو أسوأ خبر يتلقّاه في حياته. وفي صراعه لاستعادة المجر من آل هابسبورغ، سيخوض ثلاثة معارك أخرى لصالح الأتراك: زيرنشت (1690)، وسلانكامين (1691)، وزنتا (1697). ومع أنّه حارب ببسالة وتميّز، وقاد الجواد التركي إلى جانب مقاتليه الأقلّ عدداً من الكوروتسين الأوفياء ضدّ قوّات الإمبراطورية، إلاّ أنّ المعارك الثلاث كانت مجرّد لحظات بسيطة من المقاومة لما بات محتوماً. فقد عاد النمساويون إلى المجر للبقاء، وسبق وسقطت بودا عام 1686؛ على ما يبدو، تمّ سلخ الأتراك، واستُخدمت جلودهم كأدوية في الصيدليات. كما يبدو أنّ عدد السكّان اليهود في بودا شهد انخفاضاً حادّاً بعد «تحريرها» على أيدي الهابسبورغ[92]. تضاعف الاضطهاد الكاثوليكي للبروتستانت، واعتُبر مشروع الكاردينال كولونيش، Einrichtungswerk، لعام 1689، بمعظمه مخطّطاً لاستعمار وضمّ المجر إلى إمبراطورية هابسبورغ. بتعبير آخر، انتقلت المجر من حاكم إلى حاكم آخر، من دون أن يجد المجريون العاديون سبباً للفرح بذلك. وتميل الإشارات السطحية للمؤرّخين الغربيين حول «إنقاذ العالم المسيحي» إلى التغاضي عن

هذا الإخضاع الجديد للشعب المجري، الذي كان ضرورياً للاستمتاع بلحظة من التهنئة الأوروبية للذات.

أمّا بالنسبة إلى ثوكولي، فكان مصيره الكئيب هو المنفى. أوّلاً إلى إسطنبول، مع زوجته، حيث عاش كملك منفي، غير أنّه ظلّ يمنّي النفس بالعودة إلى الوطن. عاش الزوجان في حيّ غالاتا الأوروبي، مع حاشية صغيرة وموثوقة من الخدم. لكن مع تراجع النفوذ العثماني في البلقان، تراجعت حظوظه. وفي عام 1701، أجبره نفوذ جماعات الضغط القوية في بلاط السلطان إلى الانتقال إلى أبعد من ذلك. فرحل إلى بلدة ريفية صغيرة تدعى إزميت (تقع اليوم على بعد ساعة بالسيارة خارج إسطنبول). من الغريب التفكير بالأمير المجري السابق وزوجته المترفة، الذي كان نـدّاً لليوبولد الأوّل ولويس الرابع عشر، وامتلك آلاف الأميال المربّعة من الأراضي المجرية، ليعيشا آخر أيّامهما في قرية تركية اهتمّا فيها (بحسب التقارير) بحديقة صغيرة، واعتمدا على الزوّار المجريين لتقصّي آخر أخبار الوطن. توفّيت زوجة ثوكولي عام 1703، وبعد عامينَ من الوحدة، تبعها ثوكولي عام 1705، عن عمر يناهز ثمانية وأربعين عاماً.

في النهاية، من الصعب علينا، سواء كنّا أشخاصاً عاديين أو مؤرّخين، أن نعيش مع حقائق غير مريحة ببساطة. فلا أحد يرغب في الاطّلاع على حقائق أو روايات تجعلنا نشكّك في صلاح الجنس البشري. لقد كانت فترة المائة وخمسين عاماً من الصراع بين العثمانيين وآل هابسبورغ كارثة على المجر، ولا يمكن لأحد أن ينكر ذلك. كما لا يمكن لأحد أن ينكر البؤس الهائل الذي دمغ حياة الناس العاديين خلال تلك الفترة، من حرق، واغتصاب، وقتل، وتعذيب، ومستويات فظيعة من القسوة (كسلخ السجناء أحياء، وهو عمل مارسه كلا الطرفان).

غير أنّ ما يمكن، لا بل ما ينبغي بحثه هو كيف لنا أن نفهم بعضاً من أكثر الأحداث المؤلمة في القرن السابع عشر من خلال كلمات مثل «مسلم» و«مسيحي»، أو حتّى «أوروبي» و«تركي». لقد استخدم آل هابسبورغ

(والمؤرّخون الغربيون المتعاطفون معهم، حتّى في يومنا هذا) هذه التعابير لأنّها كانت تؤدّي وظيفة معيّنة. فبالحديث المستمرّ عن فظاعة الترك، تمكّنوا من استبعاد بعض النقاط غير المريحة من النقاش، كاستغلالهم الفقراء بلا رحمة، وظلمهم للطوائف الأخرى، واستملاكهم للموارد الأخرى للبلاد، وسيطرتهم عليها. عزف العثمانيون هم أيضاً على الوتر نفسه. فأطلقوا تسمية «جيش الإسلام» بسخافة على جيش اعتمد على تعاون أعداد هائلة من «الكفّار»، وهو أمر نادراً ما تمّ الاعتراف به، باستثناء العلماء الأكثر راديكالية. ربّما كان الدرس الذي نستمدّه من كلّ هذا هو أنّ قرار التخلّي عن تعابير مثل «الإسلام» و«المسيحية»، و«الكفّار» و«الترك» يتطلّب شيئاً من الشجاعة، ورغبة في انفتاح الفرد والمجتمع على الانتقادات من دون تحفّظ. وتستمرّ أسطورة أوروبا المسيحية، التي تعرّضت للغزو على يد جيش الإسلام، لأنّنا لم نجد بعد هذه الشجاعة.

الفصل الخامس

حرب القرم (1853-6): مسلمون من كلّ حدب وصوب

يأخذنا الفصل الأخير خطوة أخرى شرقاً، ومائة وخمسين عاماً إلى الأمام، إلى ساحل القرم الأوكراني، في منتصف القرن التاسع عشر. تُعتبر حرب القرم، التي امتدّت إلى كافة أنحاء البحر الأسود، من بلغاريا إلى حدود جورجيا، وشمال شرق تركيا، أوّل حرب حديثة بالفعل. وثمّة عدد من الأسباب لذلك. فقد كانت أوّل حرب يُستخدم فيها التلغراف ومصوّر الحروب، وأوّل صراع تتمّ تغطيته يومياً في الصحافة الشعبية. وقد شهدت أوّل حقل ألغام بحري، وأوّل معركة تنطوي على استخدام للبواخر. والأهمّ من ذلك، بالنسبة إلى بحثنا، هو أنّها شكّلت أوّل صراع كبير يمتاز بمكانة عالمية من حيث تعدّد جنسيات المقاتلين. فجنود حرب القرم لم يكونوا بريطانيين، وأتراكاً، وفرنسيين، وروسيين فحسب، بل استُقدموا من مناطق بعيدة، كالهند، وتونس، وإيرلندا، والولايات المتّحدة، وسوريا، وفنلندا، ومنغوليا.

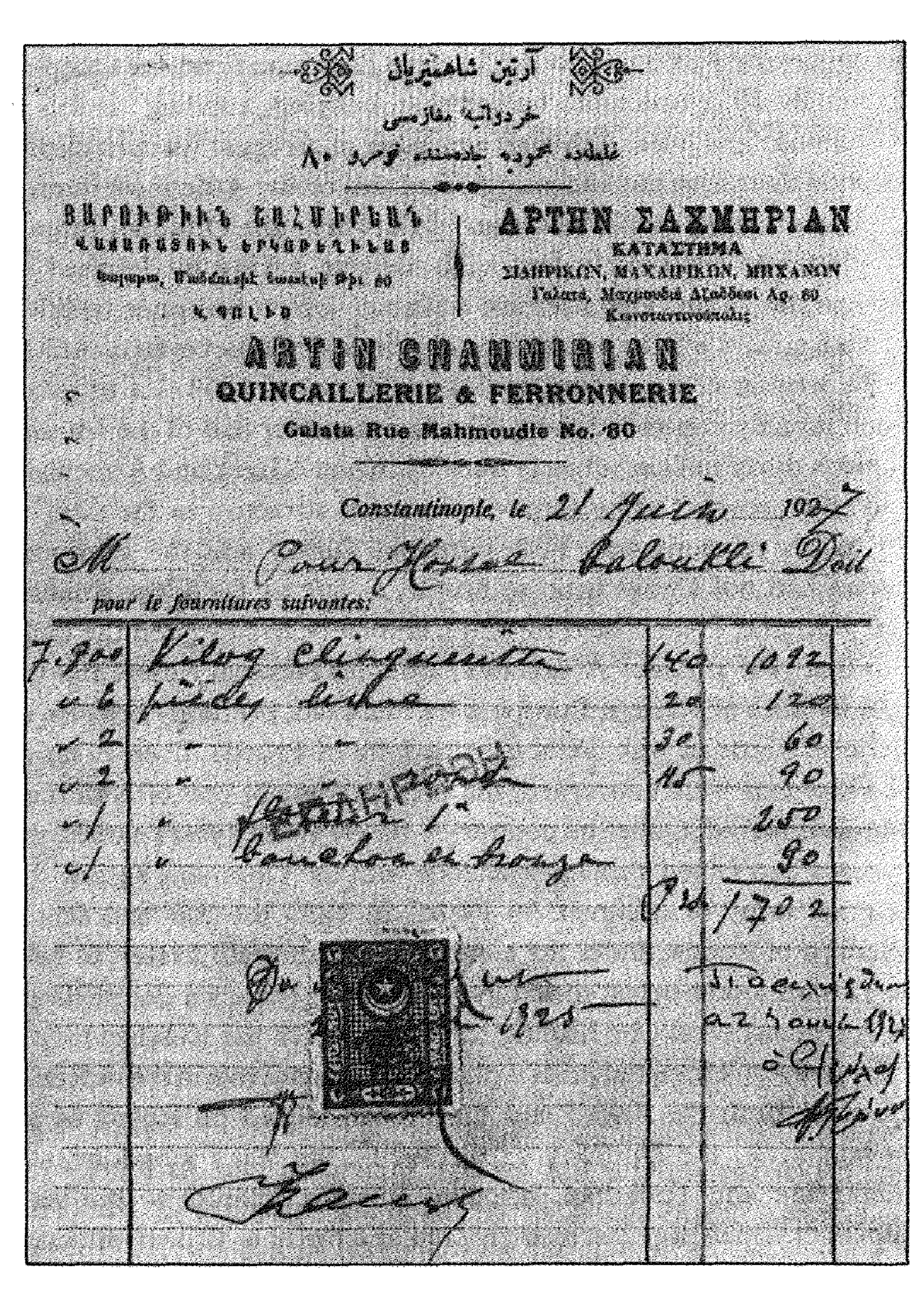
كانت حرب القرم، أوّلاً وقبل كلّ شيء، صداماً، ليس بين الحضارات، بل بين المشاريع الإمبريالية. فقد تحالفت فرنسا، وبريطانيا، وسردينيا الإيطالية لإنقاذ الإمبراطورية العثمانية من خطر الغزو الروسي. فنتجت عن ذلك سلسلة من المعارك خلال السنوات الثلاث التالية، وفيها يمكن إيجاد أفواج مسلمة تقاتل في كلّ الجيوش المشاركة: وحدات من التتار في الجيش الروسي، وأفواج عربية من الجنود الجزائريين في القوّة الروسية، والباش بوزوك غير النظاميين مع البريطانيين. في الوقت نفسه، اشتملت الجيوش العثمانية، التي

تحارب إلى جانب الفرنسيين والبريطانيين، على أعداد كبيرة من الضبّاط والجنود المسيحيين؛ قوزاق بولنديون وميليشيات رومانية، ويونانيون وأرمن عثمانيون في البحرية والخدمات الطبّية، وعدد كبير من الضبّاط الأوروبيين الذين قادوا (تحت أسماء تركية) القوّات العثمانية ضدّ الروس على أطراف الإمبراطورية العثمانية. سأتناول في هذا الفصل الأخير تلك اللحظات من التعاون بين الأديان وسأطرح عدداً من الأسئلة: كم اختلط أتباع الديانتين في الجيوش الروسية والمتحالفة مع العثمانيين؟ ما كان رأي الجنود المسيحيين والمسلمين ببعضهم البعض وهم يحاربون جنباً إلى جنب في ساحات معارك القرم؟ وحين يتعلّق الأمر بالجنود المسيحيين في الجيوش الإسلامية، والجنود المسلمين في الجيوش المسيحية، كم كانوا واعين لانتمائهم الديني؟ وهل رأوا تناقضاً في ما يفعلونه؟

كيف بدأت حرب القرم؟

ثمّة أحداث محدّدة أدّت في نهاية المطاف إلى اندلاع القتال بين روسيا والحلفاء تتلخّص في رفض الحكومة العثمانية تسليم بعض اللاجئين السياسيين المجريين إلى الروس، والخلافات حول سيادة الرعايا المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية، والجدل حول من ينبغي أن يحتفظ بمفاتيح كاتدرائية بيت لحم في الأراضي المقدّسة، وحتّى نوع النجمة التي يجب أن توضع فوق مكان ولادة السيّد المسيح (كاثوليكية أم أرثوذكسية؟)[1]. غير أنّ هذه الخلافات السطحية لم تكن أسباباً بل أعراضاً لعدد أعمق من التوتّرات. ولكي نفهم كيف تضافرت هذه المصالح المختلفة (جنرالات بريطانيون، وباشاوات عثمانيون، وفلاّحون أكراد، وثوّار بولنديون) ضدّ جيوش إمبراطورية القيصر نيقولا الأوّل، علينا أن نضع في الاعتبار الاستياء والقلق الهائلَين الناجمَين عن التوسّع الروسي.

بحلول عام 1852، عمّ الخوف في الأوساط العثمانية والأوروبية الغربية


آرتين شاهميريان

خردوات مغازه سی

غلطه ده محموديه جاده سنده نومرو ۸۰

ΑΡΤΗΝ ΣΑΧΜΗΡΙΑΝ

ΚΑΤΑΣΤΗΜΑ

ΣΙΔΗΡΙΚΩΝ, ΜΑΧΑΙΡΙΚΩΝ, ΜΗΧΑΝΩΝ

Γαλατά, Μαχμουδιέ Αζαδδεσι Αρ. 80

Κωνσταντινούπολις

ARTIN CHAHMIRIAN

QUINCAILLERIE & FERRONNERIE

Galata Rue Mahmoudie No. 80

Constantinople, le 21 Juin 1927

M. Pour Hassa Baloukli Doit

pour le fournitures suivantes:

7.900	Kilog	140	1092
6		20	120
2		30	60
2		45	90
1			250
1			90
			1702

الحياة اليومية في المدينة الكوزمزبزليتانية إسطنبول –

مشروع قانون مكتوب بالتركية، والفرنسية، واليونانية، والارمنية

من رغبة القيصر في تحويل البحر الأسود إلى «بحيرة روسية». كانت بعض التكهّنات المتعلّقة بشأن نوايا روسيا متحاملة وهستيرية (وما زلنا نجدها كذلك اليوم). ومع أنّ وزير الخارجية البريطاني كان يملك اعتقاداً راسخاً أنّ «الجحافل الروسية على وشك أن تنقضّ على تركيا من كلّ الجهات»، إلاّ أنّ نيقولا الأوّل لم يعلن إطلاقاً عن نيّته بتوسيع حدود الإمبراطورية الروسية إلى الأراضي المقدّسة أو أطراف المملكة العربية السعودية، وإن كان قد أشار إلى خطّة لتقسيم الإمبراطورية العثمانية إلى أجزاء يسهل ابتلاعها، بحيث يحصل الروس على رومانيا وبلغاريا، وبريطانيا على مصر، وتنال النمسا جزءاً من شمال اليونان، بينما تستولي فرنسا على جزيرة كريت. أمّا إسطنبول، التي كان يسمّيها الروس تسارغراد، فتتحوّل إلى ميناء دولي، تديره حامية روسية[2].

شجّعت الدولة العثمانية، التي كانت قد أصبحت ضعيفة بحيث اعتُبرت على نطاق واسع (وعلى نحو خاطئ) أنّها على شفير الانهيار، هذه المخطّطات إلى حدّ ما. فعلى نقيض السلطة الحيوية والعدوانية التي رأيناها في الفصلين الثالث والرابع، لم تعد الإمبراطورية العثمانية في عام 1852 مرهوبة الجانب، بل أصبحت نسخة باهتة عمّا كانت عليه في ما مضى. ومع أنّ عدداً من الكليشيهات الغربية المتغطرسة تعلّقت بهذا الواقع وبالغت فيه (أشهرها هي تلقيب تركيا بـ«رَجُل أوروبا المريض»)، إلاّ أنّ قوى الإمبراطورية العثمانية خارت بالتأكيد، على الرغم من تحديث جيشها في عشرينيات القرن الثامن عشر. لا بل إنّ السلطنة المهيبة، التي روّعت المبعوثين الغربيين بجدّيتها وعظمتها، لم تتمّ استشارتها عند كتابة «مذكّرة فيينّا» الشهيرة عام 1853، مع أنّه اقتراح يعنيهم مباشرة. وبما أنّ أكثر من نصف رعايا الإمبراطورية الإسلامية البالغ عددهم ثلاثين مليون نسمة هم من المسيحيين (يونان وأرمن)، فقد أصبح زوالها أمراً أكثر إغراءً بالنسبة إلى القيصر.

في الواقع، لم تكن العلاقات بين تركيا العثمانية والقوى الأوروبية عدائية دائماً. ففي عام 1845، قام القيصر الروسي نيقولا الأوّل بزيارة إلى إنكلترا، ومنح

الكأس الذهبية لذلك العام في أسكوت. كما أنّ المصاهرات الأرستقراطية بين روسيا والأسر المالكة في أوروبا الغربية متعدّدة، لا سيّما وأنّ زوجة نيقولا ألمانية، وهي شارلوت أميرة بروسيا. وحتّى في ما يتعلّق بالعثمانيين، لم تكن مشاعر الكراهية دائمة. لا بل على العكس، بالكاد قبل عشرين عاماً، انضمّ الروس إلى حلف عسكري مع العثمانيين ضدّ جيش محمّد عليّ باشا المصري. ففي عام 1833، أرسل القيصر جيشاً تحت قيادة الأميرال لازاريف لمساعدة القوات التركية ضدّ عدوّها المصري (بعد عشر سنوات بالكاد، سيساعد المصريون الأتراك في هجومهم على الروس).

لعبت الإمبراطورية – والكبرياء الإمبراطوري – دوراً مهيمناً في نتائج الأحداث. فقد نظر كلّ من البريطانيين والفرنسيين إلى روسيا باعتبارها منافِساً إمبريالياً. واعتُبر التوسّع السريع لمملكة القيصر في كازاخستان وتركستان، لتبلغ المستعمرات الروسية حدود الصين، تهديداً عظيماً للنفوذ البريطاني في وسط وجنوب آسيا. والأهمّ من ذلك هو أنّ فكرة انهيار الإمبراطورية العثمانية لإفساح الطريق للاحتلال الروسي، ووصول نفوذ القيصر إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسّط، هو سيناريو غير مستساغ إطلاقاً لدى كلّ من الفرنسيين والبريطانيين. هذا الخوف من الباكس سلافيكا، الممتدّ من موسكو إلى القاهرة، ومن سان بطرسبرغ إلى بلاد فارس، هو الذي أدّى إلى التحالف التاريخي غير المتوقّع بين فرنسا، وإنكلترا، والإمبراطورية العثمانية.

كان العدد الكبير من البولّنديين، والمجريين، والرومانيين (المسمّون «ولاكيين») الذين يحاربون في الجيوش العثمانية هو نتيجة أيضاً للاحتلال أو النفوذ الروسي على هذه الأراضي. كما سنرى، فإنّ الأفواج البولّندية والرومانية التي تقاتل في الجيش العثماني، فضلاً عن الضبّاط المجريين الذين سيقودون القوّات التركية ليس في البلقان فحسب، بل في القوقاز أيضاً، غالباً ما كانوا ثوّاراً منفيين، يدعمون القضية العثمانية على نحو براغماتي (كما فعل ثوكولي)، لتحرير أيديهم من نفوذ القيصر.

مع اقتراب بريطانيا من الحرب، من خلال الخلافات الدبلوماسية المتكرّرة بين القيصر والقوى الأوروبية، بدأ الرأي العام البريطاني في الصحافة يدعو على نحو متزايد إلى التحرّك. يصعب علينا اليوم عدم قراءة التغطية الصحفية من دون شيء من الاستغراب. فصورة الأتراك، التي يتمّ التجريح بها عادة، اتّخذت فجأة دور الضحية البريئة التي يهدّد البرابرة الروس باجتياحها. وفي أشهر العدّ التنازلي لإعلان الحرب رسميّاً، بدا أنّ الصحف البريطانية وجدت تضامناً ملحوظاً في دعمها للعثمانيين، وكراهيتها للقيصر. فتساءلت صحيفة أوبزرفر: «لماذا لا ينبغي علينا الحفاظ على صديقنا القديم والمخلص الذي يتحلّى بالعدل البالغ أمام هذا العدوان الظالم؟» ووافقت معظم الصحف على ذلك. في حين أصرّت صحيفة دايلي نيوز: «[يجب] على فرنسا وإنكلترا إنقاذ حليف قديم ومسالم من طمع الدولة البربرية [روسيا] »[3]. وتحدّثت الصحف كثيراً عن «الشرف الإنكليزي» و«المصالح الإنكليزية»، وعن شعور عامّ (في الصحافة على الأقلّ) أنّ من واجب بريطانيا حماية دولة ضعيفة وأقلّ قوّة. وكما يشير المؤرّخ باديم، عُقدت اجتماعات مؤيّدة للعثمانيين لدعم الدفاع عن تركيا في القاعات العامّة، في كثير من المدن البريطانية المنتشرة في مختلف أنحاء البلاد؛ مانشستر، ساوثهامبتون، نيوكاسل، وديربي. وفي بعض الأحياء، رأى الناس (وهو أمر لم يألفه مناخ الكراهية للأجانب لدى الرأي العام البريطاني) أنّ روسيا هي أقلّ «تحضّراً» من تركيا، لا سيّما في ضوء آخر الإصلاحات التركية. وكتب أحد اللوردات البريطانيين في صحيفة التايمز:

> يعني الهلال التسامح الديني، والحرّية الشخصية، والاستقلال الوطني، والنظام الاجتماعي. في حين يساء استخدام الصليب (سواء كان يونانياً أو رومانياً) كَرايةٍ لمن يسعون إلى ممارسة التعصّب الديني، والعبوديّة الشخصية، والحُكم المطلق، والعودة إلى العصور الوسطى في الأدب والمجتمع... السباق [الحالي] هو بين الحضارة والهمجيّة، والحقّ والباطل، والتقدّم والتراجع، والحرّية والاستبداد[4].

بالتأكيد، فإنّ هذه النظرة المتعاطفة على نحو غير عادي مع تركيا والعثمانيين لم يتقاسمها معظم الجنرالات في الجيش البريطاني، أو عديد من كبار الشخصيات في الحكومة البريطانية. فقد كان رئيس الوزراء البريطاني اللورد أبردين يكره المسلمين عموماً (أشار بحرارة لأحد زملائه عند اندلاع الحرب: «هؤلاء البرابرة يكرهوننا جميعاً، وسيسرّهم الاستفادة من خلال توريطنا مع قوى أخرى في العالم المسيحي»). وعندما حاول غلادستون إقناع رئيس الوزراء بدعم الحرب، اضطُرّ للكفاح بضراوة للتغلّب على مشاعر الرجل العجوز المعادية للعثمانيين: «قال كيف يمكنه أن يحمل نفسه على القتال من أجل الأتراك. فأجبته أنّنا لا نقاتل من أجل الأتراك، بل نحذّر روسيا من الدخول إلى أرض محرّمة». في النهاية، نجح التهديد بالوجود الروسي في البحر الأبيض المتوسّط، فضلاً عن تجارة بقيمة 8.5 مليون جنيه سنوياً بين بريطانيا العظمى وتركيا، في إقناع اللورد أبردين بالاصطفاف إلى جانب تركيا[5].

خلال النصف الأوّل من عام 1853، بدأت المناورات البحرية الروسية وتحرّكات الجنود تضفي طابعاً هزلياً إلى حدّ ما على المفاوضات التي عُقدت في إسطنبول. فقد أرسل الروس أميراً (الأمير مينشيكوف) للتعامل مع مندوبي الدولة العثمانية والحلفاء. لكن بحلول شهر مايو، أصبح من الواضح أنّ النيّة بخوض الحرب قد اتُّخذت أساساً. ومن غير الأكيد ما إذا كان في الأساس ثمّة نيّة جدّية بالتفاوض،؛ عندما وصل مينشيكوف، اختار عمداً الإساءة إلى العثمانيين من خلال تفتيش قوّاتهم بالملابس المدنية. كما أعطى التجمّع التدريجي للقوّات الروسية في رومانيا انطباعاً أنّ القيصر على وشك شنّ هجوم واسع النطاق على منطقة البلقان، في محاولة للاستيلاء على إسطنبول، والسيطرة على مضيق البوسفور الفاصل بين أوروبا وآسيا. ردّاً على القلق العثماني، نقل البريطانيون والفرنسيون جزءاً كبيراً من أساطيلهم، أوّلاً إلى شرق البحر الأبيض المتوسّط، ومن ثمّ إلى مسافة أقرب نحو الساحل الشمالي الغربي لتركيا.

المثير للاهتمام في حرب القرم هو كيف سيحاول عدد من الأطراف، من كلّ الجهات، رؤية الصراع على أنّه ديني، على الرغم من وجود أدلّة قاطعة على العكس. فمع تحرّك الجيش الروسي في رومانيا، طلب القيصر من جميع المؤمنين الصلاةَ من أجل انتصار الصليب على الهلال، على الرغم من أنّ الجيش العثماني كان مليئاً بالميليشيات الرومانية والبولّندية (وعلى الرغم من أنّ أفواج القيصر كانت تضمّ تتاراً مسلمين)[6]. كذلك، رأى اليونانيون، الذين ما زالوا يعيشون تحت الحكم العثماني في مقدونيا وثيساليا، في اقتراب الاحتلال الروسي فرصةً للتحرّر المسيحي من قمع المسلمين (سحق العثمانيون ثوراتهم بمساعدة السفن الحربية البريطانية والفرنسية). اندفع الجنود الأتراك إلى أرض المعركة وهم يردّدون، «الله أكبر! الموت للكفّار»، مع أنّهم كانوا يحاربون جنباً إلى جنب مع كفّار من جنسيات مختلفة. وفي الحصار الروسي لبلدة قارص الواقعة شرق تركيا، سيدعم الأهالي المسلمون القوّات التركية وهم يهتفون، «اقتلوا الكفّار (gavur)»، مع أنّ نصف سكّان البلدة كانوا من الأرمن[7]. فالرغبة العارمة للجنود في الاعتقاد أنّهم يحاربون من أجل دينهم ساعدت المؤمنين منهم كما يبدو على التغاضي عن وجود «كفّار» إلى جانبهم؛ في حرب القرم، سنشهد هذه الظاهرة مراراً وتكراراً.

تأكّد الحلفاء من أنّ إسطنبول كانت آمنة من خلال إرسال ما يزيد عن خمسين ألف جندي بريطاني وفرنسي للتمركز جنوب العاصمة تماماً، حول غاليبولي ومضيق الدردنيل (وهو المضيق نفسه الذي ستجتاحه القوّات البريطانية بعد ستّين عاماً لغرض مختلف تماماً). وما إن استقرّ الجنود في معسكراتهم، حتّى اتُّخذ قرار بنقل الجزء الأكبر من العمليات الميدانية شمالاً إلى بلغاريا، حيث كان الجيش الروسي يهدّد بالتقدّم. واختيرت فارنا لتكون البلدة التي سيجتمع فيها أكثر من 130.000 من جنود الحلفاء (من عثمانيين، وفرنسيين، وبريطانيين) في أواخر يوليو 1854. كانت عمليّة ضخمة، ضاعف

من حجمها تنوّع الجنسيات المشارِكة، ذلك أنّ الجيوش العثمانية والفرنسية اشتملت على عدد من الوحدات التونسية والجزائرية. يصف أحد المرافقين الفرنسيين المشهد قائلاً:

> شكّل هذا الحشد من القوّات مشهداً غريباً... أن تجتمع هنا من أوروبا، وآسيا، وأفريقيا للدفاع عن قضية مشتركة، والجميع على علاقة طيّبة ببعضهم البعض!
>
> فقد كان ثمّة رجال من الشمال (إنكليز، وإيرلنديين، واسكتلنديين) ببشرتهم البيضاء، وعيونهم الزرقاء، وزيّهم المبهرج؛ الفرنسي بملامحه المنفتحة والمعبّرة، ووجهه المبتسم، وتعابيره الذكية [الكاتب فرنسي]... والتركي بجدّيته ومظهره الذي يطغى عليه الوقار؛ والجزائري بملامحه الحادّة والداكنة؛ والمصري بشعره الأجعد، ونظراته الباهتة، ولباسه المبهرج؛ وأخيراً ابن النوبة [السودان] بشفتيه الغليظتين وبشرته السوداء... يلتقون ويختلطون ببعضهم البعض في الشوارع الضيّقة لبلدة بلغارية، من يصدّق ذلك؟[8]

بغضّ النظر عن الصور النمطية العنصرية، تُعتبر وجهة نظر المراقب مثالية إلى حدّ ما، ذلك أنّ العلاقات بين الجنود لم تكن ودّية على الإطلاق، كما سنرى لاحقاً. مع ذلك، لا بدّ أنّه كان ثمّة شيء ملفت في مرأى هذا العدد الكبير من الجنود والأزياء الرسمية، وهذا التنوّع الكبير في القبّعات، والمعاطف، والقلنسوات، والسترات، وهم يجوبون الشارع نفسه معاً. كانت بلدة فارنا البلغارية إلى حدّ كبير الهدوء الذي يسبق العاصفة؛ آخر طَعم للسلام ستتذوّقه قوّات الحلفاء قبل أن تلقي بنفسها في فظائع القرم.

قبل الانتقال إلى الحرب نفسها، سنلقي نظرة على مختلف الجنود المسلمين الذين حاربوا في جيش كلّه، وبالطبع، المسيحيين الذين كانوا موجودين في الصفوف العثمانية.

استُخدمت كلمة başibozuk التركيـة، التي تعنـي حرفياً «الـرأس المنحلّ»، لوصف الأعـداد الكبيرة مـن الجنـود غيـر النظاميين والمرتزقـة الذين تـمّ جلبهم للمشـاركة في حملة الحلفاء من أماكن أخـرى. في العهود العثمانية الكلاسـيكية، كان معظم هؤلاء من المسـيحيين، لكن بحلول زمن حرب القرم، أصبح معظمهم من المسلمين الذين أتوا من مجموعات مختلفة: عرب (من المغرب إلى العراق)، وألبان، وأكراد، وأتراك، وتركمان، وأفغان، وفرس، وهنود مسـلمون. وعلى غرار الجنود غيـر النظامييـن والمرتزقة فـي أيّ حرب مـن الحروب، كان مـن الصعب في أغلـب الأحيـان السـيطرة عليهـم، وأصبح اسـمهم مرادفـاً للنهب، والسـلب، والاغتصاب. غالباً ما بدوا غريبين، لا بل سخيفين، بالنسبة إلى الجنود النظاميين، بملابسهم الفردية، حتّى إنّهم كانوا يسـافرون أحياناً مع أسرهم (رأى أحد الشهود العيان عجوزاً كردية، تناهز السبعين من عمرها على الأقلّ، راكبة على ظهر الخيل مع مسـدّس محشـوّ في كلّ يد). ومع أنّ سـمعتهم السـيّئة صحيحة إلـى حدّ ما، إلاّ أنّ أعمال النهـب والاغتصاب لـم تقتصر بأيّ حـال من الأحـوال على الباش بوزوك. فقد تعرّضت أعداد كبيرة من الجنود الفرنسيين والبريطانيين للعقاب، وتمّ إعدامهم أحياناً، لارتكابهم جرائم مماثلة طوال فترة الحرب.

كان الضبّاط البريطانيون الذين أُرسـلوا للتعامل مع الباش بوزوك قد عملوا بمعظمهم في الجيش الهندي، وهي حقيقة تكشف الكثير عن الموقف الإمبريالي للبريطانيين تجاههم؛ فعليّاً، تـمّ تجنيدهم من «أبناء البلـد». كان عدد من الضبّاط البريطانييـن يتكلّـم الهندوسـتانية بطلاقة، ومـن الواضح أنّـه تمّ تجنيدهم بسـبب خبرتهم مع «الشـرقيين» (وعلى افتراض أنّ العقلية العربية لا تختلف عن العقلية الهندية). وقـد يرجع ذلـك أيضاً إلـى العـدد الكبير مـن الجنـود الهنود/ الأفغان في صفوف الباش بـوزوك. إذ يقـال إنّ الفوج الواحد كان يشـتمل علـى ما يزيد عن مائة ناطـق باللغة الهندوسـتانية. وكان المسـؤول هـو جنـرال بريطاني يدعى بيتسـون، قام بإدارة قـوّة الباش بوزوك البالـغ عددها أربعة آلاف رجل بمسـاعدة

فريق كبير مـن المترجمين. وكان زعيم هـذا الفريق هو ضابط يجيد تسـع لغات، وهي ضرورة في بيئة تُسـمع فيها العربية، والتركية، والكردية في كلّ مكان. تلقّى بيتسـون المشـورة أيضاً من ضابط كتب كتاباً عن مكّة والمدينة، وتلفتنا هنا قدرة مؤسّسـة عنصرية مثـل الإمبراطوريـة البريطانية على التصدّي لمسـألة الحساسـية الثقافية عندما يكون ذلك في صالحا[9].

اختلف الضبّـاط البريطانيـون على ما يبـدو حول كيفيّـة إدارة جيـش متنوّع إلى هذا الحدّ، بين رجال القبائل، ومرتدّيـن، ومرتزقة، ومغامرين. حاول بعضهم أن يكون حازماً واسـتبدادياً، في حيـن كان البعض الآخر أكثر تفهّمـاً وبراغماتية. ويرثي أحد الضبّاط حال بعض زملائه البريطانيين الذين أصبحوا «شـرقيين» بقدر الباش بوزوك الذين عُيّنوا لقيادتهم. إذ أصبحوا يدخّنون النرجيلة، ويجلسـون في الخيمة طوال النهار، ويتركون كلّ أشـكال «سـوء السـلوك» تمرّ من دون عقاب. ولدينا وصـف مثيـر للاهتمـام حـول كيفيّة قيـام قائـد بريطانـي بإصـدار الأوامر لمرؤوسـيه مـن البـاش بـوزوك. أوّلاً، يجتمـع مختلـف القـادة (عـرب، وأكراد، وأتراك) معاً للجلوس في خيمـة القائد، ويدخّنون النرجيلة معـاً. ويحضر مترجم لترجمة مختلف العبارات إلى لغات الحاضرين المتعدّدة. وبعد قليل من المزاح، يقوم القائد (المتربّع على الأرض مع بقيّة البـاش بوزوك) بتكرار بعض الكلمات بوضوح، لكـي يشـدّد المترجم على مـا يريد قولـه: «أخبرهم... أنّهم يسـتطيعون الوثوق بي... وأنا أعدهـم، ما دمت على رأسـهم، أنّهم غير نظاميين [مسـتقلّين] وكذلك سيبقون». ويبدو أنّ هذه العبارات كانت تلقى ردود فعل إيجابية جدّاً من قبل عناصر الباش بوزوك الحاضرين.

غير أنّه كان ثمّة مشاكل بكلّ تأكيد. فالقتال والمشاجرات التي غالباً ما أدّت إلى سـفك دماء اندلعت بانتظـام، ليس بيـن الباش بـوزوك والجنود المسـيحيين (فرنسـيين وبريطانيين) فحسـب، بل أيضاً بين الباش بوزوك والجنـود النظاميين. ففي الدردنيل، بعدما أن قام أحد عناصر الباش بـوزوك بإطلاق النار على جندي تركي نظامـي، طلب الباشـا المحلّي منهم نزع سـلاحهم عند دخـول المدينة[10].

وعندما سُجن قاطع طريق ألباني بسبب اغتصاب فتاة من الأهالي، توجّه حوالى مائة من زملائه المقاتلين إلى خيمة بيتسون، وطلبوا إطلاق سراحه. وحين استسلم بيتسون أخيراً وحرّر الرجل، غادروا المعسكر معه وتركوا الحرب. في الواقع، كان الفرار من الحرب أمراً شائعاً، على الرغم من أنّه، بالنسبة إلى كثير من الباش بوزوك الذين أتوا من أماكن بعيدة، كالعراق أو تونس، لم يكن حزم أمتعتهم والعودة إلى الوطن خياراً مطروحاً.

المسلمون في الجيش الفرنسي - الأفواج الجزائرية

خلافاً للقوّات البريطانية، كانت القوّات الفرنسية تتضمّن مسلمين يخدمون كجنود وضبّاط نظاميين ضمن الجيش الفرنسي نفسه. غير أنّ وجود المسلمين في الجيش الفرنسي لم يكن دليلاً على الروح الكوزموبوليتانية للفرنسيين، بل على النجاح الذي استطاعت به الإمبريالية الأوروبية استيعاب دمج غير الأوروبيين في آلتها الحربية. كلمة واحدة تفسّر كيف وجد آلاف المسلمين العرب أنفسهم يحاربون الروس تحت راية نابليون الثالث في سهول جنوب أوكرانيا الباردة والنائية: الجزائر.

بحسب القصّة، بدأ الغزو الفرنسي للجزائر 1827، عندما صفع داي الجزائر القنصل الفرنسي على وجهه بكشّاشة ذباب. مهما تكن الحكاية سطحية، إلاّ أنّه، خلال العشرين عاماً التالية، أعقبها برنامج واسع النطاق من الغزو العسكري والاستعمار، انطوى على قتل وإبادة آلاف الجزائريين الأصليين، من عرب وبربر على حدّ سواء. وتصعب معرفة كم من الآلاف قُتلوا في هذا «التوسّع». اشتمل دمج الجزائر في الإمبراطورية الفرنسية الثانية على إدخال مستوطنين غير عرب، لم يقتصروا بمعظمهم على الفرنسيين، بل اشتملوا على إسبان، وإيطاليين، ومالطيين أيضاً. شكّل الأوروبيون حوالى 10 بالمائة من السكّان الجزائريين، وتمتّعوا بالامتيازات وبمستوى من الرخاء لم يعرفه معظم الجزائريين غير الأوروبيين.

تُعتبر قصّة احتلال الجزائر ذات صلة بشبه جزيرة القرم لعدد من الأسباب. أوّلاً، كان كثير من الجنرالات الفرنسيين في حملة القرم إمّا جزائريين فرنسيين أو أشخاصاً أمضوا وقتاً طويلاً هناك. فقد قام الجنرال بيليسيه، قائد الجيش الفرنسي في القرم، بالإشراف شخصيّاً على كثير من المجازر في الجزائر. كما خدم الجنرال بوسكيه، قائد الشعبة الثانية، في الجزائر، وأتقن اللغة العربية جيّداً[11]. وتضمّنت حملة القرم عدداً من الضبّاط العرب أو ذوي الأصل العربي، فكان الجنرال يوسف مسؤولاً عن الشعبة الفرنسية للباش بوزوك، مثلاً (على غرار البريطانيين، حصل كلّ من الفرنسيين والعثمانيين على أربعة آلاف عنصر من الباش بوزوك لاستخدامهم كوحدتهم الخاصّة غير النظامية)، بينما قاد اللواء عبد العال الشعبة الرابعة لصيّادي أفريقيا (Chasseurs d'Afrique)[12].

الأهمّ من ذلك هو أنّ جزءاً كبيراً من الجيش الفرنسي الذي يقاتل في شبه جزيرة القرم تطوّر كنتيجة مباشرة للتجربة الاستعمارية الجزائرية. فقد أتى ربع الجنود الفرنسيين في حرب القرم من الجزائر الفرنسية مباشرة، وتجاوز عددهم خمسة وثلاثين ألف رجل. ومع أنّ غالبية هؤلاء الجنود «الجزائريين» كانوا أوروبيين، إلاّ أنّه تمّ أيضاً تجنيد عدد كبير من الجزائريين المسلمين. وقد تم تأسيس أفواج وفرق كاملة من الجيش، مثل فرقة صيّادي أفريقيا، في الجزائر، بالكاد قبل عقد أو عقدين. في البداية، سيطرت على هذه الأفواج أفواج كبيرة من العرب والبربر. وعندما تأسّست فرقة صيّادي أفريقيا في الجزائر عام 1830، انتمى جنودها بمعظمهم إلى «السكّان الأصليين»، أو ما يسمّوهم الفرنسيون indigène[13]. لكن بحلول عام 1853، تمّ استبدال غالبية أولئك الجنود بمستوطنين جزائريين فرنسيين. هذا لا يعني أنّه لم يشارك في الحرب جزائريون مسلمون، إلاّ أنّ كثيراً منهم انتموا إلى مجموعات منفصلة. وتألّفت الحملة الفرنسية إلى القرم من عدد من الأفواج المسلمة بأكملها، مثل الرماة الجزائريين (Tirailleurs Indigènes) والمشاة الجزائريين (Chasseurs d'Indigènes)،

وهي أفواج ستجد نفسها في قلب المعركة. وعندما رأى صحفي بريطاني المشاة الجزائريين وهم يندفعون إلى معركة إنكرمان، وصفهم أنّهم «سيبوي (جندي هندي) الجزائر العرب»، وعلّق على «وجوههم السمراء المتناقضة مع عمائمهم البيضاء»[14].

لا بدّ لنا أيضاً أن نأتي على ذكر الزواف، وهم جنود من المشاة الجزائريين الفرنسيين الذين سيكتسبون شهرة عظيمة في المخيّلة العامّة خلال حرب القرم، وذلك لشجاعتهم واستعدادهم للمخاطرة. أُنشئ الزواف كمجموعة جنود من «السكّان الأصليين» على الفور تقريباً بعد استيلاء فرنسا على الجزائر (وهو بتعبير آخر فوج مؤلّف حصرياً من الجنود العرب/البربر)، مع أنّه بعد عام 1840، أُضيف إليهم عدد كبير من الجزائريين الفرنسيين، بحيث لم يتبقّ بينهم سوى نسبة ضئيلة من الجنود المسلمين عندما وصلوا إلى القرم. مع ذلك، بقي مظهر الزواف يشبه الجنود «المسلمين»، وحافظ زيّهم على مظهر «شرقي» بنظر البريطانيين والروس. فقد اعتمروا نوعاً من العمائم، مع سراويل فضفاضة غالباً ما كانت السبب في الخلط بينهم وبين المسلمين. وأثناء مرورهم عبر إسطنبول إلى فارنا، خرج القرويون الأتراك إلى الشوارع، بحسب رواية أحد الضبّاط، لمشاهدة مرور الجيش «المسلم». وخلال مكوثهم في إسطنبول، لم يواجهوا أيّ مشاكل في زيارة المساجد أو الأضرحة المقدّسة، لأنّ الأهالي الأتراك ظنّوهم عرباً، وسمحوا لهم بالدخول من دون أيّ اعتراض (وهو امتياز لا يُمنح للجنود الفرنسيين أو البريطانيين). كما شاركهم بعض الروس هذا الانطباع، ذلك أنّ ضبّاط جيش القيصر أشاروا أحياناً إلى الزواف على أنّهم «أفارقة»[15].

لا بدّ أنّ ما عزّز هذا الانطباع هو كون كثير من الزواف، وإن كانوا بمعظمهم جزائريين أوروبيين، يتقنون العربية والفرنسية على حدّ سواء، وغالباً ما مزجوا اللغتين (كما يفعل الجزائريون الفرنسيون عادة). إذ يقال إنّ الجنود البريطانيين الذين يتسامرون مع رفاقهم الزواف كانوا يتعرّضون لوابل من الكلمات الفرنسية والعربية غير المفهومة:

Englisch bono, Francis bono, Englisch et Francis semis amis, bibir soua soua, Crimea mackach bono, Arbia bono, chapard beseff

[الإنكليز لطفاء، والفرنسيون لطفاء، والإنكليز والفرنسيون أصدقاء حميمون، يتسامرون معاً؛ القرم هو مكان فظيع، أفريقيا أفضل بكثير، نجني فيها كثيراً من المال][16].

لا ينبغي لنا أن نستنتج الكثير من ذلك. فعلى الرغم من أنّهم تحدّثوا العربية، وبدوا أشبه بالمسلمين بالنسبة إلى كثير من المراقبين البريطانيين، لكن كان ثمّة وعي أنّهم ليسوا كذلك بكلّ تأكيد. فالمودّة الواضحة والاعتبار الذي تعامل به الجنود البريطانيون مع الزواف (كانت قبّعاتهم مميّزة في ساحة المعركة، وغالباً ما أثار ظهورهم هتافات تشجيع) لم يتكرّر في الواقع تجاه زملائهم من الجنود الأتراك، الذين تعاملوا معهم بازدراء متزايد مع تقدّم الحرب. مع ذلك، من الملفت أن نرى إلى أيّ حدّ استُخدمت اللغة العربية في الجيش الفرنسي في ساحة حرب القرم. ففي معركة إنكرمان، امتطى الجنرال بوسكيه جواده، وتوجّه إلى صفوف الزواف والكتائب الجزائرية، وصاح لهم بالعربية: «هيّا أيّها الزواف الشجعان! هيّا أيّها الصيّادين الشجعان! أثبتوا أنّكم أبناء النار!» وحتّى بعض المجنّدين الفرنسيين الحديثين في الزواف، الآتين من باريس ومارسيليا، «تعرّبوا» تماماً، وأصبحوا يطلقون على أنفسهم اسم «بني بانتين أو بني موفتار» (بانتين وموفتار هما شارعان رئيسان في باريس)[17].

المسلمون في الجيش الروسي - التتار والأتراك

كيف حدث أن قاتل المسلمون تحت لواء القيصر؟ بالنظر إلى تصاعد النزاعات خلال العقد الماضي في الشيشان وداغستان، والفظائع التي ارتكبتها القوّات الروسية ضدّ المسلمين في القوقاز (والانتقام العنيف الذي نفّذه الانفصاليون الشيشان بنتيجة ذلك)، ناهيك عن الصراع الطويل للاتّحاد

السوفياتي ضدّ طالبان في ثمانينيات القرن الماضي، فإنّ فكرة قيام مقاتلين مسلمين بالمخاطرة بحياتهم من أجل قضية «روسيا الأمّ» تبدو غريبة على عقولنا المعاصرة، لا بل سريالية. مع ذلك، وفي عام 1850، سُجّل أكثر من سبعة وثلاثين ألف جندي في جيش القيصر على أنّهم «أقلّية» (inorodtsy) أو غير روس، وكان عدد كبير منهم من المسلمين[18].

لفهم هذه الإحصائيّات على نحو أفضل بقليل، نحتاج إلى نقل تعبيرَي «روسيا» و«الإسلام»إلى منظور تاريخي أبعد، لا يرى الكلمتين كضدَّين، بل على أنّهما حاولا، خلال الأعوام الثلاثمائة الفائتة، «العيش» معاً، أو بالأحرى أحدهما داخل الآخر. كما سبق ورأينا مع الفرنسيين في الجزائر، كانت الأفواج المسلمة في الجيوش الروسية هي أيضاً نتيجة للإمبريالية، ولتوسّع إمبراطورية القيصر في المقاطعات الشرقية مثل بشكيرستان، وكازاخستان، وسيبيريا. كان كلّ ذلك جزءاً من محاولة جلب «الحضارة» (وهي كلمة فهمها الروس على أنّها تعني لغة بوشكن وصليب الكنيسة الأرثوذكسية) إلى السهوب «غير المتحضّرة» لوسط آسيا والمناظر الجبلية القاتمة لمنطقة القوقاز. يشتمل هذا التاريخ على مراحل مظلمة، تضمّنت طرد 300.000 تتري من شبه جزيرة القرم في القرن الثامن عشر (وهو عمل اعتبرته روسيا «استصلاحاً»)، وشحن نصف مليون آخرين من الشركس بالسفن إلى تركيا العثمانية، إضافة إلى تدمير بالجملة للعمارة التترية، وذلك في عدد من مدن القرم. بالمقابل، نجد فترات مثيرة للاهتمام من التعاون، الذي يبدأ مع تمويل الإمبراطورة كاترين برامج بناء المساجد (عوضاً عن برامج حرق المساجد)، وتأسيس مطبعة إسلامية في جامعة قازان، وتعيين مفتي لتسهيل الحوار بين الملوك الروس وملايين المسلمين الروس الذين أصبحوا من رعاياهم.

عندما نضع هذا التاريخ في اعتبارنا، لا يعود مستغرباً أن يكون الجنود المسلمون قد حاربوا دائماً في الجيوش الروسية. فقد أقسم قادتهم يميناً للقيصر (على قرآن محفوظ خصّيصاً لهذا الغرض في الكرملين[19]) على المشاركة

في عمليّة ترجع فعلاً إلى القرن الخامس عشر. ففي عام 1477، كان تتار قاسيموف في جيوش إيفان الثالث، في حين قام تتار سيبيريا بمساعدة الروس على نهب الحشد الذهبي المغولي عام 1481. كما نجد أولئك التتار أنفسهم في جيوش إيفان الرهيب (1530-84). وكان لدى بطرس الأكبر مسلمون كالميك وبشكيريين في جيوشه، ليس في الحملات الفارسية فحسب، بل وفي المعارك التي خاضها شمالاً، ضدّ السويد مثلاً. حاربت القوّات المسلمة إلى جانب الأفواج الروسية في حرب السنوات السبع (1756-63)، في حين نجد جنوداً مسلمين بشكيريين في الحملة الروسية ضدّ قوات نابليون بونابرت الفرنسية؛ في طريقهم إلى معركة لايبزيغ (1813) توقّفوا في بلدة فالمار الألمانية، التي قام فيها الشاعر غوتيه بتحويل المدرسة البروتستانتية المحلّية مؤقّتاً إلى مسجد من أجل الجنود المسلمين، كما كان يدعو بعض الضبّاط المسلمين إلى منزله لتناول الشاي والكعك[20].

في حرب القرم، قاتل المسلمون رسميّاً في أفواج، مثل فوج أولان التتري، وحرس القرم التتري، الذي حارب تحت قيادة الجنرال ريزوف، وعمل بتعاون وثيق مع فوج دون قوزاق الثالث والخمسين وقوزاق الأورال. وقد شاركت كلّ هذه الأفواج في معركة بالاكلافا. واحتلّ التتار أيضاً بعض المناصب الموثوقة جدّاً، بحيث تألّف أركان حرب القائد الأعلى للجيش الروسي، الأمير مينشيكوف، من عدد كبير من الفرسان التتار[21]. بالإضافة إلى ذلك، وعلى الطرف الشرقي لحرب القرم (سلسلة المناوشات والمعارك بين الروس والأتراك في شرق تركيا)، قام آلاف من أتراك أذربيجان بمساعدة الروس والأرمن ضدّ الجيوش العثمانية.

هل حارب المسلمون لصالح روسيا القيصرية عن طيب خاطر، وما كان رأي الروس بهم؟ بالنسبة إلى كثيرين، كانت المسألة هي مسألة تجنيد، وليست نابعة من اختيار شخصي. ففي عام 1722، استُدعي تتار شيريميزوف للخدمة، وفي عام 1737، بدأ تجنيد البشكيريين هم أيضاً في الجيش[22]. وكما يشير

المؤرّخ كروز، يبدو من بعض الوثائق أنّ الأفواج البشكيرية كانت ممتنّة على مختلف التشريفات والميداليات التي مُنحت لها لقاء خدمتها ضدّ السويديين[23]. ومن الصحيح أيضاً أنّ أبناء النبلاء التتار كانوا يتمتّعون بحقّ تلقائي بالخدمة كضبّاط في الأفواج الروسية. مع ذلك، ثمّة قصص عديدة عن فرار جنود تتار (في إحدى الحالات، تراجعوا حتّى النمسا[24]). وبالنظر إلى التطهير العرقي الذي مارسته روسيا القيصرية بسكّانها التتار، لا يجب أن نفترض أنّ التعاون كان ودّياً جدّاً. أمّا بالنسبة إلى رأي الروس بالمسلمين الموجودين في جيشهم، فقد بدأ القلق يتزايد بشأن تجنيد المسلمين المحلّيين في الأفواج الأوروبية الآسيوية، لا سيّما في الشيشان وداغستان، اللتين مزّقتهما الصراعات، (لا تزال هذه المسألة موضع نقاش اليوم؛ في زمن تأليف هذا الكتاب، كان أكثر من 15 بالمائة من الجيش الروسي مسلمين). مع ذلك، كان الكتّاب الروس في القرن التاسع عشر ما زالوا قادرين على الافتراء على الجنود اليهود في جيشهم، لكنّهم يكتبون بتعاطف عن الجنود المسلمين في الأفواج الجبلية، وفي إحدى الحالات، يشيدون بملاّ الفوج، الذي خدم كطبيب في الجيش. وعندما يروي المارشال الروسي بفخر للقيصر كيف «قام مسلمونا وقوّات الجبهة دوماً بهزم الفرسان الأتراك والأكراد»، يصعب علينا أن نرى في هذه الملاحظة (مسلمونا) إشارة إلى جسم غريب من المرتزقة[25].

الجنود المسيحيون في الجيوش العثمانية - غربيّون، وبولنديون، وأرمن، ويونانيون

يمكن تصنيف الجنود المسيحيين في الجيش العثماني خلال حرب القرم ضمن ثلاثة فئات: الرعايا العثمانيون المسيحيون (يونانيون وأرمن)؛ القوّات والأفواج الأوروبية الشرقية التي تمتاز بمقاومة مشتركة للحكم الروسي (بولنديون، ومجريون، ورومانيون)؛ وعدد كبير من الضبّاط الأجانب الذين تمّ جلبهم (تحت أسماء تركية) لقيادة وتنظيم القوّات العثمانية.

بحلول عام 1852، كان الجيش العثماني بمعظمه مسلماً (كان الجيش العثماني بحلول أواسط القرن التاسع عشر قد غربل معظم المسيحيين من صفوفه، وذلك في تناقض صارخ مع الفصول السابقة، التي رأينا الغلبة فيها لليونانيين وغيرهم من شعوب البلقان الذين يقاتلون لصالح السلطان). فكان جنوده يدخلون ساحات المعارك وهم يصيحون «الله أكبر»، كما أطلقوا على أنفسهم (حتّى عام 1841 على الأقلّ) اسم جيش محمّد المنصور، وقاموا بانتظام بأداء الفروض الدينية معاً. وبحلول القرن التاسع عشر، كان تعدّد اللغات الذي غلب على طبيعة الجيش العثماني الذي تحدّثنا عنه في الفصول السابقة قد زال إلى حدّ كبير (لكن ليس تماماً). والمكان الوحيد الذي بقي فيه هو الخدمات الطبية للجيش العثماني (كان عديد من أطباء الجيش إمّا مسيحيين أو يهوداً). ومع أنّه في عام 1845 كان أغلب الحرفيين في ورشة عمل البحرية ما زالوا يونانيين أو أرمن، كان أكثر من 90 بالمائة من البحّارة مسلمين. في حين أنّه قبل قرن من الزمن، لم تكن هذه النسبة تتجاوز النصف[26].

يعتبر نموّ الهوية الوطنية أحدَ أسباب ذلك. فقد جعل السلطات العثمانية ترتاب تدريجيّاً من استخدام جنود من أهل الذمّة أو غير المسلمين في صفوف الجيش. فقد شكّل المسيحيون أقلّ من نصف سكّان الإمبراطورية العثمانية. شدّدت في هذا الكتاب على أنّ الناس في القرنين الحادي عشر أو السادس عشر لم يعتبروا أنفسهم «إيطاليين» أو «يونانيين»، بل منتمين إلى دويلة أو ديانة معيّنة. غير أنّ كلّ هذا سيتغيّر في القرن التاسع عشر، مع ظهور مفهوم الدولة القومية الحديثة. فقد تسبّبت حرب الاستقلال اليونانية (1821-32) في طرد البحّارة اليونانيين من البحرية العثمانية (واستبدال معظمهم بالأرمن)[27]. ووقعت توتّرات مشابهة في شرق تركيا، إذ بدأ يُنظر إلى شرائح كبيرة من السكّان الأرمن باعتبارهم مواقع ثورات محتملة، تحفزها وتنظّمها قوى أجنبية خارجية، مثل روسيا (بلغت تلك التوتّرات ذروتها في مجازر تسعينيات القرن التاسع عشر، التي راح ضحيّتها ما لا يقلّ عن 100.000 أرمني). وفي إسطنبول، سيُعلن الملالي المحافظون رأيهم بالتجنيد العسكري قائلين: «لا نريد المساعدة من أيّ

شخص لا ينتمي إلى عقيدتنا» و«نحن لسنا بحاجة إلى مساعدة المشركين»[28].

غير أنّه يصعب قياس الوضع في خمسينيات القرن التاسع عشر. ففي بعض الأماكن تمرّد المسيحيون ضدّ التجنيد الإجباري، بحيث اضطُرّت السلطات العثمانية إلى تسليم مسؤولية التجنيد إلى البطريرك. وفي مدن أخرى، مثل سميرنا/ إزمير، تتطوّعت أعداد كبيرة من اليونان والأرمن العثمانيين في جهود الحرب[29]. ومع أنّه من الواضح أنّ كثيراً من الأرمن بحثوا عن شكل من أشكال الاستقلال عن العثمانيين، ومع أنّ الروس رأوا فعلاً في الأرمن «طابوراً خامساً»، لا يجب أن يصرفنا ذلك عن الثقافة المشتركة للأتراك والأرمن العثمانيين. ففي النقاشات الحامية التي تدور اليوم حول «إبادة الأرمن»، تمّ نسيان هذا التعايش إلى حدّ كبير. ففي بلدة مثل سيواس، الواقعة شمال شرق تركيا، تردّد الأتراك والأرمن على محلاّت البقالة نفسها، وعاشوا جنباً إلى جنب بجوار الكنائس والمساجد، واعتنوا بأطفال بعضهم البعض. وإن راجعنا سجلاّت المحاكم، لا نجد طائفية، بل نرى أرمنياً وتركياً يرفعان دعوى ضدّ أرمني آخر، أو أرمنيَين وتركياً يقاضون تركياً آخر. لا شكّ في أنّ الرعايا المسيحيين امتازوا بوضع قانوني أدنى منزلة في الإمبراطورية العثمانية، وهو أمر من السخف تجاهله. لكن عندما يتحدّث الصدر الأعظم عن «الوطن المشترك» (vatan-i muşterek) للمسلمين والمسيحيين، وعندما يطلب أمير أرمينيا من الأرمن الأتراك «الدفاع عن بلادكم والسلطان ضدّ طاغية الشمال [روسيا] حتّى آخر قطرة من دمائكم»[30]، نجد أنّه علينا أن نحذر من نقل الأحكام المسبقة المعاصرة حيال الأرمن والأتراك إلى التعدّدية الثقافية المتطوّرة والحسّاسة للغاية التي سادت الحياة العثمانية في القرن التاسع عشر.

بصرف النظر عن اليونانيين والأرمن، ظهر الجنود المسيحيون في الجيش العثماني أيضاً من خلال الأفواج البولّندية، والأوكرانية، والرومانية. كان بعض هذه القرارات في طبيعته وليد اللحظة الأخيرة إلى حدّ ما؛ عندما استولى العثمانيون على بلدة قلفات من الروس في شهر أكتوبر من عام 1853، انتقل

عدد كبير من الرومانيين (الولاكيين) إلى الجيش التركي الأمر الذي دفع بالقادة العثمانيين إلى التفكير في إمكانية إنشاء فوج روماني. غير أنّ الانشقاقات العفوية لم تكن المصدر الوحيد للمسيحيين بين صفوف الجيش العثماني. ففي ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، وحتّى تحت العنوان الديني لـ«جيش محمّد المنصور» (Asakir-i Mansure-yi Muhammadiye)، كان ثمّة أفواج من الفرسان الآتين من القوزاق المسيحية في الفرق العثمانية، بكامل تجهيزاتهم مع الكهنة[31]. وكما أنّ كلّ فوج مسلم روسي لديه الملّا الخاصّ به، كان لكلّ فوج قوزاقي في الجيش العثماني كاهنه الخاصّ (لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الجيش البريطاني كان يضمّ كاهنين فقط لآلاف الجنود الإيرلنديين الذين يعملون في خدمته، مع أنّ الإيرلنديين شكّلوا أكثر من ثلث حملة القرم بأكملها)[32].

أنتج تقدّم الإمبريالية الروسية، ونضال مجموعة متنوّعة من الجماعات القومية والعرقية (بولّنديون، وأوكرانيون، وقوزاق، ورومانيون، ومجريون) لاستخدام كلّ الوسائل الضرورية لمقاومتها، عدداً من أشباه ثوكولي في القرن التاسع عشر. وفي ما يتعلق بالجنود البولّنديين والأوكرانيين الذين يقاتلون من أجل العثمانيين، قد يكون المثال الأكثر إثارة للاهتمام هو ميشال تشايكوفسكي وفوجه من «القوزاق البولّنديين». تُعتبر سيرة تشايكوفسكي غريبة ببساطة. فقد كان لاجئاً بولّندياً حلم بتأسيس دولة قوزاق بولّندية أوكرانية تحت حماية العثمانيين، وعاش حياة دبلوماسية غريبة، تنقّل فيها بين الأمراء البولّنديين المنفيين في فرنسا، وكبار الوزراء في الدولة العثمانية، والنبلاء البلغاريين، حتّى أنّه (في حماسته المناهضة لروسيا) اتّصل بالمتمرّد الشيشاني الشهير شامل (وفاة 1871). كان تشايكوفسكي بولّندياً كاثوليكي المولد، وقد صدم كثيرين باعتناقه الإسلام فجأة في سنّ الثانية والأربعين، وذلك تجنّباً للترحيل، ولتسهيل طلاق متسرّع، واتّخذ محمّد الصدّيق اسماً له. عمل خلال السنوات العشرين التالية من إسطنبول، وأسّس «فوج القوزاق البولّنديين» كجزء رسمي من الجيش العثماني. تألّف الفوج من أكثر من 1.400 رجل، معظمهم من البولّنديين، والأوكرانيين، والقوزاق، مع

عدد أصغر من البلغار والفارّين من الجيش الروسـي. كان للفوج دور حاسـم في المرحلة الأولى من حرب القرم، حين ساعد العثمانيين على تحرير قلعة سيلستريا الواقعة على نهـر الدانوب وأجبر الروس على التراجع إلـى مولدافيا. غير أنّ حلم تشايكوفسـكي بإنشـاء دولة للقوزاق تحت حماية العثمانيين لـم يتحقّق. ففي عام 1886، بعد ثـلاث زيجات، وأربعة أطفـال، وعدد من العشـيقات، وثلاثة تبديلات للديانة، أقدم على الانتحار وهو في سنّ الثامنة والسبعين[33].

خدمـت أيضـاً مجموعـة متنوّعـة مـن الضبّـاط الغربييـن (مـن إيرلندييـن، وإيطالييـن، وإنكليـز، ومجرييـن، فضلاً عـن بضعة أميركييـن، وبـارون بلجيكي) كضبّـاط عثمانييـن فـي الجيـش التركي، إمّـا لصالـح حكوماتهـم، أو علـى نحو مسـتقلّ. وبمـا أنّ الجنود المسـلمين فـي صفـوف العثمانيين لـم يسـرّهم القتال تحت قيادة مسـيحيين، اضطُرّ الضبّاط الغربيين إلى استخدام أسماء تركية. فحمل ضابط أميركي يدعى الرائد بونفانتي اسـم «نوريس بك»، فـي حين حمل الجنرال بريانسكي اسم «شاهين باشا». فأعطت هذه الأسـماء انطباعاً أنّهم مسلمون، علماً أنّ عدداً صغيراً منهم اعتنق الإسـلام فعلاً. لم يتّفق أولئـك الضبّاط «الأوروبيون» دائمـاً مع بعضهـم البعـض، وأقامت مجموعـات مختلفـة منهم علاقـات صداقة وولاء مع مختلف الضبّـاط العثمانيين الذيـن عملوا معهم. ولا شـكّ أنّ الوضع بدا غريبـاً، إذ فضّل بعض الضبّاط الأتـراك البولّنديين علـى الإنكليز والإيطاليين، ونشـب عدد من الخلافات المعقّدة خـلال الحرب. وكما سـنرى، أدّى ذلك إلى مشاكل مختلفة مع تقدّم الصراع[34].

معركتَي بالاكلافا وكيوروك-دارا

ما نفهمه من «حرب القرم» هو فعليّاً سلسـلة من المعارك البرّية التي وقعت أوّلاً فـي رومانيـا، ثـمّ دار الجزء الأكبـر منها على سـاحل البحر الأسـود جنوب أوكرانيا، في شـبه جزيرة القـرم. كان حجم العمليّات العسـكرية هائـلاً، وانطوى على تحرّكات لمئات آلاف الجنود. فشـكّلت معركة ألمـا أوّل معركة برّية كبرى

للجيش البريطاني منذ واترلو. وخلال الفترة نفسها، دارت على نطاق أصغر سلسلة من المعارك والمناوشات على الجانب الآخر من البحر الأسود، وذلك على الحدود بين جورجيا، وشرق تركيا، وما نسمّيه اليوم أذربيجان.

أوّل ما يمكن أن يقال عن حرب القرم نفسها هو أنّها كانت مذبحة. نتج العدد الهائل من الضحايا (ما يقرب من ربع مليون من كلّ جانب) عن المرض، على الرغم من أنّ انعدام الكفاءة العسكرية، والمزيج القاتل من التكتيكات الميدانية التقليدية وتكنولوجيا الأسلحة الفتّاكة، ساهم بطبيعة الحال في العدد المرعب من القتلى والمصابين بجروح خطيرة. يشير الصحفي راسل، الذي كتب مباشرة من الميدان، كيف أنّ بعض الإصابات كانت «مخيفة على نحو خيالي بحيث يتسمّر من يراها في مكانه من شدّة هولها»؛ آلاف الجنود من دون وجوه أو سيقان، مع عظام مقطّعة بارزة من أجسادهم مثل العصي، وأطراف متورّمة بأحجام لا تُصدَّق، وذلك بسبب القنابل العنقودية، ونيران المدفعية، والأسلحة التي استخدمتها أطراف النزاع[35].

من الصعب قراءة روايات شهود العيان عن حرب القرم من دون أن تقشعرّ أبداننا، إمّا بسبب وحشية القتال، أو الأخطاء الفادحة التي تسبّبت بموت الآلاف: هجوم للفرسان على حقول مليئة بالمدافع، وحراب تُغرز في الوجوه، والحناجر، والأضلاع، وقرارات كان يمكنها أن توفّر أشهراً من الحصار، والصراع، وأرواح المشاة تمّ إغفالها بلا مبالاة. ولم يكن هجوم اللواء الخفيف، وهو أمر عسكري أسيء فهمه أرسل ستمائة فارس بريطاني إلى وادٍ اصطفّت على أطرافه المدافع الروسية، الخطأ الوحيد في مجموعة كاملة من الإغفالات، والقرارات السيّئة، ولحظات التردّد غير اللازمة.

إن كان ثمّة قاسم مشترك بين الجيوش البريطانية، والروسية، والعثمانية فهو فئة الضبّاط المرتكزة على المحسوبيات والعلاقات أكثر من الكفاءة أو المهارة القيادية. كان ثمّة في الواقع ضبّاط موهوبون في هذه الجيوش. فقد بذل المهندس الروسي توتليبين على الأرجح مجهوداً أكبر من أيّ ضابط آخر

لإبقاء الحلفاء خارج سيفاستوبول، في حين كسب القائد العثماني عمر باشا احتراماً واسعاً لأنّه أجبر جيش القيصر على العودة من نهر الدانوب، مكذّباً كلّ التوقّعات، وذلك من دون أيّ مساعدة من جانب الحلفاء. لكن غالباً ما تولّى أشخاص لا يتمتّعون بالكفاءة مواقع سلطة بسبب علاقات الدم أو الصداقات الوثيقة مع شخصيات نافذة. ففي مرحلة متقدّمة من النزاع، تمّ إنشاء فرقة كاملة من أجل تسليم اللورد روكبي، المفضّل لدى الملكة، قيادة شعبة قبل انتهاء الحرب[36]. ويمكن أن نروي قصصاً مماثلة عن الجيوش الروسية والتركية. إذ كان بعض الضبّاط الروس مكروهين من قبل جنودهم إلى حدّ أنّهم غالباً ما أطلقوا النار على ظهورهم فور اندلاع القتال.



سجناء بريطانيون، وأتراك، وفرنسيون يتم استجوابهم من قبل ضبّاط روس، سيفاستوبول

لم يكن حجم الفساد، وعدم الكفاءة، والمحسوبية أقلّ في الجيش العثماني. فقد سكن الضبّاط العثمانيون في شرق تركيا القصور، محاطين بحريم

خاصّ بهم، بينما عاش جنودهم في ثكنات صغيرة مكتظّة. وقام جنرالات من أمثال أحمد باشا بالاختلاس من رواتب الجنود وشراء مواد غذائية منخفضة الجودة للجيش. في حين اعتمد قادة مثل ظريف باشا على الحسابات الفلكية لتحديد مواعيد شنّ الهجمات. حتّى إنّ بعض القادة العثمانيين كانوا عاجزين عن القراءة والكتابة[37]. أمّا بالنسبة إلى الجيش الفرنسي، فقد كان يملك، مع خلفيته الجمهورية، رؤية أكثر جدارة لكثير للأمور. فقد بدا أغلب المؤرّخين متّفقين على أنّه كان الجيش الأكثر استعداداً على أرض المعركة، ولا سيّما وأنّه يضمّ أفضل الجنود تدريباً وأكثر الضبّاط كفاءة. فساحات المعارك الاستعمارية في الجزائر شحذت مهاراتهم، وكان لها دور كبير في تميّزهم.

كان قائد القوّات البريطانية في شبه جزيرة القرم أمين سرّ سابق لدوق ويلنغتون، اللورد راغلان. وقد أمضى سنوات في قتال الفرنسيين في حروب نابليون، الأمر الذي جعله غير مهيّأ للتعاون معهم عندما أصبحت جيوشهما تقاتل جنباً إلى جنب ضدّ الروس. وبحسب التقارير، أشار راغلان إلى الروس في أكثر من مناسبة على أنّهم «الفرنسيون»، حيث أخطأ بين العدوّ والحليف. وقع الاختيار على راغلان أساساً بسبب علاقته مع ويلنغتون، وليس استناداً إلى أيّ تجربة في قيادة الجيوش (فهو لا يملك أيّ خبرة في هذا المجال)، وكان خياراً سيّئاً. فمع أنّه رجل لطيف وحسّاس مع مرؤوسيه، إلاّ أنّه افتقر تماماً إلى الخبرة والمهارة في قيادة الحملات العسكرية، كما يُظهر المؤرّخ بونتينغ، بشيء من التفصيل. فأخطاؤه المتنوّعة، بدءاً من إغفاله طلب ملابس ومؤونة خاصّة للجيش البريطاني في الوقت المناسب، تحسّباً لفصل الشتاء، ووصولاً إلى تجاهل المعلومات المخابراتية الحيوية المتعلّقة بهجمات وشيكة للعدوّ، جعلت منه شخصيّة غير شعبية بالنسبة إلى كثيرين. حتّى إنّ بعض الضباط البريطانيين كانوا يبتعدون عند اقترابه، تجنّباً لإلقاء التحية عليه[38].

معركة بالاكلافا (25 أكتوبر 1854):
العرب والأتراك في «الخطّ الأحمر الرفيع»

بحلـول شـهر أكتوبـر مـن عـام 1854، كان قـد مضى علـى وجـود القوات البريطانية والفرنسية في منطقة البحر الأسـود ما يزيد عن ستّة أشهر بقليل. كانت مفاجأة انتصار الجيش العثماني على الروس عند نهـر الدانوب (نزل الخبر، على ما يبدو، كالصاعقـة على مراكـز البريطانيين والفرنسـيين[39]) قد أبعـدت إلى حدّ كبير خطر تقـدّم جيوش القيصر نحو إسـطنبول من منطقة البلقـان. وكان الحلفاء قد اتّفقوا على إعادة تحديد هدفهم، والسعي إلى تدمير القوة البحرية الرسمية في شبه جزيرة القرم، ما يعني الاستيلاء على قاعدة سيفاستوبول البحرية الضخمة.

وقعـت معركـة بالاكلافـا بعد شـهر مـن حصـار سـيمتدّ لمـدة عـام لمدينة سيفاستوبول، مع تطويق القوّات الفرنسية، والبريطانية، والعثمانية للبلدة، وقصفها بشكل مسـتمرّ بوابل متزايد من نيران المدفعية. مُنيت سيفاسـتوبول بالدمار التامّ، وسُـوّيت بالأرض مرّتين فـي التاريخ الحديـث. لكن في عـام 1855، لـم يتمكّن الحلفاء تماماً مـن قطع خطوط الإمـداد إلى التعزيزات الروسـية القريبـة. فاقترن هـذا الأمر بتألّـق الضابط المهنـدس توتليبين، الذي كان مسـؤولاً عـن الدفاعات الروسـية، ومكّن الـروس من الاحتفـاظ بالقاعـدة لأكثر مـن عام. بعد شـهر من الحصار، خطّـط الجنـرالات الروس لشـنّ هجوم علـى المحاصِريـن، وأملوا أن يدفع بهم إلى البحر. أتت الخطّة جزئيّاً نتيجة للضغط الذي مارسـه القيصر الذي لم يفوّت فرصة في موسكو، شأنه شأن نظيره الفرنسـي، لتقديم المشورة الخبيرة والنصائح الثمينـة للجنرالات في الميـدان. فبعد الهبوط المهين لجيش فرنسـي-بريطاني-تركـي على الأرض الروسـية (أوّل جيش فرنسـي في روسـيا منذ حملة نابليون قبل أربعين عاماً)، كان الروس بحاجة إلى فوز حاسم لدحر الغزاة.

لا تقتصـر أهمّية معركة بالاكلافـا على أنّها توفّـر للقـرّاء البريطانيين جانبين من أشـهر جوانـب حـرب القرم، وهمـا هجـوم اللـواء الخفيـف وعبـارة «الخطّ الأحمر الرفيع»، بل تُعتبر حيوية أيضـاً، لأنّ اللوم أُلقي ظلماً على الجنود الأتراك

المشاركين بها واتُّهموا أنّهم فرّوا من مواقعهم، وساهموا في وقوع الكارثة على نحو غير مباشر، وذلك للتغطية على الأخطاء الفادحة التي ارتكبها الضبّاط الإنكليز. أدّى هذا الادّعاء إلى ازدراء واسع النطاق للقوات العثمانية، وتعرّضها لسوء المعاملة من قبل جنود الحلفاء، الذين اعتبروهم جبناء وأنذالاً. لكن كما سنرى، الحقيقة هي عكس ذلك تماماً.

كانت المعركة أساساً هي عبارة عن محاولة من جانب الروس لتدمير القاعدة البريطانية عن طريق إرسال خمسة عشر ألف جندي، وأربعة آلاف فارس (بمن فيهم بعض التتار المسلمين) – وهي مجموعة كبيرة من الرجال – إلى سلسلة من التلال الدفاعية، ومن ثمّ إلى أسفل وادٍ يوصلهم في نهاية المطاف إلى ميناء بالاكلافا. فالسيطرة على هذا الميناء ستصعّب الأمور كثيراً على الفرق البريطانية التي تحاصر سيفاستوبول.

وصل خبر الهجوم الروسي بشكل لا يصدّق تقريباً إلى اللورد راغلان قبل وقوعه. فعشيّة الهجوم، قام جاسوس تركي يعمل لصالح الجيش العثماني بإعطاء البريطانيين وصفاً دقيقاً لما كان على وشك أن يحدث. غير أنّ راغلان، وفي لحظة سخافة ستتحوّل إلى سمة مميّزة لديه، أحجم عن إبلاغ أحد بالهجوم الروسي الوشيك، ولم يبذل أيّ محاولة لتعزيز الدفاعات، أو طلب التعزيزات الضرورية، لصدّ الهجوم الذي وقع صبيحة اليوم التالي. بنتيجة ذلك، استولت القوّات الروسية على خطّ الدفاع على حين غرّة عندما شنّت هجومها في الساعة السادسة من اليوم التالي.

كان خطّ الدفاع الممتدّ على طول قمم التلال، المسمّاة تلال فيديوكين، مأهول بمعظمه من القوات العثمانية، التي لم تكن غالبيتها من الأتراك، بل من المجنّدين التونسيين، الذين كانوا يعانون من سوء التدريب وسوء التغذية على السواء. وليس من الصعب أن نتخيّل الرعب الذي استبدّ بهم عندما رأوا آلاف المشاة الروس يشقّون طريقهم فوق التلال باتّجاههم، مع بزوغ الفجر، من دون أن يتمّ إبلاغهم من قبل الجيش البريطاني، أو توفّر لهم قيادة الحلفاء الحماية.

فنشـرت التقارير البرطانية (بما في ذلـك صحفي التايمز، راسـل، وابن أخ اللورد راغلان، الكولونيل كالثورب) على نطاق واسـع أسـطورة تفيد أنّ القوات التركية «انسـحبت» وفرّت هاربة إلـى الجانب الآخر من التـلّ. في الواقـع، لازم الجنود العثمانيـون مواقعهـم لمدّة سـاعتين تقريباً، بمعدّل جندي لكلّ خمسـة وعشـرين جندياً من الأعداء. وقد كلّفتهم هذه المقاومة 170 قتيلاً، أي ثلث عديدهم (وهي نسبة فاقت، بحسب أحد المؤرّخين، نسبة الضحايا الذين سقطوا في وقت لاحق من صباح ذلك اليوم في هجوم اللواء الخفيف)[40].

في الواقع، ساهمت المقاومة الشرسـة للقوات العربية/ التركية، من كثير من النواحي، في الحؤول دون تحوّل معركة بالاكلافا إلى كارثة بسهولة. فقد أتاحت تلـك المقاومـة للبريطانيين والفرنسـيين اسـتجماع قواهم، والمجـيء للدفاع عن الوادي. كما مكّنت الحلفاء من التعويض عن الغياب التامّ لأيّ اسـتعداد للهجوم المتوقّـع. ولم يبدأ الجنـود العثمانيـون، الذين تُركـوا يقاومون من دون مسـاعدة بالدفاعـات الخاصّـة بهم، بالفـرار سـوى بعد سـاعتين. وبمـا أنّ راغـلان وكبار الضباط، أمثـال كارديغان، وصلـوا إلـى أرض المعركة في تلـك اللحظة، أي في حوالى الساعة الثامنة، لم يروا سـوى تيّاراً من الجنود الأتراك الفارّين من خطوط الدفـاع، والعائدين إلى المعسـكر. وعوضاً عن التشـكيك في حكمـة القائد العامّ للقوات المسلّحة وكفاءته واستعداده، أُلقي اللوم على الأتراك كما هو متوقّع.

بحلول السـاعة التاسـعة، اسـتولى الروس على مجموعة الدفاعـات الكاملة على طـول تـلال فيديوكيـن. وقـف راغلان يتفـرّج، مـن السـفح المقابـل، بينما تحرّكت مجموعة كبيرة من الفرسان الروس أسفل الوادي باتّجاه الطريق المؤدّية إلى بالاكلافا. امتـدّ خطّ واحد مـن أكثر من ألف جنـدي من مشـاة الحلفاء، مع بعض المدافع، بين الطريق والقوّات الروسية المتقدّمة. كان نصف أولئك المشاة بريطانييـن، وتحديـداً فـوج هايلاندرز الثالـث والتسـعين. وكان هذا هـو النصف الذي سيُخلَّد لاحقاً في عبارة التايمز «الخطّ الأحمر الرفيـع». أمّا النصف الثاني من الخطّ، والذي لم تـأتِ التقارير البريطانية على ذكره أبـداً، فكان كتيبة القوّات

العثمانيـة، المؤلّفـة بمعظمها من الجنـود الأتراك/العـرب التي غـادرت دفاعات التلّ توّاً. بتعبيـر آخر، فإنّ نصف هـذا «الخطّ الأحمر الرفيـع»، الذي أصبح على الأرجح أشهر العبارات العسـكرية في اللغة الإنكليزية، كان مؤلّفاً من المسلمين. معاً، رسـم المجنّدون العثمانيون والهايلاندرز خطّاً، أوّلاً ممدّدين بين الأعشاب، ومن ثـمّ واقفيـن يقصفـون وابـلاً تلو الآخـر مـن نيـران المدفعية علـى الحصان الروسي المتقدّم بسـرعة. فتمّ إيقاف الزحف الروسـي على بعد مائة ياردة، وعاد أدراجه بإصابات طفيفة.

لـم تكن أحداث ذلك اليوم قد انتهت بعد. فبعد سـاعتين بالكاد، أي حوالى السـاعة الحادية عشـرة، بـدأ هجوم سـرعان ما سيكتسـب، فـي الذاكـرة الوطنية البريطانية، الشهرة وسوء السمعة بدرجة متساوية، ألا وهو هجوم اللواء الخفيف. فالأمر الخاطـئ، الـذي أدّى إلى هجوم لسـلاح الفرسـان على قلـب عاصفة من المدافع، أصبـح قصّة معروفـة بحيث يمكننـا الاكتفاء بذكـر العناويـن العريضة. قام اللورد راغـلان، الذي كان قد أصـدر أمرَين مربكَين في ذلـك الصباح، ببعث رسالة إلى سرب الفرسان الخاضع لقيادة اللورد كارديغان، والمتمركز عند أسفل الوادي، وأمرهم «بالتقدّم بسـرعة إلى الأمـام»[41]. مع أنّ الالتباس مـا زال طاغياً حتّى اليوم حيال المسـؤول عن ذلك الهجوم الانتحاري، إلاّ أنّ الجزء الأكبر من اللوم ألقي عموماً على أوامر راغلان الغامضة وغير الكفوءة.

ما زاد الوضع سوءاً هو أنّ الرسـول كان ضابطاً يدعى نولان، سبق أن ألّف كتاباً عن تكتيكات سلاح الفرسان، وكان على قناعة راسخة بأهمّية الفرسان على أرض المعركة[42]. وعلـى الرغم مـن رتبته المتدنية، إلّا أنّه شـعر بحماسـة كبيرة لبدء هجوم الفرسـان. عندمـا أحضر نولان الرسـالة إلـى الضابط المسـؤول، لم يصدّق هذا الأخير عينيـه. فالمدافع التي أُمر بالهجوم عليها لـم تكن مرئية حتّى، بل في الطرف الآخر من الوادي. فصاح متسـائلاً: «هجوم، سـيّدي! ماذا نهاجم؟ أيّ مدافع؟» فردّ عليه الضابط نولان بعـدم احترام واضح، مومئاً بيده إلى الاتّجاه العامّ للوادي: «عدوّكم هناك، سيّدي. هناك تقع المدافع».

هكـذا، أُعطي الأمـر. فبدأ حوالـى 670 رجلاً بالتقـدّم على صهـوة جيادهم على أوّل طريق بطول كيلومترين، سـيقودهم إلى حيث تتمركز المدافع الروسية. اسـتغرق الفرسـان البريطانيون حوالى ثمانية دقائـق لقطع المسـافة التي تفصلهم عن النيـران الروسـية. وسـرعان مـا أُمطـروا بوابل مـن القذائـف والشـظايا التي أخذت تقتـرب تدريجيّاً، ثمّ تحوّلت إلى سـيل من الانفجـارات التي اندلعت من كلّ صوب، مع تمكّن اللـواء الخفيف من الوصول إلى المدافع الروسـية. خلال النصف الأوّل من الهجوم، تسـاقطت النيران من ثلاثة اتّجاهـات، وأزالت أجزاءً كاملة من مقدّمـة اللواء وجناحيه. ومـن المفارقات أنّ نولان، الشـابّ المتحمّس للفرسـان، كان أوّل من قُتل. أمّا جنرالات الحلفاء، فوقفـوا يتفرّجون بذهول، بلا حول ولا قـوّة، من أعلى إحدى التـلال المتاخمة. أمام هذا المشـهد، علّق القائد الفرنسـي بوسـكيه قائلاً جملته الشـهيرة: «هذا رائع، لكنّها ليسـت حرباً» (C'est magnifique, mais c'est pas la guerre).

دام الهجوم بمجمله حوالى عشـرين دقيقة، من البداية إلى النهاية. ومن بين الفرسـان السـتّمائة الذين خاضوا «وادي الموت»، قُتل 118، وأُصيب عدد مشابه. مع أنّ هذا الهجوم لم يشـارك فيه أيّ مسـلم، إلاّ أنّ الجنود المسـلمين سـاهموا في تخفيف مطر الشظايا ونيران المدفعية التي انهمرت على اللواء في أثناء عودته من الوادي. فقد اجتاح الحصان الجزائري الخفيف (وهي الشعبة الرابعة لصيّادي أفريقيا، يقودهـا الضابط المسـلم الرائد عبد العال) تـلال فيديوكين، واسـتهدف المدافع الروسـية المتمركزة هناك. فسـاهم ذلك على الأقلّ في توقّف النيران من أحد الاتّجاهات، بينما كان الفرسان البريطانيون عائدين إلى مواقعهم بحالة يرثى لها[43].

في ذلك المساء، كتب الجنرال الروسي رسالة إلى زوجته في الوطن:

> ... أنـا بخيـر بفضـل الله. تخليـداً لذكـرى هـذا اليوم، أُرسـل سـاعة تركية اشتريتها من عريف. لقد قتلت حرابنا الروسية كثيراً من الأتراك والإنكليز، كما اخترقت رماح جنودنا من الأولان والقوزاق كثيراً من الإنكليز[44].

في بريطانيا، بـدأ تبـادل الاتهامات ببطء مع تسـاؤل السـلطات العسـكرية، والرأي العام البريطاني، كيف يمكن لهجوم فرسـان كهذا أن يحدث في وادٍ يعجّ بالمدافع. لكن في شـبه جزيرة القرم، سـاهم هذا الحدث بشـكل غير مباشـر في توتّر العلاقات الباردة أساسـاً بيـن القوّات التركيـة والبريطانية. فالشـائعة التي تمّ تناقلها عن هـرب الأتراك الفوري عرّضـت الجنود العثمانيين لسـوء المعاملة من قبل رفاقهـم البريطانييـن والفرنسـيين؛ ضرب، وسـوء معاملة، وجلـد. والاعتماد المتزايـد للقـوّات التركية علـى الحلفاء فـي قوتهم (يرجـع ذلك جزئيّـاً إلى عدم الكفاءة الإدارية العثمانية، ولأنّ البريطانيين لم يسـمحوا للسـفن العثمانية بالرسوّ بحرّية في موانئهـم) حوّل الجنود العثمانيين، لا سـيّما المجنّدين التونسـيين، إلى نوع مـن العبيـد، وتعامـل معهـم البريطانيـون والفرنسـيون بـازدراء. اشـتمل كلّ ذلك على مزيج من الإمبرياليّـة وكراهية الأجانب. فقد رفـض اللورد راغلان أن يقاتـل الجنود الأتراك في الخنادق نفسـها مـع البريطانيين لأنّـه اعتبرهم «قذرين» جـدّاً (لا بدّ لنـا أن نضيـف أنّ هذه الأحـكام المسـبقة وُجدت أيضاً فـي الجيش البريطاني. فحتّـى في خضمّ المعـارك الضارية مثـل معركة ألما، لم يكن يُسـمح للشـعبة الخفيفة المؤلّفة من جنود من الطبقة الوسـطى بالقتـال إلى جانب حرس غرينـاديـه، بسـبب انتماء الجنـود إلى خلفيـات اجتماعيـة مختلفـة[45]). مع ذلك، فإنّ هذه الغطرسـة، المقترنة بحماقة عدم الاسـتفادة من معرفـة الأتراك وخبرتهم في الأرض، لم تمرّ مـرور الكرام على بعض المراقبين فـي الجيش البريطاني، لا سـيّما الضبّاط الإيرلنديين. فقد اشـتكى أحد الضبّاط من غطرسـة ضبّاط سـلاح الفرسـان الإنكليزي في موقفهم من العثمانيين قائلاً: «على الرغم من وجود فوج تركي برفقتنا دائماً، إلاّ أنّنا لم نكن نملك الخبرة ولم نستفد من خبرتهم»[46]. كما وصف مصدر إيرلندي متعاطف بازدراء كيف حاول ضابط إنكيزي سيّئ السمعة، هو اللورد (إيرل) كارديغان، التغطيـة على عجزه عن طريق إلقاء اللوم باسـتمرار على القوّات التركية:

كنّـا قد عدنـا للتوّ من يوم ميدانـي للواء، وكان معنا عدد مـن الأتراك الذين أسـاء الإيرل معاملتهم جدّاً. فلم يكن يعطيهم أيّ أوامر، ثمّ يشـتمهم لأنّهم لا يقفون في الأماكن المناسبة. لو كنّا نقاتل الروس، لخسرنا... قوّاته...[47]

مـع أنّـه لا يمكننـا التغاضي عـن سـوء العلاقـات بيـن الجنـود البريطانيين والعثمانييـن، إلاّ أنّ هـذا الأمـر لا يجب أن ينسـينا التواصـل الـودود والإيجابي الذي نشـأ أحياناً بين الجيشـين. فقد كتب نقيب إنكليزي ينتمي إلى فوج البنادق الخامس والتسعين:

أولئك الجنود الأتراك ودودون للغاية. فقد أتى عدد من العساكر قبل يومين إلى خِيَمنا، بينما نحن نتحدّث، ثمّ بدأوا يبدون إعجابهم بكلّ شيء. أعجبوا خصوصاً بالفراش القابل للنفخ، وبمسـدّس أريناهم إيّاه. الغريب هو أنّهم وجميـع الجنـود، باسـتثناء الإنكليـز، يتصرّفون مثـل السـادة المحترمين، يجلسـون ويتحدّثـون بارتيـاح، ويشـعلون الغليون، ويضعونه بين شـفاهنا بلطف بالغ[48].

هـذه ليسـت محاولـة للتعتيـم علـى الصعوبـات التـي واجهـت العلاقـات البريطانية التركية في سـاحة معركة القـرم، بل للإظهار أنّه علـى الرغم من خلفية عامّـة من التوتّـر وانعـدام الثقة المتبـادل، اسـتطاع عدد مـن الضبّـاط البريطانيين تكوين صداقات مع القوّات العثمانية.

بـدا أنّ الجنـود الإيطالييـن تمتّعوا بعلاقـة أفضل مـع رفاقهم الأتـراك. ففي أوائـل عـام 1855، أي بعـد سـتّة أشـهر مـن الصـراع، وصـل جيش مـن حوالى خمسـة عشـر ألف إيطالي من سـردينيا لمسـاعدة الحلفاء (كما هو متوقّع، لقّبهم البريطانيون بـ«السـردين»). وتشـير المصادر الإيطاليـة إلى أنّ الجنود السـردينيين اتّفقوا مـع الفرنسـيين أكثر مـن الإنكليـز. أضـف إلـى أنّ العلاقات بيـن الجنود العثمانييـن والإيطاليين كانت جيّدة، ويرجع ذلك في المقام الأوّل (بحسـب أحد المراقبيـن) إلى أنّ «رؤية شـخص أسـوأ منّـا حـالاً تعزّينـا»[49]. وإن قـام الجنود البريطانيـون أحياناً بتقديـم هدايا من الخمـر أو التبغ للإيطالييـن، كان الإيطاليون

يقدّمون اللحوم المملّحة التي لا يرغبون فيها إلى الأتـراك. والمثير للاهتمام، أنّ الروايات الإيطالية تتضمّن أيضاً تقاريـر عن قداديس كاثوليكية أقيمت في الجيش السـرديني، وحضرها جنود أتراك، فضلاً عن ضبّاط فرنسـيين وإنكليز، وعدد من البروتستانت.

معركة كيوروك-دارا (6 أغسطس 1854) - روس، وأذريون، وأرمن، وأكراد

يمكننا تخصيص كتاب كامل للعلميات العسكرية الدقيقـة التي حدثت بين الجنود المسلمين والمسيحيين في شـبه جزيرة القرم: الرماة الزواف والجزائريين الذين هبّوا لمسـاعدة البريطانييـن في معكرة إنكرمـان (والذين اسـتُقبلوا بالهتاف من قبل الجنود المنهكين)؛ والمجهود المشـترك للقوّات العثمانية والفرنسية التي دحرت الروس والقوزاق عبر تشـيرنايا[50]. مع ذلك، علينا أن نختم بالتركيز على معركـة أخرى، وقعـت علـى الجانب الآخر مـن البحر الأسـود، في عمق شـرق تركيا، قبل بضعة أشـهر من معركة بالاكلافا. ومع أنّ هذه المعركة ليسـت بأهمّية إنكرمـان أو حصـار سيفاسـتوبول، إلاّ أنّهـا تهمّنا نظراً إلـى العـدد الملحوظ من الجنود المسلمين والمسيحيين الذين قاتلوا معاً في الجيش الروسي.

نادراً ما تعير تأريخات حرب القرم اهتمامـاً للحرب التي دارت في القوقاز، وذلك أساسـاً لأنّه لم يشـارك فيهـا جنـود أوروبيون، بـل مجرّد عـدد صغير من الضبّـاط الأوروبيين. تألّفت الحرب مـن عدد من المعارك ومـن حصار أخير دام طوال فترة الصراع في القرم، أي من عام 1853 حتّى سـقوط مدينة قارص الواقعة في شـرق تركيا في عام 1855. كانت المنطقة التـي وقعت فيهـا (المنطقة الجبلية في شـمال شـرق تركيا، وجورجيا، وأرمينيـا اليـوم) تاريخياً منطقة صـراع مألوفة بين القـوّات الروسـية والعثمانيـة. فقـد كان العثمانيـون يملكون أساسـاً أكثر من سـتّين ألف جندي هناك في عام 1853، وفكرة تحويل قطاعات كبيرة من الجيش الروسـي البرّي إلى شـمال القوقاز (بعيداً عن شـبه جزيرة القرم) شـكّلت عرضاً

مغرياً لكلّ من العثمانيين والحلفاء. لكن مع تطوّر الأحداث، كان الروس هم من شنّوا الهجوم على الحدود التركية، وليس العكس.

كلّ من سافر إلى منطقة شمال شرق تركيا شاهد تضاريسها الرائعة من الجبال والوديان شديدة الانحدار، هذا من دون ذكر شتائها الذي لا يرحم، والذي يطال بعض مدنها المرتفعة (مثل أرضروم وقارص). أمام هذه الخلفية من المنحدرات الجبلية والممرّات الضيّقة، وقعت معركتا باشغيديكلير وكيوروك-دارا. سار آلاف الجنود حاملين أمتعتهم الثقيلة، وهم يجرّون العربات والمدافع خلفهم، عبر هذه المنطقة. فالقدرة الحيوية للجيش البرّي على المناورة في المعركة (ليكسب مواقع مراقبة تشرف على العدوّ، ولا يجد نفسه محاصراً في الوديان والممرّات المنخفضة) هي ما يحسم المعارك التي تدور هنا، مقارنة بساحات القتال المسطّحة نسبياً في القرم.

يُعتبر التنوّع العرقي المذهل للمنطقة أحد الجوانب الأخرى المثيرة للاهتمام، والذي يجب أن نضعه في الاعتبار إن أردنا أن نفهم تعدّد الثقافات داخل الجيوش الروسية. في الواقع، لم يكن من قبيل الصدفة أن يطلق الجغرافيون على منطقة القوقاز اسم «جبل الألسنة». ففي بداية القرن التاسع عشر، كانت مدينة مثل العاصمة الجورجية، تيفليس (تبليسي)، تشتمل على ثقافة عالمية استثنائية من أتراك أذربيجان، إلى الأرمن، والروس، والأكراد، والمسيحيين الآشوريين، والجورجيين. فقد كتب الشاعر الأرمني للملك الجورجي، سايات نوفا، أكثر من نصف قصائده بالتركية الأذرية، والباقي بالأرمنية والجورجية[51]. ويبدو التأثير الفارسي التركي قوياً في الرقص والأغنية المسيحية الشعبية في القوقاز، فضلاً عن الثقافة الأدبية العالية، كالسوناتة، على الرغم من عدم الاعتراف بذلك تماماً بالفعل. ومع أنّ أحداً لا يستطيع أن ينكر مستوى التوتّر والعنف الذي ساد بين المسيحيين والمسلمين من شعوب القوقاز، إلاّ أنّ هذا الأمر لا يجب أن يغلب على التجربة المشتركة والحيّة لمختلف الثقافات. فخلال الحرب الروسية التركية لعامَي 1828-9، نجح الروس في

جورجيا بتجنيد مسلمين في سلاح الفرسان أكثر من المواطنين الجورجيين (المسيحيين)[52]. ولكي لا تفاجئنا فكرة قائد روسي يرسل أكثر من ألف تركي أذربيجاني لحماية سلسلة من القرى الأرمنية (أو ثورة كردية ضدّ السلطات العثمانية يدعمها مسيحيون يونانيون ونسطوريون محلّيون) علينا أن نضع في اعتبارنا أنّه داخل هذه الفسيفساء العرقية للقوقاز، لم يكن تعبيرا «مسيحي» و«مسلم» هما الطريقة الوحيدة التي يستخدمها الناس للتحدّث عن أنفسهم[53].

كانت معركة كيوروك-دارا، التي تقع اليوم على الحدود الأرمنية التركية تماماً، كارثة صغيرة بالنسبة إلى العثمانيين، هُزم فيها الجيش التركي أمام قوّة روسية لا تتجاوز نصف عديده (بعضهم يقول الثلث). قبل شهر من ذلك، كان الجيش الروسي، الذي يتقدّم في تركيا العثمانية، قد احتلّ بلدة بايزيد التركية الشرقية بقوة من عشرة آلاف جندي؛ بمن فيهم 1.200 مسلم (من الأتراك الأذر والأكراد) و150 أرمني محلّي[54]. نتجت معركة كيوروك-دارا إلى حدّ ما عمّا يلي: فقد نشأت من لقاء غير متوقّع بين القوّات الروسية والعثمانية على طول نهر كورو، عندما «اصطدم» الجنود الروس فجأة بجيش عثماني ظنّوا أنّه ينسحب.

كان الجنرال المسؤول عن الجيش التركي إيرلندياً يدعى ريتشارد غويون/ خورشيد باشا (بما أنّ الجنود العثمانيين كانوا يأنفون من العمل تحت إشراف ضباط مسيحيين، اضطرّ جميع الضبّاط الأوروبيين والأميركيين لاستخدام أسماء عثمانية). كان غويون/ خورشيد باشا، بشخصيّته الكوزموبوليتانية، جندياً محظوظاً، حارب في الثورة المجرية، وعاش قبل اندلاع حرب القرم في مدينة دمشق السورية. كان غويون واحداً من كثير من الضبّاط الأوروبيين الذين أرسلهم الحلفاء للمساعدة في قيادة الجيش العثماني. وفي معركة كيوروك-دارا، ساعده جنرال مجري يدعى كيمتي/ اسماعيل باشا. لم تكن العلاقات جيّدة دائماً. فبحسب التقارير البريطانية (غير الموثوقة بالضرورة)، كان غويون يتمتّع بالشعبية بين الجنود العثمانيين، لأنّه عند وصوله لاستلام القيادة، اكتشف أنّهم لم يتقاضوا أجورهم منذ عامين، فطلب أن تُدفع على الفور، وهو عمل

لم يستسغه كثيراً زملاؤه الضبّاط العثمانيون. وقد جمعت علاقة سيّئة على نحو خاصّ الرجل الإيرلندي بأحد القادة الأتراك، ويدعى ظريف باشا. قد لا يكون سبب هذا الجفاء ثقافياً بالضرورة، ذلك أنّ غويون كان له نصيبه من الخلافات مع الضبّاط البولّنديين أيضاً. لا بدّ من القول أيضاً إنّ ظريف باشا، الذي يُعدّ مرحاً من كثير من النواحي، كان على علاقة وثيقة جدّاً بضابط إيرلندي آخر يعمل في خدمة العثمانيين، هو الجنرال كولمان/ فايزي بك. كان كولمان/ فايزي بك إيرلندياً يجيد التركية، وكان علاوة على ذلك واحداً من قلّة من الضبّاط الغربيين الذين اعتنقوا الإسلام. على أيّ حال، فإنّ سوء العلاقات بين غويون وظريف باشا، ناهيك عن الأشخاص المقرّبين منهما، شكّلت بالتأكيد عاملاً مساهماً في الهزيمة التي تعرّضوا لها على أيدي جيش روسي أصغر بكثير.

كان الروس تحت قيادة جنرال يدعى بيبوتوف. وفي الجيش الإمبراطوري، تعاون عدد كبير من الكتائب المسلمة على نحو وثيق ومثير للدهشة مع أفواج القوزاق والروس؛ أفواج مشاة كاراباباك (أتراك أذربيجانيين) فضلاً عن مرتزقة أكراد أو باش بوزوك (بالروسية ميليتسيا). عاش أكراد المنطقة تحت الحكم العثماني وأضمروا العداء لإسطنبول، على غرار كثير من الأرمن. نتج العدد الكبير من الأتراك في الجيش الروسي عن جهود بيبوتوف الخاصّة لتجنيد مقاتلين من القرى الكردية المحلّية، معتمداً على تعاطف المناهضين للعثمانيين. ويشير المؤرّخ باديم إلى أنّه بحلول عام 1854، كان القادة الأكراد يزورون الضباط الروس يوميّاً، ويعدونهم أنّه في حال انسحاب العثمانيين من المنطقة، سيقف الأكراد إلى جانب الروس. حتّى أنّ بيبوتوف أرسل فوجاً من القوزاق إلى بعض القرى الكردية لمعرفة عدد الأكراد الذين يمكن تجنيدهم لمقاتلة العثمانيين. وتكرّرت هذه العمليّة عندما اجتمع الضباط الروس مع زعماء مختلف القرى الأرمنية والتركية الأذرية في المنطقة[55].

بعبارة أخرى، كانت معركة كيوروك-دارا معركة حارب فيها الجيش العثماني، المؤلّف من جنود أتراك وسوريين (عرب) تحت قيادة إيرلندي وبعض

البولّنديين والمجريين، ضدّ جيش روسي لا يقتصر على جورجيين (مسيحيين)، وأرمن، وروس، بل على أتراك أذريين وأكراد مسلمين أيضاً. علاوة على ذلك، فإنّ هذا المزيج من الثقافات والهويّات في كيوروك-دارا كان نموذجياً في كلّ المعارك التي دارت على الجبهة القوقازية لحرب القرم، بدءاً من معركة بايندير الافتتاحية (1853) ووصولاً إلى القوزاق البولّنديين الذين قدموا مع الوحدة العثمانية إلى جورجيا في الأيّام الأخيرة للنزاع. وبغضّ النظر عن الدعاية التي كانت تُنشر من موسكو وإسطنبول، لم يكن ذاك صراع حضارات على الإطلاق.

وقعت المعركة نفسها في 6 أغسطس 1854. على الجانب الآخر من البحر الأسود، اجتاحت الكوليرا القوّات المتمركزة في بلغاريا وإسطنبول. كانت القوّات البريطانية، والفرنسية، والعثمانية تستعدّ في فارنا بالآلاف للانتقال إلى جزيرة القرم. وهنا في كيوروك-دارا، على أطراف شرق تركيا، من الغريب التفكير أنّ مجموعة صغيرة من الضباط الإيرلنديين والبولّنديين، والمجريين تستعدّ لقيادة جيش عثماني ضدّ الروس.

كان يجب أن يُشنّ الهجوم العثماني على الروس في 4 أغسطس. فقد خطّط غويون للهجوم في حوالى هذا التاريخ. لكنّ ظريف باشا، الذي كان يعتقد بالخرافات، أصرّ على أنّ الرابع والخامس من الشهر هما يومان غير محظوظَين (لأنّ القمر يكون في برج السرطان)، فتمّ تأجيل الهجوم حتّى السادس من الشهر[56]. بسبب تفوّق الجيش العثماني عددياً، أعدّ غويون أساساً لهجوم ثلاثي المحاور، يقوم فيه الجناح الثالث بتطويق الجيش الأصغر والإطباق عليه. كانت خطّة مدروسة جيّداً، لكنّها اعتمدت مع الأسف على القدرة على المناورة في الميدان، وهي مهارة لم يكن يتمتّع بها الجيش العثماني. فقد كان الشرط الأساسي والحاسم للخطّة يقضي بالهجوم في الصباح الباكر جدّاً. غير أنّ شجاراً وقع بين غويون وظريف باشا أخّر انطلاق القوّات بشكل كبير (قال ظريف باشا للإيرلندي «أنا قائد هذا الجيش، وأنا أعلم متى ينطلق»)[57]. بالنتيجة، وصلت الأقسام الثلاثة من الجيش متأخّرة عن موعدها.

كان غويون قد خطّط لهجوم وهمي مركزي على القوّات الرئيسة الروسية، بينما يتقدّم قسم آخر (بقيادة المجري ماتي/ اسماعيل باشا) على جناح مختلف، ويحاول إلهاء بيبوتوف. وفي هذا الوقت، يقوم القسم الثالث بالالتفاف حول الجناح الروسي، ويهاجمهم من الخلف مع أسراب من سلاح الفرسان الكردي العثماني. كانت الخطّة جيّدة، لكنّها اعتمدت على تعاون وثيق وتوقيت دقيق لكلّ قسم من أقسام الجيش. وهذا ما لم يحدث لسوء الحظّ.

بدأ الهجوم ثلاثي المحاور فجراً بهجوم على نقطة مراقبة على تلّة، سيتبيّن لاحقاً أنّها مركزية بالنسبة إلى المعركة التي تلت ذلك، ألا وهي تلّة كارايال[58]. الغريب أنّ الجنرال بيبوتوف، وهو قائد يتمتّع بكفاءة عالية، أغفل التحقّق من كفاية دفاعات تلك النقطة. فتمركزت كتيبة من الرماة الإسطنبوليين بسرعة على أعلى التلّ، وسبّب ذلك مشكلة كبيرة لأنّ القوّات العثمانية (خلافاً للروس) كانت مجهّزة ببنادق مينييه الأكثر تقدّماً بكثير. ردّاً على ذلك، أرسل بيبوتوف قوّة مشاة لاستعادة التلّ، مدعومة من القوزاق، وستّة أسراب من فرسان نيزيغورودسكي، وفرسان مسلمين. سعت خدعة غويون إلى جعل الروس يعتقدون أنّهم يهاجمون مركز القوّات العثمانية، في حين أنّه لم يكن في الواقع سوى الجناح الأيسر البعيد لجبهة أوسع بكثير.

شهدت تلّة كارايال معركة ضارية بين الجنود العثمانيين (أتراك، وسوريين، وأكراد) من جهة، وبين القوزاق، والفرسان، والمسلمين غير النظاميين الذين يحاولون استعادتها. نحو الساعة السابعة، تخلّى بيبوتوف عن فكرة استعادة التلّ، وركّز على الأفواج العثمانية حوله. بعد عدد من الهجمات اليائسة التي نفّذها الفرسان الروس، تمّ اختراق الخطوط العثمانية، وبدأ الجناح الأيسر للجيش التركي بالتراجع، فراح الرماة الإسطنبوليون يغادرون التلّ. عندئذٍ، أخذ كثير من الباش بوزوك والمرتزقة الأكراد الذين يساعدون العثمانيين بالتفرّق هم أيضاً. يلقي المؤرّخون الأتراك والغربيون على السواء اللوم على الضباط العثمانيين لهذا الانحلال السريع للجيش. ففي حين أنّ الجنود أنفسهم حاربوا ببسالة

وتصميم كبيرَين، إلاّ أنّ الضباط تركوا صفوفهم فوراً حالما تغيّر اتّجاه المعركة، وأمروا بنقل أمتعتهم بعيداً عن الميدان.

مع اختفاء أحد محاور الهجوم، أصبحت خطّة التطويق التي سينفّذها القسمان الآخران عديمة الجدوى. فقد تمكّن الروس بسرعة من إعادة تركيز قوّاتهم الأصغر حجماً بمهارة كبيرة على الجبهتين الأخريَين. وعندما ظهر عدد كبير من الفرسان الأكراد العثمانيين من ميمنة الروس، عمد بيبوتوف إلى تعزيز هذا القسم بفوج من القوزاق ولواء من الفرسان المسلمين[59]. والحركة التي كان الهدف منها أساساً «التسلّل خلف» الروس تحوّلت الآن إلى الجبهة المركزية للمعركة. اندلع قتال عنيف، وبحلول الساعة العاشرة، بدأ المشاة الأناضوليون بالتراجع، بعد أن وصلتهم أخبار القتال حول تلّة كارايال. ألحق الجيش الروسي الأصغر حجماً، بمزيجه من المشاة الجورجيين، والفرسان المسلمين، والفرسان الروس، والجنود الأكراد/الأتراك الأذريين غير النظاميين، بالعدوّ العثماني خسائر فادحة بلغت ثمانية آلاف، بين قتيل وجريح. وأدّت هذه الهزيمة في نهاية المطاف إلى سقوط مدينة قارص التركية الشرقية. كما أنّ انتصار روسيا سيتحوّل بحدّ ذاته إلى ورقة مساومة حاسمة في مفاوضات السلام التي أنهت حرب القرم.

أمّا بالنسبة إلى دراستنا عن الأحلاف الإسلامية المسيحية، فإنّ انتهاءها مع صراع القرم يستدعي مجموعة مختلطة من الأفكار في الفصل الختامي. فمن جهة، نجد فكرة حديثة جدّاً تصوّر العالم الإسلامي أنّه متخلّف، وأقلّ شأناً، وبدائي (تتناقض مع صورة أوروبا التقدّمية، والمتطوّرة، والمتفوّقة تقنياً) في كثير من جوانب حرب القرم. ففي فترات سابقة من التاريخ، كان يُنظر إلى الثقافات الإسلامية وجيوشها برهبة وخوف؛ وكما نذكر، نظرت إسبانيا المسلمة إلى مدن الشمال المسيحية على أنّها جارات فقيرة، وبالكاد تحدّثت عنها. كذلك، فإنّ غطرسة السلاطين العثمانيين في القرن السادس عشر تجاه «الكفّار» أتت بالتأكيد نتيجة لتفوّقهم العسكري والاقتصادي. لكن بحلول القرن التاسع

عشر، تبدّلت الأدوار، وأصبح الغرب هو الذي يعتبر الأتراك «شبه همجيين»، وأصبح الجنرالات البريطانيون، بحسب أحد المصادر التركية، هم الذين «يعاملون الضباط العثمانيين مثل الزنوج»[60]. والعلاقة المخيّبة للآمال عموماً بين الجنود الفرنسيين/البريطانيين ورفاقهم العثمانيين في حرب القرم ناتجة عن هذا الاختلاف في القوّة العسكرية/الاقتصادية أكثر من أيّ تصوّر آخر للانتماء الديني.

من جهة أخرى، يبقى المستوى الواضح من التعاون بين الجنود المسلمين والمسيحيين، من مختلف المذاهب والألوان، في ساحة معركة القرم مدهشاً. فالألفة التي استخدم فيها الروس فرساناً ومشاة من الديانتين، والمناورة الحميمة التي وقعت عندما دعم الأكراد القوزاق، أو عندما دعم الأتراك الأذريين الأفواج الجورجية، تدفعنا إلى التفكير في حرب القرم كصراع اختلط فيه المسلمون والمسيحيون بشدّة. كما تذهلنا بالدرجة نفسها الطريقةُ التي تمّ فيها تجاهل هذه المشاركة الإسلامية والتقليل من شأنها في روايتنا الغربية للأحداث. فبالنسبة إلى القرّاء البريطانيين على الأقلّ، وفي أشهر نواحي حرب القرم التي تُذكر اليوم، من الصعب إيجاد أيّ أثر للمسلمين. وتبقى الصور البديهية لتلك الحرب، من هجوم اللواء الخفيف، إلى الخطّ الأحمر الرفيع، إلى مذكّرات فلورانس نايتينغايل، خالية من أيّ مشاركة أو خلفية إسلامية. يزداد هذا الأمر وضوحاً مع متابعة كتب التاريخ عن الحرب نفسها. فمع أنّ الجيش العثماني كان، بعد الجيش الفرنسي، ثاني أكبر جيش في القرم، إلاّ أنّ كلّ الفهارس (حتّى لدى مؤرّخ ممتاز ونقدي للغاية مثل بونتينغ) تذكر الجيش البريطاني/الفرنسي/الإيطالي/الروسي بشكل مستقلّ، من دون أن تورد عنواناً للجيش التركي. قد تبدو هذه نقطة تافهة، لكنّها تبوح بالكثير، حتّى في يومنا هذا، عن نوع الأحداث التي نريد تذكّرها، والأحلاف التي نفضّل تناسيها.

خاتمة

أمضيت ستّ سنوات في تركيا أُدرّس الأدب في عدد من الجامعات في إسطنبول وخارجها. وعملت في العامين الأوّلين في بلدة ريفية كبيرة في وسط تركيا. حتّى الحرب العالمية الأولى على الأقلّ، عاش اليونانيون، والأرمن، والأتراك معاً في تلك البلدة لقرون من الزمن. ومع أنّ المباني الشاهدة على ذلك كانت تختفي بسرعة، إلاّ أنّ المنطقة المحيطة بسكني القديم ما زالت تضمّ عدداً من المنازل اليونانية والأرمنية القديمة المتهالكة، وكثير منها يرجع إلى القرن التاسع عشر. فكنت أخرج بعد الظهيرة في أيّام الصيف، يدفعني الفضول أحياناً، والملل أحياناً أخرى، لأتجوّل حول منازل الطوب المتداعية، بعضها مأهول، والبعض الآخر مهجور، وفي جميع الأحوال، هجرها سكّانها الأصليون منذ زمن طويل. في أحد الأيّام، صادفت نقشاً فوق باب أحد المنازل، وهو عبارة «ما شاء الله» الإسلامية التي غالباً ما نجدها فوق أبواب منازل المسلمين، إلاّ أنّها كُتبت هذه المرّة بالأحرف اليونانية: ΜΑΣΑΛΛΑ. بتعبير آخر، أراد المالك المسيحي لهذا المنزل اليوناني وضع نقش عربي معتمَد فوق مدخل بيته من أجل جيرانه المسلمين.

كانت العبارة اليونانية التي رأيتها في ذلك اليوم (ΜΑΣΑΛΛΑ) مجرّد كلمة، تحية إسلامية مكتوبة بحروف يونانية. لا يمكننا المبالغة فيها، ولا اعتبارها مثالية، وهي ليست كلمة سحرية بمقدورها أن تنسينا التاريخ الشاقّ بين اليونانيين، والأرمن، والأتراك. إنّها ليست كلمة قادرة على كتم بعض الصرخات، أو محو بعض المجازر، أو إضفاء شيء من الرومانسية على بعض الأحداث الماضية. مع ذلك، ما زالت هناك اليوم، محفورة في الحجر، شاهدة على زمن تناول فيه المسلمون والمسيحيون الطعام نفسه، واشتركوا في قيل

وقال حول سـكّان القرية، وقرأوا الصحف نفسـها، ورقصوا على الأنغام نفسـها، التي عُزفت بالآلات نفسـها، في المقاهي نفسها. إنّها كلمة تسـجّل تماماً روح ما سـعيتُ إلى إيصاله من خلال هذا التاريخ السريع للأحلاف الإسلامية المسيحية: إن كنّا مصرّين على الاسـتمرار في رواية قصّـة أوروبا، علينا أن نـدرك أنّها قصّة ثلاث ديانات، وليس ديانة واحدة. والفكرة لا تقتصر على تركيا، بل يمكن إيجاد نُسخ مشـابهة لكلمة ΜΑΣΑΛΛΑ التي لمحتها عصر ذلك اليوم لدى المسلمين والمسـيحيين في جورجيا، والبوسـنة، واليونان، ناهيك عن العـرب الذين رحلوا منذ وقت طويل عن صقلية وإسـبانيا. وإخراج المسلمين من هذه القصّة هو أشبه بمحو كلمة ΜΑΣΑΛΛΑ عن مدخل ذلك المنزل.

مع أنّ هذا الكتاب كان في الأسـاس تاريخاً عسكرياً، إلاّ أنّ القيم المشتركة وتداخل مجتمعـات المسـلمين والمسـيحيين على مرّ القـرون شـكّل خلفية غير معلنة لهـذا البحـث. فثمّـة بالتأكيد مسـتوى مـن الحاجة لـدى كلّ منّـا يجب أن نتوصّل إليـه قبل أن نقـرّر التحالف مـع جماعة أخـرى، ومع أشـخاص نعتبرهم مختلفين عنّا. وثمّـة عوامل مختلفة ترفع أو تخفض مسـتوى الضرورة ذاك: حالة طارئة، فقد لا يروق لنـا جارنا بما فيه الكفاية إلى حدّ اسـتعارة سـلّم منـه، لكنّنا لـن نرفض مسـاعدته إن اندلع حريـق في منزلنـا. وكما رأينـا، أدّت الغـزوات أو الاعتداءات الوشـيكة في كثير من الأحيـان إلى توحيد المجتمعـات التي لم تكن متعاطفة كثيراً مع بعضها البعض في الأساس.

تُعتبر كراهية عدوّ مشـترك عاملاً آخر. إذ يبدو أنّ الخوف من تهديد أو عدوّ مشـترك قرّب بين ثقافات مختلفة، لا بل دفعها إلى البحث عن قواسـم مشـتركة. فعندمـا حـاول الإيليزابثيون البروتسـتانت إقنـاع إمارات شـمال أفريقيـا بإحداث المتاعب في إسبانيا الكاثوليكية (وبالتالي تشتيت انتباه أسطولها البحري) احتجّوا بكراهية المسـلمين والبروتسـتانت المشـتركة للوثنيـة «البابَاوية». وعندما يسـعى أوكراني بولّندي إلى إقناع أشـخاص آخرين في البلقان بالانضمام إلى العثمانيين في صراعهم ضـدّ القيصر، من خلال تمشـيط كتـب التاريخ فـي محاولة لإيجاد

رابط أسري بين ملوك الصرب وسلالة السلاطين، فهو يسعى إلى تبرير ضرورة سياسية بواسطة عذر تاريخي. ذلك أنّ مقاومة عدوّ مشترك تدفعنا، عن وعي أو غير وعي، إلى البحث عن قواسم مشتركة وعلاقات مع حلفائنا الجدد وغير المتوقّعين (في النهاية، كان نيتشه هو من قال إنّه علينا أن نحبّ أعداءنا، لأنّ أعداءنا يخبروننا من نكون).

كذلك فإنّ الوعد الاقتصادي بالكسب المادّي يخفّف من عدم استعدادنا للتحالف مع مجتمعات مختلفة. تشهد على ذلك الأمثلة العديدة التي وردت في هذا الكتاب عن المرتزقة والفلاّحين الذين قاتلوا إلى جانب جيوش من ديانة أخرى. علاوة على ذلك، غالباً ما بدا أنّ هذا القرار الاقتصادي يستتبع استثماراً عاطفياً. فالقناعة الملفتة التي حارب بها بعض المرتدّين تحت راية رؤسائهم الجدد، سواء كانوا مسلمي هوهنشتاوفن أو الكروات والجورجيين الذين اعتنقوا الإسلام وحاربوا مع العثمانيين، يشير إلى أنّ الأمر يتجاوز مجرّد قرار استراتيجي. وقيام بعض الضبّاط الأوروبيين الذين خدموا مع العثمانيين في حرب القرم باعتناق الإسلام، في حين اكتفى آخرون باعتماد اسم تركي، يُظهر كيف تختلف استجابة الناس لمثل هذا التعاون الوثيق مع ثقافات «أخرى».

تأتي بعد ذلك الأسباب الغريبة التي دفعت المسلمين والمسيحيين في لحظات معيّنة إلى التضامن معاً، وهي أسباب لا يمكن دائماً اختزالها بوضوح بمجموعة من الظروف الاقتصادية، والثقافية، والسياسية، على الرغم من أنّ تلك الظروف ساهمت بالتأكيد في توحيدهم. فالمحبّة، والمصاهرة، والفضول، والانجذاب والافتتان الذي لا يمكن تفسيره، صداقات كتلك التي جمعت بين كانتاكوزينوس وأومور، أو مواقف كتلك التي اتّخذها فريدريك الثاني أو ميشال تشايكوفسكي، شكّلت على ما يبدو حافزاً لتحالفات بين أديان مختلفة لا يمكن إدراجها بسهولة ضمن نظام تبادل واضح. في الواقع، التاريخ هو ببساطة فوضوي للغاية، وحافل بالأمثلة، بحيث يصعب وضعه في قوالب على هذا النحو. فهو يسكب في كلّ مكان حكاياته، وهوامشه، وملاحظاته، بحيث يؤدّي

بأكثر المؤرّخين ثقةً إلى التردّد والتعثّر.

أخيراً، وربّما كان هذا هو الأهمّ، يبدو أنّ وجود ثقافة مشتركة أو لغة أو قيم مشتركة هو الذي يخفض درجة استعداد جماعة دينية معيّنة إلى القتال لصالح جماعة أخرى. فمسلمو سرقسطة تحدّثوا اللغة الإسبانية بطلاقة كافية، بحيث تمكّنوا من التسلّل إلى معسكر الأراغونيين كجواسيس؛ في حين أنّ مسيحيي ومسلمي لوتشيرا دافعوا عن أسوار المدينة نفسها ضدّ المعتدين الفرنسيين؛ وحارب مسيحيو البلقان، والصرب، واليونانيون في الفِرق نفسها مع جيرانهم المسلمين ضدّ آل هابسبورغ، فقاتل عليّ إلى جانب ديمتري، وعبد الله إلى جانب توماس. ونشأ حلف إسلامي مسيحي ناجح عندما أصبح أحد العوامل التالية مهمّاً بما فيه الكفاية لإحداث فَرق: الحاجة السياسية، أو العدوّ المشترك، أو القيم المشابهة، أو اللغة الواحدة، أو الصداقات غير المتوقّعة، أو المصاهرات بين النخبة.

إنّ الفترات التاريخية التي اشتمل عليها هذا البحث، من إسبانيا القرن الحادي عشر وصولاً إلى روسيا القرن التاسع عشر، هائلة بكلّ المقاييس. فقد شكّلت بعض فقرات هذا الكتاب موضوع موسوعات كاملة، في حين تخطّت بعض الجُمل قروناً كاملة. وعند التعامل مع فترة تتجاوز ثمانمائة عام، ومساحة من الأراضي تمتدّ من برشلونة إلى بلغاريا، يصعب علينا كتابة خاتمة، مهما تكن عامّة. ربّما كانت النقطة الأهمّ التي ينبغي لنا التوقّف عندها هي أنّه، تاريخياً، لم تكن كلمتا «مسلم» و«مسيحي» تحملان كلّ الدلالات التي نتوقّعها اليوم، ومن يدّعون عكس ذلك، يكون لديهم في أغلب الأحيان أجندة مختلفة وخفية. فتعبير «إسلام» يقلّل من التعقيدات غير المريحة: كما سبق ورأينا، استخدمه آل هابسبورغ النمساويون كذريعة ثابتة من أجل «حماية» المجر، تماماً كما استخدمت بعض النخب البيزنطية كلمة «الترك» لإلهاء الناس عن فسادها وأنانيتها. ويصحّ هذا الأمر اليوم، مع قيام جيش من الخبراء الإعلاميين باستخدام الإسلام والجهاد من أجل «تفسير» العنف في فلسطين والعراق، وهي

«تفسيرات» ليست خاطئة فحسب، بل هي تحرّرنا نحن الغربيين من التفكير في تورّطنا في هذه القضايا. إذ يمكن تصوير العنف الحالي السائد في أفغانستان بسهولة على أنّه صراع بين التطرّف الإسلامي والديمقراطية، لكنّ عمل الرئيس الأفغاني لصالح شركة نفط كاليفورنية يفشي الكثير عن نوع هذه «الديمقراطية».

يُعتبر هذا التعدّي على التاريخ، من نواح كثيرة، واحداً من أكثر الظواهر المعتادة إثارة للاستغراب في هذه الدراسة. فحذف وجود المسلمين في الجيوش المسيحية، والعكس بالعكس، حدث على ما يبدو في كلّ حقبة من حقبات التاريخ. فتغاضى المؤرّخون المجريون عن مساعدة العثمانيين لهم في انتصاراتهم على أعدائهم، في حين أغفل الشعراء العثمانيون، عند كتابة ملاحمهم التاريخية، ذكر مشاركة اليونانيين في القرن التأسيسي لإمبراطوريتهم. ويستمرّ هذا الفقدان الانتقائي للذاكرة حتّى وقتنا الحاضر، لنجده، على سبيل المثال، لدى كثير من المؤرّخين البريطانيين الذين ألغوا دور القوّات التركية في حرب القرم، أو لدى النمساويين، الذين يحتفلوان بيوم «تو ركنيار» لعام 1683، من دون أن يذكروا أنّ نصف الجيش الذي هدّد فييّنا كان في الواقع تركياً.

بهذا المعنى، يُعتبر المؤرّخ ضميراً يملك الوقت للقراءة. بالنسبة إليّ، كانت إحدى أكثر نتائج هذا العمل إثارة للدهشة هي رؤية حجم التاريخ المفقود، والسهولة التي أُسقط بها من الزمن. فثمّة كثير من الروايات التي يمكن لمجتمع من المجتمعات أن يقدّمها ليشرح كيفيّة ولادته. وثمّة كثير من الكتب التي يمكن للناس قراءتها، وكثير من الأحداث التي يمكن للمجتمع تذكّرها، وكثير من العناوين التي يمكن وضعها على صفحات البحث على الإنترنت أو في إحدى المكتبات. وينطوي تذكّر أمر واحد، عاجلاً أم آجلاً، على طمس آخر؛ وبما أنّ آليات المجتمع المستخدمة لفهم الماضي تنتقل دائماً معه إلى الحاضر، يمكن لبعض المصادر أن تُنتسى بسهولة، مثل راكب سفينة، مع انحراف الذاكرة الجماعية في اتّجاه مختلف. أعترف أنّني كنت أملك وجهة نظر ساذجة إلى حدّ ما قبل أن أبدأ هذا البحث. فقد كنت أتخيّل أنّ الأمر أشبه بصعود تلّة، كلّما

ازداد ارتفاعك، تكتسب رؤية أوسع لمساحة أكثر امتداداً. وكلّما قرأت أكثر، عرفتَ المزيد عمّا «حدث بالفعل». لكن بعد عامين من البحث، أدركت أنّ هذا التشبيه خاطئ. فنحن لا نعرف المزيد عن أنفسنا، بل نعدّل رواياتنا التاريخية باستمرار. فقائمة مراجع كتاب ما (بما في ذلك هذا الكتاب) تشير دائماً إلى كلّ ما كُتب حول الموضوع خلال السنوات الأربعين السابقة. ومع مرور الزمن، نبقى نوعاً ما داخل منحنى، يتبادل فيه ماضينا وحاضرنا المعلومات إلى الأبد. وبالنسبة إلى كتابة التاريخ، يمكن استبدال استعارة التلّة بالسيارة، التي يقودها السائق على طريق مغطّى بضباب كثيف، مضيئاً مصابحها الأمامية والخلفية، بحيث لا يرى سوى على مسافة عشرة أمتار أمامه وعشرة أمتار خلفه. والطريق الذي تمرّ عليه السيّارة يتغيّر باستمرار، من دون أن يتمكّن السائق من رؤية المزيد أمامه أو خلفه.

أودّ أن أختم بملاحظة شخصية، وسياسية إلى حدّ ما. يقال لنا إنّنا نعيش في عصر من «الإرهاب» المتعاظم. فكلمة «إرهابي»، التي استُخدمت لوصف أيّ شيء، من المتشدّدين الإسلاميين إلى المهاجرين المكسيكيين، ومن الانفصاليين الأكراد، إلى الناشطين النقابيين في الفليبّين، انتقلت إلى الخطاب العامّ بطريقة غير مسبوقة، وولّدت جوّاً لمجتمع يعيش فعليّاً «تحت التهديد». وقد تمّ تمديد هذا الحسّ بالإرهاب (ما أطلقت عليه صحيفة بريطانية مؤخّراً اسم «التهديد الكوني للإرهاب») بدرجات متفاوتة ليشمل، ليس فقط مسألة السياسة الخارجية والهجرة، بل مفهوم ثقافات الشرق الأوسط بشكل عامّ، وبالطبع، الديانة الإسلامية على وجه الخصوص.

أنا أعي تماماً وجود عدد صغير من المتعصّبين الذين يسعون إلى إحداث دمار واسع النطاق، عند أقلّ فرصة. فبينما كنت مسافراً للعمل في إسطنبول في صباح أحد الأيّام من عام 2005، مرّ الباص الذي كنت أستقلّه من أمام بنك HSBC قبل ساعة من تفجيره، مودياً بحياة أكثر من ثلاثين شخصاً. بالتالي، أنا لا أدّعي أنّه لا وجود للتهديد الإرهابي. لكن ما يجب تكراره هو أنّ الخطر

الحقيقي ليس سوى جزء صغير جدّاً من التهديد المزعوم. فثقافة الأمن التي تزدهر في أوروبا نتيجة هذا الهوس بـ«الإرهاب» (من الأشخاص الذين يتمّ اعتقالهم لمجرّد التحديق إلى مباني شركات، إلى مقاطعي الاجتماعات العامّة الذين يتعرّضون للضرب والصعق عقاباً على معارضتهم) يبدو أنّها تزداد يوماً بعد يوم، وتخفي عدداً من الأجندات البشعة. ويصعب علينا أن نتجاهل الطريقة التي يُستخدم فيها «البُعبع المسلم» لصرف انتباه الرأي العام عن التهديد الحقيقي الذي يتربّص بمجتمعنا، والمتمثّل في الاستيلاء واسع النطاق على البنى والموارد العامّة من قبل عدد صغير من الشركات ونخب رجال الأعمال. ففي الاتّحاد الأوروبّي، الذي أصبح بشكل متزايد مرادفاً للخصخصة وتحرير الاقتصاد، نجد أنّ القلق الذي تضخّه وسائل الإعلام بشكل مستمرّ إزاء الإرهاب، والمهاجرين، وطالبي اللجوء يلهي الشعب عن سلسلة من القضايا (المحلّية)الأكثر إلحاحاً. وبالنسبة إلى الأعمال التجارية الكبيرة، تُعتبر البرامج الإخبارية الرائدة، بقصصها الجديدة عن المؤامرات الإرهابية، وصور الأئمّة المثيرة للريبة، أفضل بكثير من النقاشات العامّة المتعلّقة بالملكيّة المشتركة لوسائل الإعلام، أو تأثير جماعات الضغط على سياسة الحكومة. فالحديث المستمرّ عن «جيش الإسلام»، كما أدرك تماماً إمبراطور هابسبورغ والقيصر الروسي، له منافعه بالتأكيد.

الهوامش



هوامش الفصل الأول

1 J.F. O'Callaghan, *A History of Medieval Spain* (Cornell University Press, 1975), pp.129–30. For more on the advanced Arab state of siege machinery, with respect to its eleventh-century Christian counterparts, see Paul E. Chevedden, 'The Artillery of King James I the Conqueror' in P.E. Chevedden, D.J. Kagay and P.G. Padilla (eds) *Iberia and the Mediterranean World of the Middle Ages* (Leiden, 1996), vol. II, pp.57–63.

2 This treatment of both Ibn Habib's *Kitab al-Ta'rij* and the anonymous tenth-century *Akhbar Majmu'a* can be found in J.M. Safran's 'Landscapes in the Conquest of al-Andalus' in J. Howe and M. Wolfe (eds), *Inventing Medieval Landscapes: Senses of Place in Western Europe* (University Press of Florida, 2002), pp.136–49. For a valuable in-depth study of the Muslim conquest, see 'Abdulwahid Dhanun Taha, *The Muslim Conquest and Settlement of North Africa and Spain* (Routledge, 1989), pp.84–110.

3 Norman Roth, *Jews, Visigoths and Muslims in Medieval Spain: Cooperation and Conflict* (Leiden, 1994), pp.46–7.

4 Makki, p.44, in S.K. Jayyusi (ed.), *The Legacy of Muslim Spain* (Leiden, 1992).

5 For the relative silence of Maghrib writers in general on Christians, see Aziz al-Azmeh, 'Mortal Enemies, Invisible Neighbours: Northerners in Andalusi Eyes' in Jayyusi (ed.), pp.260–5.

6 O'Callaghan, p.188.

7 Brian A. Catlos, *The Victors and the Vanquished: Christians and Muslims of Catalonia and Aragon 1050–1300* (Cambridge University Press, 2004), pp.29–31.

8 Azmeh, p.264; Roth, p.46.

9 Richard Fletcher, *The Quest for El Cid* (London: Hutchinson, 1989), p.141.

10 Hugh Kennedy, *Muslim Spain and Portugal* (London: Longman, 1996), pp.130–2.

11 Simon Barton, 'Traitors to the Faith? Christian Mercenaries in al-Andalus and the Maghrib c.1100– 1300' in R. Collins and A. Goodman (eds), *Medieval Spain: Culture, Conflict and Coexistence in Honour of Angus MacKay* (London: Palgrave, 2002), p.26.

12 O'Callaghan, p.127.

13 Barton, p.25.
14 Catlos, p.265. For an interesting later example of a Muslim mercenary, see Catlos' essay. 'Mahomet Abenadalill: A Muslim Mercenary in the service of the Kings of Aragon (1290–1)' in H.J. Hames (ed.), *Jews, Muslims and Christians in and around the Crown of Aragon* (Leiden, 2004), pp.257–302.
15 Ibid, p.74-5.
16 B.F. Reilly, *The Kingdom of Leon-Castilla under King Alfonso VI* (Princeton: Princeton University Press, 1988), p.240; Arabic source for the Muslim ruler of Huesca's exile found in Catlos, p.75.
17 Ross Brann, *Power in the Portrayal: Representations of Jews and Muslims in Eleventh and Twelfth Century Islamic Spain* (Princeton University Press, 2002), p.3.
18 M. Fierro, 'Christian Success and Muslim Fear in Andalusi Writings' in *Israel Oriental Studies* XVII, p.157.
19 From *Indiculus Luminosus*, cit. in O'Callaghan, p.188.
20 Cit. in Fletcher, p.52.
21 Roth, pp.54–5.
22 Brann, pp.95–7.
23 Catlos, p.37.
24 Catlos, p.73; the reference to Christians helping the Muslims keep hold of Huesca can be found in Antonio Duran Gudiol, 'Francos, Pamploneses y Mozarabes en la Marca Superior de al-Andalus' in P. Sénac (ed.), *La Marche Supérieure d'Al-Andalus et l'Occident Chrétien* (Madrid, 1991), p.146.
25 O'Callaghan, p.196.
26 Roth, p.93.
27 O'Callaghan, p.201.
28 This is reported in the *Latin Chronicles of the Kings of Castile*, ed. J.F. O'Callaghan (Arizona, 2002), p.4.
29 Reilly, p.83.
30 Reilly, p.163.
31 Reilly, pp.169–73.
32 See B.F. Reilly's follow-up volume to his work on Alfonso VI, *The Kingdom of Leon-Castile under King Alfonso VII* 1126–1157 (University of Pennsylvania Press, 1998), for twelfth-century developments in the aftermath of Zallaqah.
33 Pierre Guichard, *Les Musulmans de Valence et la Reconquête (xi-xiii siècles)* (Damas: Paris, 1990), pp.65–9.
34 Catlos, p.84.
35 Elena Lourie, 'A Society Organized for War' in *Past and Present* 35 (1966), pp.54–76.

هوامش الفصل الثاني

1 J. Göbbels, *Das Militärwesen im Königreich Siziliens zur Zeit Karls I von Anjou* (Hiersemann: Stuttgart, 1984), p.19.
2 S. Runciman, *The Sicilian Vespers* (Cambridge University Press, 1958), p.60.
3 David Abulafia, *The Western Mediterranean Kingdoms* (London: Longman, 1997), p.23; F. Gabrieli, *Arab Histories of the Crusades*, trans. E.J. Costello (London: Routledge, 1969), p.280.

4 Aziz Ahmad, *A History of Islamic Sicily* (Edinburgh University Press, 1975), p.6.
5 Julie Taylor, *Muslims in Medieval Italy: The Colony at Lucera* (Lexington University Press, 2003), pp.1–2.
6 Giovanni Amatuccio, 'Saracen Archers in Southern Italy', E-HAWK June 1997. www.idir.net.
7 David Abulafia, 'The End of Muslim Sicily', in J.M. Powell (ed.), *Muslims Under Latin Rule 1100–1300* (Princeton University Press, 1990), p.121.
8 J.P. Lomax, 'Frederick II, His Saracens and the Papacy', in John V. Toran (ed.), *Medieval Christian Perceptions of Islam* (London: Routledge, 1996), p.177.
9 Runciman, *Vespers*, p.10.
10 Abulafia, 'End of Muslim Sicily', p.109.
11 Eberhard Horst, *Der Sultan von Lucera* (Freiburg: Herder Verlag, 1997), p.10.
12 See section 60 of Nietzsche's *The Antichrist*.
13 J.L. Baird, G. Baglivi, J.R. Kane (eds), *The Chronicle of Salimbene de Adam* (Binghamton, NY, 1986), pp.356, 353.
14 Ibid, pp.352, 355.
15 David Abulafia, *Medieval Encounters, Economic, Religious, Political 1100–1350* (Ashgate, 2000), p.219.
16 Ahmad, *Islamic Sicily*, pp.89–91.
17 See F. Gabrieli, 'Friedrich II und die Kultur des Islam', in G. Wolf (ed.), *Stupor Mundi: Zur Geschichte Friedrichs II von Hohenstaufen* (Darmstadt, 1982) pp.88–9.
18 Kurt Victor Selge, 'Die Ketzerpolitik Friedrichs II', in G. Wolf, *Stupor Mundi*, p.451.
19 Taylor, *Muslims in Medieval Italy*, p.7.
20 For more on Damietta, see Douglas Sterling, 'The Siege of Damietta,' in D.J. Kagay and L.J.A. Villalon (eds), *Crusaders, Condottieri and Cannon: Medieval Warfare in Societies Around the Mediterranean* (Brill: Leiden, 2003), pp.101–32.
21 Taylor, *Muslims in Medieval Italy*, pp.8–10, Ahmad, *Islamic Sicily*, p.83.
22 Abulafia, *Medieval Encounters*, p.217.
23 Taylor, *Muslims in Medieval Italy*, p.47.
24 Ibid, pp.83–4.
25 Ibid, p.70.
26 Ibid, p.55.
27 Ibid, p.115.
28 J.P. Lomax, 'Frederick II', p.185.
29 Peter Thorau, *The Lion of Egypt: Sultan Baybars I and the Near East in the Thirteenth Century* (New York: Longman, 1987), p.8.
30 Amin Maalouf, *The Crusades Through Arab Eyes*, trans. J. Rothschild (Zed Books, 1984), p.226.
31 David Abulafia, *Frederick II: A Medieval Emperor* (Penguin, 1988) p.166.
32 Ibid, p.167.
33 Taken from Ibn Wasil's chronicle in Gabrieli, *Arab historians*, pp.279–80.
34 H.L. Gottschalk, *Al-Malik al-Kamil von Egypten und seine Zeit* (Wiesbaden, 1958), p.151.
35 Ibid, p.154.
36 Ibid.
37 Gabrieli, *Arab Histories*, p.275 (taken from the chronicle of Sibt ibn al-Jauzi).

38 Maalouf, *The Crusades*, p.229.
39 Abulafia, *Frederick II*, pp.189–90.
40 Taylor, *Muslims in Medieval Italy*, pp.103–4.
41 J.F. Verbruggen, *The Art of Warfare in Western Europe*, trans. C.S. Willard and R.W. Southern (Woodbridge: Boydell Press, 1997), p.7.
42 Amatuccio, 'Saracen Archers'; Abulafia, *Frederick II*, p.199.
43 Abulafia, *Frederick II*, p.201.
44 J.P. Lomax, 'Frederick II', pp.183–5.
45 *Salimbene de Adam*, p.74.
46 Abulafia, *Frederick II*, p.270.
47 Ibid, p.308.
48 Piero Pieri, 'I Saraceni di Lucera nella storia militare medievale', *Archivo Storico Pugliese* 6 (1953) p.96.
49 Pieri, 'I Saraceni', p.98.
50 Abulafia, *Frederick II*, p.327.
51 *Salimbene de Adam*, p.164.
52 See Amatuccio, 'Saracen Archers' and Taylor, *Muslims in Medieval Italy*, pp.104–11; also Göbbels, *Das Militärwesen*, pp.22–3.
53 Ahmad, *Islamic Sicily*, p.92; Enrico Pispisa, *Il Regno di Manfredi* (Sicania: Messina, 1991), p.301.
54 Gabrieli, *Arab Histories*, p.279.
55 Runciman, *Vespers*, pp.32–3.
56 Amatuccio, 'Saracen Archers'.
57 Runciman, *Vespers*, p.57.
58 Ibid, p.70.
59 Abulafia, *Frederick II*, p.415.
60 Runciman, *Vespers*, p.85.
61 Ibid, pp.92–4.
62 Ibid, p.96.
63 Pietro Egidi, *La Colonnia dei Saraceni e la sua distruzione* (Naples, 1915) vol. 1, p.45; Taylor, *Muslims in Medieval Italy*, pp.140–2.
64 Taylor, *Muslims in Medieval Italy*, p.145.
65 Ibid.
66 Göbbels, *Das Militärwesen*, p.119.
67 Amatuccio, 'Saracen Archers'.
68 Taylor, *Muslims in Medieval Italy*, p.105.
69 Ibid, p.174.
70 Ibid, p.183.

هوامش الفصل الثالث

1 S. Vryonis, Jr, *Byzantium and Europe* (London, 1967).
2 See Michael Balivet's essay in *Byzantinische Forschungen* XVI (Amsterdam, 1991), p.322.
3 S. Runciman, *The Fall of Constantinople* (Cambridge University Press, 1965), p.21.
4 A.A. Vasiliev, *History of the Byzantine Empire* (University of Wisconsin Press, 1952), vol. II, p.607.

5 M.C. Bartusis, *The Late Byzantine Army: Arms and Society 1204–1453* (University of Pennsylvania Press, 1992), p.70.
6 E.A. Zachariadou, *Romania and the Turks 1300–1500* (London: Variorum, 1985), vol. III, p.338.
7 See Chapter 5 of A. Eastmond, *Art and Identity in Thirteenth-century Byzantium* (London: Ashgate, 2004).
8 Bartusis, p.330.
9 See Keith Hopwood, 'Mudara', in A. Singer, A. Cohen (eds), *Aspects of Ottoman History* (Jerusalem: The Magras Press, 1994), p.158. The reference to Eskisehir can be found in R.P. Lindner, *Nomads and Ottomans in Medieval Anatolia* (Bloomington, Indiana, 1983), p.25.
10 D.M. Nicol, *The Reluctant Emperor* (Cambridge University Press, 1996), pp.62–3; G.T. Dennis, ManII letters, p.86.
11 Bartusis, p.78; A.E. Laiou, *Constantinople and the Latins: The Foreign Policy of Andronikos II* 1282–1328 (Harvard, 1972), pp.191–2.
12 G.T. Dennis SJ, *The Reign of Manuel II Palaeologus in Thessalonica 1382–1387* (Rome, 1960), p.89.
13 See Pal Fodor, *In Quest of the Golden Apple* (Isis Press: Istanbul, 2000), pp.13–21.
14 Lindner, p.33.
15 Taken from the *Tevarih* of Ashikpashazade, cit. in Heath W. Lowry, *The Nature of the Early Ottoman State* (SUNY Press, 2003), p.56.
16 Dimitri Kitsikis, *Turk-Yunan Imparatorlugu: Arabolge Gercegi Isiginda Osmanli Tarihine Bakis* (Istanbul, 1996).
17 V. Dimitriades, 'Byzantine and Ottoman Thessaloniki', in A.M. Hakkert and W.E. Kaegi Jr (eds) *Byzantinische Forschungen* XVI:268 (1991).
18 Lowry, p.52.
19 See Balivet, pp.314–22; C. Kafadar, *Between Two Worlds: The Construction of the Ottoman State* (University of California Press, 1995), p.74.
20 J. Raby and Z. Tanindi, *Turkish Bookbinding in the Fifteenth Century* (London: Azimuth, 1993), pp.3, 20, 34.
21 See Aptullah Kuran, *The Mosque in Early Ottoman Architecture* (Chicago, 1968), pp.114–19.
22 Vasiliev, p.583.
23 Bartusis, pp.68–9.
24 Pachymeres II:308, cit. in Laiou, p.90. For more on Alans, see Istvan Vasary, *Cumans and Tatars: Oriental Military in the Pre-Ottoman Balkans 1185–1365* (Cambridge University Press, 2005), pp.108–11.
25 Bartusis, pp.60–2, 244.
26 Laiou, p.141.
27 Bartusis, pp.78–9.
28 Pachymeres II:451–2, cit. in Laiou, p.137.
29 Bartusis, p.77.
30 *The Chronicle of Muntaner*, trans. Lady Goodenough (London: Hakluyt Society, 1920), vol. 2, pp.543–4.
31 Bartusis, p.80.
32 Bartusis, p.82.
33 Zachariadou, *Romania and the Turks,* vol. V, p.831.
34 Halil Inalcik, *Studies in Ottoman Social and Economic History* (London, 1985), p.72; Lindner, p.14–15.

35 Laiou, pp.84, 292.
36 Gregoras, I:649, cit. in Nicol, Kanta, p.35.
37 Bartusis, p.97.
38 P. Lemerle, *L'Emirat d'Aydin* (Paris, 1957), p.9.
39 The Turkish chronicler is the poet Enveri, author of the *Duşturname*, trans. Irene Melikoff-Sayar, in *Le Destan d'Umur Pacha* (Paris, 1954), pp.84–5. Kantakouzenos' memoirs are found in *Johannes Kantakuzenos: Geschichte II*, trans. G. Fatouros and T. Krischer (Stuttgart: Hiersemann, 1986).
40 Lowry, p.67.
41 Bartusis, p.94.
42 Nicol, Kanta, p.35.
43 H.A.R. Gibb, *The Travels of Ibn Battuta* (Cambridge University Press, 1962), vol. II, p.443.
44 Nicol, Kanta, p.37.
45 Bartusis, p.256.
46 Ibid, pp.323–31.
47 Nicol, Kanta, p.48; Lemerle, pp.141–2.
48 Bartusis, pp.94–6.
49 Lemerle, pp.215–17; Nicol, Kanta, pp.68–73.
50 C. Kafadar, p.70; *Duşturname*, pp.106–7.
51 *Duşturname*, p.108.
52 See for example Lemerle, p.175.
53 A. Bryer, 'The Case of the first Byzantine-Ottoman marriage', in R.H.C. Davis and J.M. Wallace-Hadrill (eds), *The Writing of History in the Middle Ages* (Clarendon Press, 1981), pp.478–80.
54 Cit. in Bryer, p.481.
55 Ibid, p.480. Demetrius, the brother of the last emperor Constantine, gave Mehmet II his sister in marriage and so obtained his support. See Aryeh Shmowelevitz, 'Ottoman History and Society', in *Analecta Isisiana* XXXVIII (1999), p.43.
56 The historian is the Ottoman Greek Kritovoulos, cit. in Kafadar, p.9.
57 Bryer, p.473.
58 Bryer, p.487.
59 Bartusis, p.100.
60 Klaus Peter Matschke, *Die Schlacht bei Ankara und das Schicksal von Byzanz* (Weimar, 1981), p.52.
61 See his wonderful prose poem in C. Dendrinos, J. Harris, E. Harvalia Crook and J. Herrin (eds), *Porphryogenita: Essays on the History and Literature of the Byzantine and Latin East* (Ashgate, 2003), pp.413–20, translated by J. Davis.
62 See Zachariadou, vol. IV, pp.471–2, 478. Also Lowry, p.28.
63 David Nicolle, *The Mongol Warlords* (Firebird Books, 1990), p.166.
64 Rene Grousset, *L'Empire des Steppes* (Paris, 1960), p.528.
65 Doukas, *Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*, trans. H.J. Magoulias (Detroit, 1975), p.90.
66 John W. Barker, *Manuel II Palaeologus* (Rutgers University Press, 1969), p.119.
67 M. Braun, *Lebensbeschreibung des Despoten Stefan Lazarevic* (Göttingen, 1956), p.11.
68 M.M. Alexandrescu-Dersca, *Le Campagne de Timur en Anatolie* (London: Variorum, 1977), p.73. What follows is largely based on the Romanian scholar's detailed twelve-page account of the battle.

69 Ibid, pp.68–79.
70 Runciman, p.93; Doukas, p.233.
71 Runciman, p.82 – the commentator is Phrantzes, who is citing 'a Polish Janissary'; Runciman, pp.134–5.
72 Runciman, p.78.
73 Lowry, pp.115–16.

هوامش الفصل الرابع

1 See J. and W. Grimm, *Deutsches Wörterbuch* (Munich: DTV, 1984), 22: 1852. For more on Leibniz, see my own 'Leibniz, Historicism and the Plague of Islam', *Eighteenth Century Studies* 39:4 (2006).
2 P. Fodor, *In Quest of the Golden Apple: Imperial Ideology, Politics and Military Administration of the Ottoman Empire* (Isis Press, 2000), p.71.
3 Ibid, pp.84–5. For more on background of Hungarians, see Nora Berend, *At the Gate of Christendom: Jews, Muslims and Pagans in Medieval Hungary 1000–1300* (Cambridge University Press, 2001), pp.19–30.
4 F. Szakály, *Lodovico Gritti in Hungary 1529–1534* (Budapest, 1995), p.8.
5 Berend, *Jews, Muslims and Pagans*, pp.66, 110.
6 Ibid, pp.239–40.
7 A. Várkonyi, 'Rákóczi's War of Independence', in J.M. Bak and B.K. Király (eds), *From Hunyadi to Rákóczi: War and Society in Late Medieval and Early Modern Hungary* (Brooklyn College Press, 1982), p.370.
8 L. Benczédi, 'The Warrior Estate', in *From Hunyadi to Rákóczi*, p.358.
9 T.M. Barker, *Double Eagle and Crescent: Vienna's Second Turkish Siege and its Historical Setting* (SUNY, 1967), p.214.
10 Miklós Molnár, *A Concise History of Hungary* (trans. A. Magyar – Cambridge University Press, 2001), pp.97–9.
11 Cit. in Pál Fodor, *Quest of the Golden Apple*, p.88.
12 Ibid, p.87.
13 P. Fodor, 'Volunteers in the 16th century Ottoman Army', in Géza David and Pál Fodor (eds), *Ottomans, Hungarians and Habsburgs in Central Europe* (Leiden, 2000), p.240.
14 The writer is Miklós Esterházy, cit. in F. Szakály, 'Das Bauerntum und die Kämpfe gegen die Türken', in G. Heckenast (ed.), *Aus der Geschichte der Ostmitteleuropaischen Bauernbewegungen im 16te und 17te Jahrhunderten* (Budapest, 1977), p.259.
15 Ibid, p.261.
16 Ibid, p.256.
17 A. Várkonyi, 'The Principatus Transylvaniae', in *Etudes Historiques Hongroises* (1985) vol. 2, p.601.
18 Fodor, *Quest of the Golden Apple*, p.88. Halil Inalcik makes some similar observations for Anatolian Turkey – how many Ottoman writers were unhappy about the arming of landless Anatolian peasants and saw it as a development which could bring no good. See H. Inalcik, *Studies in Ottoman Social and Economic History* (Variorum, 1985), pp.294–8.
19 F. Szakály, 'Das Bauerntum', p.261.
20 L.M. Alföldi, 'The Battle of Mohács' in Bak and Király (eds), *From Hunyadi*

to Rákóczi, pp.194–6; A. Várkonyi, *Europica Varietas – Hungarica Varietas 1526–1762* (Budapest, 2000), p.13.

21 Molnár, *A Concise History of Hungary*, p.87.

22 L. Fekete, *Buda and Pest under Turkish Rule* (Budapest, 1976), pp.19, 86.

23 J. Strauss, 'Ottoman Rule Experienced and Remembered', in F. Adanir and S. Farooqhi (eds), *The Ottomans and the Balkans: A Discussion of Historiography* (Leiden, 2002), pp.198–9.

24 Ibid, pp.204, 206–7.

25 A. Velkov and E. Radushev, *Ottoman Garrisons on the Middle Danube* (Budapest, 1995), with an introduction by S. Dimitrov, pp.19–21, 447.

26 Ibid, p.25. Out of the 116 immigrant places listed as the provenance of the soldiers concerned, only seven were Anatolian Turkish towns – Kayseri, Ankara, Nigde and Erzincan among them. The overwhelming majority of places are listed as Bosnian, Albanian and Bulgarian.

27 K. Hegyi, V. Zimányi (eds), *Muslime und Christen: Das Osmanische Reich im Europa* (Corvina: Budapest, 1988), p.71.

28 G. Ágoston, *Guns for the Sultan: Military Power and the Weapons Industry in the Ottoman Empire*, (Cambridge University Press, 2005), p.46.

29 Ibid, p.48.

30 F. Szakály, *Lodovico Gritti*, pp.16–17.

31 Ibid, p.80.

32 Ibid, p.18.

33 Cit. in Szakály, *Lodovico Gritti*, p.38.

34 Ibid, p.20.

35 Ibid, pp.25–6.

36 Ibid, p.27.

37 Ibid, p.31.

38 Ibid, p.33.

39 Ibid.

40 F. Szakály, 'Türkenherrschaft und Reformation im Ungarn um die Mitte des 16te Jahrhunderts', in *Etudes Historiques Hongroises* II:1985, p.438.

41 Ibid, p.445.

42 Ibid, p.452.

43 Ibid, p.451.

44 Cit. in M. Bucsay, *Der Protestantismus im Ungarn 1521–1978* (Bohlau, 1977) I:127. The writer is Flacius from Magdeburg.

45 *A Short Memorial of the Most Grievous Sufferings* – cit. in B. Köpeczi, *Staatsräson und Christliche Solidarität: Die Ungarischen Aufstände und Europa in der zweiten Hälfte des 17. Jahrhunderts* (Vienna, 1983), p.135.

46 F. Szakály, 'Türkenherrschaft', p.453.

47 Bucsay, *Der Protestantismus*, p.85.

48 Bucsay, p.86; Szakály, 'Türkenherrschaft', p.450.

49 Cit. in Szakály, 'Türkenherrschaft', p.446.

50 Bucsay, p.128.

51 Ibid, p.184.

52 Géza David and Pál Fodor, 'Hungarian Studies in Ottoman History', in Adanir and Farooqhi (eds), *The Ottomans and the Balkans*, pp.315, 321–3.

53 For the profusion of synagogues, mosques and churches in Bosnia, see Amir Pašić, 'Islamic Art and Architecture of Bosnia and Herzegovina', in R.M.Z. Keilani and S. Todorova (eds), *Proceedings of the International Symposium on*

Islamic Civilisation in the Balkans (Istanbul, 2002), p.85; the story of a Macedonian merchant who successfully imitates an imam can be found in B. McGowan, 'Matija Mažuranic's *Look at Bosnia*', in *Journal of Turkish Studies* 8:1984, p.179.

54 Fekete, *Buda and Pest under Turkish Rule* pp.49, 50.
55 Ibid, p.53.
56 Ibid, p.43.
57 Molnár, *A Concise History of Hungary*, p.104.
58 Géza David and Pál Fodor, 'Hungarian Studies', pp.342–3.
59 Fodor, *Quest of the Golden Apple*, pp.102–3.
60 C. Finkel, *The Administration of Warfare: the Ottoman Military Campaigns in Hungary, 1593–1606* (Vienna, 1988), p.9.
61 Ibid, pp.107–9.
62 Ibid, p.109.
63 Fodor, 'Volunteers in the Sixteenth Century Ottoman Army', in David and Fodor (eds), *Ottomans, Hungarians and Habsburgs in Central Europe*, pp.256–9.
64 L. Makkai, 'Bocksai's insurrectionary army', in *From Hunyadi to Rákóczi*, pp.282–3.
65 Ibid, p.277.
66 Ibid p.288 – the poet is Szappanyos.
67 Molnár, *A Concise History of Hungary*, p.118.
68 The poet is Alexander Tyler, cit. in Köpeczi, *Staatsräson und Christliche Solidarität*, p.350.
69 Bela Köpeczi's *Staatsräson und Christliche Solidarität* is a work practically devoted to this subject – see, in particular, the collection of photoplates at the very end of the book (pp.408 f). See also B. Köpeczi, 'The Hungarian Wars of Independence', in *From Hunyadi to Rákóczi*, pp.451–2.
70 Barker, *Double Eagle and Crescent*, pp.27–8.
71 Bela Köpeczi, *Hongrois et Français: De Louis XIV à la Revolution Française* (Corvina Kiadó, 1983), p.106.
72 Molnár, *A Concise History of Hungary*, p.129.
73 Cit. in Köpeczi, *Staatsräson und Christliche Solidarität*, pp.147, 196.
74 Ibid, p.16.
75 D.M.Vaughan, *Europe and the Turk: A Pattern of Alliances 1350–1700* (Liverpool, 1954), p.253.
76 Köpeczi, *Hongrois et Français*, p.91.
77 D. Kolodziejczyk, *Ottoman-Polish Diplomatic Relations (15th–18th centuries)* (Leiden, 2000), p.xvi.
78 K. Wawrzyniak, *Ottoman-Polish Relations in the Sixteenth Century* (unpublished MA thesis, Bilgi University, 2003), p.6.
79 See F. Posch, *Flammende Grenzen: Die Steiermark in den Kuruzzstürmen* (Verlag Styria, 1986), p.13.
80 L. Benczédi, 'The Warrior Estate', pp.359–61.
81 Köpeczi, *Staatsräson und Christliche Solidarität*, p.19.
82 Miklos, *Concise History of Hungary*, p.130.
83 Jean Leclerc, *Histoire d'Emeric Comte de Tekeli, ou memoirs pour servir à sa vie* (Cologne, 1693 – copy located in Staatsbibliothek Berlin Unter den Linden), pp.121–4; see also the Ottoman Greek chief interpreter's account (Alexandros Mavrocordatos) in R.F. Kreutel and K. Teply (eds), *Kara Mustafa Vor Wien: 1683 aus der Sicht türkischer Quellen* (Verlag Styria, 1982), pp.74–6.

84 See Ahmet Tesrifatizade's account in Kreutel and Teply, *Kara Mustafa Vor Wien,* pp.139, 174.
85 Barker, *Double Eagle and Crescent,* p.203.
86 Ibid, p.410, –12.
87 Rhoades Murphey, *Ottoman Warfare 1500–1700* (Rutgers University Press, 1999), p.98.
88 Barker, pp.217–18; Leopold's flight is found in J. Goodwin, *Lords of the Horizons* (Chatto, 1998), pp.227–8.
89 Barker, pp.241–4.
90 Ibid, p.283.
91 Kreutel and Teply, *Kara Mustafa Vor Wien,* pp.224–6.
92 For Ottoman Turkish responses to the fall of Buda, an event which elicited a great deal of lamentation and mourning, see M. Köbach, 'Der Literarische Widerhall des Verlustes von Ofen 1686', in B Köpeczi and A. Tarnai (eds), *Laurus Austriaca-Hungarica: Literarische Gattungen und Politik in der 2te Halfte des 17. Jahrhunderts* (Budapest, 1988), pp.225–48.

هوامش الفصل الخامس

1 Ian Fletcher and Natalia Ishchenko, *The Crimean War: A Clash of Empires* (Spellmount, 2004), p.10.
2 Clive Ponting, *The Crimean War* (Chatto and Windus, 2004), pp.12, 8.
3 *The Observer,* 3 July 1853; *Daily News,* 4 July, 1853 – cit. in Candan Badem, 'The Ottomans and the Crimean War (1853–56)' (Unpublished PhD dissertation, Sabanci University, June 2007), p.84.
4 Lord Beaumont to Lord Stuart (dated 9 October 1853) – printed in *The Times,* cit. in Badem, 'The Ottomans and the Crimean War', p.87.
5 Ponting, *The Crimean War,* pp.11, 59; A.D. Lambert, *The Crimean War: British Grand Strategy 1853–56* (Manchester University Press, 1990), p.3.
6 R.R. Florescu, *The Struggle Against Russia in the Romanian Principalities* (Iaşi, 1997), p.307.
7 R.B. Edgeton, *Death or Glory: The Legacy of the Crimean War* (Westview Press, 1999), p.179.
8 *Reminiscences of an Officer of Zouaves, translated from the French* (D. Appleton and Company: New York, 1860), p.150.
9 Lieutenant Edward Money, *Twelve Months with the Bashibozouks* (Chapman: London, 1857), pp.23, 102; Colonel Atwell Lake, *Narrative of the Defence of Kars Historical and Military* (London: Bentley, 1857), p.85.
10 Money, *Twelve Months,* pp.44, 104.
11 Edgeton, *Death or Glory,* p.56; Baron de Bazancourt, *L'Expedition de Crimée* (Paris, 1856), p.II:85.
12 Fletcher and Ishchenko, *The Crimean War,* p.181.
13 Le Vicomte de Noë, *Souvenirs d'Afrique: Les Bachi-Bozouks et les Chasseurs d'Afrique* (Paris, 1861), p.116.
14 W.H. Russell, *Russell's Despatch from the Crimea,* ed. N. Bentley (Panther, 1970), pp.135, 190.
15 *Reminiscences of an Officer of Zouaves,* pp.132, 143.
16 *Reminiscences of an Officer of Zouaves,* p.240.

17 Fletcher and Ishchenko, *The Crimean War*, p.253; *Reminiscences of an Officer of Zouaves*, p.4.
18 A.R. Alexiev and S. Enders Wimbush (eds), *Ethnic Minorities in the Red Army* (West View Press, 1988), p.16.
19 R. Crews, *For Prophet and Tsar: Islam and Empire in Russia and Central Asia* (Harvard University Press, 2006), p.17.
20 Alexiev, *Ethnic Minorities*, pp.13–16; see Goethe's letter to Trebra in *Goethes Werke*, ed. Erich Trunz, 14 vols, (Hamburg, 1948–64), III:251.
21 A. Seaton, *The Crimean War: A Russian Chronicle* (St Martin's Press, 1977), pp.138, 82.
22 See Mark von Hoyen's essay, 'The Limits of Reform', in B.W. Menning, *Reforming the Tsar's Army*, p.36.
23 Crews, *For Prophet and Tsar*, p.92.
24 J.S. Curtiss, *The Russian Army Under Nicholas I* (Duke University Press, 1965), p.180; E.K. Wirtschafter, *From Serf to Russian Soldier* (Princeton University Press, 1990), p.140.
25 The writer concerned is Krestovskii – see Yohanan Petrovsky-Shtern, 'The 'Jewish Policy' of the Late Imperial War Ministry: The Impact of the Russian Right', in *Kritika: Explorations in Russian and Eurasian History* 3(2): 217–54, Spring 2002 (p.225); Marshall Paskevich to Tsar Nicholas I, 23 September 1853 – cit. in Badem, 'The Ottomans and the Crimean War', p.99.
26 Daniel Panzac,'The Manning of the Ottoman Navy', in E.J. Zürcher, *Arming the State: Military Conscription in the Middle East and Central Asia* (I.B.Tauris, 1999), p.54.
27 T. Heinzelmann, *Heiliger Kampf oder Landesverteidigung? Die Diskussion um die Einführung der allegemeinen Militärpflicht im Osmanischen Reich 1826–56* (Peter Lang, 2004), p.270.
28 Heinzelmann, *Heiliger Kampf*, p.281.
29 Heinzelmann, *Heiliger Kampf*, p.269; taken from the Basbakanlık Osmanlı Arsivi, (hereafter BOA) HR. SYS. 1346/52, 10 January 1854, OBKS, pp. 104–6 – cit. in Badem, 'The Ottomans and the Crimean War', p.52.
30 Heinzelmann, *Heiliger Kampf*, p.291; cit. in *The Times*, 17 June, 1853 and found in Karl Marx, *The Eastern Question: A Reprint of Letters written 1853–6 dealing with the events of the Crimean War* (New York: Burt Franklin, 1968), p.41.
31 Florescu, *Romanian Principalities*, p.307; Heinzelmann, *Heiliger Kampf*, p.274; V.H. Aksan, 'The Ottoman Military and State Transformation in a Globalizing World', in *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East* 27:2 (2007), p.264.
32 Edgeton, *Death or Glory*, pp.48, 165.
33 For more, see I.L. Rudnytsky, *Essays in Modern Ukrainian History* (Edmonton, 1987), pp.173–86.
34 Badem, 'The Ottomans and the Crimean War', pp.135, 141.
35 Ponting, *The Crimean War*, p.300.
36 Ibid, p.283.
37 Badem, 'The Ottomans and the Crimean War', 197.
38 Fletcher and Ishchenko, *The Crimean War*, p.44; Ponting, *The Crimean War*, pp.53, 182.
39 Edgeton, *Death or Glory*, p.168.
40 Ponting, *The Crimean War*, p.126.

41 Fletcher and Ishchenko, *The Crimean War*, p.179.
42 Ponting, *The Crimean War*, p.132.
43 Ponting, *The Crimean War*, p.135; Fletcher and Ishchenko, *The Crimean War*, p.181.
44 Fletcher and Ishchenko, *The Crimean War*, p.184.
45 Ponting, *The Crimean War*, pp 259, 103.
46 D. Murphy, *Ireland and the Crimean War* (Four Courts Press, 2002), p.39.
47 Captain Godfrey T. Williams' account – found in Murphy, *Ireland and the Crimean War*, p.39.
48 L. James, *Crimea 1854–56: The war with Russia from contemporary photographs* (Hayes Kennedy, 1981), p.134.
49 Cristoforo Manfredi, *La Spedizione Sarda in Crimea del 1855–6* (Regionale in Roma, 1956), p.95.
50 *Letters from Headquarters: The Realities of War in the Crimea by an Officer on the Staff* (London, 2nd edition: John Murray, 1857), vol. I:362; Russell, *Despatch from the Crimea*, p.187.
51 See H. Ram, 'The Sonnet and the Mukhambazi: Genre Wars on the Edges of the Russian Empire', in *PMLA* 5:122 (October 2007), p.1551; see also Austin Jersild and Neli Melkadze, 'The Dilemmas of Enlightenment in the Eastern Borderlands: The Theater and Library in Tbilisi', in *Kritika: Explorations in Russian and Eurasian History* 3(1): 27–49, Winter 2002, p.35.
52 W.E.D. Allen and P. Muratoff, *Caucasian Battlefields: A History of the Wars on the Turco-Caucasian Border 1828–1921* (Cambridge University Press, 1953), p.67.
53 P.I. Averyanov, *Kurdy v voinakh Rossii s Persiey i Turtsiey v techenie XIX* stoletiya (Tiflis, 1900), p.149 – cit. in Badem, 'The Ottomans and the Crimean War', pp.143, 323.
54 Badem, 'The Ottomans and the Crimean War', p.190.
55 Taken from a letter of General Muravyov to Prince Dolgorukov, dated 21 Mart (2 April) 1855 – cit. in Badem, 'The Ottomans and the Crimean War', p.321.
56 Badem, 'The Ottomans and the Crimean War', p.197.
57 Taken from the trial records of Zarif Pasha and Guyon, 11 April 1855, in BOA. Ġ. MMS. 5/170 lef 2. – cit. in Badem, 'The Ottomans and the Crimean War', p.194.
58 Following scheme of battle comes from Allen and Muratoff, *Caucasian Battlefields*, pp.76–8.
59 Ibid, p.78.
60 Badem, 'The Ottomans and the Crimean War', p.210.

المصادر

'Abdulwahid Dhanun Taha, *The Muslim Conquest and Settlement of North Africa and Spain* (Routledge, 1989).
David Abulafia, *Frederick II: A Medieval Emperor* (Penguin, 1988).
—*The Western Mediterranean Kingdoms* (London: Longman, 1997).
—*Medieval Encounters, Economic, Religious, Political 1100–1350* (Ashgate, 2000).
—'The End of Muslim Sicily', in J.M. Powell (ed.), *Muslims Under Latin Rule 1100–1300* (Princeton University Press, 1990).
G. Ágoston, *Guns for the Sultan: Military Power and the Weapons Industry in the Ottoman Empire*, (Cambridge University Press, 2005).
Aziz Ahmad, *A History of Islamic Sicily* (Edinburgh University Press, 1975).
V.H. Aksan, 'The Ottoman Military and State Transformation in a Globalizing World', in *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East* 27:2 (2007).
M.M. Alexandrescu-Dersca, *Le Campagne de Timur en Anatolie* (London: Variorum, 1977).
A.R. Alexiev and S. Enders Wimbush (eds), *Ethnic Minorities in the Red Army* (West View Press, 1988).
L.M. Alföldi, 'The Battle of Mohács', in Bak and Király (eds), *From Hunyadi to Rákóczi*.
W.E.D. Allen and P. Muratoff *Caucasian Battlefields: A History of the Wars on the Turco-Caucasian Border 1828–1921* (Cambridge University Press, 1953).
Ian Almond, 'Leibniz, Historicism and the Plague of Islam', *Eighteenth Century Studies* 39:4 (2006).
Aziz al-Azmeh, 'Mortal Enemies, Invisible Neighbours: Northerners in Andalusi Eyes', in Jayyusi (ed.), pp.260–5.
Giovanni Amatuccio, 'Saracen Archers in Southern Italy' E-HAWK June 1997. www.idir.net.
Candan Badem, 'The Ottomans and the Crimean War (1853–56)' (Unpublished PhD dissertation, Sabanci University, June 2007).
For Turkish speakers, further articles by Badem include:
—'Kırım Savaşi'nın Osmanlı Toplumsal Yaşamına Etkileri', *Toplumsal Tarih* 133, Istanbul, January 2005, pp.64–71.
—'Rus ve Sovyet Tarih Yazımında Kırım Savaşı', *Toplumsal Tarih* 155, Istanbul, November 2006, pp.16–23.

—'Unutulmuş Bir Hikaye: Kırım Savaşı', news article, *Toplumsal Tarih* 156, Istanbul, December 2006, p.6.
J.M. Bak and B.K. Kerály (eds), *From Hunyadi to Rákóczi: War and Society in Late Medieval and Early Modern Hungary* (Brooklyn College Press, 1982).
Michel Balivet, 'The long-lived relations between Christians and Moslems in Central Anatolia: dervishes, papadhes and country folk', in *Byzantinische Forschungen* XVI (Amsterdam, 1991), pp.313–22.
John W. Barker, *Manuel II Palaeologus* (Rutgers University Press, 1969).
T.M. Barker, *Double Eagle and Crescent: Vienna's Second Turkish Siege and its Historical Setting* (SUNY, 1967).
Simon Barton, 'Traitors to the Faith? Christian Mercenaries in al-Andalus and the Maghrib c.1100–1300', in R. Collins and A. Goodman (eds), *Medieval Spain: Culture, Conflict and Coexistence in Honour of Angus MacKay* (London: Palgrave, 2002).
M.C. Bartusis, *The Late Byzantine Army: Arms and Society 1204–1453* (University of Pennsylvania Press, 1992).
Baron de Bazancourt, *L'Expedition de Crimée* (Paris, 1856).
L. Benczédi, 'The Warrior Estate', in J.M. Bak and B.K. Király (eds), *From Hunyadi to Rákóczi: War and Society in Late Medieval and Early Modern Hungary* (Brooklyn College Press, 1982).
Nora Berend, *At the Gate of Christendom: Jews, Muslims and Pagans in Medieval Hungary 1000–1300* (Cambridge University Press, 2001).
Ross Brann, *Power in the Portrayal: Representations of Jews and Muslims in Eleventh and Twelfth Century Islamic Spain* (Princeton University Press, 2002).
M. Braun, *Lebensbeschreibung des Despoten Stefan Lazarevic* (Göttingen, 1956).
A. Bryer, 'The Case of the first Byzantine-Ottoman marriage', in R.H.C. Davis and J.M. Wallace-Hadrill (eds), *The Writing of History in the Middle Ages* (Clarendon Press, 1981).
M. Bucsay, *Der Protestantismus im Ungarn 1521–1978* (Bohlau, 1977).
Brian A. Catlos, *The Victors and the Vanquished: Christians and Muslims of Catalonia and Aragon 1050–1300* (Cambridge University Press, 2004).
—'Mahomet Abenadalill: A Muslim Mercenary in the service of the Kings of Aragon (1290–1)', in H.J. Hames (ed.), *Jews, Muslims and Christians in and around the Crown of Aragon* (Leiden, 2004), pp.257–302.
Paul E. Chevedden, 'The Artillery of King James I the Conqueror', in P.E. Chevedden, D.J. Kagay and P.G. Padilla (eds), *Iberia and the Mediterranean World of the Middle Ages* (Leiden, 1996), vol. II, pp.57–63.
The Chronicle of Muntaner, trans. Lady Goodenough (London: Hakluyt Society, 1920).
The Chronicle of Salimbene de Adam, J.L. Baird, G. Baglivi and J.R. Kane (eds) (Binghamton, NY, 1986).
Henry Clifford, VC, *His letters and sketches from the Crimea* (New York, 1956).
R. Crews, *For Prophet and Tsar: Islam and Empire in Russia and Central Asia* (Harvard University Press, 2006).
J.S. Curtiss, *The Russian Army Under Nicholas I* (Duke University Press, 1965).

G.T. Dennis SJ, *The Reign of Manuel II Palaeologus in Thessalonica 1382–1387* (Rome, 1960).
V. Dimitriades, 'Byzantine and Ottoman Thessaloniki', in A.M. Hakkert and W.E. Kaegi Jr (eds), *Byzantinische Forschungen* XVI:268 (1991), pp.265–74.
Doukas, *Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*, trans. H.J. Magoulias (Detroit, 1975).
A. Eastmond, *Art and Identity in Thirteenth century Byzantium* (London: Ashgate, 2004).
R.B. Edgeton, *Death or Glory: The Legacy of the Crimean War* (Westview Press, 1999).
Pietro Egidi, *La Colonnia dei Saraceni e la sua distruzione* (Naples, 1915).
Enveri, author of the *Duşturname*, trans. Irene Melikoff-Sayar, in *Le Destan d'Umur Pacha* (Paris, 1954).
George Palmer Evelyn, *A Diary of the Crimea* (London, 1954).
L. Fekete, *Buda and Pest under Turkish Rule* (Budapest, 1976).
M. Fierro, 'Christian Success and Muslim Fear in Andalusi Writings', in *Israel Oriental Studies* XVII.
C. Finkel, *The Administration ofWarfare: the Ottoman Military Campaigns in Hungary, 1593–1606* (Vienna, 1988).
Ian Fletcher and Natalia Ishchenko, *The Crimean War: A Clash of Empires* (Spellmount, 2004).
Richard Fletcher, *The Quest for El Cid* (London: Hutchinson, 1989).
R.R. Florescu, *The Struggle Against Russia in the Romanian Principalities* (Iaşi, 1997).
A. Fisher, *Between Russians, Ottomans and Turks: Crimea and Crimean Tartars* (Isis Press, 1998).
P. Fodor, *In Quest of the Golden Apple: Imperial Ideology, Politics and Military Administration of the Ottoman Empire* (Isis Press, 2000).
—'Volunteers in the 16th century Ottoman Army', in Géza David and Pál Fodor (eds), *Ottomans, Hungarians and Habsburgs in Central Europe* (Leiden, 2000).
Géza David and Pál Fodor, 'Hungarian Studies in Ottoman History', in Adanir and Farooqhi (eds), *The Ottomans and the Balkans.*
F. Gabrieli, *Arab Histories of the Crusades*, trans. E.J. Costello (London: Routledge, 1969).
—'Friedrich II und die Kultur des Islam', in G. Wolf (ed.), *Stupor Mundi: Zur Geschichte Friedrichs II von Hohenstaufen* (Darmstadt, 1982).
H.A.R. Gibb, *The Travels of Ibn Battuta* (Cambridge University Press, 1962).
H.L. Gottschalk, *Al-Malik al-Kamil von Egypten und seine Zeit* (Wiesbaden, 1958).
J. Göbbels, *Das Militärwesen im Königreich Siziliens zur Zeit Karls I von Anjou* (Hiersemann: Stuttgart, 1984).
Rene Grousset, *L'Empire des Steppes* (Paris, 1960).
Antonio Duran Gudiol, 'Francos, Pamploneses y Mozarabes en la Marca Superior de al-Andalus', in P. Sénac (ed.), *La Marche Supérieure d'Al-Andalus et l'Occident Chrétien* (Madrid, 1991).

Pierre Guichard, *Les Musulmans de Valence et la Reconquête (xi-xiii siècles)* (Paris: Damas, 1990).
T. Heinzelmann, *Heiliger Kampf oder Landesverteidigung? Die Diskussion um die Einführung der allegemeinen Militärpflicht im Osmanischen Reich 1826–56* (Peter Lang, 2004).
Keith Hopwood, 'Mudara', in A. Singer and A. Cohen (eds), *Aspects of Ottoman History* (Jerusalem: The Magras Press, 1994).
Eberhard Horst, *Der Sultan von Lucera* (Freiburg: Herder Verlag, 1997).
H. Inalcik, *Studies in Ottoman Social and Economic History* (Variorum, 1985).
L. James, *Crimea 1854–56: The war with Russia from contemporary photographs* (Hayes Kennedy, 1981).
S.K. Jayyusi (ed.), *The Legacy of Muslim Spain* (Leiden, 1992).
Austin Jersild and Neli Melkadze, 'The Dilemmas of Enlightenment in the Eastern Borderlands: The Theater and Library in Tbilisi', in *Kritika: Explorations in Russian and Eurasian History* 3(1), pp.27–49, Winter 2002.
C. Kafadar, *Between Two Worlds: The Construction of the Ottoman State* (University of California Press, 1995).
Johannes Kantakuzenos: Geschichte II, trans. G. Fatouros and T. Krischer (Stuttgart: Hiersemann, 1986).
Hugh Kennedy, *Muslim Spain and Portugal* (London: Longman, 1996).
Dimitri Kitsikis, *Turk-Yunan Imparatorlugu: Arabolge Gercegi Isiginda Osmanli Tarihine Bakis* (Istanbul, 1996).
M. Köbach, 'Der Literarische Widerhall des Verlustes von Ofen 1686', in B. Köpeczi and A. Tarnai (eds), *Laurus Austriaca-Hungarica: Literarische Gattungen und Politik in der 2te Halfte des 17. Jahrhunderts* (Budapest, 1988), pp.225–48.
D. Kolodziejczyk, *Ottoman-Polish Diplomatic Relations (15th–18th centuries)* (Leiden, 2000).
B. Köpeczi, *Staatsräson und Christliche Solidarität: Die Ungarischen Aufstände und Europa in der zweiten Hälfte des 17. Jahrhunderts* (Vienna, 1983).
—*Hongrois et Français: De Louis XIV à la Revolution Française* (Corvina Kiadó, 1983).
—'The Hungarian Wars of Independence', in Bak and Király (eds), *From Hunyadi to Rákóczi,*.
R.F. Kreutel and K. Teply (eds), *Kara Mustafa Vor Wien: 1683 aus der Sicht türkischer Quellen* (Verlag Styria, 1982).
Aptullah Kuran, *The Mosque in Early Ottoman Architecture* (Chicago, 1968).
A.E. Laiou, *Constantinople and the Latins: The Foreign Policy of Andronikos II 1282–1328* (Harvard, 1972).
Colonel Atwell Lake, *Narrative of the Defence of Kars Historical and Military* (London: Bentley, 1857).
A.D. Lambert, *The Crimean War: British Grand Strategy 1853–56* (Manchester University Press, 1990).
Latin Chronicles of the Kings of Castile, ed. J.F. O'Callaghan (Arizona, 2002).
Jean Leclerc, *Histoire d'Emeric Comte de Tekeli, ou memoirs pour servir à sa vie* (Cologne, 1693 – copy located in Staatsbibliothek Berlin Unter den Linden).

P. Lemerle, *L'Emirat d'Aydin* (Paris, 1957).
Letters from Headquarters: The Realities of War in the Crimea by an Officer on the Staff (London, 2nd edition: John Murray, 1857).
R.P. Lindner, *Nomads and Ottomans in Medieval Anatolia* (Bloomington, Indiana, 1983).
J.P. Lomax, 'Frederick II, His Saracens and the Papacy', in John V. Toran (ed.), *Medieval Christian Perceptions of Islam* (London: Routledge, 1996).
Elena Lourie, 'A Society Organized for War', *Past and Present* 35 (1966), pp.54–76.
Heinz-Dietrich Löwe, 'Poles, Jews and Tartars: Religion, Ethnicity and Social Structure in Tsarist Nationality Policies' *Jewish Social Studies* pp.52–96.
Heath W. Lowry, *The Nature of the Early Ottoman State* (SUNY Press, 2003).
Amin Maalouf, *The Crusades Through Arab Eyes*, trans. J. Rothschild (Zed Books, 1984).
L. Makkai, 'Bocksai's insurrectionary army' in Bak and Király (eds), *From Hunyadi to Rákóczi.*
Cristoforo Manfredi, *La Spedizione Sarda in Crimea del 1855–6* (Regionale in Roma, 1956).
Karl Marx, *The Eastern Question: A Reprint of Letters written 1853–6 dealing with the events of the Crimean War* (New York: Burt Franklin, 1968).
Klaus Peter Matschke, *Die Schlacht bei Ankara und das Schicksal von Byzanz* (Weimar, 1981).
B. McGowan, 'Matija Mažuranic's *Look at Bosnia*', in *Journal of Turkish Studies,* 8:1984.
Miklós Molnár, *A Concise History of Hungary,* trans. A. Magyar (Cambridge University Press, 2001).
Lieutenant Edward Money, *Twelve Months with the Bashibozouks* (Chapman: London, 1857).
Rhoades Murphey, *Ottoman Warfare 1500–1700* (Rutgers University Press, 1999).
D. Murphy, *Ireland and the Crimean War* (Four Courts Press, 2002).
Muslime und Christen: Das Osmanische Reich im Europa, K. Hegyi and V. Zimányi (eds) (Corvina: Budapest, 1988).
Le Vicomte de Noë, *Souvenirs d'Afrique: Les Bachi-Bozouks et les Chasseurs d'Afrique* (Paris, 1861).
D.M. Nicol, *The Reluctant Emperor* (Cambridge University Press, 1996).
David Nicolle, *The Mongol Warlords* (Firebird Books, 1990).
J.F. O'Callaghan, *A History of Medieval Spain* (Cornell University Press, 1975).
Ottoman Garrisons on the Middle Danube, A. Velkov and E. Radushev (Budapest, 1995) with an introduction by S. Dimitrov.
Daniel Panzac, 'The Manning of the Ottoman Navy', in E.J. Zürcher, *Arming the State: Military Conscription in the Middle East and Central Asia* (I.B.Tauris, 1999).
Amir Pašić, 'Islamic Art and Architecture of Bosnia and Herzegovina', in R.M.Z. Keilani and S. Todorova (eds), *Proceedings of the International Symposium on Islamic Civilisation in the Balkans* (Istanbul, 2002).
Yohanan Petrovsky-Shtern, 'The "Jewish Policy" of the Late Imperial War Ministry:

The Impact of the Russian Right', in *Kritika: Explorations in Russian and Eurasian History* 3(2), pp.217–54, Spring 2002.
Piero Pieri, 'I Saraceni di Lucera nella storia militare medievale' *Archivo Storico Pugliese* 6 (1953).
Enrico Pispisa, *Il Regno di Manfredi* (Sicania: Messina, 1991).
Clive Ponting, *The Crimean War* (Chatto and Windus, 2004).
Porphryogenita: Essays on the History and Literature of the Byzantine and Latin East , C. Dendrinos, J. Harris, E. Harvalia Crook and J. Herrin (eds)(Ashgate, 2003).
F. Posch, *Flammende Grenzen: Die Steiermark in den Kuruzzstürmen* (Verlag Styria, 1986).
H. Ram, 'The Sonnet and the Mukhambazi: Genre Wars on the Edges of the Russian Empire', in *PMLA* 5:122 (October 2007).
B.F. Reilly, *The Kingdom of Leon-Castilla under King Alfonso VI* (Princeton University Press, 1988).
—*The Kingdom of Leon-Castile under King Alfonso VII 1126–1157* (University of Pennsylvania Press, 1998).
Reminiscences of an Officer of Zouaves, translated from the French (New York: D. Appleton and Company, 1860).
Norman Roth, *Jews, Visigoths and Muslims in Medieval Spain: Cooperation and Conflict* (Leiden, 1994).
I.L. Rudnytsky, *Essays in Modern Ukrainian History* (Edmonton, 1987).
S. Runciman, *The Sicilian Vespers* (Cambridge University Press, 1958).
—*The Fall of Constantinople,* (Cambridge University Press, 1965).
W.H. Russell, *Russell's Despatch from the Crimea,* ed. N. Bentley (Panther, 1970).
Russia's Orient: Imperial Borderlands and Peoples 1700–1917, eds D.R. Brower and E.J. Lazzerini (Indiana University Press, 1997).
J.M. Safran, 'Landscapes in the Conquest of al-Andalus', in J. Howe and M. Wolfe (eds), *Inventing Medieval Landscapes: Senses of Place in Western Europe* (University Press of Florida, 2002), pp.136–49.
A. Seaton, *The Crimean War: A Russian Chronicle* (St Martin's Press, 1977).
Kurt Victor Selge, 'Die Ketzerpolitik Friedrichs II', in G. Wolf (ed.), *Stupor Mundi.*
Aryeh Shmowelevitz, 'Ottoman History and Society', in *Analecta Isisiana* XXXVIII:43 (1999).
Turkish Bookbinding in the Fifteenth Century, J. Raby and Z. Tanindi (eds), (London: Azimuth, 1993).
Douglas Sterling, 'The Siege of Damietta', in D.J. Kagay and L.J.A. Villalon (eds), *Crusaders, Condottieri and Cannon: Medieval Warfare in Societies Around the Mediterranean* (Brill: Leiden, 2003), pp.101–32.
J. Strauss, 'Ottoman Rule Experienced and Remembered', in F. Adanir and S. Farooqhi (eds), *The Ottomans and the Balkans: A Discussion of Historiography* (Leiden, 2002).
F. Szakály, *Lodovico Gritti in Hungary 1529–1534* (Budapest, 1995).
—'Das Bauerntum und die Kämpfe gegen die Türken', in G. Heckenast (ed.), *Aus der Geschichte der Ostmitteleuropaischen Bauernbewegungen im 16te und 17te Jahrhunderten* (Budapest, 1977).

—'Türkenherrschaft und Reformation im Ungarn um die Mitte des 16te Jahrhunderts', in *Etudes Historique Hongroises*, II:1985.

Julie Taylor, *Muslims in Medieval Italy: The Colony at Lucera* (Lexington University Press, 2003).

Peter Thorau, *The Lion of Egypt: Sultan Baybars I and the Near East in the Thirteenth Century* (New York: Longman, 1987).

Istvan Vasary, *Cumans and Tatars : Oriental Military in the Pre-Ottoman Balkans 1185–1365* (Cambridge University Press, 2005).

A.A. Vasiliev, *History of the Byzantine Empire* (University of Wisconsin Press, 1952).

A. Várkonyi, 'Rákóczi's War of Independence', in J.M. Bak and B.K. Király (eds), *From Hunyadi to Rákóczi*.

—'The Principatus Transylvaniae', in *Etudes Historiques Hongroises* (1985), vol. 2.

—*Europica Varietas – Hungarica Varietas 1526–1762* (Budapest, 2000).

D.M. Vaughan, *Europe and the Turk: A Pattern of Alliances 1350–1700* (Liverpool, 1954).

J.F. Verbruggen, *The Art of Warfare in Western Europe*, trans. C.S. Willard and R.W. Southern (Woodbridge: Boydell Press, 1997).

S. Vryonis, Jr, *Byzantium and Europe* (London, 1967).

K. Wawrzyniak, *Ottoman-Polish Relations in the Sixteenth Century* (Unpublished MA thesis, Bilgi University, 2003).

E.K. Wirtschafter, *From Serf to Russian Soldier* (Princeton University Press, 1990).

G. Wolf (ed.), *Stupor Mundi: Zur Geschichte Friedrichs II von Hohenstaufen* (Darmstadt, 1982).

E.A. Zachariadou, *Romania and the Turks 1300–1500* (London: Variorum, 1985).

عندما سقط الجنود الإنكليز والأتراك جنباً إلى جنب في ساحات القتال في شبه جزيرة القرم، لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي تسيل فيها دماء مسيحيين ومسلمين وتمتزج في قتال ضدّ عدوّ مشترك. يكثر الحديث اليوم عن «صراع الحضارات»، وعن هوّة لا يمكن ردمها بين العالَمين الإسلامي والمسيحي. لكن، في هذا الكتاب الجريء والثوري، يُظهر إيان ألموند أنّه في أوروبا – أي في قلب الغرب – لطالما كان المسلمون والمسيحيون رفاق سلاح، وتحالفوا تكراراً لشنّ حروب ضدّ مسلمين ومسيحيين آخرين. فبينما نقرأ عن المعارك الوحشية والحصارات الطويلة وأعمال البطولة الفردية العديدة، نكتشف أنّ قوّات عربية احتشدت بالآلاف تحت راية إمبراطور مسيحي خارج أسوار فيرونا، كما نجد أنّ مسلمين أندلسيين تكاتفوا مع جيرانهم الكتلانيين المسيحيين أثناء معارضتهم للقشتاليين، ونسمع عن يونانيين وأتراك شكّلوا حصناً منيعاً ضدّ الصرب والبلغار؛ عدوّهم المشترك. وأخيراً، نقرأ عن عشرات آلاف المجريين البروتستانت الذين ساعدوا العثمانيين في زحفهم المخيف على فيينا المسيحية.

كما يُظهر المؤلّف، إنّ فكرة وجود تعارض قديم بين «أوروبا المسيحية» و«اللا أوروبا المسلمة» تشوّه على نحو فاضح وقائع تاريخ غنيّ، ومعقّد، ومشترك قبل أيّ شيء. فالدبلوماسيات المتغيّرة، والمصالح الذاتية البراغماتية، والسياسة الواقعية هي التي أملت تلك التحالفات بين الديانتين، وليس الجهاد أو الحرب الدينية. ولهذه الرؤية انعكاسات عميقة على فهمنا للسياسة العالمية، والشؤون الحالية، فضلاً عن التاريخ الديني والشكل المستقبلي لأوروبا.



إيان ألموند أستاذ مشارك يُدرّس مادة «الأدب ما بعد الاستعماري» في جامعة ولاية جورجيا، أتلانتا. وهو معروف بكتاباته التي تتعلّق بالإسلام.

بالإضافة إلى كتابه هذا، صدرت له ثلاثة كتب هي:

- الصوفية والتفكيك (Sufism and Deconstruction)، 2004.
- المستشرقون الجدد (The New Orientalists)، 2007.
- تاريخ الإسلام في الفكر الألماني من لايبنتز إلى نيتشه (...story of Islam in German Thought from Leibniz to Nietzsche)

bic



ISBN 978-614-01-1334-3





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

